

القسم الثاني

أوروبا والعالم

obeikandi.com

مدخل

اتصال أوروبا بالعالم

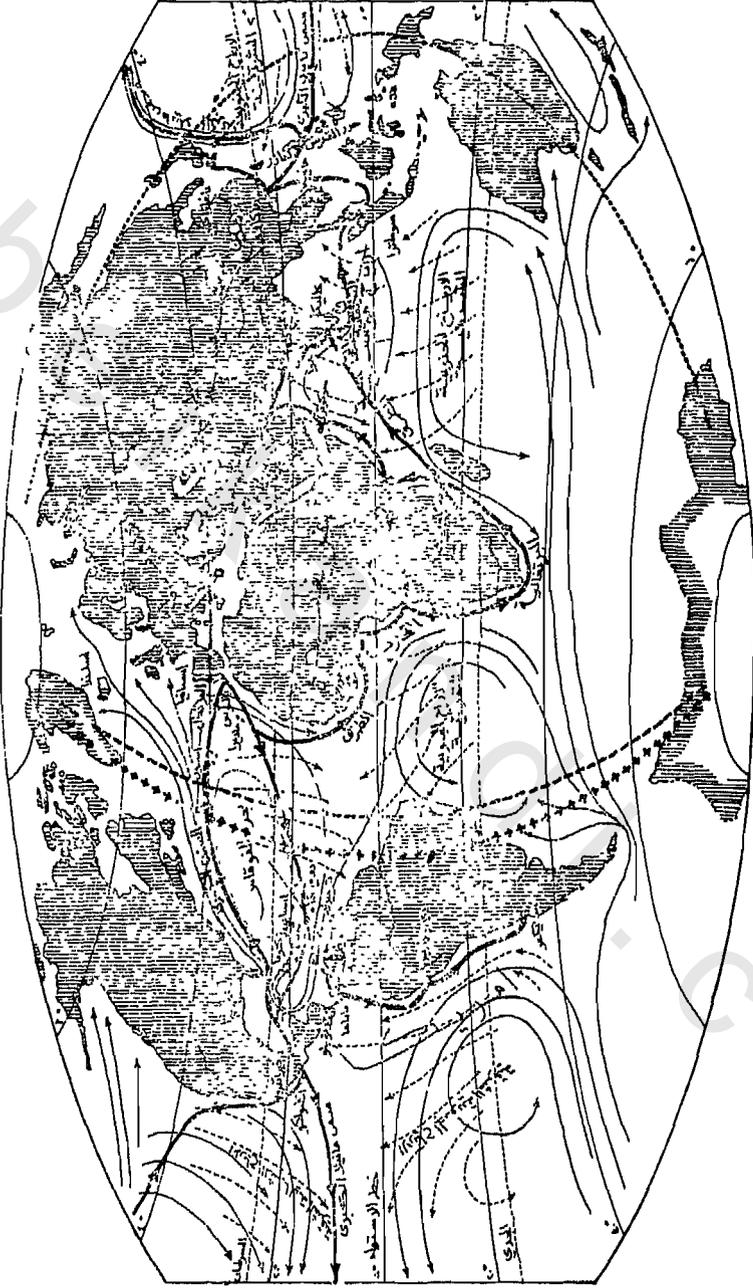
ان الاوروبيين ، الذين انزلوا حتى اواخر القرن الخامس عشر ، في شبه جزيرتهم الصغيرة والبحار الضيقة المحيطة بها وجزر المنتثرة في هذه البحار ، قد شقوا آنذاك عباب الاوقيانوسات الشاسعة واتصلوا بالعالم . فاقبلت الانسانية على وعي ذاتها .

بدأت « الاكتشافات الكبرى » على ايدي البرتغاليين والاسبانيين الذين ما لبث الفرنسيون والانكليز والهولنديون ان حذوا حذوم . كان البرتغاليون السباقين في هذا المضمار لاسباب سياسية ودينية . اراد الامير « هنري البحار » (١٣٩٤ ، ١٤٦٠) استكشاف شواطئ افريقيا الى الجنوب من مراكش بغية الاهتداء الى مملكة مسيحية اسطورية ، هي مملكة الجوري يوحنا ، ومهاجمة مسلمي مراكش من وراء . أي ان عمله كان امتداداً للحرب الصليبية . اسس هنري في « ساغر » على مقربة من رأس « سان - فنسان » ، مدرسة حقيقية للملاحة اجتذب اليها بحارة جنوبيين وفلورنسيين وفلكيين المانيين . منذ السنة ١٤٠٦ ، تقدم البرتغاليون على طول الشاطئ الافريقي وبلغوا « الرأس الاخضر » في السنة ١٤٤٥ ، وخط الاستواء في السنة ١٤٧١ ، ورأس الرجاء الصالح في السنة ١٤٨٨ . ولم تكن فكرة مهاجمة الاسلام من وراء غريبة كذلك عن نزول الاسبانيين الى الحلب . فان هؤلاء ، بعد سقوط غرناطة ، آخر مملكة اسلامية في اسبانيا (١٤٩١) ، قد اخذوا تحت حمايتهم المشروع الذي اعده كريستوف كولومبوس للبحث في الغرب عن طريق تؤدي الى آسيا . وقد حركتهم كلهم اخيراً حرارة الرسالة والرغبة في اهداء كافة الشعوب النائية المجهولة الى « الدين الحقيقي » .

وكان لاندفاع الاوروبيين اسباب اقتصادية ايضاً لم تلبث ان احتلت مركز الصدارة بين الاسباب الاخرى . افتقرت أوروبا القرن الخامس عشر الى المدد الثمين . ولم تكن النقود كافية

قط للملكيات وتجارة تتقدم تقدماً كلياً. ذهب الأوروبيون بعيداً في استئثار مناجم أوروبا الوسطى دون ان يتوصلوا الى إرواء تعطشهم الى الفضة والذهب. تكلمت روايات اسطورية عن كنوز خيالية موجودة في أفريقيا وآسيا التي اصبح الاتصال بها اشد صعوبة ، بفعل الفتح التركي ، بينما اصبح هذا الاتصال امراً منشوداً. رغب الأوروبيون في ان يذهبوا بانفسهم للبحث عن الذهب. فكانت اولي مجامحات البرتغاليين الذين قاibusوا ، اقله منذ السنة ١٤٤٦ ، النحاس والنيبذ والحنطة والجياد والمنسوجات والاسلحة بذهب السودان والعاج والبييد والفلفل ، بمثابة تحريك جديد للاطلاع .

لقد ذهب بعضهم الى ان السبب الاول للاكتشافات الكبرى هو تقدم الاتراك في آسيا الصغرى وحوض المتوسط الشرقي ، وقطعم طرق التجارة القديمة بين الهند والغرب ، فأرغمت صعوبة الحصول على الافاويه على البحث عن طريق جديدة مباشرة . لا شك في ان حروب الاتراك قد شوت التجارة احياناً ، ولكن الاتراك انفسهم لم يقفوا موقفاً عدائياً من التجارة مع الغربيين . فقد جددوا تكراراً وبعلم رضام المعاهدات التجارية مع البندقيين والجنوبيين وتقيدوا بما كانت تنص عليه . وحافظوا على حرية طرق القوافل المارة في بلاد فارس والطرق البحرية في الخليج الفارسي والبحر الاحمر . وما ان افتتح سليم الاول مصر في السنة ١٥١٤ حتى بادر الى تجديد المعاهدات التي كانت المماليك ، اسيا مصر السابقون ، قد عقدوها مع البندقية . وفي السنة ١٥٢٨ ، وقع خليفته سليمان معاهدة مع فرنسوا الاول ، فجاءت السفن الفرنسية تنافس البندقيين في الاسكندرية . لا بل ان الاتراك خفصوا الرسوم التي فرضها المماليك على الافاويه : فجددوها بـ ٥٪ ثم بـ ٣٪ بدلا من ١٠٪ . كلا ، ليس للاتراك اي ضلع في ازمة الافاويه التي نجمت عن ظروف اخرى . فهناك اولاً حروب الخلافة التي نشرت الخراب والدمار في امبراطورية المماليك بعد السابع من شهر آب من السنة ١٤٩٦ ، والتي استفاد منها البدو لقطع طرق القوافل . منذ السنة ١٤٩٧ ، اقفلت اسواق القاهرة لان بضائع الشرق قد قطعت عنها . وفي الوقت نفسه انتشرت في ايطاليا ازمة اقتصادية : فانهارت المصارف الواحد بعد الآخر في روما والبندقية . ولعل احد أسباب هذه الازمة الاموال الطائلة التي استقرضتها الدولة البندقية لتأمين نفقات الحرب ضد الاتراك والفرنسيين . وقد يكون هنالك سبب آخر هو الحاجة المتزايدة الى النقد . فان البرتغاليين اخذوا يجمعون ذهب السودان عن طريق شاطيء افريقيا الاطلسي ، فلم يعد يصلن بانتظام الى المتوسط كما في السابق . اضعف ذلك اثر الاضطرابات في مصر قد انقصت حجم الافاويه المستوردة ، وان التجار الالمان انقصوا حجم الفضة التي كانوا يأتون بها من مناجم أوروبا الوسطى الى البندقية . الى هذا ترد افلاسات المصارف . ولكن الاكتشافات الكبرى كانت قد ابتدأت حين برزت هذه الازمات . زد على ذلك ان البرتغاليين لم يتقدموا على طول الشاطيء الافريقي بحثاً عن الافاويه في الدرجة الاولى . فبالاضافة الى الذهب ، كانوا بحاجة الى اليد العاملة ، الى عبيد ، الى الملوات لمنسوجاتهم ،



- ١ - طرق بحرية
 - ٢ - ارياح
 - ٣ - تيارات
 - ٤ - الخط الفاصل بموجب الترقم من بين الاشياء الأخرى
 - ٥ - معاهدة تورديسيلاس
 - ٦ - معاهدة سا راغوسا
 - ٧ - الخطوط الفاصلة بين الإسبانيين والبرتغاليين
- الشكل ١٦ - أهم الطرق البحرية في القرن السادس عشر

النيلج ، العظم ، « دم التنين » ، والى المواد الغذائية التي كانوا بحاجة دائمة اليها ، القمح ، السكر ، السمك . ولكن نجاحات الاتراك ربما لعبت دوراً سيكولوجياً . فيبدو ان هجوم الاسلام الكبير الواسع قد ولد في كافة العالم المسيحي قلقاً مقضاً جماعياً وزاد في تصميمه على ضرب المسلمين من الورا .

بدأت مغامرة ما وراء الاوقيانوسات على ايدي البرتغاليين والاسبانيين . وقد دفع هؤلاء واولئك اليها ثلاثة بواعث : الانجيل والمجد والذهب . وهؤلاء واولئك كانوا صليبيين في الدرجة الاولى بعد صراع ضد المغاربة استغرق ثمانية قرون . الاستعمار هو الطريق الاوقيانوسية للحرب الصليبية . يستمد له بالصلاة ، على غرار خدمة الفروسية . وتتحقق الفتوحات « كي يحارب الاسبانيون ابدأ ضد غير المؤمنين واعداً ايمان المسيح المقدس » (غومارا) . فان « دياغو فيلاسكينز » ، حاكم كوبا ، حين زود فرناندو كورتيز بتعليماته ، عين له هدفاً اولاً من فتح المكسيك خدمة الله ونشر الايمان المسيحي . يجب ان لا يضاع اي ظرف يتيح التبشير بايمان كنيسة الله الحقيقي . هذه هي وصية فيلاسكينز الوحيدة التي لم يخل بها كورتيز قط . حمل البيروق هذه الكلمات باللغة اللاتينية : « ايها الاصدقاء ، فلنتبع الصليب ، اذا كنا مؤمنين ، فبهذه العلامة سننتصر حقاً » . وان هذا الدبلوماسي الماهر قد عرض عمله اكثر من مرة للخطر بتسرع في تحطيم اصنام الوثنيين وارغام هؤلاء على اعتناق الدين المسيحي . ولكن الحرب الصليبية كانت قد عودت المسيحيين تصور نشر الدين المسيحي بشكل الحرب وافناء غير المؤمنين او اخضاعهم .

غالباً ما كان البرتغاليون والاسبانيون اشراقاً رينيين واشقاء اباكار العائلات النبيلة في المناطق الفقيرة . وكان جلهم من الجنود الممتنين . كما ان العديد من جنود جيوش الفتح الاسباني اصبحوا احراراً في اعقاب الاستيلاء على غرناطة . مثالهم هو « خوان موغولون » ، الفارس ، ابن الفارس ، المولود في « كاسيرس » في مقاطعة « استرامادورا » ، الذي خدم في الجيوش الملكية على التوالي في ايطاليا والمغرب حيث اشترك في الحملات العسكرية واعمال الحاميات في جربا والجزائر وأسهم في فتوحات فلوريدا وفنزويلا والبيرو ووصل اخيراً الى المكسيك بعد خدمة احدى وثلاثين سنة في الجندية قضى منها اثنتين وعشرين في الهند . ولم يكن الكثيرون ايضا سوى رعاة فقراء ويتامى واولاد عائلات فقيرة رافقوا الجنود ثم غدوا جنوداً بدورهم . ولكنهم كلهم ادعوا وطلبوا بحمل لقب « هيدالغو » ، اي اشراف ريفيين ، وسعوا وراء تحقيق مثل الفروسية . كلهم غادروا بلادهم تحركهم رغبة في تحقيق عظام الامور . واتهم البرتغاليون بانهم اعتقدوا بان العالم انما خلق لاجلهم وبنهم يريدون بسط سيطرة شاملة . اما الاسبانيون ، فقد كتب عنهم مواطنهم « ميشال سرفيه » : « ان روح الاسبانيين قلقة وتسمى وراء المشاريع الكبرى » ، وذكر « برنال دياز دل كستيلو » في تقريره عن فتح المكسيك ، انه ورفاقه كانوا يملحون بالنفوق على الرومان انفسهم ، بومبيوس وقيصر ، وعلى هانيبعل نفسه ،

اعظم قائد عرفته العصور القديمة . ولكن ما أسهم في احياء مثل الفروسية ، في عهد الاستعمار ، هو روايات الفروسية قبل دراسة الآداب القديمة . ففي اواخر القرن الخامس عشر قام بعض الكتبة من جهة بصره الموضوعين القصصيين الكبيرين : موضوع شارلمان ورولان وموضوع روايات الطاولة المستديرة ، ومن جهة ثانية ، نشرت الطباعة هذه الروايات . فان اول كتاب مطبوع عن الفروسية ، في اسبانيا ، طبع في فالنس في السنة ١٤٩٠ ، وهو كتاب « تيران الابيض » الذي كان موضوعاً باللغة الكاتالونية . وترجمت عدة روايات فرنسية الى اللغة الاسبانية وطبعت في الفترة نفسها . واخيراً احزرت قصة « اماديس غالبا » للاسباني « مونتالغو » ، في السنة ١٥٠٨ ، نجاحاً قلما عرفته قصة اخرى في عصر من العصور . واتبعه المؤلف بلحق في السنة ١٥١٠ ، هو « مآثر اسبلنديان » . ونشر اكثر من خمسين رواية فروسية حتى السنة ١٥٥٠ عرضت كلها على القارىء ، وكأنها قصص حقيقية ، دارت حوادثها ابدأ في بلدان تائية ، في جزر مسحورة ، ملأى بالوحوش الغريبة والكنوز الاسطورية . وكان بطلها ابدأ فتى شجاعاً ذكياً جميلاً ينتصر وحده في النهاية على كافة الاعداء ويتغلب على كافة الصعوبات ويجمع الثروات ويتزوج من اميرة جميلة كالنجم ويصبح ملكاً . فعرفت نجاحاً منقطع النظير . ان السفراء والقادة ورجال الدولة والامبراطور شارل الخامس نفسه كانوا ينقلون ابدأ روايات فروسية بين امتعتهم . قرئت بصوت عال في المحاربات ، وفي المزارع للحصادين ، وفي المعسكرات للجنود . فكم رواية تظهر لنا محاربين بلغوا البطولة بفضل امثلة قصص الفروسية ا كان « الفاتحون » متشربين بها . وقد جاء في تقرير « برنال دياز دل كستيلو » ، حين رأى هو ورفاق كورتيز بحيرة مكسيكو ، الملأى بالجزر ، للمرة الاولى ، ما يلي : « ما ان رأينا كل هذه المدن الآلهة بالسكان ، في المياه ، وسكان آخرين كثيرين في اليابسة ، وتلك الطريق المستقيمة الممهدة التي تؤدي الى مكسيكو حتى بلغت منا الدهشة كل مبلغ . فقلنا ان ذلك اشبه بالاشياء السحرية التي يروها كتاب « اماديس » بسبب الابراج الكبرى والابنية المنتصبة في المياه » . وفي « مآثر اسبلنديان » ، عاد مونتالغو الى اسطورة « الامارون » ، تقودهن الملكة « كالانبا » ، كما يقول ، ويعشن في جزيرة تدعى كاليفورنيا . هذه الجزيرة شهيرة بوفرة ذهبها وفضتها . تقع « الى يمين الهند » من جهة الفردوس الارضي » . وتعني « الى يمين الهند » الشمال الغربي بالنسبة لاناس آتين من اوروبا . وقد جاء في تعليمات « دون دياغو فيلاسكيز » حاكم كوبا الى فرناندو كورتيز ، بتاريخ ٢١ تشرين الاول ١٥١٨ . في البند ٢٦ ، ما يلي : « عليكم معرفة مكان وجود الامازون اللواتي يقول عنهن مرافقوك من الهنود انهن لسن ببعيدات عنهم » . واثناء الحملة على « غريمالفا » في « بوكاتان » ، دون احد الكهنة ، في شهر ايار ١٥١٨ ، ما يلي : « سرنا والشاطيء حيث صادفنا برجا جميلاً جداً مشيداً على أحد الرؤوس . يقال انه مأهول بنساء يعشن دون رجال . يعتقد بانهن جنس الامازون » . وكتب كورتيز في رسالته الرابعة الى الامبراطور ، بتاريخ ١٥ تشرين الاول ١٥٢٤ ، ما يلي : « يؤكد اسياذ ولاية « سيفواتان » انهم رأوا جزيرة مأهولة كلها بنساء ليس بينهن رجل واحد ، وان هذه الجزيرة تقع على مسيرة عشرة أيام من ولايتهم ، وان الكثيرين منهم ذهبوا

اليها ورأوها . ويقولون كذلك انها غنية جداً بالآلئ والذهب . سأسعى جهدي لمعرفة الحقيقة وارفع بها تقريراً مسبباً لجلالتكم » . واستهدفت عدة حملات بعد ذلك بلاد الامازون . وفي اسبانيا اصبح الاشتراك في البحث عن الامازون يعطي الحق بحمل الوسام . وبموجب مرسوم صادر في حزيران ١٥٣٠ ، انعم الملك على الفاتح « جيرونيمو لوبيز » بترس اعترافاً منه ببسالته . وقد جاء في تعداد الخدمات التي اوردها تبريراً لهذا الامتياز « ثم ذهبتم نحو الشمال بحثاً عن الامازون » . ان اسعار الخيالات بروايات الفروسية كان من ثم احد الظروف الرئيسية للاكتشافات الكبرى ولتأسيس امبراطوريات شاسعة جداً ، بالنسبة لتقنيات ذلك العهد ، وسعت توسيعاً مطرداً « بالسيف والبركار اكثر فأكثر واكثر فأكثر ، (شعار الضابط « برناردو دي فارغاس ماشوكا ») .

اما الذهب فكان الحصول عليه شغل الاوربيين الشاغل . فقد كتب برنال دياز دل كستيبلو :
 جئنا الى هنا كي نخدم الله والملك ، ولكننا حثنا كي نصبح أغنياء ايضاً . واطفاً التكالب على الذهب عند بعضهم كل عاطفة اخرى . فقد أجاب « فرنسوا بيزار » راهباً اخذ عليه سرقة الهنود واهمال تبشيرهم بالله ، بقوله : « لم آت مثل هذه الاسباب ، انما اتيت لاستولي على ذهبهم » .

جابه البرتغاليون والاسبانيون صعوبات الاستعمار في ما وراء الاوقيانوسات وتغلبوا عليها بفضل النظم الاجتماعية الموروثة عن القرون الوسطى ، وبفضل سلسلتين من الاختبارات الاستعمارية : اختبارات استرداد اسبانيا واختبارات الاستعمار الاوروبي في المتوسط والبحر الاسود خلال القرون الوسطى . كان الفتح مشروع توصية نهض به « الاقارب » و « الانساب » من جهة ، و « المتفانون » او « المعالون » ، اي « الخلائق » من جهة ثانية . ورافق الضباط الاسبانيين الذين ذهبوا الى الاتييل ، ثم الى المكسيك والبيرو ، عدد كبير من افراد عائلاتهم من عاشوا في مساكنهم وعلى موائلهم ، خدموم وشار كوم مكاسب الفتح . فقد احاط ب « الونسو بيريرا » ستة عشر شخصاً من اخوته واعمامه وابناء اعمامه اشتركوا كلهم في الاستيلاء على مكسيكو . واحاط كذلك بكل هؤلاء الضباط « خلائق » وفيه يتمهدونها وتخدمهم بتفان مطلق . في البدء احيط بها القائد العام . فكورتيز كان « معال » « دياغو فيلاسكيز » اولاً . ولكن « الخلائق » بدورها تعهدت « معاليها » . فان « الفارودي براغامونتي » قد آوى باستمرار بين عشرة وخمسة عشرة رجلاً وفر لهم سبل العيش والاسلحة والمطايا مقابل خدماتهم المنزلية والعسكرية . فتكونت من ثم فئات تسلسلية الدرجات قوية جداً من الاوفياء الخالص . توجب على كل فرد ان يسهم بما يستطيع الاسهام به . القائد يقدم رؤوس الأموال والسفن والمدافع . الآخرون يقدمون ما تسمح لهم به امكانياتهم . أما الفقراء فيقدمون سيوفهم والمؤن التي يحتاجون اليها في الطريق . وبعد الفتح ، يكون نصيب الفرد نسبياً لاسهامه . استمرت هذه الفئات الاجتماعية في المستعمرات طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكان نواب

الملك خلائق احد اعضاء مجلس الهند . يصلون الى مراكز ولايتهم محاطين بالانسباء حتى الدرجة الخامسة . يعينونهم حكماً ومستنطقين وقضاة . وكان لهؤلاء بدورهم خلائقهم التي يسندون اليها الوظائف . وكان لديهم بالإضافة الى ذلك اناس يؤمنون لهم القوات والسكنى مقابل مواكبتهم لهم في حلهم وترحالهم . وكانت الحاشية الكبيرة سبيلا للظهور واثبات الوجود . فيتضح من كل ذلك ان مجتمع العوالم الجديدة قد اقتبس اعرافاً اوروبية قديمة جداً .

جرى تقاسم القنائم واستغلال المهزومين وفاقا لطرائق اقتبست عن حرب الاسترداد . فبعد انتزاع اقليم من ايدي المسلمين ، كان المنتصرون يتقاسمون الاراضي والحقوق . والمقصود بالحقوق هو حق المنتصر في فرض الجزية واعمال التسخير على المغلوبين في ارض معينة ، شريطة تعهد المستفيد من هذا الحق بالخدمة العسكرية ونشر المباداة المسيحية . وحصل المنتصرون كذلك على املاك واسعة وارقاء كثيرين ، ارقاء مغاربة ، وارقاء برتغاليين واسبانيين من معتنقي الدين الاسلامي ، وارقاء زوج بيتاعونهم بواسطة المسلمين . لذلك كانت الاملاك الواسعة المأوى بالعبيد مأوفة لدى البرتغاليين والاسبانيين قبل فتوحات ما وراء الاوقيانوسات بزمان طويل . اصف الى ذلك ان عدد ارقاء قد بقي مرتفعاً في اوروبا القرون الوسطى ، في ايطاليا ، وفرنسا الجنوبية ، واسبانيا والبرتغال . واكلوا يستوردون من المستعمرات الايطالية في البحر الاسود خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ومن شواطئ افريقيا منذ « هنري البحار » . وكان الاوروبيون قد الفوا استخدام اليد العاملة العبدية في مؤسساتهم الاستعمارية في ازيمير وآسيا الصغرى وفلسطين و « كريت » و « كيو » وحتى في شبه الجزيرة الايطالية . وشبه الجزيرة الايبيرية . فنقلت كل هذه الاعراف والانظمة الاجتماعية الى ما وراء الاوقيانوسات .

واخيراً اقتبس البرتغاليون والاسبانيون الاختبار الاستعماري عن الايطاليين ولا سيما الجنوبيين في اساكل الشرق الادنى وفي البحر الاسود . لقد انمى الجنوبيون الشركات الاستعمارية منذ السنة ١٣٤٦ واقنعوا دقائق تقنياتها كما اتقنوا تقنية احتلال الارض في البلاد المحتلة . وصادف ان جنوى فقدت مستعمراتها في اساكل الشرق الادنى في الوقت نفسه الذي بدأت فيه الحملات الاسبانية والبرتغالية . فانضم الى هذه الاخيرة عدد من الجنوبيين . وكان للجنوبيين من جهة ثانية مؤسسات هامة في لشبونة واشبيلية . فأخذ البرتغاليون منذ السنة ١٤٥٤ يطبقون اساليب الامتصار المتوسطي على العالم الاوقيانوسي ، فأنشأوا امبراطورية استعمارية هي امبراطورية الشمال الغربي الافريقي والجزر التابعة له : مناطق مراکش الغربية ، والساحل الصحراوي ، والشواطئ السودانية ، وجزر « ماديرا » و « الأسور » و « الكناري » و « الرأس الاخضر » . فتوصلوا بفضل قواعدهم البحرية في « أسفي » وازمور وارزلا والقصر الصغير الى فصل الامبراطورية الشرفية عن البحر . وفتحوا الطريق الى « اوقيانوسات الحبوب » المراكشية والى « سوسة » التي يصل اليها ارقاء الزوج من « النيجر » ، والى التبر السوداني وسكر سوسة وماديرا . وضمنوا بذلك سلامتهم . كما اشترك الفلمنكيون والانكليز والنيولنديون والفرنسيون

كسامين في مشاريعهم ، وكانوا على اتصال دائم بها . فيتضح من ذلك ان اوروبا اختبرت الاستعمار منذ امد طويل في العالم القديم فنقلت خبرتها الى العوالم الجديدة .

ان اقصى جنوبي غربي شبه الجزيرة الاسبانية ، اي الشاطيء الممتد من لشبونة الى جبل طارق هو ما لعب في البدء ، ولمدة طويلة ، الدور الاستعماري الاول . فهنا تتوفر بالتعاقب الريح اللازمة لبلوغ السفن عرض البحر ، حتى موعد هبوب الرياح بين دائرتي الانقلاب ، عند انقلاب الشمس الصيفي ، والريح اللازمة للعودة الى اسبانيا في فصل الخريف . وهنا يوجد الملاحون المدربون على تسيير السفن نحو الجزر البرتغالية ، وملاحو « الغارف » البرتغاليون وملاحو موانئ « نيابلا » و « بالوس » و « مغير » وبجارة « الوادي الكبير » واشبيلية و « سان لوكار كاديز » . وقد استفادت هذه الموانئ الاخيرة من محور مواصلات الاندلس ومن ثروة السهل الزراعية فانتهت الى احتلال المركز الاول من الجهة الاسبانية ، كلشبونة على مصب نهرها الواسع من الجهة البرتغالية . فتأسس احتكار عملي اثبته القانون .

سار البرتغاليون والشاطيء الافريقي وفي نيتهم تغيير سيرهم نحو الشرق حالما يستطيعون الى ذلك سبيلا والاتجاه بعد ذلك شطر آسيا . اما كريستوف كولومبوس ، فقد سار في السنة ١٤٩٢ باتجاه الغرب بغية بلوغ آسيا بعد دورة حول الارض . كان التعمق في درس مؤلفات العصور القديمة قد ادى بالعمل الى حدوث نهضة في الرياضيات وعلم الفلك منذ اواسط القرن الخامس عشر . ففي « بادوا » و « فراري » والبندقية ، عند الفلورنسي توسكاني ، وفي فيينا ، مع بورباخ (١٤٢٣ - ١٤٦١) ، وفي نورمبرغ ، مع تليذه « ريجيو مونتسانوس » (١٤٣٦ - ١٥١١) ، وفي « ساغر » ، بين اعضاء المجلس الذي الفه جان الثاني ملك البرتغال (١٤٨١ - ١٤٩٥) والذي عمل فيه « مارتن بيهام » من نورمبرغ ، رسخت آراء الاقدمين حول كروية الارض . وقد ساد الاعتقاد من جهة ثانية بان آسيا غير بعيدة من جهة الغرب بسبب خطأ ارتكبه بطليموس في تمديد المتوسط بالاتجاه الشرقي الغربي وتقدير طوله بستين درجة . فحسب الناس ان آسيا توجد حيث تقع اميركا . وقد انتشرت هذه الآراء وعمت . فاستطاع كولومبوس الاتفاق مع بعض البحارة ، الاخوة (بنزون) ، الذين كانوا قد فكروا بدورهم بمشروع بلوغ آسيا من جهة الغرب .

منذ هذا التاريخ ، وحتى القرن التاسع عشر ، اعتمدت اوروبا على البحر في الدرجة الاولى للاتصال حتى بلدان العالم القديم . ولا غرو فان القوة اللازمة لنقل الوزن نفسه هي بنسبة ١ في البحر لـ ٣٥ في البر . فالبحر حر وخال من جميع العوائق ، كالأحراج والمستنقعات والصحاري والجبال العالية واعتداءات السكان ، التي تزيد كلها من مشقة وخطر الاستكشافات والاسفار البرية .

تفوق السفينة الأوروبية
 هم الاوروبيون وحدهم من حلّسوا مشاكل الملاحة عبر الاوقيانوسات .
 وقد ولد الفن البحري القادر على قهر المسافات البحرية الطويلة في
 ثلاثة مراكز : مركز الزورق المصنوع من جذع شجر مجوف والمزود برقاص (بين جزيرة
 مدغشقر وجزيرة الفصح) ، ومركز السفينة الشراعية المستوية القعر (في بحار الشرق الاقصى)
 ومركز السفينة ذات الحيزوم (في بحار اوروبا) . ولكن منطقة الزورق ذي الرقاص قد
 افتقرت الى الحامات والحركة التجارية فحال ذلك دون تقدمها . زد على ذلك من جهة ثانية ان
 الزورق ذا الرقاص لم يكن قادراً على السير بينة ويسرة لمقاومة الريح . واذا ما استثنينا المساحلة
 بين جزيرة واخرى ، التي قد تغطي مسافات طويلة على كل حال ، فان فائدة هذا الزورق تنحصر
 في الهرب على غير هدى امام خطر كبير ، دون امل بالعودة .

كانت السفينة الشراعية المستوية القعر قادرة على قطع المسافات الطويلة . فقبل وصول
 الاوروبيين بحراً ، بلغت اساطيل الدولة الصينية ، بين السنة ١٤٠٣ والسنة ١٤٣١ ، الجزيرة
 العربية ومضيق اورموز . ولكن طاقة حضارات الشرق الاقصى على التوسع والانتشار كانت
 محدودة وضئيلة لاسباب اجتماعية ودينية . في اواخر القرن الخامس عشر ، طرأ على التجارة
 الصينية تدهور ملموس . اما السفينة الشراعية نفسها فلم تخل من مساوئ كبرى . فقبل وصول
 (فاسكو دي غاما) (١٤٩٨) و « البوكرك » (١٤٠٣) ، كان الصينيون لا يزالون يستعملون
 دفة اشبه بالمخداف . لذلك لم تتمكن من المياه ، وكانت ادارتها عملاً شاقاً ، فقدر للسفينة ان
 تبقى صغيرة وان لا تسير بالاشرعة الا اذا دفعتها الرياح من وراء . فاقصر عملها على المساحلة
 وعلى الرحلات المباشرة ، بفضل الرياح الموسمية الشتوية ، بين الصين وجزر « السوند » ، ويفضل
 الرياح الموسمية الصيفية بين « السوند » والشواطئ الصينية . وسين شاهد الصيادون الدفة المحورية
 الأوروبية ذات المفصلة المعدنية ، حاولوا النسيج على منوالها . ولكن تأخر صناعتهم المعدنية لم
 يتح لهم استعمال المفصلة . فارغموا على الاكتفاء بدفة محورية ذات مدار خشبي هي دون الدفة
 ذات المفصلة بسبب احتكاك الخشب بالخشب وهشاشتها النسبية . الا ان حجم السفينة
 الشراعية قد تضخم . فبلغ حمول السفن التجارية ١٢٠٠ طنة مع أربعة الى ستة صوار و ١٠٠ الى
 ١٢٥ بحاراً و ٢٠٠ الى ٤٠٠ مسافر . وتمكن الصينيون ، اكثر من السابق ، من الاستفادة من
 سهولات قيادتها ، فان قمرها المستوي يتيح لها الدوران كالحذروف ، ودخولها المهدود في الماء
 مناسب جداً على مقربة من مصاب أنهر الشرق الاقصى ، واشرعتها الحصرية المركبة على عوارض
 خيزرانية افقية متعاقبة سهلة التحريك على غرار مصاريع النوافذ المتحركة ، ومن السهل كذلك
 تضيق وتوسيع مساحتها برفع او خفض الدوقل العلوي فقط لان العوارض يستقر بعضها على
 البعض الآخر على التوالي اذا خفض الدوقل فلا تدفع الريح اذ ذاك سوى القسم العلوي من
 الشراع ؛ يضاف الى ذلك اخيراً ان هذا الشراع المشدود الملصق بالصاري يتبعه من ذاته حين
 تبدل السفينة اتجاهها وانه يسمح بحصر الريح اكثر من الشراع اللاتيني . ولكن هذه السفينة

الشراعية ، بسبب اشكالها المسطحة التي جعلتها تزيغ عن طريقها ، وبسبب صعوبة استعمال دفتها التي كان يقتضي لتحريكها بين ستة وثمانية ملاحين ، وبسبب ضعفها من جراء تكرار انقطاع ردننها ، قد بقيت في الدرجة الاولى سفينة تسيير بالرياح الهابية على اشراعتها من الوراء ، كما بقي استخدامها محصوراً في مناطق الرياح الموسمية ولا سيما في الشرق الاقصى .

هي السفينة الاوروبية وحدها ما توجهت الى كل مكان . فقد كان للدفة المحورية ذات المفصلة ، التي ابتكرت في القرن الثالث عشر ، اثرها العظيم في الماء بفضل مساحتها العريضة . كما ان ذراع الرافعة من جهة مدير الدفة قد ضاعف قوة الرجل ، وقد عرف الاوروبيون ، خلال القرن السابع عشر ، كيف يركبون الملقاف على الدفة التي زودت منذئذ بدولاب سهل الادارة . غدت قياسات الدفة غير محدودة فازدادت قياسات السفن والاشرعة حين توفر الخشب لذلك . وابتكر البرتغاليون ، في القرن الخامس عشر في الارجح ، السفينة المزودة بمعدة مزدوجة : اشرعة مربعة للرياح الهابية من الوراء ، واشرعة لائينية لمقاومة الرياح المعاكسة ، وهي عدة اتاحت اجتياز الرياح الهابية بين دائرتي الانقلاب من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال . اضيف الى ذلك ان حيزوم السفن واشكالها الدقيقة قد اتاحت لها مقاومة التهور والحيدان عن الطريق ، والسير بالتالي بمنة ويسرى في اقرب اتجاه الى اتجاه الرياح المعاكسة . سار كولومبوس باتجاه يؤلف مع اتجاه الرياح ٦٧°٥ درجة . فكان بمقدوره ، اذا ما سار على التوالي بمنة ويسرى ان يمتاز الرياح المعاكسة . وقد تمتعت هذه السفينة ، حيال الرياح ، باستقلال يوازي استقلال السفن الشراعية الكبرى في القرن التاسع عشر . وكان طبيعياً ان تدور بصعوبة ولكنها كانت تدور بأمان وبسهولة . فتطورت السفينة الشراعية الاوروبية وفقاً لهذه المعيزات . واعتمدت في النهاية الاشرعة المربعة لان الدفة واشكال السفينة قد اتاحت السير في اقرب اتجاه الى اتجاه الرياح المعاكسة ، ودونما صعوبة تذكر . حمل كل من الصاري الامامي والصاري الكبير من اسفل الى اعلى ، شراعاً منخفضاً ، وسطحاً مستديراً ، وشراعاً مربعاً . واحتفظ صاري مؤخر المركب بشراع لائيني تسهلاً للحركة . وحمل الصاري الكبير المائل على مقدم السفينة شراعين . وكان هذان الاخيران مع شراع صاري المؤخر يساعدان على تدوير السفينة كما لو كان ذلك بحركة رافعة . اما الكوئل ، الذي كان مربعاً في اوائل القرن السادس عشر ، فقد استدار اسفله منذ السنة ١٦٣٥ في انكلترا ، ومنذ السنة ١٦٧٣ في فرنسا ، ومنذ السنة ١٧٢٠ في البلدان الشالية ، لان كل انقاص غير مدروس يطرأ على القطع يحدث الدراير ويزيد من مقاومة المياه . فسيطرت السفينة الاوروبية على البحار ، وفي القرن السابع عشر بات المركب المثلث الصواري ملك الاوقيانوسات .

مسألة تحديد المكان ان الاوروبيين وحدهم عرفوا كيف يحددون ، بضبط كاف ، نقطة الانطلاق والاتجاه الذي يسرون فيه ونقطة وجودهم في وقت معين في عرض البحر ، ونقطة الوصول ، وكيف يعطون هذه المعارف قيمة شاملة بنقلها من جيل

الى جيل بأساليب كانت في متناول عقل كل انسان . لم يستخدم الصينيون البوصلة بل استرشدوا النجوم . وهكذا فعل البولنديون الذين تميزوا ، بالاضافة الى ذلك ، بتلك الفطرة البدائية الغربية الغامضة التي استطاعوا بفضلها ، في بحارهم ، ان يسيروا في الاتجاه المقصود دون ان يروا اي شاطئ . ولكن الاساليب بقيت اختبارية ، ذات قيمة محلية فقط ، غير محددة وصعبة النقل الى الاجيال اللاحقة .

ووجهت مسائل الملاحة أول ما ووجهت حين تُخَطَّط خط الاستواء في السنة ١٤٧١ ، فتمذرت الاستفادة من النجم القطبي لتعيين العرض ، اي المسافة بالنسبة الى خط الاستواء ، ثم حين بلغ « برتلي دياز » ، في السنة ١٤٨٦ ، خط العرض الجنوبي ٢٦ ، اثناء سيره بمحاذاة الشاطئ الافريقي ، فعاد عنه لتجنب الارياح والتيارات المعاكسة ، وامتنى عرض البحر عدة ايام فنهبته حالة البحر والجو الخاصة الى انه لم يعد في حمى افريقيا ، فصعد نحو الشمال بعد ان دار حول رأس الرجاء الصالح دون ان يراه ، واعطى بذلك اول مثل اكيد لامتطاء عرض البحر في التاريخ المعاصر .

الاساليب في اواخر اعتمد الربانة ، في ملاحظتهم ، « على التقدير » في الدرجة الاولى ، القرن الخامس عشر لمعرفة الطريق التي قطعوها والنقطة التي بلغوها . وقد قدروا سرعة السفينة بالمراقبة ، اي بالنظر الى مرور المياه امام جانب المركب . وتوجهوا بواسطة ابرة ممغنطة مركزة على عوامة في حوض مليء بالماء . ولمعرفة مكان وجودهم ، جمعوا بين الدلالات السابقة . ورسوا على الخرائط « طرقاً وابعاداً » لتتيح لهم معرفة العرض والطول . ولكن الدلالات كانت تقريبية ، بسبب الانحراف الممكن عن الاتجاه المعين ، فكان الاسلوب غير ذي جدوى للرحلات الطويلة . فرسم الربانة في هذه الحالة على الخرائط « طرقاً وارتفاعات » وخطوط عرض وحسبوا كل يوم نقطة وجود المركب على خطوط العرض . كان هذا الاسلوب معروفاً منذ العصور القديمة في نصف الكرة الشمالي . والمفروض هو ان يكون النجم القطبي في سمت الرأس (٩٠ درجة) بالنسبة لمراقب يشاهده من القطب ، وبمستوى الافق بالنسبة لمراقب يشاهده من خط الاستواء . فيكفي من ثم تحديد الزاوية التي يؤلفها مع الافق الخط الذي يصل عين المراقب بالنجم القطبي لمعرفة العرض . واستخدم الربانة « الاسطرلاب » وهو دائرة مقسمة الى ٣٦٠ درجة ومزودة بمضادة متحركة ينتقل احد طرفيها فوق التدرج ، وبصفتين عموديتين مثبتتين في كل من طرفي المضادة فتحت فيها خلتة لتصويب النظر . اما « الربع البحري » الذي استخدم منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر فكان جهازاً يمثل ربع الاسطرلاب . ولكن نسبة الخطأ في هذه الاجهزة بلغت بين ٤ و ٥ درجات . لذلك استخدم « القوس » الذي ابتكر في القرن الرابع عشر ، وهو سهم خشبي مدرج يتحلق عليه عدد من المطارق ويصوب النظر بواسطته الى النجم القطبي . فتراوحت نسبة الخطأ بفضل بين ١٢ و ١٥ دقيقة فقط . الا ان الربانة ، بالاضافة الى اخطاء

التصويب بسبب حركات المركب ، قد اهتموا اصلاح المحراف الاشعة .

ما ان تجاوز البحارة خط الاستواء حتى تلبكوا ووقموا في حيرة . اختفى النجم القطبي عن الانظار . فعين ملك البرتغال ، جاب الثاني ، مجلساً ضم اليه فلكياً من نورمبرغ هو مارتن بيهام (١٤٥٠ - ١٥٠٧) . سافر هذا الاخير حتى الدرجة ١٥ والدقيقة ٤٠ من العرض الجنوبي . اتقن المجلس طريقة تعيين العرض بالارتفاع الزاوي للشمس فوق خط الاستواء الساوي في اعلى منحناه الظاهر عند نصف النهار . ولكن هذا الارتفاع يختلف باختلاف الفصول في كل نقطة من مساحة الارض خارج خط الاستواء . فتوجب من ثم تزويد البحارة بمجادول المحراف حسب عليها مسبقاً ارتفاع الشمس الزاوي ، في كل عرض ، وفي كل يوم من ايام السنة . وضع المجلس هذه الجداول فبات ممكناً استئناس السير قدماً .

وبفضل معرفة العرض والاتجاه والمسافة المقطوعة المقدرة على اساس السرعة ، استطاع الرابنة استدلال الطول . ولكن نسبة الخطأ كانت كبيرة جداً . لذلك بحثوا عن تقدير الطول تقديراً مباشراً . فقد كانوا ملين بمبدأ الفروق بين الساعات . ان فرق الطول بين مكانين يساوي ١٥ درجة في الساعة و ١٥ دقيقة من القوس في الدقيقة و ١٥ ثانية من القوس في الثانية . ولكنهم افتقروا الى وسيلة عملية لحساب فرق الساعة بين مكان وجودهم ونقطة انطلاقهم . « يخامرنا الشك في ان يتوصل شيطان الى صناعة ساعة تقي بالحاجة » . استخدموا الساعات الرملية المقدرة ل ٢٤ ساعة التي كانوا يقلبونها رأساً على عقب . طيلة الرحلة رغبة في المحافظة على ساعة الانطلاق . ولكن العواصف البحرية كانت تغير سرعة تساقط الرمل في جهاز غير دقيق . وكان سهلاً ، في رحلة طويلة ، ان يحصل خطأ في احصاء تقلبات الساعة المتعاقبة . ولكن جهل الرابنة الذي اثار كريستوف كولومبوس وامريكو فسبوشي ، لم يوصلهم الى حلول اخرى . فبلغ خطأهم ٢٠ درجة تقريباً بحسب تقدير كولومبوس ، اي ما يناهز ٤٠٠ عقدة

حاول دياز وكولومبس وفسبوشي استخدام الطرائق القمرية وطرائق مقارنة السيارات . في ١٣ كانون الثاني ١٤٩٣ ، بحث كولومبوس في هايتي عن ميناء امين يراقب منه مقارنة الشمس والقمر . فاذا عرفت في زمان ومكان معينين ساعة اخفاء القمر لنجم معين ، يكفي مراقبة الاخفاء في مكان آخر يبلغه البحار وتعيين ساعة حدوثه ، فيكون الفرق بين ساعتى المراقبة على الارض لظاهرة فلكية واحدة هو الفرق بين خطي الطول . واستخدمت بالشكل نفسه الكسوفات والخسوفات وكافة المقارنات او اللقاءات الظاهرة بين النجوم . في ٢٣ آب ١٤٩٩ ، راقب فسبوشي لقاء القمر بالمرخ الذي انبأ « ريجيومونتانوس » بحدوثه في نصف الليل بالضبط في نورمبرغ . فوجد القمر على بعد ٥٥ درجات الى الشرق من المريخ عند نصف الليل ، وقدر سرعة القمر بالنسبة الى المريخ بدرجة في الساعة واستنتج من ذلك انه على خط الطول الغربي ٨٢٥ . واستخدم دياز وكولومبوس وفسبوشي « تقويم »

« ريجيوموتانوس » بين السنة ١٤٧٥ والسنة ١٥٠٦ ، « ورزنامة الكسوفات والحسوفات » بين السنة ١٤٨٣ والسنة ١٥٣٠ ، وكانا واسعي الانتشار في الأوساط الاسبانية والبرتغالية . ولكن الاخطاء لم تكن نادرة في تقدير بداية الظواهر ونهايتها ، الكسوفات والحسوفات ، اللقاءات ، الاخفاءات ، وفي تحديد مكان النجوم الصحيح بالاستناد الى ميلها وعمودها المستقيم . وقد بلغت هذه الاخطاء ٢٤ دقيقة احياناً ، مع العلم ان خطأ عشر دقائق في محل القمر يؤدي الى خطأ ٥ درجات في الطول او ١٠٠ عقدة .

النجاحات المحققة يتضح مما تقدم ان جهوداً كبرى بذلت للتوصل الى تعيينات اكثر دقة . فقد ابتكر البحارة ، لحساب السرعة ، مقياساً خاصاً اطلق عليه اسم « لوك » ، وصف للمرة الاولى في السنة ١٥٧٧ ، واضيف بعد السنة ١٦٢٠ الى كافة المؤلفات التي تبحث في الملاحة . واللوك حبل مجهز بقعد متساوية المسافات ومنته بلوحة سنديانية مثقلة بالرصاص ومزودة بموامة . تلقى اللوحة في البحر ، فتستقر في مكانها تقريباً ، وينحل الحبل وتمر العقدة بين اصابع الربان . اما المسافة بين عقدتين فتوازي جزءاً من ١٢٠ من الميل البحري . فالعقدة التي تمر بين اصابع الربان في ٣٠ ثانية ، يقابلها عدد موازي من الاميال البحرية في الساعة . ولكن كان يقتضي معرفة طول الدقيقة في دائرة الارض الكبرى لتحديد الميل وتحويل المسافة المقطوعة الى احداثيات هندسية . منذ السنة ١٦٣٣ ، وجد « مور وود » للميل قياساً يوازي ١٨٦٦،٦٦ م واقترح ان يكون طول العقدة ٥١ قدماً . ولكن البحارة تمسكوا بعقدة الـ ٤٢ قدماً ، اي ١٥٤٠ متراً لكل دقيقة من دائرة العرض الكبرى لتأمين سلامة النزول الى اليابسة : اذ ان البقاء على مسافة ٢٠ عقدة من المكان الذي يعتقد الملاح انه بلغه ، افضل من الوصول الى مرمى المدفع من بعده .

وفي سبيل التوصل الى معرفة الاتجاه ، استبدلت الابرة المغنطة ، المترججة ابدأ بفعل حركات السفينة ، ببركار الطريق ، وهو ابرة بشكل معين على كثير من الاطالة مركبة على جذع فولاذي هو لها بمثابة المدار ، تدور فوق دائرة ارياح عينت عليها مساحات محدودة للارياح تتخللها الاشارة الى الاتجاهات . وسبق لكولومبوس ان اكتشف في ١٣ ايلول ١٤٩٢ انحراف الابرة المغنطة . فان هذا الانحراف قد انجحه نحو الشمال الشرقي بعد ان انجحه نحو الشمال الغربي . وهنالك خط انعدم فيه الانحراف يقع على مئة عقدة الى الغرب من جزر الآسور . ولكن سواد الملاحين انكروا واقع هذا الانحراف حتى في القرن السابع عشر .

حسب المرض بسهولة كبرى بفضل قوس « دايفز » ، وهو جزء من الربع البحري ، الذي وصف شكله الاول في السنة ١٥٩٤ والذي استعمل بعد ذلك حتى القرن الثامن عشر . ولكن حساب الطول قد بقي شغل البحارة الشاغل ، مع ان كسوفات الاقمار التابعة لجوبيتر قد أتاحت التوصل الى مزيد من الدقة . فان مراقبة تواربها في ظل النجم السيار وخروجها من هذا الظل ، اذا ما قورنت بمطيات جدول الانبياء ، تعطي مباشرة فرق الساعة المطلوب .

استخدم بصورة خاصة بعد نشر تقويم «كسيني» (١٦٦٨). الا ان الحل الحقيقي الذي لم يتوصل احد اليه كان في اكتشاف مقياس الزمان . منذ السنة ١٥٣٠ وصف «غامالفريزي» الساعات التي يسهل نقلها و اشار «راي» بساعات ذات زنبك محرك ومنفذ يزود بسدولاب التواء . وكان «بارنتز» اول بحار استخدمها في رحلته الى زيلندا الجديدة (١٥٩٦) . ولكن هذه الساعات كانت سريعة التعتل . في السنة ١٦٦٤ سلم «هوفنس» ساعتين الى المايجور «هولس» الذي توفى الى تقديرات محدودة الاخطاء على الشاطئ الافريقي . وحذا حذو هذا الاخير الاسطول الفرنسي المرسل الى «كندا» في السنة ١٦٦٩ . ولكن النتائج كانت هدفسا للاعتراف والانكار . فبقيت المسألة بدون حل طيلة القرن السابع عشر .

ازدري الربانة باعمال الفلكيين وتابموا الملاحة «على التقدير» . فان النتائج المشكوك فيها التي حققتها الاساليب العملية قد ساعدت على استمرار الثقة في الطول المقدر الذي اعتبره وكأنه الطول فخصب . فقد كتب الاب فورنييه ، مؤلف كتاب شهر في علم المياه السطحية (١٦٤٣) ، ما يلي : « في السنة ١٦٣٥ بالغات ، وصل الى «دييب» مركب كان قد ارسل الى جزيرة «موريس» التي تبعد اكثر من ١٣٠٠ عقدة والتي بلغها الريان دون ان يضل الطريق ، مع انه لم يذهب اليها قط من قبل . واني اشك كثيرا في ان يقدم اولئك الذين يتقون بعملياتهم الفلكية على مثل هذه الرحلات ، مع ما لديهم من ادوات . اجل لقد بلغ الربانية اهدافهم ، ولكنهم بلغوها بعد جهد وتلوس وترودد . كانت الحرائط الموضوعية ملأى بالاخطاء . وبلغ الخطأ في خريطة العالم التي وضعها «اورتليوس» في السنة ١٥٨٧ ، سبعة عشر درجة في الفرق بين طول لندن وشنغاي .. وجاءت الشواطىء في خريطة فرنسا التي وضعها «سانسون» في السنة ١٦٧٩ مئة كيلومتر ابعد الى الغرب . وحتى في السنوات ١٧١٢ - ١٧١٤ ، ارسل «فريزيه» ، مهندس الملك ، الى «شيلي» ، فعدد الطول القبرني لمضيق «لومير» بـ ٦١,٣٥ درجة بدلا من ٦٧,٣٠ درجة ، وعين المسافة بين هذا المضيق ورأس «هورن» بنحسين عقدة بدلا من ٣٠ . وكانت نتيجة هذه الاخطاء ان عيبت امكنة عدة على العرض الواحد للجزر الصغيرة المنزلة . وتوجب اتخاذ الاحتياطات لبلوغ الشاطئ ، ايقاف المراكب بواسطة القلوع ، وقياس عمق البحر ، واطلاق نيران المدافع في الضباب لتقدير المسافة بالاستناد الى الصدى . فهدر وقت كثير ، ولم يحل كل ذلك دون حوادث غرق السفن . في السنة ١٦٨٦ ، غرقت عند الشواطىء الافريقية السفينة البرتغالية المقلدة الوفد السياحي الى البرتغال ، بينما اعتبر القبطان انه تجاوز رأس الرجاء الصالح ويات بميداً في عرض البحر . وكان من بعد مسافة المكان الذي حصل فيه الحادث على الشاطئ الشرقي الى الرأس ان توجب على الناجين من الفرق السير غربا مدة ٣١ يوماً على طول الشاطئ قبل ان يبلغوه .

حلت مسائل الملاحة هندسيا على كرة ، كذلك الكرة الشهيرة التي جاء بها الكرات والحرائط «مارتن بيهايم» الى نورمبرغ (١٤٩١) ، وهي نسخة عما وضعه بطليموس اضيفت اليها معلومات ماركو بولو حول آسيا ومعلومات البرتغاليين حول افريقيا ، او ككرة

مركاتور (١٥٤١) . ولكن المليمتر الواحدة في كرة شعاعها ٦٠ سنتيمترا ، يعادل ١١,٥ ميلا في الواقع . فبات لزاما رسم خرائط ، هي ادوات حساب ، لايجاد الحل البياني لمسائل التقدير . فاستخدمت حتى القرن الثامن عشر ، خرائط موضوعة على مسطحات رسمت عليها خطوط عرض وخطوط طول مستقيمة متساوية البعد . وكانت فائدتها ان مسيرة المراكب المنحنية كانت بمثابة بخط مستقيم . اما مساوئها فان كل خط عرض كان له مقياسه الخاص وان الخريطة لم تحتفظ لا بالمسافات ولا بالزوايا . فكلما اجتاز قوس الدائرة الكبرى التي رسمها طريق المركب خط طول جديد ، ألتف زاوية مختلفة . فكان لزاما حساب هذه الزوايا المختلفة مسبقا للتمكن من توجيه السفينة وفاقا لقوس الدائرة الواصل بين نقطة الانطلاق والنقطة المقصودة ، واذا انحرفت السفينة عن طريقها مست الحاجة الى حسابات جديدة . فكان لا بد من خريطة تحتفظ بالزوايا .

نشر مركاتور في السنة ١٥٦٩ خريطة الاولى التي رسمها بعد بحث وتردد على مسقط مركاتور الكرة . ازدادت المسافات بين خطوط العرض ازدياداً مطرداً نحو الشمال ، ولكن مركاتور جهل قاعدة تدريج خط الطول وتوسيع خطوط العرض في كل نقطة من خط الطول . تأمل « ادوارد رايت » في خريطة سابقة وعرض في السنة ١٥٩٩ نظرية المسقط المعروفة باسم مركاتور . ترسم كرة داخل اسطوانة ، وتوسع الكرة الى ان تلتصق كل نقطة من هذه الاخيرة بكل نقطة من الاسطوانة . فتكون خطوط الطول الخطوط المستقيمة المتوازية العمودية بالنسبة لخط الاستواء ، وخطوط العرض الخطوط المستقيمة الموازية لخط الاستواء . ولما كان خط العرض يصبح دائرة كبرى ، وجب ان يوسع خط الطول في عرض معين بنسبة الدائرة الكبرى للطول الاصلي لخط العرض هذا . وازدادت المسافة باطراد بين خطوط العرض وفاقا لقاعدة معروفة . ففي كل نقطة يكبر الطول والعرض والمعينات بنسبة واحدة وتحتفظ الخريطة من ثم بالزوايا وبالوضع الخاص لكل مكان بالنسبة لغيره . والمسيرات خطوط مستقيمة تقطع كل خطوط الطول مكونة منها زاوية واحدة لان نسبة خط الطول لخط العرض في كل نقطة هي النسبة نفسها بينها على الارض . ووضع « رايت » بالاضافة الى ذلك ، لكل معين ، جداول تبين عرض نقاط تقاطع المعين وخطوط الطول المتوالية . الا ان الربان لم يعيروا هذه التحسينات اهتماما كبيرا .

لم يحرز رسم اليابسة سوى تقدم بطيء . فالمنشورات حول الاسفار قد افترقت قدم الجغرافيا الى الدقة والوضوح ، وقد حدث احيانا ان ظهرت بعد تحريرها بزمن طويل فلم تلتفت الانتباه دائما . ان رواية رحلة كولبوس الاولى (شباط ١٤٩٣) التي ترجمت الى اللاتينية وطبعت في روما ، وبال (١٤٩٤) ، وستراسبورغ (١٤٩٧) ، ودخلت فرنسا والمناطق المنخفضة ، قد بقيت شبه مجهولة تقريبا ، في جبال ان احدي رسائل « امريكو فسبوشي » حول رحلته الثالثة (١٣ ايار ١٥٠١ حتى ٧ ايلول ١٥٠٢) ، التي نشرت في باريس

ثم في ستراسبورغ في السنة ١٥٠٥ ، عرفت اوسع انتشار بين روايات الاسفار . في السنة ١٥٠٧ ، اوعز « وولد سيمولر » ، في أعقاب ظهور كتابه « علم الفلك » ، بطبع روايات اسفار امريكو فسبوشي الاربع وابعث اسم امريكا للاراضي الجديدة .

الا ان سلطة بطليموس قد اخرت التقدم . فعلى الرغم من ان البحارة قد أثبتوا ان خط الاستواء يمر في البحر جنوبي غينيا ، أعيند وولد سيمولر و « شونر » وغيرهما في احلال غينيا جنوبي خط الاستواء لأن بطليموس ، الذي جهل خليج غينيا ، قد أحل خط الاستواء في البر . وكان هنالك شبه قطبية بين البحارة المتهنين والمعلماء . ولم يسلم هؤلاء الا تدريجياً بقيمة ما شاهده البحارة بأمر عينهم .

وأعاقت سلطة الدولة بدورها انتشار المعارف . فقد رغب الامراء في حفظ سر الاكتشافات . وقد حظر في البرتغال ، تحت طائلة الاعدام ، كشف النقاب عن الخرائط التي وضعا رواد العوالم الجديدة . وحتى في البر الاوروي ، عارض منتخب ساكس ، « جان فرديريك » ، نشر خريطة للساكس . وكان من الضروري ، لصلحة الدفاع ، ان يبقى علم وضع الخرائط سلباً في ايدي الامراء . ولكن الحكومات المدوة قد لجأت الى الرشوة واستحصلت على الخرائط بمبالغ طائلة ، وكان البحارة الايطاليون الذين ينتقلون من خدمة دولة الى خدمة اخرى ، ينقلون خرائطهم معهم .

يضاف الى ذلك أخيراً ان التعليم الذي اعتمد في جوهره على تفسير مؤلف مكرس مقرر كـ « بحث في الكرة » لـ « ساكرو بوسكو » ، الذي سرر في القرن الثاني عشر ، او « النظريات الجديدة في السيارات » لـ « بويرباخ » (١١٦٠) ، قد تسبب في نوع من الشلل .

بيد ان الاكتشافات قد ذاع خبرها . ففي السنة ١٥١٣ ، انكر « ستوفار » في محاضراته التدريسية التي القاها في « توبنجن » ، وجود منطقة حارة يستحيل اجتيازها . واكد استدارة الارض وواقع التقابل بين جهات الارض ، باسم اختبار البحارة . وبعد الرحلة الدائرية التي قام بها « ماجلان » و « سيبيسيان دل كانو » مروراً بمضيق ماجلان ، والفيليبين ، حيث قتل ماجلان ، ورأس الرجاء الصالح (١٥١٩ - ١٥٢٢) ، اظهرت الكرات التي صنعها شونر في السنة ١٥٢٣ والسنة ١٥٣٣ ، قارة اميركية مغلوطة في رسمها ، ولكنها متميزة عن آسيا .

تحلى الرجال الذين القوا بانفسهم في البحار ببسالة نادرة جداً . فقد شاعت اخطار الاسفار البحرية
روايات مرعبة كثيرة : عند خط الاستواء توجد منطقة مياه غالية ، وسحابة من غمامات ممتدبة السفن الى قعر البحار ، وحيوانات مخيلة غريبة لترصد السفن والبحارة . أجل لقد خفت وطأة الذعر مع الاختبار ، ولكن الاخطار الحقيقية قد بقيت : المواصف ، والامواج العاتية التي يبلغ ارتفاعها ارتفاع مبكّن مؤلف من ست طبقات في رأس الرجاء الصالح وتهدد بابتلاع السفن الخشبية الصغيرة ، واخطار المجاعات في اسفار بحرية غير

التغلغل بعيداً في افريقيا السوداء . وسجلت ارتدادات إسلامية كثيرة بين سكان الغابات في الفينيه ، المطلة على المحيط ، ومع ذلك بقيت جماهير غفيرة ضغمة على الوثنية ، بين سكان مقاطعة ماندنغ ، ألفت من وجودها ومن تمسكها بعبادة الارواح ، مراكز مقاومة محمد من تقدم الاسلام في تلك البلاد .

اما في آسيا ، فقد تابع الاسلام جهوده في اكتساب جزر السوند وبلاد التوابل والاغافويه . فقد عمل سلاطين ترنات وتيدور على نشر الدين الاسلامي في جزر المولوسك . وحمل دعاة الاسلام ، سكان جزيرة مندناو ، احدى جزر الفيلبين ، على اعتناق الاسلام . واضطر الاسبانيون الى اغراق السفن الاسلامية التي كانت تقوم بالنشاط التجاري في تلك المنطقة ، ان تعرضت مصالحهم التجارية للذى والحسارة ، للحوول منهم دون تغلغل الاسلام ، الى جزيرة لوسون التي ألفت الحصن الامامي للحد من تقدم المسلمين في هذه المنطقة . وفي الهند الصينية وسيام وكبوديا ، راح المسلمون من الملايو بعد ان كانوا يلتزمون جباية الضرائب والرسوم ، يزاحون بشدة الارساليات المسيحية التي كان يقوم بها مرسلون اسبان وبرتغاليون وفرنسيون ، وتوصلوا ، عام ١٦١٢ ، الى حل رهاما ديباتي ، ملك كمبوديا ، وراماتو بداي تشام ، ملك تشامبا ، على اعتناق الاسلام .

اما الصين . فلم يغم المسلمون فيها ببعثات دينية . وكان لهم فيها أتباع عديدون اخذ عددهم بالازدياد في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ففي القرن الخامس عشر كان الدرويش علي اكبر يعتريه الدهول لكثرتهم ، لما كان عليه المسلمون من ازدهار وما تمتعوا به من حريات واسعة ، وما نعموا به من نفوذ . فقد كتب ما يلي : « تدل بعض تصرفات الامبراطور على انه اعتنق الاسلام سراً الا انه لم ير من المناسب الجهر بذلك علانية . وقد اقترح على سلطان الاتراك ان يتولى فتح الصين ليحمل الأهلين فيها على اعتناق الاسلام .

اما في اوروبا . فلم تتوقف الفتوحات الاسلامية عن تسجيل انتصارات جديدة لها ، حتى ان المسلمين اطلوا على ابواب فيينا ، اذ ان اعداداً كبيرة من رعايا الشعوب التي علبت على امرها ودالت دولها للاتراك ، راحوا يعتنقون الاسلام ، كما ان عدداً محترماً من الاوروبيين نزحوا ليقموا بين المسلمين ، في السلطنة العثمانية ، او في بلدان شمالي افريقيا . ونرى في البلقان بعض المناطق تصبح بين ١٥٦٦ - ١٦٤٨ اسلامية بكامل سكانها ، في مقاطعة رودرب الجبلية والبانبا وجزيرة أوبه وكريت . كذلك نلاحظ وقوع ارتدادات كثيرة في مقدونيا وتاليا ومولدا فيا وبلاد الفلاخ . ويؤكد أحد المعاصرين ان الناس كلوا يقبلون على الاسلام بعمشرات الألوف بل بمئات الألوف ، وان اعداداً كبيرة من النازحين والاسرى والمهاجرين كلوا يعتنقون الاسلام وينصرفون للعيش بين المسلمين . فالحمانيات الاسبانية في افريقيا تألف معظمها من النازحين هجروا بلدانهم زرافات من كورسكا وسردينيا وصقلية وكالابريا وجنوى والبندقية وإسبانيا ، في قوارب تنص بركابها ، قاصدين شمالي افريقيا كلوا مرشحين لاعتناق

obeikandi.com

أوروبا والعالم القديم

الفصل الأول

الحضارات البلدية عند قدوم الأوروبيين

تحقق الفتح الاوروبي على ايدي اعداد قليلة من الرجال . ويرد ذلك الى ان الاوروبيين قد وجدوا امامهم شعوبا ما زالت في مختلف مراحل العصر النيوليتي وعصر النحاس واولئل عصر الشبه وافتقرت افتقاراً يكاد يكون كلياً الى الحيوانات الاليفة ، ولا سيما الى حيوانات الركوب والجر ونقل الاحمال ، وافتقاراً كلياً الى العجلة والحديد . انتسبت هذه الشعوب كلها الى الجنس المعروف بالجنس المغولي والتميز ببشرة متفاوتة الصفرة ووجنات نائثة وشعر اسود واملس . ويفلب على الظن ان هذه الشعوب متأصلة من العالمين المائليزي والبولينيزي في آسيا ، وقد انتقلت منها الى اميركا ، كما نرجح ، عن طريق مضيق « بهرينغ » ، والجزر الاليوسية ، واورستاليا والقطب الجنوبي ، في عهد غير معروف ، قبل العهد الميلادي . وكانت قلة عند قدوم الاوروبيين لا يتجاوز عددها الخمسين مليوناً في كل القارة الامركية ، وقد توزعت على غير تساوي في مناطق القارة المختلفة . وكانت قد بلغت مستويات حضارية على كثير من التفاوت . ففي الوسط ، اي في المكسيك والمضيق الاميركي والبيرو ، وجدت دول حقيقية كثيفة السكان . وقد تعلق هؤلاء بالارض وعاشوا من الزراعة واسسوا المدن . اما الى الشرق من جبال « اندس » ، الى الشمال من نهر « ريو لوما » في المكسيك ، فقد عاشت قبائل من القناصين والقطافين والصيداين عيشة بدوية او شبه بدوية ومارست احيانا زراعية بدائية متناثرة جدا : ولعل سكان اميركا كلها ، الى الشمال من نهر « ريو غرانده دل نورته » ، لم يتجاوزوا خمسمائة الف نسمة . وجلي ان النتائج

جاءت مختلفة جداً . ففي الوسط وفي جبال « اندس » ، حل الاسبانويون محل الطبقة الحاكمة ونشأت حضارة مختلطة سيطر عليها الطابع الاوروبي ، وفي الشمال رفض البلديون مبدأ الانصهار واصلوا على الاوروبيين حرباً شعواء لا هوادة فيها ، في جزر الانتيل والى الشرق من جبال اندس ، تعرضوا خلالها للتقتيل والاقناء فليجأوا الى الغابات العميقة النائية . الحضارات الاميركية عديدة جداً وتاريخها متطاوّل في الزمان . ولكننا لن نتكلم هنا ، وبإيجاز ، الا عن اهم هذه الحضارات عند حدوث الفتح .

١ - حضارات العهد النيوليتي

في البدء وجد الاسبانويون في جزر الانتيل منذ السنة ١٤٩٢ ، ثم في اليابسة بين نهر « دارين » ومصب الاورينوك منذ السنة ١٤٩٩ ، والبرتغاليون في البرازيل منذ السنة ١٥٠٣ ، والفرنسيون في كندا منذ السنة ١٥٣٣ ، والانكليز ، امام شعوب مستوياتها التقنية متدنية جداً تقابل مراحل تحطّطها الاوروبيون منذ زمن بعيد : لا نستطيع تعدادها كلها والتعمق في درسها . بل نكتفي بتقديم بعض الامثلة فقط .

في اسفل مستويات سلم التقنيات ، نجد شعوباً لا تتعاطى سوى القنص
 الافونكيليون والصيد ، كالفونكيين ، او الشعوب التي تتكلم الافونكيية . تقسمت هذه الشعوب الى فروع عدة . ففي اكاديا ، وفي ما يعرف اليوم بـ « برونسيك الجديدة » ، انتشر الـ « اناباكي » ، « ميكاك » ، « ايناكي » ، « مالمسي » ، « باساكوامودي » ، « بينويسكوت » ، « فوفنوك » ، وفي لابرادور : « مونتانيه » ، « فاسكابي » ، وبين نهر « سان لوران » والبحيرات الكبرى : « الافونكييون » بحصر الاسم ، في شمال البحيرة العليا : « اوجبوا » ، في جنوبي خليج هدسون : « كريبه » . وحين دخل « جاك كارتيه » في السنة ١٥٣٤ الى خليج « ميراميشي » ، احاط بسفينته على الفور عدد غفير من زوارق الميكاك . ونحن مدينون بالكثير مما نعرفه عن هذه الشعوب لتقارير الآباء اليسوعيين ومدكرات ورسائل تجار الفراء ومراسلات الضباط الملكيين الادارية .

باستطاعتنا ان نقدم الميكاك مثلاً عن الافونكيين . استقروا في اكاديا حتى رأس « غاسبيزيا » وفي الارض الجديدة ، ولا سيما في المنطقة المحيطة بـ « خليج الفرنسيين » (خليج « فوندي ») . اوصلتهم رحلات القنص والصيد والتجارة الى « قادوساك » على نهر « سان لوران » . وقد وجدوا في جزيرة « انليكوستي » ايضاً ، وغالباً ما صعدوا في حملاتهم على طول شواطئ لابرادور . تراوح عددهم بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ في الارجح . اقاموا في منطقة بحيرات وخليجان تحيط بها احراج السنديان والدردار والجيز والصنوبر واشجار القضبان . وفترة قنص : الايل ، الدب ، الدل ، السنجاب ، الارنب ، القندس ، البط ، الاوز . ووفرة اسماك . كان الميكاك

اصحاء البنية ، اقوياء ، اصفر شكلا من الاوروبيين ؛ وتميزوا بعيونهم السود وشعرهم الاسمر ولحيتهم الغثة . عولوا في معيشتهم على القنص والصيد فبدأتقلوا انتقالا موسمياً من منطقة الى اخرى . ففي الربيع والصيد وأوائل الخريف يقنصون على مقربة من الانهر وعلى شاطئه البحر . وفي اواخر الخريف وفي الشتاء ينكفثون الى الغابات ، وفي كانون الثاني يقصدون صيد الفقمة . وفي شباط وآذار يقتنصون القندس والدب والوعل . وفي منتصف آذار يصطادون الاسماك في النهر لانها اذ ذاك تملأ مياهه . وفي اواخر نيسان يكثر الرنك والحفش والحوت والبط الكبير . وبين ايار وابلول تغزر الاسماك مياه الشواطىء . وفي اواغظ ايلول يصعد الميكهاك الانهر مع السلور . وفي تشرين الاول وتشرين الثاني يقتنصون الوعل والقندس مرة اخرى . وفي كانون الاول يبحثون تحت الجليد عن اسماك « بونامو » ويحصدون عدداً وافراً من الرقوق الصغيرة .

استخدم هؤلاء الهنود السكاكين والفؤوس والمهالك المصنوعة من المرور والصوان . واستخدموا كذلك خطاطيف خشبية ذات رأسين وصنابير عظيمة واشباكاً من اغصان مجبوكة قد تبلغ ٦٠ متراً طولا . وصنعت اقواسهم من اغصان الجرمشق . كما صنعت اوتارها من اطناب الحيوانات . وزودت سهامهم برأس عظمي . عرفوا اضراء الكلاب بالصيد . ونصبوا الاشرار حتى للدب والاييل . وعرفوا تعططين الجلود بتجفيفها تحت اشعة الشمس ، وصلفها بكبد الطير ، وبدلكها الى ان تصبح لينة كالاقمشة الصوفية . وضمنوا منها الاحذية والملابس والاكياس . اتسعت زوارقهم المصنوعة من قشور الاشجار لـ ٥ او ٦ اشخاص بالاضافة الى الكلاب والاكياس ، وقد تراوح طولها بين ثمانين وعشر اقدام . اقام الميكهاك في الـ « ويغوام » ، وهو كوخ مخروطي الشكل مركب من مجموع قطع خشبية ، يبلغ عددها ١٦ او ١٨ ، ينحني بعضها نحو البعض الآخر ، وتغطى بصفائح من قشور الشجر . كان باستطاعة النساء ان يبنين الـ ويغوام في اقل من ساعتين . كما كان باستطاعتهم نقضه ولفه وحمله على ظهورهن في اقل من هذا الوقت . عرف هؤلاء الهنود تدخين الاسماك واللحوم . جوفوا جذوع الشجر بالجمر والمناحت العظمية وضمنوا منها القدور . صنعوا الاقداح بثني قشور الشجر وتخييطها بابر عظمية وخيوط مستخرجة من الجذور . غزلت النساء وبر الوعل بمفزل من خشب الجرمشق وحكن منه الجوارب وزخارف الملابس والزناوير والاساور والعقود ، وصبغنه صباغاً احمر او اصفر او اسود او ابيض . ونقش الرجال في المعظم والخشب ، « لمجرد التسلية » ، الحيوانات ، والطيور ، والاشكال البشرية .

الفئة الاجتماعية الاساسية هي الزمرة المؤلفة من عدة عائلات تنتقل مجتمعة من مكان الى آخر . يسود العائلة مبدأ تعدد الزوجات . للقادة زوجات كثيرات يؤمن لهم اليد العاملة وينجبن الحاربين . الحاربون العاديون يكتفون بامرأتين او ثلاث . اعتبر الزواج شأناً عائلياً . ولكن الفتاة لا تكره على الزواج . الخطيب يبيض الوالد من خسارته بان يعمل في خدمته سنة او سنتين . يتمتع الزوج بسلطة كبرى . وغالبا ما تتعرض النساء للضرب ، وتسدن اليهن الاعمال دائما : بناء الزوارق ، دباغة الجلود ، صنع الالبسة ، اقامة الـ ويغوام ، نقل الاحمال ، تزويد

المحاربين بالسهم اثناء المعارك ، ولكنهم يتصرفون بحرية في منازلهم ويأكلون كل ما يشتهون . نظام الريفوم صارم جداً . لكل فرد مكانه الذي يحدده التقليد . تقص النار بين الفتيان والفتيات ويحظر عليهم تبادل اطراف الحديث . اصف الى ذلك ان هذا التبادل محظر على كافة فتيان وفتيات الزمرة .

لكل زمرة رئيسها ، « ساغامو » ، او « الرجل القوي » . ينتخب مدى الحياة ، تارة من بين المحاربين الاكفاء ، واخرى من بين ابناء الرئيس الراحل ، ابتداء بالبوكر . تخضع لكل رئيس عائلتان على الاقل وخمسة عشر عائلة على الاكثر . يحدد لكل منها دورياً مكان الصيد . يفصل في الخلافات ولكنه يحكم في الجرائم الهامة بالاشراك مع المجموع . الاغتصاب والاعتصاب يُصَفَيَان بالثأر والانتقام . الرئيس يشرف على صنع الزوارق وترويض الكلاب على الصيد وتخزين المواد الغذائية . يجمع حوله شباناً ورجالاً لعائلة لهم ويغذيهم ويؤلف منهم حرسه الخاص وقوته الضاربة .

الحروب كثيرة وتعلن انتقاماً للشرف . خير الصفات الشجاعة . مطعم المحاربين هو اثبات بسالتهم وفرض هيبتهم . يقرر اعلان الحرب بعد خطب طويلة ويعمل بمجيج مختلفة اكثرها وروداً اهانة القبيلة او مسبة احد الاجداد . تبتدى برقصات حربية ، وممارسات سحرية : الحرب سلسلة من المفاجآت والمكامن والغارات الليلية . يسجل الظافر رؤوس المهزومين او يقطعها حتى يعود بأشعة الغلبة . يشد الاسرى الذكور الى جذوع الاشجار وتقرص نساء المنتصرين من حولهم موجهة اليهم الشتائم ، ثم يقطعون اربا اربا . اما مصير نساء المغلوبين واولادهم فالغبودية . في سبيل ضمان الوحدة ضد الـ « ايروكوا » ، تالف المحاد من قبائل الـ « اناباكي » كان يعقد مؤتمرات منظمة تتخللها الاحتفالات الرمزية .

ان الطبيعة ، في نظر الميكماك ، نسخة عن الحياة الاجتماعية ، او مجتمع كبير من الارواح الخفية ، المماثلة لروح البشر . يعبدون الشمس وزوجها ، القمر . ترفع القبيلة صلواتها الى الشمس كل صباح ومساء وتشكرها لانعامها بالوجود على الرجال وتوفيرها الغذاء لهم ، وتمجد عظمتها وجمالها ، وتلتبس منها منحهم قنيصاً وثيراً والتغلب على الاعداء ، واخصاب نساؤهم . لكل رجل نفس هي كالصورة عن ذاته . تسبقه في الوجود ، وتستطيع على مرور الزمن ان تكون عدة اشخاص على التوالي . كل نفس تعيش بعض الوقت ، بعد المساء ، حول ويفوم العائلة وتقتنص ارواح الحيوانات بارواح الاقواس والسهم . لذلك يوارى الميت القراب مع اسلحته وادواته . الروح تأكل ارواح الاطعمة . لذلك يحتفظ بمحصتها من كل الوجبات . في يوم غير معروف تنتقل الى بلاد الارواح ، نحو الغرب ، وتستطيع ان تبلغ ، بعد محن كثيرة ، ارضاً سعيدة تعيش فيها حياة هائلة وتأكل ما يطيب لها اكله وتقتنص لمجرد التسلية .

لكل ما في الطبيعة روح اشبه بطيف يستطيع ، الى ما حد له ، اعطاء صورة الى مواد

جديدة . تخيل الهنود الانواع الحيوانية على صورة القبائل البشرية ، وتخيّلوا لكل منها لفتة الخاصة . الحيوانات الهرمة لا تموت بل تتحول الى انواع اخرى . الوعل الهرم يصبح حوتاً والعكس بالعكس ، وهذا ما يفسر تشابه لحوم الوعل ولحوم الحوت . القنص يصبح ارنباً أسود لان هذا وذالك هما الحيوانان الوحيدان اللذان يشعران بالصيد من مسافة بعيدة ويهربان قبل ان يقرب منها . السنجاب يتحول الى ثعبان لان الثعابين تكثر حين ينسد السناجب والعكس بالعكس . ولما كانت للحيوانات ارواحها ، باتت الحيلة امراً ضرورياً ، لان هذه الارواح سريعة الانفعال على غرار الهنود ، ولذلك يجب الا يلقي بعظام الوعل الى الكلاب ، اذ ان روح الوعل الميت تذهب وتخبّر الوعل الحية التي لا يمكنها ان تفتقر الاهانة ، فيصبح القنص عملية غير مثمرة باعتبار ان القنص هدية القبيلة الحيوانية للقبيلة البشرية .

ان هذا العالم غير المنظور لاعظم شأناً الى حد بعيد من العالم المادي المنظور . فما هو السبيل الى الاتصال بهذه النفوس او الارواح يا ترى ؟ ان هذا الاتصال يتم بواسطة الانسان الذي ندعوه « شامان » ، اقتباساً من تعبير نقله قوزاق بطرس الاكبر عن ال«تونغوز» في سيبيريا . لقد توصل الشامان ، بفضل الايمان والصلوات الطويلة والاخلاق الطاهرة ، لان يضمن لنفسه حماية احدى الانفس التي يفضلها يعرف كل ما يجري في عالم الارواح ويستطيع التأثير عليها . وهكذا فانه يعرف المستقبل ويبيد رأيه في قيمة مخطط حربي ويستمر القنوم للحيلولة دون وصول العدو او يحدث الجفاف تمهيداً لهجوم قبيلته . يعرف اين يتوفر القنيس . يرثس في ببدء كل سنة احتفالات انبعاث التجديد التي بدونها قد تتوقف اعمال الطبيعة . يحصل دون مجيء انفس الاموات لتعذيب الاحياء . يؤمن لكل هندي روحاً حامية . يشفي المرضى باستحضار روحه الحامية التي تطرد الارواح الشريرة ، اذا كان الناس كلهم مؤمنين . يحول جلد حيوان يسطه امامه الى حيوان حي يتقدم ويطلب الاكل . يطفئ مشعلا من مسافة بعيدة ويجعل الماء يغلي بمجرد النظر اليه ، ويخلص نفسه دفعة واحدة من القيود التي يكون موثقاً بها . انه نبي يجترح المعجزات .

ولعل هؤلاء الهنود آمنوا بقوة كبرى محبة للانسان ، كلية الوجود في الطبيعة ، هي ال«مانيتو» ولعل هذا الايمان وصل اليهم عن طريق المسيحيين .

وفي مستوى اعلى ، اي في درجة الزراعة المتنقلة في الاحراج المحرقة ، ال«توبي - غواراني» وجد ، في جزر الانتيل واميركا الجنوبية ، ال«ارواك» الودعاء الهادئون الذين صادفهم كولومبوس ، وال«توبي - غواراني» . توزعت قبائل هؤلاء بين فنزويلا و«ريو ده لابلاتا» . وان من نعرف اخبارهم ال«توبينما» الذين استوطنوا ، في القرن السادس عشر واولئل القرن السابع عشر ، الشاطيء الشرقي من القارة الاميركية بين مصب الامازون ومصب «ريو ده لابلاتا» . وقد وصلت الينا اخبارهم بواسطة مؤلفات «توفيس»

الذي قام برحلتين الى البرازيل (١٥٥٠ - ١٥٥٤) ، ومؤلفات البروتستانتى « ليري » ، ريفيق « فيلو غينيون » ، وكتاب المرسل البرتغالي « كاردين » الذي تكلم عن الطقوس والمعادات ، وكتب المرسلين الفرنسيين « كلود دابيل » (١٦١٤) و « ايف ديفرو » (١٦١٣ - ١٦١٤) ورسوم الهولندي « اكهوت » التي صورها في البرازيل في السنة ١٦٤٣ ، ومستندات كثيرة اخيراً حول خصوصيات هذه الشعوب .

كان التوبي - غواراني في مرحلة نيوليتية متخلفة عن المرحلة التي بلغها ال « مايا » . جهلوا المدن باستثناء الذهب الذي روجته التجارة . استعملوا قوساً من حجر ازرق - اسود ، ذات حد نصف مستدير ، تصنع ليلاكل شهر في اليوم الاول من الهلال . نساؤهم وبنساتهم يرقصن ويغنين اثنساء العمل امام القمر . وقد اعتقدوا انهم يتصرفهم هذا لن ينوا بهزيمة . وصنعوا سكاكين حجرية . واستخدموا اسنان بعض القواضم للقص والثقب . كما استخدموا محارة الطازون الكبير للنحت والصلقل . وصنعوا الصنائير من الاشواك المعقوفة . ولم يكن لديهم مسن ادوات زراعية سوى الحربة المصلبة بالنار .

كان الدبوس سلاحهم المفضل . واستعملوا كذلك اقواسا كبيرة ذات اوتار قطنية ونبالا قصبية طويلة مزودة برأس من العظم او من الكوسج او ذنب الشغنين البحري . وعرفوا ال « بولاس » ، وهي كرتان تزود بها سيور جلدية وتقدفان بحيث تلفان السيور حول حوامل الحيوان او الانسان المطارد . واستخدموا للدفاع عن انفسهم تروسا مستديرة مصنوعة من تجلد التابير او الخشب الخفيف او قشور الشجر . ولم يجهلوا النار التي كانوا يشعلونها بتدوير منقب صلب في خشب طري . وجوفوا جذوع الشجر أو لجأوا الى قشورها لصنع الزوارق التي اتسمت لثلاثين او ستين شخصاً والتي كانوا يحدقون فيها وقوفاً . وقد كانوا بجارة مهرة . ولم يكن لديهم حيوانات للركوب والجر او للتغذية الكبرى .

وفرت لهم الزراعة تغذيتهم الاساسية . مارسوا الزراعة المتنقلة في الاحراج المحرقة . زرعوا المنيهوت والذرة الصفراء والفلقاس الهندي والفاصوليا والبول السوداني والقشطة والفلفل والتبغ والموز وقصب السكر . كما زرعوا الاشجار المثمرة ، البلاذر والغباء ودباه الهند والقرع . واضافوا الى ذلك حصيد القنص والصيد .

كلوا يسمنون نساءهم ويجزرورهن في الوقت اللازم ، ويلتهمون المدو الذي يهوي ارضاً ، ويسمنون الاسرى للمآذب الكبرى ، ويسكرون بمصير القشطة والمنيهوت الختمر . واستعملوا المهدرات : لفافات التبغ الطويلة ، وغبار ال « بارىكا » وممجون ال « غوارانا » .

أقاموا في قرى محاطة بسياج من اوتاد تتخللها المنافذ وت نصب امامها الافخاخ . وضمت القرية بين ٥٠ و ٦٠٠ شخص موزعين على بيوت يتراوح عددها بين ٤ و ٧ وتختلف قياساتها بين ٥٠ و ٢٠٠ م طولاً و ١٥ و ١٦ م عرضاً ، هيكلها خشبي وعقدتها بشكل نصف دائرة ،

يفطها سعف النخيل او قشور الشجر . كان البيت الواحد يؤوي بين ٥٠ و ٢٠٠ شخص ، وهو اشبه بـ « جينوس » اغريقي هوميروس وبـ « جنس » الرومان الاولين . وكان هنالك نادي للرجال . وكانت القرية تنقل من مكانها مرة كل خمس او ست سنوات بسبب المزروعات . ضمت مفروشات البيت الاسرة المعلقة والمناصب الخشبية والحزفيات والزناجيل والمناخل ومباشر ومعاصر المنيهوت والهواوين المحفورة في جذوع الشجر ، والعلب المصنوعة من بيوت السلاحف . ولم يعتبر الغتيان يافعين الا بعد مرحلة تدريب تشمل درس الدين وتقاليد التكتل التاريخية . وكانوا خلال هذه المرحلة التي تسبق المراهقة يفصلون عن بنات حواء وينلقنون الدروس في نادي الرجال ، وهذا ما ساعد على انتشار السحاق والملاوطة . وكان تصد الزوجات شيئاً مألوفاً وقد درج عليه الرؤساء بصورة خاصة . ولكن الأزواج من الجنسين غالباً ما كانوا يستبدلون أزواجهم .

سار التوبي - غواراني حفاة في اغلب الاحيان . ولكن النساء عرفن غزل الحبال والاسرة المعلقة والمهدمات وتعلمن من الارواك بعض مبادئ الحياكة . وصنمن الروشاح والوزرات .

تزين التوبي بالارياش الملصقة بالجسم بواسطة الراتينج او المسل . واعتمر الرجال قبعات من الارياش الخضراء والحمرء والصفراء والزرقاء وحملوا تيجاناً وعقوداً واساور ومخدومات من ريش واطاراً كبيراً من ارياش النعام على الاليتين . وحصر في الرجال تزيين الشفتين وتعليق العظليات بالانف . وحملت النساء الاقراط واساور كبيرة من العظم الابيض أو الاصداف .

درج كلا الجنسين على تننيف الشعر حتى الاهداب والحواجب . وسبد الرجال شعرهم بشكل نصف قمر في القسم الامامي من الرأس . ودرج كلا الجنسين كذلك على تزيين الجسم والوجه بخطوط مستقيمة وخطوط حلزونية وخطوط بموجة زرقاء وصفراء وسوداء وحمرء ، اي انها درجوا على التوشم .

فسر التوبينمبا كافة الظواهر الطبيعية واصل الاشياء ومصير الانسان بروايات خرافية تتدخل فيها كائنات ماثلة للانسان اعظم قوة منه رأوا في عواطفها وأهوائها وآرائها تأويلا لكل شيء . اعتقدوا بوجود الروح في كافة الاجسام الحية ، ولكنهم كانوا آخذين في التطور نحو القول بتعدد الآلهة .

ان « مونان » ، الكائن الذي لا نهاية ولا بداية له ، قد خلق السماء والارض والبشر . عاش بين الناس ولكن الناس ازدروا به . عند ذلك انزل مونان عليهم نار السماء .خلص رجلا واحداً هو « ايرين - مايه » ، واعطاه امرأة كي يعمر الارض مرة اخرى . من « ايرين - مايه » انحدر كافة البشر ونبي او « كرايبب » ، هو « ميرمونان » ، المقرب الى مونان العظيم ، الذي علم البشر سير القمر والشمس ، وخلود النفس ، والزراعة ، وتننيف الشعر ، الخ . ولكنهم حوّل الاشرار الى بهائم . وحين تفروا منه أحرقوه على حكومة من حطب ، فانشق رأسه

محدثاً صوتاً فظيماً، وكان ذلك مصدر البروق والرعد. ترك « مير-موانان » ابنا هو « سوماي ». رزق هذا الأخير توأمين ، « تامندوار » ، الفلاح ، و « اريكونت » ، الحارب. اهان اريكونت تامندوار الذي اغتاط وضرب الارض ضربة قوية جعلت الماء ينبجس منها . فكان الطوفان . غرق كافة البشر باستثناء الاخوين وامراتيهما .

من تامندوار انحدر التوينمبا ومن اريكونت الـ « تومينو » ، الذين يتحاربون تحاربا دائما . آمن التوينمبا بالحياة الثانية وبتجسد الاجداد مرة ثانية في الولد وبرحلة طويلة وسلسلة من الامتحانات قبل بلوغ منطقة تسجد النفس فيها سعادتها الابدية . اما نفوس اولئك الذين انتقموا الانتقام الحسن واكثروا الاكل من لحوم أعدائهم فستذهب الى ما وراء جبال مرتفعة ، الى متنزه تكسوه الاحراج ، قرب موانان ، حيث يرقصون ويبتهجون ابتهاجاً دائماً .

خشي التوينمبا الجن والشياطين والارواح ونفوس الموتى التي تسبب الزوابع والعواصف والامراض والجفاف والهزيمة في الحرب والحوادث الطارئة والحدورات . درجوا على تطيب خاطرها بتقادام زهور وأرياش . وحموا أنفسهم منها بمشاعل أو نار تحت السرير المعلق تخاف الارواح منها خوفاً كبيراً . وكلما تعرضت صوالح القبيلة للخطر ، احتسوا المشروبات المخمرة ثلاثة او اربعة ايام متتالية . فتحركهم اذ ذلك حمية وحشية يعتقدون تحت تأثيرها انهم يتصلون بالقوى غير المنظورة . ويحدث خلال هذه الايام انفلات جنسي لا يعرف حداً .

وكان لدى التوينمبا سحرة محترمون جداً .

وكانت الحروب دائمة بين القبائل . الاسرى يؤكلون . وتقوم هذه الشعوب بنزوحات كبرى دافعين بالمهزومين امامهم . وكان التوينمبا قد توصلوا في اواخر القرن الخامس عشر الى طرد الـ « تويننا » الى داخل البلاد والحلول محلهم على شاطئ البحر بين مصب « سان - فرنسكو » و « كياميا » .

عند وصول الاوروبيين ، كان التوينمبا في طريق التطور نحو الوثنية ^{التطورات} وعبادة الاصنام . ينصبون في مداخل القرى اوتاداً مزدانة باوتاد صغيرة ^{حين وصول الاوروبيين} رسم عليها رجال عراة . وينحتون في القرع شكل اوجه بشرية ويعتقدون ان الارواح تقيم في هذه الاشكال . ويصنعون اصناماً من الشمع او من الخشب . ويحرصون على ان تكون لكل عائلة قرعتها ، « ماراكا » ، المألئ بالحبوب او الحصا . ويتخيلون ان صوت الحصا والحبوب هو صوت احد الارواح . ويسأل التوينمبا الماراكاه عما تريد . وقرر الماراكاه الحرب او السلم ، وتشكر لها الانتصارات بالاناشيد والرقصات .

انتشر الايمان « بالارض التي لا موت فيها » . وتنبأ الرقاة والسحرة بنهاية العالم . فاقتضى من ثم البحث عن ارض امينة تنمو فيها المزروعات وتقلب الجوارف الارض تلقائياً وتجسد

النساء المسنات صباهن . ادى وصول البرتغاليين والحروب والمذابح الى تعزيز هذه الاعتقادات وتسببت في نزوحات جديدة اهمها نزوح السنة ١٥٤٠ . اجهت احدى قبائل التوينمبا نحو المغرب ، بقيادة ساحر ، بحثاً عن « ارض الخلود والراحة الابدية » . كان افرادها عشرة آلاف ، فوصل منهم ٣٠٠ الى البيرو في السنة ١٥٤٩ حيث اسرم سكان « شاشابوياس » . وتكلم الهنود عن بلاد خرافية ، هي مملكة الـ « اوماغا » ، حيث كل شيء حجارة كريمة وذهب . وهكذا تمزقت اسطورة الـ « الدورادو » .

لم تكن الحضارات البلدية هنا ادنى من حضارات الاوروبيين فحسب ، بل كانت في تقهر وهبوط ايضاً ربما بسبب الحروب الدائمة بين القبائل ، وربما بسبب تطور طبيعي في المفاهيم الدينية . فان التأثير الذي بعثه وصول الاوروبيين ، اولئك المسوخ الغربية ، قد عزز على الفور الايمان بانقلاب العالم ونهاية الازمنة وحياة جديدة ، كما عزز نوعاً من الايمان بمهدي آت ، ولعله تسبب في التحلل اخلاقي واجتماعي .

الايروكيون وبلغ ايروكيو اميركا الشمالية درجة اعلى من درجات الحضارة النيوليتية . ونقصد بالايروكيين هنا الشعوب التي تكلمت اللغة الايروكية ، « ايروكوا » ، « هورون » ، « نوترال » ، « توباكو » . احتل الايروكوا جنوبي بحيرة « ايرييه » وبحيرة « اونتاريو » واعلى نهر « سان لوران » حتى مسيرة يومين الى الجنوب من « مونريال » وحتى النهر هودسن . والايروكوا اقوام من قدامى القناصين والصيداء اتوا من كولومبيا في الاربعين عن طريق وادي نهر « مسيسيبي » حيث يمتد انهم تعلموا الزراعة . واستقرت بعض فروعهم ابعدها الى الجنوب ، الـ « شيروكي » في جنوب جبال « التخاني » ، والـ « كونستاغا » والـ « سوسكهننا » ، في وادي سوسكهننا ، والـ « نو سكارورا » في كارولينا الشمالية .

بقي الشطر الاكبر من الايروكوا قناصين وقطافين ، ولكن زراعة الذرة الصفراء ، بالاضافة الى زراعة الفاصوليا والجلبات والفول والبطيخ الاصفر ، قد لعبت دوراً متزايد الاهمية واخذت تحتل المركز الاول في اواخر القرن السادس عشر . فقد امتدت حول قرى الـ « اونونداغا » على ثلاثة او اربعة كيلومترات ، حقول واسعة مزروعة بالذرة الصفراء . اتاحت الذرة الصفراء للهورون احتياطياً غذائياً يكفي لثلاث او اربع سنوات وقائضاً معداً للبيع اشترى باثمان الفراء والزوارق من الالفونكيين ، والاصداف الصغيرة المستخدمة تقوداً من قبائل الشاطيء .

الادوات شبيهة بأدوات التوبي - غواراني ولكن طريقة الزراعة طريقة فضلى . فنحن هنا امام زراعة متناوبة غير متنقلة . الايروكوا يبقون بين عشر سنوات واثني عشرة سنة في المكان الواحد ، ما دامت القرية قادرة على الانتاج . زد على ذلك انهم يعرفون طريقة اراحة الارض ويلبسون بعض الشيء بزراعتها ، دورياً ، ذرة صفراء وفاصوليا وفولا . مرتكز التغذية

الـ « ساغاميتيه » وهو حساء من الذرة الصفراء واللحم والسمك المجفف والبقول والجلبان ؛ اما طعام المآدب الفاخر فالساغاميتيه المطهية بلحم الدب والقلقاس الرومي وزيت الجوز .

الاعمال كلها تنجز وفاقاً لثنوية جنسية . فالايروكوا يقسمون فئات يوزع العمل في كل منها على فريقيين ، فريق النساء للزراعة ، وفريق الرجال للقنص والصيد . الجنسان يتبادلان المساعدة ، ولكن الادارة للنساء في العمل الزراعي والسلطة للرجال في القنص والصيد . ينجز العمل كله جمعياً في نطاق الفئة . توزع الفئة الاراضي للزراعة على كل عائلة . ولكن عندما يحين زمان الزرع ، تجتمع النساء وينتخبن احداهن رئيسة عمل عليهن ، ويذهبن ليزرعن تلم ذرة صفراء في حقول احدى العائلات ثم تلم ذرة صفراء في حقل عائلة اخرى وهكذا دواليك الى ان تزرع كل الحقول . ويجري الشيء نفسه في ايام الحصاد . والقنص شأت من شؤون الفئة ايضاً .

سيطرت على آراء الايروكوا في الطبيعة ثنوية في طريقة الولادة عند الضرعيات . فقد قسمت كل الطبيعة الى ذكر وانثى . الرجل ذكر ويتمتع بالقوة . وذكور كذلك هي الشجرة والسهاء والنسر والقنص والشمس الشارقة واللون الاحمر والشمال الذي يأتي منه الجليد ، والزرقة ، لون الجليد ، والصلابة . اما الانثى فصغيرة نسبياً وضعيفة ووديمة ، وتبكي . اذن فالمطر انثى ، والقمر الشاحب جداً بالنسبة للشمس ، والارض التي تولد كالأأم ، والغرب الذي تأتي منه الامطار ، والسواد ، لون الغمام الممطر ، والاخصاب ، والجنوب ، والبياض ، اناث ايضاً .

ويمكن توزيع كل ذلك بشكل صليب يمين اربع مناطق من الكون

الحرب
الزرقة
الذكر
الشمال

الاخصاب - السواد - الانثى - المغرب + الشرق - الذكر - الحمرة - القوة

الجنوب
الانثى
البياض
السلم

ويتجمع الآلهة ، حيث يسيطر الآلهة الزراعيون ، وفاقاً لهذه المبادئ . فهم ليسوا من بعد كيانات مستقلة على بعض الالهام ، بل آلهة ذاتيين يؤلفون زوناً متسلسل السلطات . الاله الرئيسي هو « تارونيافاغون » ، اله السهاء ، الذي ينظم الفصول ، ويسيطر على الارياح ويعلم عن رغائبه للبشر في الاحلام ، ويصيب الذرة الصفراء بالصر إذا كان غاضباً ، انه اشبه بجيويتير

ايروكوا . قرينته هي « اياها هانتسيك » ، إلهة الارض والمرض والموت . حفيدها هو « جوسكيرا » ، اله التجدد والنمو في الحياة النباتية والحيوانية . فهو الذي خلق كل ما يقوم على الارض من بحيرات وانهار واسماك واحراج وقنيص وحقول وحصيد . وهو الذي يرسل المطر والحرارة ، والذي علم البشر فن النار . انه اله القيامة . يشيخ ويميل الى الزوال ، ولكنه ما ان يبلغ الهرم حتى يعود شاباً ، فتبدأ اذ ذاك دورة جديدة . نظيره هو توامه ، « تاريسكارا » ، اله القوة التخريبية والصر والجليد ، الخ .

اما « اغرسكوي » ، الاله الشمسي ، فشنيع القناصين والمحاربين الذين يقدمون له حتى لحوم الاسرى وفاقاً لطقوس مماثلة لطقوس الـ « ازتيك » .

تتألف العبادة من ثمانية اعياد قانونية تشير الى تعاقب مراحل الحياة الزراعية . اعظمها اهمية عيد المزروعات وعيد الذرة الصفراء النامية وعيد الحصاد . تستلزم مراسم وطقوساً يحتفل بها كهنة معينون ، « حراس الايمان » الثمانية ، اربعة رجال واربع نساء .

يرتكز المجتمع الى الثنوية نفسها . وهو ذو نظام امومي تمطي الام فيه اسمها لأولادها . الأولاد هم اولاد الزوجة ويربون في عشيرة الام على يدي خالهم . الاب والام لا يعيشان معاً تحت سقف واحد ، وانما تشارك الزوجة الزوج سريره مساء الى ان تصبح حاملاً . وعلى الرغم من ذلك فان الرجل ملازم طبعاً بتقديم الغذاء والكساء لزوجته واولاده . كما ان المرأة ملزمة بتحضير الطعام ولوازم الصيد لزوجها . اما اذا تزوج رجل ينتمي الى عشيرة الذئب من امرأة تنتمي الى عشيرة الدب ، فيكون الاولاد من عشيرة الدب ويعيشون معها . ومن المسلم به ، اذا هوجمت عشيرة الدب ، ان يبادر الزوج المنتمي الى عشيرة الذئب الى مساعدتها مع كل عشيرته ، بسبب التضامن الذي يسود المشيرة .

يشرف على ادارة العشيرة مجلس مؤلف من ثلاث نساء يجترن ابدأ من العائلة نفسها ، ويعين لا بالانتخاب بل « بالاتفاق » في اعقاب مفاوضات طويلة . تنتخب هذه النساء الثلاث رئيس العشيرة ، او « ساشم » ، الذي يجب ان يكون ذكراً ، وابن شقيقة الرئيس المتوفي في اغلب الاحيان . يستشير الساشم مجلس النساء في الشؤون العامة ، ومجلسا من المحاربين في شؤون الصيد والحرب . وتعرض مقررات كل عشيرة على مجلس القبيلة ؛ وتضم كل قبيلة ثماني عشائر على الاقل ، ويتألف مجلس القبيلة من مستشارات كل عشيرة وساشمها . وتعرض مقررات مجلس القبيلة على مجلس الشيوخ المذكور الذي يتمتع بحق نقض مطلق .

ان قبائل الايروكوا الاربعة ، منذ السنة ١٤٥٠ تقريباً ، و قبيلة الـ « موهوك » منذ السنة ١٥٧٠ ، قد الفت الاتحاداً . تتألف مجلس الاتحاد من كافة مجالس العشائر وساشم كل عشيرة . اما في الشؤون الخطيرة ، كالحرب مثلاً ، فيجتمع شعب الايروكوا كله . تتفاوض النساء اولاً ويتخذن المقررات ثم يلبين الرجال . ثم يجتمع الرؤساء ويقترعون في كل قبيلة . واخيراً

تقترح كل قبيلة في الاتحاد ، حيث يجب الاجماع . وجلي ان هذه الانظمة اعطت الايروكوا تفوقاً كبيراً على هباء القبائل المنتشر حولهم .

كان كافة هؤلاء الهنود في الدرجة الدنيا من سلم الفكر البشري . فكان العالم في نظرهم سحراً اكبر يستطيع كل شيء فيه مبدئياً ان يؤثر على كل شيء بتشابهات وتلامسات سرية . وقد اعتقدوا باتحاد كافة الاشياء بقوى خفية متوزعة في الكون لا تقع تحت الحواس مع ان وجودها لا شك فيه ، ولم يميزوا تمييزاً كبيراً بين الكائنات الحية والكائنات الجامدة . فكان في رأيهم ان الاشياء المصنوعة تحيا على غرار النباتات او الحيوانات التي تتخذ طيلة الشتاء ، او البشر النيام ، وان لها وظائفها بحسب اشكالها ، وان صور الكائنات وتمثيلها ليست اقل واقعاً من هذه الكائنات . فان قطعة مادية صغيرة تلامس شيئاً ، او رسماً او رمزاً او كلمة ذات دلالة ، تنقل الى الشيء الفعل الذي يأتيه الانسان . كان الـ « سيو » ، قبل الصيد ، يرقصون « رقصة الدب » ، فيقلد الراقصون الدب بدقة ويتوجهون بأناشيدهم الى روح الدب لاستماتته واستعطافه . وكان الصيادون يصومون قبل السفر ، ويمتنعون عن الملائق الجنسية ، ويتطهرون ، ويتجملون برسوم خاصة ، ويبتهلون الى ارواح الحيوانات التي قتلوها في رحلات الصيد السابقة . واعتقدوا انهم انما يقيمون بذلك رابطة صوفية بينهم وبين ارواح الدبية ، وان الحيوانات ستقرب منهم وتعرض نفسها لضرباتهم . واعتبر الهنود غذاءهم بمثابة هبة طوعية من ارواح الحيوانات والنباتات . وفي حالات اخرى ، مثل الراقصون بالايما موت الحيوان المطارد . يرتدي الراقص جلد الحيوان وقتاعه ، وحين يصاب بالعماء ، يضرب بسهم لا حد له فيهبوي على الارض مقلداً الحيوان بسقوطه ثم يخرج من وسط الدائرة ، فيمثل صياد آخر بالايما تقطيعه وتجزئته ، ثم يليه صياد ثالث . ذاك كان المصير الذي ينتظر الحيوان لان الصورة بعض الاصل . وقد اعتبرت هذه الممارسات اعظم اهمية من المطاردة الفعلية . اما بعد الصيد ، ففرضت بعض الطقوس الممدة للحيولة دون انتقام الحيوان وروح النوع الذي ينتمي اليه . فتتلى صيغ مهدئة ، وتكرم الحيوانات المقتنصة ، وترفع الابتهالات حتى لا تنفر الحيوانات الاخرى وتقام صلوات الشكر .

يرد كل ذلك الى ان نشاط هؤلاء الهنود العقلي لم يتطور تطوراً يستحق الذكر . فلم يتكون لديهم بعد افكار او صور عن الاشياء مستقلة عن المواقف والتأثرات والاهواء التي كانوا يشمرون بها . كان فكركم حرداً اجمالياً يدرك فطرياً مجموعاً من الصفات . وسيطرت على كل ما يعرفون حالات غامضة لا تتبع التحليل والنقد . حكموا احكاماً على جانب من الاهمية . متناقضة منطقياً ، الا انها مقبولة شرط ان تكون من طبيعة المضمون التأثري نفسه . فلم يكن هنا ، والحالة هذه ، من مكان او عمل لمبدأ التناقض . اذا ما عوى كلب مثلاً ، او اسمعت بومة صمها صوتها على مقربة من احد الاكواخ ، فكان ذلك في نظر الهنود موجباً لقتل مالك الكوخ . ان الصوت الحزن ، والقشعريرة التي يحدثها ، وفكرة المصائب التي يوحياها ، والتمثيل العقلي لسيد الكوخ ، كانت تؤلف ، في وجدان السامعين ، كلا واحداً ، وتوجب من ثم ازالة سيد

الكوخ . لذلك لم يتقن الهنود الحساب الذي كان في نظرهم عملية شاقة . كانوا يدركون مسن نظرة واحدة ان كومة من الجلود اكبر من كومة اخرى ، وان قطعاً من البقر الوحشي يفوق عدداً قطعياً آخر مر قبله ، وما كانوا من جهة ثانية ليخطئوا في العدد في نطاق حدود معينة ، ولكن ما كانوا يدركونه اجمالياً هو مجموعة نوعية فقط . لم يحسبوا ولم يحلوا بتمييز العناصر المجردة بفكرهم وبرؤية كمية الزيادة في احدى الجهتين .

يتضح من ذلك ان حضارتهم لم تكن متدنية فحسب ، بل متوقفة وراقدة ايضاً . اذا كانت للاشياء وظائفها بحسب اشكالها ، واذا كان لحركات الصيد والفلاح اثرها الرمزي ، فان لأدنى جزئيات الشكل او حركات الاحتفالات الدينية امية رئيسية ، اذ ان كل جديد فيها يخلق وظائف جديدة ، وباستطاعته اثاره قوى خفية وامايد الف خطر وخطر . لذلك كانت كراهية هؤلاء الهنود لكل تغيير شديدة جداً . فكانوا يرتاعون مثلاً من الاطباء الاوروبيين ومعالجتهم ومن المفاعيل المشؤومة لخصائص الاشخاص والادوية الخفية . لم ينقلوا عن الاوروبيين سوى استخدام الحصان وبعض الاسلحة وبعض الادوات . اصف الى ذلك ان كل تقدم مشروط بتكون المفاهيم المجردة ، العامة ، تحت ظل مبادئ الذاتية والتناقض والسببية ، وبمراقبة هذه المفاهيم بواسطة للاختبار . فان تحديد المفهوم « حجر » لا يميز التصور بأن يكون للحجر حياة الكائن الحي الخفية وبأن يزعزع اركان عالم البدائين . ولكن هذا الانتقال من المنطق البدائي الى منطق المفاهيم ، الذي هو الشرط الاول للاستساغة ، عملية طويلة وصعبة جداً .

« مايا » في الدرجة العليا من الحضارة النيوليتية ، نجد ، في اميركا الوسطى ، قبيلة المايا .

احتل المايا على « المتوسط الاميركي » منطقة حارة توافق في المكان المكسيك الحالية ، وشرقي مضيق « تهنانتيك » وشبه جزيرة يوكاتان ، وغواتمالا باستثناء الشاطئ الباسيفيكي ، وغربي هوندوراس وهندوراس البريطانية . لقد احرق الكهنة الاسبانيون معظم مخطوطات المايا الهيروغليفية اعتباراً منهم بأنها تتضمن اكاذيب الشيطان . الا ان ثلاثة ابحاث قد وصلت الينا : في علم الفلك وعلم التنجيم والطقوس الدينية . ووصلت الينا كذلك مؤلفات بلغة المايا والايچيدية الاسبانية وضعها بعض البلديين بعد الفتح تؤلف موجزاً لاجبار تاريخ المايا . ولدينا ايضاً التقرير المفصل الفريد الذي وضعه الاسقف لاندا (١٥٦٦) . ولدينا اخيراً اطلال ١١٦ مدينة من مدن المايا اظهرت واكتشف بعض ابنيتها وكتاباتا بعد استئصال نباتات المناطق الحارة منها ، والمايا الحاليون الذين اثبتت مقارنتهم بالآثار والرسوم التي وصلت الينا انهم احتفظوا بالشيء الكثير من اجدادهم وان باستطاعتنا سد بعض فراغ المستندات بالمراقبة المباشرة . اجريت بعض اختبارات زراعة الذرة الصفراء بحسب طرائق المايا تحت رعاية مؤسسة كارنجي في واشنطن . فيبدو ان حضارة المايا حضارة بلدية اصيلة نمت محلياً ، بمجرد علاقة العنصر البشري بالبيئة الجغرافية ، دون اي اقتباس عن الخارج ودون تأثيرات خارجية

ربما منذ ثلاثة الاف سنة قبل يسوع المسيح . ارتكزت هذه الحضارة الى ادوات من عهد الحجر المصقول ، والكتابة الهيروغليفية ، وزراعة الذرة الصفراء . وقد بدت ، عند وصول الاوروبيين ، وكأنها بلغت منتهى النمو الفكري الممكن بلوغه في هذا المجموع ، واستقرت منذ خمسة عشر قرناً ، فلم تحرز بعد ذلك اي تقدم .

الميزات الطبيعية والاخلاقية
المايا متوسطو القامة ، عراض الكتفين ، متقمر الصدر ، طوال الساعدين ، كبار الرأس ، نحاسيون اللون ، شعرهم اسود مستقيم .
الرجل امرد اللحية والشاربين على العموم .

مقاييس الجمال في نظرهم انخفاض في الجبهة وحول في العين يُكتسبان بشد خشبة الى الجبهة وبتعليق صكرة صغيرة من الراتنج بين العينين منذ الولادة . يتحلون بالقوة وصحة البنية والنشاط والعزم والجلادة على العمل ولا يصابون بالمرض الا نادراً . انهم اشبه شيء بالصينيين: يحبون المرح والثروة والحياة الاجتماعية والضحك والمزاح ، يملون بالفطرة الى الكرم والثقة بالغير وملاطفة الغرباء ومصادقتهم ، ويدركون كل الادراك معنى العدالة والشرف والزهامة ويتحلون بروح الملاحظة والتخيل ويحسون بالجمال . عواطفهم العائلية قوية جداً . الوالد يتمتع بسلطة كبرى . يكون الاحترام للاشخاص المتقدمين في السن . البنون مرغوب فيهم جداً ، والزيجات تعقد في سن مبكرة ، ١٢ سنة للفتيات و ١٤ للفتيان ، ونسبة الولادات مرتفعة تبلغ بين ٥٠ و ٦٠ ٪ وبين ٧ و ٩ اولاد بالمائلة يبقى منهم في قيد الحياة بين ٣ و ٤ . وعلى الرغم من ذلك فان الاخلاق اباحية ، والطلاقات غير نادرة من كلا الجانبين . يتزوجون بين ١٠ مرات و ١٢ مرة متتالية ، وللنساء عشاقهن ، وللمتبات عشاقهن ايضاً وقد ينجبن الاولاد قبل الزواج ولكنهن يتزوجن بدون صعوبة على الرغم من كل ذلك .

يحمل الرجال طريدة قطنية تلتف حول القد وتمر بين الساقين يتدلى احد طرفيها من الامام والطرف الآخر من الورا ، ومرعباً من القماش بيكل عند الكتفين بمثابة معطف . شعر الرأس يقص في مقدم الرأس وتتدلى منه ذؤابة طويلة على الظهر . يدهن الجسم والوجه باللون الاسود . حتى الزواج باللون الاحمر بمد ذلك . اجسام المحاربين تدهن باللونين الاسود والاحمر ، والكهنة باللون الازرق ، والاسرى بخطوط افقية بيضاء وسوداء . يستوشمون ويتمطرون . النبلاء والكهنة يتألقون : ارياش ، وزين يشب واقراط صدف وجلود فهد واسنان تماسيح وعقود واساور وقبعات مزدانة بالريش ، وارياش فاخرة خضراء وزرقاء تتلون بالوان قوس قزح للقادة والرؤساء .

اما النساء فيرتدين الغلالة القطنية المطرزة بالزهور والطيور والحشرات ، ويحملن معطفاً طويلاً ويفطين رأسهن بقطعة من القماش . يرسلن شعرهن ويتوشمن ويتطين .

الادوات المادية عرف المايا استعمال النار . واستخدموا مواد عهد الحجر المصقول من مطارق وفؤوس ومناحت نسيقية وصوانية، ومطارق خشبية مصلبة ، وعصي خشبية بواسطة النار . لم يستخدموا المعادن . اما النحاس والذهب فلم يستعملوهما الا للزينة وقد استوردوا من بلدان اخرى . جهلوا المسامير واستعاضوا عنها بالترُّبط النباتية . توصلوا الى ادجان المديكة الهندية والنحل ، ولكنهم لم يقتنوا حيواناً واحداً لحمل الاثقال ولم يعرفوا العجلة . نقلوا الاثقال كلها على رؤوس الرجال .

يتبين من ثم ان وسائل عملهم في الطبيعة كانت محدودة جداً . ولكنهم استطاعوا بلوغ مستوى فكري وسياسي رفيع بفضل الذرة الصفراء . يبدو ان الذرة الصفراء متأصلة من مرتفعات غربي غواتمالا حيث يوجد اليوم النبتان البلديان الوحيدان اللذان ينموان مع الذرة الصفراء واللذان هما ، بالتالي ، من النوع نفسه . ويفلب على الظن ان المايا هم الذين جعلوا منها نباتاً زراعياً واعطوا بذلك نبات الخلاص كافة قبائل الفلاحين في اميركا . زرع المايا الذرة الصفراء وفقاً لطريقة الـ « ملبا » (جمع الاعشاب واحراقها وذرّ رمادها) . ففي اذار ونيسان يحرقون الاعشاب اليابسة ؛ بعد امطار ايار الاولى ، يحدثون في الارض المحصبة بالرماد ، بواسطة قضيب مقرن ، ثقوباً يودعونها الحبوب . يزرعون تبعاً لثلاثة انواع من الذرة الصفراء : نوعاً ينضج بعد شهرين ونصف الشهر ، وآخر بعد اربعة اشهر ، وثالثاً بعد ستة اشهر . وبعد نزع الاعشاب تكرر اوجي السنبل في ايلول او تشرين الاول لمنع تسرب المياه اليها وتعمدي الطيور على حبوبها ، يجمعون الحصاد بين كانون الثاني ونيسان . يقتضي ١٤ هكتاراً ونصف الهكتار تقريباً لتغذية عائلة طيلة سنة كاملة ، وبالاستطاعة انتاج الكفاف خلال ثمانية واربعين يوماً . فيتبقى من ثم فائض طاقة معد لتمهد الاختصاصيين والكهنة والحاربين المعفين من الاعمال اليدوية ولتجهيز الادوات العلمية والدينية : المعابد ، المراصد ، الاهرام ، القصور ، وساحات الرقصات الطقسية . وهكذا تمكن المايا من بلوغ المستوى الفكري الذي بلغه اقوام استخدموا ادوات فضلى واستعملوا الشبه والحديد والعجلة : الكلدانيون والبابليون والاشوريون والمصريون والاعريقى والصينيون .

التجهيز الفكري بيد ان مستوهم الديني والعلمي والفني قدفاق مستوهم التقني الى حد بعيد . بلغ المايا الدرجة الثانية من درجات الفكر البشري التي وصفها « ابيل راي » ، اي الدرجة التي نعتمها « ر . برتلو » بالـ « استرو بيولوجية » . والاستروبيولوجيا مرحلة من مراحل القول بتعدد الالهة حيث يعتبر كل شيء ، حتى السماء والكواكب ، كائناً حياً على غرار الحيوانات والبشر ، وحيث يخضع كل شيء ، على غرار الكواكب ، لسنن دورية ، اي سنن الضرورة وسنن التوافق وسنن الاستقرار معاً ، التي توحىها الحركات الدورية في القبة الزرقاء ، وتعاقب الفصول المنتظم ، وتجدد الحياة النباتية كل سنة ، وحيث يعتبر كل شيء ، الاحداث والاعمال ، مرتبطاً بمواقع الاجرام السماوية وحركاتها . يضاف الى ذلك من جهة ثانية

ان زراعة الذرة الصفراء الفضلى تستلزم تقدم علم الفلك الذي يفرض استخدام كتابة وهندسة عمارة ، ومن ثم تنظيمياً اجتماعياً وسياسياً كاملاً .

تكلم المايا لغة بسيطة متقدمة اقل تصريفاً اسمياً وفعلياً من اللغة الاسبانية واسهل تعلماً على الانكليزي من اللغة الاسبانية ايضاً . استخدموا كتابة هيروغليفية تعبر عن الافكار تمثلياً على غرار الكتابة الصينية ، فكانوا من ثم في مرحلة تطور تتقدم مرحلة الكتابتين المصرية والمسارية السومرية اللتين تتضمنان عدة عناصر صوتية مقطعية . اما ما خلفوه من كتابات فيبحث في التاريخ والفلك والدين ، لا في الفتوحات واجداد الامير .

انهم اول من ابتكر في العالم ، منذ ثلاثة او اربعة الاف سنة قبل يسوع المسيح في الاربع ، العد استنباداً للمرتبة واستخدام الصفر ، وهذا يفرض قدرة كبرى على التجريد الفكري . ارقامهم اكبر من الارقام الرومانية ! استخدموا رمزين عوضاً عن ثلاثة ورتبوهما بواسطة الجمع والطرح . واليك هذه الارقام .

- | | | |
|----|------------|---|
| ١ | • | طريقتهم عشرينية : ٢٠ وحدة من المرتبة الاولى او « كن » ، تؤلف وحدة |
| ٢ | •• | من المرتبة الثانية ، اي جزءاً من عشرين او « فينال » ؛ ٢٠ فينالاً تؤلف |
| ٣ | ••• | وحدة من المرتبة الثالثة ، او « تون » ، الذي يساوي ٤٠٠ كن ؛ ٢٠ |
| ٥ | - | تونا تؤلف وحدة من المرتبة الرابعة ، او « كلتون » ، الذي يساوي ٤٠٠ فينال |
| ٧ | ••••• | و ٨٠٠٠ كن ، الخ . القيم تزداد عشرين عشرين ، من أسفل الى أعلى ، بدلا |
| ٩ | •••••••••• | من عشرة عشرة ، من اليمين الى اليسار كما في طريقتنا . |
| ١٠ | ===== | لترتب اذن من أسفل الى أعلى ، ارقام المايا التي تقابل ٢٨٠٠٠ وحدة . |
| ١٤ | ===== | |

ثلاثة « كلتون »	•••	ثلاث وحدات من المرتبة الرابعة
عشرة « تون »	=	عشر وحدات من المرتبة الثالثة
صفر « فينال »		صفر وحدة من المرتبة الثانية
صفر « كن »		صفر وحدة من المرتبة الاولى

تساوي ٢٨٠٠٠ كن .

وكانوا اول من طلع بفكرة قاعدة ثابتة للتاريخ بدلا من التاريخ وفاقاً لسني ولاية الرئيس . انطلقوا من حدث فرضي بحيث ان نقطة الانطلاق (الصفر) قد سبقت اول تواريخهم المعاصرة للاحداث بـ ٣٤٣٣ سنة . كان لهم سنتان ، سنة مقدسة تبلغ ٢٦٠ يوماً ، وسنة شمسية موزعة على ١٨ شهراً من ٢٠ يوماً وشهر من ٥ ايام . تأخرت سنتهم الشمسية يوماً كل اربع سنوات وعرفوا كيف يصححون هذا التأخير . كان حسابهم للتاريخ دقيقاً جداً على غرار ملاحظاتهم .

حددوا مدة السنة بـ ٣٦٥,٢٤٢٠ يوماً ، ويبلغ النقص فيها ٢,١٠٠٠٠ ، في حال ان سنتنا الغريغورية محددة بـ ٣٦٥,٢٤٢٥ يوماً وتبلغ الزيادة فيها ١٠٠٠٠,٣. وعرفوا مدة الشهر القمري، ٢٩,٥٣٠,٥٩ يوماً ، وادرجوا اشهرأ من ثلاثين يوماً بمهارة كلية جعلت الفوارق بين الرزنامة والهلل لا تتعدى يوماً كل اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أرباع السنة ، وفي ذلك ما فيه من الدقة . وعرفوا النجم القطبي والثريا والجوزاء ، ولعلمهم قسموا مجرى الشمس الظاهر الى بروج أيضا . كانت مدنهم مرصد تنظم كل الحياة . أقاموا اهراماً بسيطة وأهراماً ذات سطوح في الاتجاهات التي يشاهد منها شروق الشمس في مواعيد انقلاب الشمس ومعادلة الليل للنهار . كان الكهنة يراقبون شروق الشمس من هذه الاهرام بالنظر اليه بين عصي متقاطعة ويحددون التاريخ بالزاوية التي يؤلفها خط الموقع المتكون بفعل هذه المراقبة مع خطوط انقلاب الشمس ومعادلة الليل للنهار ويعينون موعد تنفيذ اعمال الحقول . وغني عن البيان ان عودة الكواكب دورياً الى مواقعها التي ترتبط بها تقلبات أمطار المنهاتق الحارة ، وموعد نمو النباتات ، والنشاطات البشرية ، قد أوحى ببنيان واسع الاطراف من السنن المتناسقة .

ديانة المايا اعتقد المايا ان العالم يؤلف وحدة حية . نسبوا صفات البشر الى كافة قوى الطبيعة . حافظوا على رواسب كثيرة من المذهب القائل بوجود الروح في كافة الاجسام الحية . ولكن الكهنة تمخضوا في عقلمهم بزون متسلسل السلطات . في القمة يجلس على العرش « هوناب » الخالق الذي لم يسمح سموه باللجوء اليه في الحياة اليومية . ويليها ابنه « اتزاما » سيد السهوات ، الاله الشمسي ، الذي ابتكر الكتابة والكتب والرزماء وعلم التاريخ وكان الهاً كثير الاحسان وصديق الانسان ابداً . ويليها « شاك » ، الاله الواحد في أربعة اقانيم تقابل الجهات الاربع ، الذي كان إله المطر والرعد والبرق والابخاص والزراعة . أما إله الذرة الصفراء فكان لها شابا يعني بالازدهار والوفرة . وكان هنالك إله الموت ، وإله الحرب ، وإلهة القمر ، وإلهة الانتحار ، وآلهة الاعداد، وجمهرة من صغار آلهة المطر والحقول والاشجار، الخ.

فسرت الكون ومصير الانسان روايات اسطورية . « هوناب » خلق العالم الذي سبقته عدة عوالم خرب الطوفان كلا منها بذوره ؛ وهذا هو المصير الذي ينتظر هذا العالم . يشمل هذا العالم ١٣ سماء ، آخرها الارض ، و ١٣ دائرة جهنمية . وهو مركز الصراع بين الخير والشر ، بين آلهة الخير الذين يوفرون النور والرعد والمطر والذرة الصفراء والوفرة، وبين الهة الشر الذين يتسببون في الحرب والاعاصير والمجاعة والشقاء . وخلق « هوناب » انسان الذرة الصفراء . يحاول الانسان استعطاف الآلهة بالصوم والزهد والقرايين والصلوات والرقصات الطقسية والرش بالدم البشري ، والذبايح البشرية . اذا كانت الضحية جنديا باسلا مقداما يقطع جسمه ويأكله المشاهدون . النفس خالدة وستذهب اما الى الفردوس واما الى جهنم . المنتحرون شقا ، والمجربون الذين يقتلون في المعركة ، وضحايا الذبايح ، والحوامل اللواتي يمتن أثناء الوضع ، والكهنة ، يذهبون توأ الى الفردوس ، مكان الراحة الابدية ووفرة الماكل والمشرب . أما في

جهنم فيعذب الشياطين الهلكى عذاباً ابدياً بالجوع والبرد والعياء والحزن .

التنظيم السياسي والاجتماعي
يجمع المايا مدناً ، في مساحة قابلة للاصلاح الزراعي ، حول مركز فلكي وديني مشترك . الفت المدن أحياناً اتحادات تقرر في اجتماع الرؤساء في نقطة متفق عليها ، ولكنها استمرت في العيش منعزلة ، ولم تستطع قط تأليف دولة اقليمية . ويرد ذلك الى ان المايا لم يكونوا مجهزين تجهيزاً حسناً للتغلب على المسافة . أجل لقد توفرت لديهم طرقاً مرصوفة بالحجارة ومغطاة بطين كلسي ، ولكن هذه الطرق لا تحتل سوى المرتبة الثالثة اذا ما قورنت بطرقات الـ « إنكا » .

كان مركز المدينة مدينة قائمة بحد ذاتها تنتصب فيها ، حول الساحات العامة ، المعابد والاهرام ، والاديرة ، والقصور . وبلي ذلك مساكن الاغنياء . وتقوم أخيراً بيوت مشتتة في ضواح طويلة . ليس هنالك من شوارع ، لذلك كان منظر هذه المدن ريفياً جداً . ويغلب على الظن ان الكثافة لم تتجاوز ٣٠٠ نفس في الكيلومتر المربع . ربما بلغ سكان المدن الكبرى ٢٠٠٠٠٠ نفس والمدن الثانوية ٥٠٠٠٠ . وربما بلغ عدد سكان بلاد المايا كلها ١٥ مليون نفس (مقابل مليونين في أيامنا) .

بقيت مدينة المايا مدينة ملكية من الطراز الاغريقي . بعد ان عرف المايا نظاماً مماثلاً لكـ « جينوس » يحكمها الـ « هالاك فينيك » بالوراثة في عائلة واحدة من كل مدينة بحسب تسلسل البكورية الذكرية . يجمع في شخصه كل السلطات الدينية والعسكرية والمدنية . يختار من بين أفراد ارسوقراطية وراثية الـ « باتاب » أي رؤساء القرى التابعة للمدينة . البساتاب يقود الجنود ويرأس المجلس المحلي ويفصل في الدعاوى ويسهر على ان تدفع الضريبة للهالأك فينيك وان تحرق الحقول وتزرع في المواعيد التي يحددها الكهنة . النبلاء يحافظون بكل عناية على توارثهم العائلية وانسابهم وذكرياتهم . الكهنوت وراثي أيضاً ، وانما يحق لاشقاء ابيكار النبلاء ان يصبحوا كهنة . رؤساء الكهنة ينحدرون وراثياً من عائلة واحدة . الكهنة رياضيون وفلكيون واداريون وعرفاء ومقربو ذبائح ، يحكم كهنوتهم . يمارسون العرافة والنبوءة ، وينجمون ، ويعزمون من مسهم الشيطان وينبئون بالكسوفات والخسوفات ويفيدون عن المطر والجفاف . الجميع يهابونهم ويحترمونهم . أما افراد عامة الشعب فيمارسون ، ابا عن جد ، زراعة الذرة الصفراء واعمال البناء والخدمة العسكرية ، ويدفعون الضرائب ويقدمون الهدايا لاسيادهم والقرايين للآلهة . ويوفر الارقاء واسرى الحرب والايتام والسارقون المحكومون يدا عاملة اضافية .

أما بصدد نظام التملك فنحن نفتقر الى المعلومات .

لا تثبت المدن في مكان واحد . فليس نادراً ان يهاجر السكان مدينتهم ليذهبوا وبينوا مدينة اخرى في ارض جديدة من اراضيها . ويرد ذلك الى ان الزراعة في الارض المحرقة تستلزم

الاحراج والسباسب . فيستحيل من ثم متابعتها أكثر من خمس سنوات في المكان الواحد ، لا سيما وان العشب يغزو الحقول بعد هذه المدة ويحرق الذرة الصفراء النامية . لذلك يقتضي استبدال الحقل قبل استنفاد طاقته الانتاجية . فعندما تصبح أراضي المدينة غير صالحة للزراعة ، يتوجب نقل المدينة الى مكان آخر . زد على ذلك ان الموتى يدفنون في البيوت ، والمايا يخشون الموتى ، ويغادرون بيوتهم بعد وقت معين .

انحطاط المايا
كان المايا في دور انحطاط عند قدوم الاسبانيين . فبعد عهد متطول سبق المايا ربما منذ ٣٠٠٠ سنة قبل يسوع المسيح حتى السنة ٣٥٣ قبل يسوع المسيح ، وبعد عهد اعداد منذ السنة ٣٥٣ قبل المسيح حتى السنة ٣١٧ بعد المسيح ، اكتملت فيه حضارتهم ، عرف المايا العهد المدعو بالامبراطورية القديمة (٣١٧ بعد المسيح حتى ٩٢٧ بعد المسيح) . وقد بلغت حضارة هذا العهد ذروتها في الشمال الشرقي من « بيتن سنترال » في « تيكال » و « اواكزاكتوم » بين السنة ٦٢٣ و السنة ٧٣١ ، وذروتها الجمالية بين السنة ٦٩٢ و ٧٩٥ . ثم بدأ الانحطاط وهجرت المدن الواحدة تلو الاخرى . وحين اجتاز « كورتيس » منطقة « بيتن » من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي في السنة ١٥٢٤ - ١٥٢٥ كانت احراج المناطق الحارة قد غطت المدن كلها ، ولم يشاهد الاسبانيون الالون « ياكشيلان » و « تيكال » الا في السنة ١٦٩٦ . ولعل عدد السكان قد أصبح مرتفعاً جداً بالنسبة لامكانات نظام المايا الزراعي ، فجر ذلك الى ارتفاع الاسعار والاضطرابات الاجتماعية وروال الانتظام الحكومي والاضطرار الى الهجرة . فاستوطن المايا يوكاتان تدريجياً .

تلا ذلك النهضة والعهد المدعو بالامبراطورية الحديثة (٩٨٧ - ١٦٩٧) . ففي القرن العاشر تسربت من الجنوب الشرقي بعض قبائل المايا ، ال « اتزا » ، التي است « شيشن اتران » (٩٨٦ - ٩٩٨) . واقامت بعض القبائل المكسيكية المتأثرة بحضارة المايا والحاضرة لهائلة « كوكوم » في « مايا بان » ، والبعض الآخر في « او كسهال » بقيادة ال « كسيو » (٩٨٧ - ١٠٠٧) . احدثت هذه القبائل في تحالف « مايا بان » فعرفت للبلاد عهد ازدهار : نهضة المايا . ولكن حرباً اهلية اندلعت في السنة ١١٩٤ انتهت بانتصار الكوكوم بفضل المرتزقة المكسيكيين . ففرضوا على جميع نبل المايا الاقامة في « مايا بان » كرهائن . وفي السنة ١٤٤١ ، ثار رؤساء المايا ، بقيادة الكسيو في او كسهال ، وقتلوا الكوكوم الا واحداً وقوضوا مايا بان وولوا هارابين .

بدأ حينذاك عهد تفكك والحلال . اخلت كافة المركز الكبرى . وهاجر الاتزان شيشن اتزان ، واقاموا على ضفاف بحيره « بيتن » في « تايازال » . اما الشخص الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من عائلة كوكوم فقد استس مدينة تيبولون مع شتات قبيلته . ولم يرجع الكسيو انفسهم الى او كسهال بل اسسوا مدينة جديدة ، « ماني » . وتجددت بين الكسيو والكوكوم حرب لا هوادة فيها . وتجزأت يوكاتان ولايات صغرى متعادية . زد على ذلك ان بلاد المايا التي خربتها

الحرب قد دمرتها الاعاصير في السنة ١٤٦٤ وفتك بسكانها الطاعون في ١٤٨٠ ، والجفاف ووباء الجدري الذي نقل الاوروبيون جرثومته منذ السنة ١٥١١ ، في السنة ١٥١٥ والسنة ١٥١٦ . وقد افضى كل ذلك الى اضعاف المايا معنوياً . فقد المحطت ديانتهم . واشركهم المكسيكيون في ميلهم الى المجازر البشرية ضحية للآلهة . ولم يعد فؤادهم ليسمو حتى عبادة الخالق والآلهة العظام المحسنين ، بل غدا كل شيء موضوعاً لعبادتهم بسبب جبنهم وحرصهم على استرضاء كل القوى . وفقدوا اخيراً الايمان بمحضارتهم . ثقلت عليهم المصائب فاقتنعوا بأن الازمنة قد انتهت . وما ان وصل الاوروبيون حتى تنبأ الكهنة بأن المايا سيتخلون عن آلهتهم . ولكن متى يكون ذلك ؟ لاحظوا ان احداثاً مخزنة تجري في تاريخ المايا في فترة العشرين سنة التي تنتهي بيوم ٨ « آهو » : اخلاء « شيشن اتزا » الاول (١٦٧٢) ، المؤامرات ، الحروب ، هزيمة الكوكوم ، هزيمة مايبان ، الخ . ولما كان مثل هذه الفترة سيتجدد بين السنة ١٦٩٧ والسنة ١٧١٧ ، فقد نظروا الى العشرين سنة هذه كما الى الوقت الذي حددته الآلهة . فان آخر مركز من مراكز مقاومة المايا « تايارال » ، قد سقط في ١٣ اذار من السنة ١٦٩٧ ، دون حدوث معركة تقريباً ، لان الوقت الذي يفصلهم عن بدء الفترة المشؤومة هو ١٣٦ يوماً : فلا فائدة من مواصلة المقاومة . ان حضارتهم ارتكزت الى ملاحظة تكرار الارتباطات نفسها لالى التحليل ودرس الحدث الطبيعي درساً عقلياً منطقياً . وليس ما يبدل على انهم تخيلوا نظاماً شمسياً بغية تفسير الظواهر . فكانوا من ثم عاجزين عن التمييز بين الملل الحقيقية ومجرد المصادفات ، وحين تعرضوا للنكبة ، انهارت اعصابهم واستسلموا لليأس لانهم لم يميروا اهتمامهم الا بالاتفاقات المشؤومة . لذلك وجد الاسبانيون امامهم مجتمعاً في طريق الانحلال الكامل .

٢ - حضارة العصر النحاسي حضارة الازتيك

لم يتصل الاسبانيون اتصالاً جدياً بهنود بلغوا مستوى حضارياً ارفع الا بعد اتصال دام ٢٧ سنة بمحضارات نيوليتية وبعد ان تكونت آراء كثيرة حول الهنود وتحددت مواقف كثيرة . في السنة ١٥١٩ شرع كورتيس في فتح المكسيك ، وما لبث ان حارب الازتيك .

لقد عقب الفتح في المكسيك ، كما عند المايا ، وكما في كل مكان ، تدمير منظم سكان المكسيك للكتابات البلدية . ولكن ما نجما منها هنا يفوق ما نجما في بلاد المايا ، اي حوالي الثلاثين معظمها سابق للفتح . ولدينا بالاضافة الى ذلك مؤلفات الاسبانيين التي نخص بالذكر منها رسائل كورتيس ومذكرات رفيقه « برنال دياز دل كستلو » ومؤلفات « غومارا » و « موتولينسا » و « اوليس » و « كلايفجرو » والنتخبات الكثيرة التي جمعها الاب « دي ساهاغون » . يضاف الى كل ذلك المستندات الاثرية العديدة التي توفرت للباحثين .

عند قدوم الاسبانيين كانت بعض القبائل البربرية التي جمعها الاسبانيون تحت اسم «شيشيميك» تعيش الى الشمال من نهر «ريولرما» وبحيرة «شابالا»، في البورات الفنية بالصباريات في النجد الاوسط. هؤلاء هم بدو المكسيك. يتنقلون عراة. يتقنون رمي السهام ويعيشون من حصيلة قنصهم التي يكلونها يجني الثمار ولا سيما ثمر الصبار. ليست لهم معابد ولا اصنام. يعبدون الشمس. يهون الاستقلال بشراسة ويبرهنون عن عدائهم لكل حياة اخرى.

على الشواطئ عاشت قبائل من البلدين البدائيين نسبياً، القناصين، القطفين، أكلة لحم البشر عند الحاجة. ولكن هؤلاء البلدين كانوا اهل حضر وعرفوا بعض مبادئ زراعة الذرة الصفراء. وكانوا كذلك شديد التمسك بالاستقلال ويشق عليهم ان تفرض عليهم ضريبة ما.

اما في المناطق المروية من نجد «اتا هواك»، وفي وديان واحواض «ميشوكان» و«اوكساكا»، التي تكثر فيها النباتات العشبية، فقد عاشت قبائل مختلفة تجمع بينها عناصر حضارة مشتركة، هي حضارة ال«تولتيك»، المتأثرة بحضارة المايا. وقد برز بينها المحباد الازتيك، «مكسيكو»، و«تراكوكو»، و«تلاكوبان»، الذي غدا اهمها سياسياً وامتدت امبراطوريته في اواخر القرن الخامس عشر من المحيط الى المحيط ومن البدو الى المايا. الا ان بعض الشعوب قد حافظت على استقلالها في هذه الامبراطورية مؤلفة الجيوب التالية: دولة «تلاكسكالا»، دولة «متزيتلان»، دولة ال«وييس»، دولة ال«مكستيك»، في «توتوتيك»، دولة ال«ناراسك» في «ميشواكان». وحافظت على استقلالها الداخلي، بدفع الضريبة للارتيك، «شوهيلا»، و«هواجوتزونغا» و«تهواكان»، وجزء من منطقة ال«مكستيك» وبلاد ال«زابوتيك»، وجزء من منطقة ال«هواستيك»، و«شياباس»، و«سوكونوسكو».

لم تكن حضارة الازتيك حضارة بلدية اصيلة على غرار حضارة اوجه التشابه بين الازتيك والمايا
المايا. فقد جاء الازتيك الفاتحون من الشمال في عهد غير بعيد، ربما في القرن الثاني عشر. كان موقف البلدين منهم موقفاً عدائياً، فتشردوا زمناً طويلاً ثم اقاموا في جزر المستنقعات الوحلية ودخلوا في حرب دائمة ضد جيранهم بغية تأمين مياه الشفة والارض الصالحة للزراعة. لذلك تطور نظامهم في سبيل الحرب، فانتقل من نظام المشائر الى نظام المدينة. في القرن الرابع عشر، وفي السنة ١٣٥٢ بالضبط، انتخب «اكامابيتشلي» رئيساً، او «تلاكاتيكوهتلي» في مكسيكو. ومنذ هذا التاريخ انتخب ال«تلاكاتيكوهتلي» ابداً من عائلته، فنقلت هذه السلالة ما لم يكن سوى مدينة حقيرة في المستنقعات الى رأس امبراطورية عظيمة. منذ السنة ١٤٢٥، شرع ال«تلاكاتيكوهتلي» «اتراكواتل» في فتح شواطئ المستنقع واسس الاتحاد الازتيك، مرتكز الامبراطورية. في منتصف القرن الخامس عشر بلغت جيوش الاتحاد خليج المكسيك في ولاية «فيراكروز» الحالية. وفي اواخر القرن بلغت مضيق «تهانتيك» وحدود «ميشواكان». وحوالي السنة ١٥٠٠ وصل

الازتيك الى « ريو بانوكو » في الشمال و « شيايا » وغواتيمالا في الجنوب الشرقي .

على غرار المايا ، جهلوا العجلة والعقد ، ولم يقتنوا حيوانات جبر ولا حيوانات ركوب .
الا انهم سمنوا الكلاب الصغيرة والديكة الهندية والتدراج . وعلى غرار المايا استخدموا بصورة
خاصة ادوات نيوليثية : اوارر بحجينة لرسم الاتلام ، مقالب من الحشب الصلب ، سكاكين ،
دبابيس ، رؤوس نبال ، حدود فؤوس من حجر اسود ؛ اقواس ، سهام ، مقاليع ، دافعات
لقذف المعزات ، رمح من خشب قاس مجهز بصوانة حادة . صنعوا الخزفيات دونما دولا ب .
وحاكو اقمشة قطنية ، واقمشة ناعمة من خيوط الباهرة ، واقمشة اخرى من الياف النخيل ومن
وبر الارنب الذي سد مسد الحرير . ولونوا هذه الاقمشة بالوان جميلة ، النيلي ، الاخضر الزاهر ،
البرتقالي ، الاحمر . ارتدى الرجال وزرة ودثاراً ، والنساء قميصاً طويلة وثوباً داخلياً .
وروعيت في صناعة الدثر المرتبة الاجتماعية . وروعيت المرتبة الاجتماعية كذلك في تزين
الرجال بالحلل الذهبية والاقراط واهلة الانف والقبعات الريشية الكبرى . وعلى غرار حضارة
المايا ، ارتكزت حضارتهم الى الذرة الصفراء التي سحقوا حبوبها على صفيحة حجرية بواسطة
اسطوانة حجرية واستهلكوها اقراصاً يسطحون عليها عجينة من الفاصوليا والفلفل المسحوق ،
وأكلوا بالاضافة الى ذلك الشوكولاتة واليقطين والبطاطا الحلوة ، والبطاطا الصينية والذبان
ويبوض الذبان وشربوا المشروبات الخمرة ولا سيما روح عصير الباهرة وشربوا الدخان لفافة
او بواسطة الغليون .

وعلى غرار المايا ، بلغوا مرحلة نسبة صفات البشر الى قوى الطبيعة ولكنهم بدأوا يتخطونها .
ففي القمة يوجد اله مجهول خالق كل شيء ، لا اسم له ولا اسطورة ولا وجه ، يتعلى ببعض
مميزات « الارلي » في الفصول الاولى من التوراة . شيدوا له معبداً وعبده . ولكن الالهين
الرئيسيين كانا عملياً وهويتزيبولوبوشي ، المشترك مع « نتركاتليوكا » . هويتزيبولوبوشي هو شمس
الربيع الفتية ، اله الحرب . وتنتزكاتليوكا هو شمس الصيف ، منضج الحصاد ، اله الموسيقى
والرقص ، شفيح المراهقين . وكان لهم زون متسلسل السلطات يتميز جميع آلهته بطابع شمسي
او نجمي . مثل آلهتهم قوى الطبيعة المشبهة بالنجوم ووزعوا وفقاً لجهات الفضاء الثلاثة
عشر وبحسب مستويات ثلاثة ، مستوى الارض ، ومستوى سميت الرأس ، ومستوى سميت
القدم ، التي لكل منها اربعة اتجاهات ، يضاف اليها المركز . وان آثار المذهب القائل بوجود
الروح في كل الاجسام الحية لا تحتاج الى برهان اذ ان عدداً كبيراً من صفار الالهة والشياطين
وعفاريت ما خارج الارض وداخلها تملأ الطبيعة كلها . وكانت معابدم اشبه بمراصد المايا .
وفسر الازتيك العالم بالخرافات . فالالهة خلقوا على التوالي اربعة عوالم تضيئها اربع شموس
مختلفة . اضاءت العالم الاول شمس من الحجارة الكريمة ولكن الامطار اغرقت كل شيء ؛
تحول بعض البشر الى اسماك انحدرت منها الاسماك الحالية . واضاءت العالم الثاني شمس من نار .
ولكن امطاراً من نار استعملت نهايته وتحول البشر الى دجاج وفراس وكلاب . وعقب هذين

العالمين عالم شمس الظلمة . تغذى البشر فيه بالفار والراينج . محققتهم الزلازل او افترستهم الحيوانات الضارية . ثم جاء دور العالم الرابع ، عالم شمس الريح . اقتدات البشر بالاثار . محققتهم العواصف الهوجاء وتحولوا الى قردة . واخيراً خلق العالم الحالي « تنزكاتلييوكا » ، شمس الصيف ، منضج الحصاد . وسيدمر هذا العالم بدوره ايضا .

آمن الازتيك باستمرار الحياة بعد الموت . فان عامة الموتى يذهبون الى « مكنتلتيكوهنتلي » وزوجته « مكنتلسيهواتل » الذين يتسلطان على انهار تسعة تجري تحت الارض وعلى ارواح الموتى . ويذهب المحاربون الذين يسقطون في ساحة الوغى أو تهرق دماؤهم على حجر الذبائح ، والنساء اللواتي يقضين في الوضع ، الى السماء وسمت الراس حيث يقيمون في قاعات منزل الشمس . ويذهب الفرقي والمجدومون ومرضى الداء الزهري الى جحيم من الدرجة الثانية . ولكن الازتيك جهلوا مفهوم المسؤولية الشخصية ، وبالتالي احترام القانون الاخلاقي ، والثواب ، والعقاب : فالمهم في نظرهم هو الظروف التي اكتنفت موت الانسان . واذا هم تحملوا بالطاعة واللطف والبساطة والصبر ، فانهم قد مالوا بالفطرة الى السرقة والمداينة والكسل وشرب المسكرات . « وكان من المسلم به ان يكون للرجال ، خارج الزواج ، علائق جنسية بنساء اخرى غير متزوجات ؛ فكان البغاء من ثم معترفا به ؛ ولم يكن نادراً ان يقدم عامة الشعب بناتهم سراي للنساء . » وقد استسلموا الى أكثر الاهواء اخزاء وكان التلوط منتشرأ جداً .

يذكرنا تجهيز الازتيك الفكري بتجهيز المايا في كافة نواحي فكرهم : الطريقة العددية العشرينية نفسها ، عد المركز نفسه باستثناء الصفر الذي لا وجود له ؛ السنة المقدسة نفسها (٢٦٠ يوماً) والسنة الشمسية نفسها (٣٦٥ يوماً موزعة على ١٨ شهراً من ٢٠ يوماً وشهر واحد من خمسة أيام) ، ولكن دون التصحيح الضروري لاعادة التطابق بين السنة المدنية والسنة الشمسية ؛ وكتب الازتيك على طرائد كبرى من رق الابل أو لب الباهرة ، مغطاة بطلاء كلسي ، تلف كما يلف الحاجز الواقي من الهواء . رسموا الاشكال بشوك الباهرة وملأوا الاقسام الدائرية بالالوان . وكانت احرفهم رموزاً هيروغليفية تمثل اشياء مبسطة في كتابة تصويرية . ولكنهم استخدموا علامات اشتقاقية توحى الأفكار . وخطوا خطوة نحو الصوتية : فلتمثيل بعض المقاطع استخدموا صوراً او اشياء يكون اسمها أو صوتها متشابهاً دون اعارة معنى الرمز المختار اية قيمة . فكانت كتابتهم من ثم لغزا ينطوي على استعارات .

كل هذا يقرب من تجهيز المايا الفكري ومفاهيمهم ، مع فارق تدني قدرتهم على التجريد وقلة اهتمامهم لامكانات الموافقة المنطقية أو مبدأ الذاتية ، ولهوانع الحقيقية أو مبدأ التناقض . ولحن نرجح ان جوهر حضارة الازتيك وجيرانهم مقتبس عن المايا .

الا ان حضارة الازتيك مميزات تبدو مجهولة من المايا . فقد عرف الازتيك النحاس ، ولعل مرد ذلك الى ان مناطق المناجم لم تغمرها الاشجار الكثيفة . واستعملوا رؤوس نبال نحاسية ومناجل نحاسية وادوات نحاسية لمعالجة الحجارة الصلبة .

خصائص الازتيك
البلاد
والديموقراطية التسلطية

وحافظ الازتيك على قواعد تنظيم قوي في الديمقراطية التسلطية الشيوعية . ولعل البيئة الجغرافية هي ما دفعهم الى ذلك . فان البلاد ، « التي شكت من بعض العقم الارستوقراطي » ، تتساقط عليها امطار صيفية قليلة وغير منتظمة ، قد تكون غير كافية طيلة سنوات عدة . وجلي ان هذا الوضع غير مؤات للمستثمر الفردي الصغير الذي يتعرض لان يفرق في ديونه . فيقتضي والحالة هذه القيام باعمال ري باهظة الأكلاف لا يمكن ان يقوم بها سوى الاثرياء أو الجمعيات المنظمة تنظيماً جيداً . لذلك كانت الموارد محدودة وغير مضمونة . فتوجب الاستحصال على المواد الغذائية والحامات النباتية المكلفة من المناطق النائية . ولكن المكسيك بلاد واسعة الاطراف تتخللها مساحات خالية لا حدود لها، وجبال وعرة وادوية بعيدة القعر تسبب الدوار . يجب حمل مؤن لاسبوع عدة والاتجاه على طريقة البحارة في المحيط ، بالاستناد الى الشمس والنجوم ، في مسيرات لا نهاية لها . ولعل خطر العوز الدائم وصعوبة المواصلات غير غريبين عن واقع كون التجارة حملة عسكرية وواقع تحول هذه الحملة بسرعة الى عملية غزو ، وواقع اعدادها لحرب الفتوح ، وواقع حياة الدولة من النهب والضرائب ، وواقع كون الحرب غاية هذا المجتمع وصناعته الرئيسية اذا صح التعبير .

ان الاعمال الكبرى والحرب قد فرضت نظاما تسلطيا في الارجح. الحضارة
مكسيكو
توتشوتلان
مدنية بالضرورة الدينية والمسكرية ، وقلب الوحدة السياسية هو المدينة .
عدد سكان « توتشوتلان - مكسيكو » يتراوح بين ٥٠ و ٦٠ الف نسمة .

وقد وصفها لنا كورتيس كما يلي : « ان مدينة مكسيكو هذه مبنية في مستنقع المياه المالحة بحيث تكون المسافة بين اي من اطرافها وقلب المدينة فرسخين (أو ثمانية كيلومترات) . لها أربعة مداخل تؤدي اليها سدود صنمية يبلغ عرضها طول رحين من رماح الفرسان . مساحتها تعادل مساحة اشيلية وقرطبة معاً . شوارعها مستقيمة وعريضة جدا . وقد قسم بعضها بحيث يكون نصفها طريقاً والنصف الآخر قناة تجتازها الزوارق ذهاباً واياباً . وقد حفرت بين مسافة واخرى خنادق تصل اقنية الشوارع المختلفة بعضها ببعض . وانشئت فوق هذه الخنادق ، الواسعة جداً أحياناً ، جسور مبنية بموارض خشبية محكمة الجمع متقنة الصنع . ويتسع بعض هذه الجسور لعشرة فرسان يسرون معاً جنباً الى جنب » . وقد وسعت أرض المدينة الضيقة بالحدائق العائمة المشهورة المكونة من إطار من حصير وضمت في داخله ، فوق طوف من الاعشاب . والخيزران ، طبقة ترابية لزراعة النباتات . وقامت في الشوارع الضيقة الكثيرة ساحات عامة تظللها الاشجار ، تقام فيها الاسواق . استوحى تصميم المدينة العام من الشمس والجهات الاربع . اجتاز المدينة شارعان كبيران يؤلفان زاوية مستقيمة عند تقاطعها في وسط المدينة . وامتدت في هذا المكان ساحة عامة واسعة تضم المعبد الكبير والابنية البلدية . وكانت البيوت قليلة الارتفاع مبنية من حجر أحياناً ومن قصب غالباً . لم تشمل البيوت الا على قاعة واحدة مع طبقة تحت السقف .

وكانت المعابد كثيرة جداً وقد استخدمت في الوقت نفسه كحصون للدفاع . وكانت أهراماً ذات سطوح ، مع خنادق وسدود .

يبدو ان باستطاعتنا ان نميز ، في تطور الازتيك ، ثلاث مراحل من الديموقراطية الشيوعية الى الملكية الارستوقراطية
تركزت الاوليان منها آثاراً عميقة في الاخيرة . كان الازتيك في البسده قبيلة من البدو القناصين والقطافين الذين ينتقلون نحو لجنوب حاملين معهم إلههم الشمس « ويتزولو يوشتلي » . ثم تعلموا الزراعة النصف البدوية ، وذلك حين بلغوا هضبة المكسيك الوسطى حوالي القرن الثاني عشر في الارجح . ولما كانوا فلاحين وجنوداً في آن واحد ، كانوا يتوقفون أحياناً عدة سنوات في منطقة خصبة ثم يستأنفون رحيلهم . ويبدو اذ ذلك ان الخلية الاساسية في القبيلة كانت العشيرة ، « كلبولي » ، التي خضعت لتنظيم ديموقراطي يدين بالمساواة . يجتمع رؤساء العائلات ويتخذون المقررات الهامة ويتنخبون رئيس العشيرة ، « كلبول » . تعود الاراضي للكلبولي جماعياً ، وتعين جمعية العشيرة قطعة لكل رجل متزوج يستثمرها ويلزم بزراعتها . واننا نميل الى الاعتقاد بان جمعية رؤساء العشيرة تتخذ المقررات باسم القبيلة . ولكن كهنة « ويتزولو يوشتلي » يمارسون القيادة العسكرية ويتمتعون بسلطة عامة على العشائر كلها .

بعد اقامتهم في المستنقع ، فرضت الحرب ضد المدن المجاورة المادية ، والاشغال العامة الضرورية لاعداد الجزر وكوم الرمل والوحل ، الانتقال تدريجياً الى نظام المدينة الملكية . بقي المجتمع شيوعياً وعسكرياً . الرجال مكرسون كلهم للحرب ويتوجب عليهم تقديم الامرى للذبايح البشرية الضرورية للحيولة دون فناء هذا العالم على غرار العوالم السابقة . بعد ان يتوفى المحارب الى اسر أربعة محاربين اعداء ، ينتقل الى طبقة عليا ، هي طبقة الـ « تكيفا » ، ويستطيع حينذاك ان يصبح موظفاً ، « تكوهتلي » ، أو سيداً . الوظائف انتخابية كلها . وقسمت المدينة الى عشرين حياً تخصص بكل منها عشيرة . لكل عشيرة أراضيها ، ومسكنها المشترك ، وآفتها الخاصة ، وأعيادها ، ورقصاتها ، واحتفالاتها الدينية وادارتها الخاصة . يقوم على رأسها مجلس شيوخ يفصل في كل شيء ويعين الاراضي للأشخاص ويحكم في القضايا الخطيرة وينتخب الموظفين مدى الحياة . أم الموظفين هو الـ « كلبوليك » الذي يختار أبدأ مسن عائلة واحدة ويراقب توزيع الاراضي ووضع اهرام العشيرة . ويسهر على زراعة الحقول ، لا سيما ما يعد منها لتأدية الضريبة ، ويسلم حصيلة الضريبة الى موظفي الادارة المالية ، ويقود الفرق العسكرية ويوزع المعدل ويدافع عن عشيرته امام السلطة العليا . الاعتداء على قوة العشيرة وتضامنها يعاقب بصرامة . يحكم بالموت على القتلة والرجال الذين يرتدون ثياب النساء ويتخلقون باخلاقهن ، والنساء اللواتي يرتدين ثياب الرجال ويتخلقن باخلاقهم ، والزناة ، ومحوري حدود الحقول ، ومدنسي القديسات ، والخنونة . الموظف السكير يخلع من منصبه . السارق ذو السوابق يصبح عبداً لسروقه . سارق الذهب والفضة ، وهما معدنان إلهيا المصدر ، يحكم عليه

بالموت . تتحد العشائر خمساً وخمسة وأربع أخوة . فكان هنالك أربع أخوات لكل منها قائدها العسكري ، وهو أحد الاكابر الاربعة المحيطين بالملك ، وكاهنها ، وآلهتها . وفي خارج « مكسيكو - تنوشتلان » ، ينتخب اهالي القرى والمدن موظفيه ، « تكوهتلي » ، الذين تمتعوا بسلطات كبار الموظفين ، « كلبوليك » ، نفسها . تعين العشائر مجلساً قبيلاً وتنتخب الرئيس الاعلى ، « تلاكاتكوهتلي » ، الذي يختار ابدأ من عائلة « اكاما بيشتلي » ، ويتمتع بسلطات ملكية . يكافأ الموظفون ، « تكوهتلي » ، عن طريق اراض يستثمرها المواطنون لهم ، وأقمشة وألبسة ومواد غذائية يهبهم اياها الرئيس الاعلى من الضريبة المفروضة على المواطنين والافادات المفروضة على المدن المهزومة .

لاشك في ان الدولة والمجتمع قد تطورا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر واولئ القرن السادس عشر في اعقاب الفتوحات وقيام امبراطورية حقيقية . لا تزال مدينة الازتيك مبدئياً ديموقراطية شيوعية . ولكنها تتخذ صفات الملكية الارستوقراطية بسبب توسع رقعتها ، وتعقد شؤونها ، واثرائها الذي تدين به لسيطرتها على المغلوبين . فليست جمعية الشعب ، بعد اليوم ، ما ينتخب الـ « تلاكاتكوهتلي » ، بل هيئة انتخابية من المستشارين وكبار الموظفين والكهنة يعين هوقسامنهم وتعين هي القسم الآخر . اما الكلبوليك والتكوهتلي الآخرون فلا يزالون ينتخبون انتخاباً ، ولكن انتخابهم ليس سوى تقديمهم للوظيفة ، اذ انهم يستمدون سلطاتهم من تعيين التلاكاتكوهتلي لهم . ويحدث احيانا ان يفرض هذا الاخير بما له من سلطة ، اشخاصاً لم ينتخبوا . فالسلطة تأتي من اعلى لا من اسفل . كل مواطن يستطيع مبدئياً شغل اعلى الوظائف . ولكن ابناء التكوهتلي يستفيدون عملياً من ثقافة عليا يحصلونها في احد الاديرة ، « كلماك » ، بدلا من الدخول الى مدرسة الكلبولي . فبينهم يختار التلاكاتكوهتلي بالترتيب السفراء والقضاة وحكام المدن وموظفي الادارة المالية ورؤساء الكهنة . اما بين اكابر الموظفين ، فنائب التلاكاتكوهتلي ، او « سيواكواتل » ، يكون ابدأ احد حفدة « تلاكالاتزين » ، شقيق « ماتكوهزوما » الاول . ويختار اهم موظفين بعمده من بين افراد عائلة التلاكاتكوهتلي : يورث التكوهتلي ابناهم الاراضي التي اقتطعتهم اياها الحكومة للاستثمار بمثابة مرتب سنوي . فتتكون بذلك املاك خاصة على حساب الاملاك العامة ، وتزرع هذه الاملاك الكبرى على ايدي فداديين فلاحين مجهولي المنشأ يعقد التكوهتلي معهم مشاركات زراعية لقاء افوات واعمال تسخير . يتسلم التكوهتلي النصيب الاكبر من الضريبة المفروضة على المواطنين والجزية المفروضة على المدن المغلوبة الداخلة في الاتحاد . فتضاف بذلك ثروة منقولة الى الثروة العقارية . وهكذا تبرز شيئاً فشيئاً بين جمهور المواطنين ارستوقراطية متسلطة السلطات . اما التلاكاتكوهتلي ، « والد ووالدة » المكسيكيين ، فتتسع سلطاته . فقد رأى الاسبانيون ، في « موكتزوما » الثاني ، التلاكاتكوهتلي منذ السنة ١٥٠٣ ، امبراطوراً محاطاً بطبقة من النبلاء الوراثةيين .

في هذا المجتمع العسكري والديني ، تكوّن مجتمع غريب عن مبادئه لا يطلب سوى الربح

التجاري . فقد تنظمت في مكسيكو في السنة ١٥٠٤ على غرار ما حدث في « ثلاثلكو » التي فتحت في السنة ١٤٧٣ ، في الأرجح ، تعاونيات تجار استحصلت على احتكار التجارة الخارجية : تصدير مصنوعات الحامات المستوفاة جزية من المفلوبين ، واستيراد المصنوعات البذخية . وقد ألف التجار مجتمعا مغللا . فالتاجر تاجر أبا عن جد ولا يصبح تكوهنلي . التجار وضعا يفضون الطرف في تنقلاتهم ويرتدون معطفا ملونا ويخفون ثروتهم . ولكن ثروتهم ترفع طبقتهم في المجتمع . وبمجاز قانوني يعتبرون جنوداً من انساب الامبراطور ؛ ابناؤهم يرون في الكلكاك ؛ يحق لهم تقديم الذبيحة « هويتزيبوشتي » ، وستلحق روحهم بالشمس على غرار روح المحاربين ؛ وقد أخذ بعض كبار الاسياد يتخذون من بناتهم زوجات ثانوية . وهكذا برزت ، بالإضافة الى طبقة النبلاء ، طبقة من « البورجوازيين الرأسماليين » .

ان شمس الربيع الفتية ، « هويتزيبوشتي » ، التي ولدت من عذراء ،
تذلل الديانة
تكاثر الذبائح البشرية هي اله الحرب وهي ما اصبح الاول بين الآلهة . لها كرس المرم
الرئيسي في « تنوشتلان » ، ولأجلها تكاثر الذبائح البشرية . ولا
غرو فبالذبائح البشرية ترتبط كل حياة هذا العالم . لكي تتابع الشمس والنجوم طريقها ، ولكي
تكمل دورات الحياة النباتية ، يجب اراقة الدم البشري . الحرب ، التي توفر الضحايا ، مقدسة .
المحارب والكاهن يصارعان العدم بدون توقف . اقيم برج في طرف السطح الاخير الذي يعلو
هرم قنوشتلان الكبير . وفي احدى القاعات الكبرى المظلمة اقيم مذبحان تغطيها اخشاب
منقوشة . كان بالامكان ، حين تألف الاعين الظلمة ، رؤية خلقتين جسيمتين ريلتين ، تتركز لليبوكا ،
شمس الصيف ، منضج الحصاد ، روح العالم ، محفورا في حجر الوبسيديين الاسود ، تلتف حول
جسمه شياطين صغيرة اذناها اشبه باذئاب الثعابين ، ووجهه أشبه بمخطم الدب ، وعيناه براقتان ،
وهويتزيبوشتي ، المحارب ، الانجل ، الذي تلتف حول بطنه ثعابين كبرى من ذهب .

امامها ضحى الكهنة بأسرى الحرب او بالاطفال ، يلقونهم ارضاً ويلوون جسمهم الى الورا
حتى يحدب الصدر . يفلع الصدر حينذاك بضربة سكين صوانيسة . وينتزع القلب ويلقى في
جمرة يحرق فيها البخور ويحمل امام تماثيل الآلهة التي ترش بدم الضحايا . ويقطع الجثمان ويقدم
في الولاثم الطقسية . يسود الغرفة جو فساد وفتنة . الجدران والارض ترشح دما يتحول ، حين
يححف ، الى طلاء لزج سوداوي اللون . التهيف يقزز النفس . اما الكهنة ، المرقدون ثوبا
قطنياً قائما يتقطر الدم منه ، فيبدون كمن اختطف بالروح ، شعورهم الطويلة ملطخة بالدم ،
وايديهم ملوثة بالدم الحديث الاراقة ، واصابهم مرتعدة ومرتعشة ، ويعرضون تشوهات
جسمية فظيمة ، لا سيما آذانا مزقها معظلمهم لرش وجه الآلهة بدمائها . ولا غرو فان دماء بعض
الآلهة قد بذلت في سبيل خلق الشمس وحركتها .

عندما يخرج المراء من القاعة ، يشاهد معبد « كتراكواتلكس » ، لله الريح ومبتكر كافة

الفنون الذي تشوى فيه لحوم الضحايا . صنع مدخله بشكل شفق مفتوح تبرز منه الاسنان ، على غرار مدخل جهنم في « اسرار » القرون الوسطى .

رافقت الذبائح في الاعياد الكبرى السنوية الاربعة عشر اناشيد الشعب تكريما للآلهة . الناس كلهم يثملون لان الثمل اعتبر مقدساً في هذه الظروف ؛ الشرائع المدنية كلها تعلق ، ويرافق وليمة اللحم البشري الطقسية حرية جنسية مطلقة . ويقدر عدد الذبائح البشرية بمشربن الف ضحية سنويا .

لعل هذا الشعب الذي نظر اليه الاسبانيون عند قدومهم وكأنه الشياطين بالذات ، كان في مرحلة انحطاط . فقد دلت بعض الاطلال والحطام على انه توصل في بعض النقاط الى معارف هندسية وزراعية وصناعية دونها معارفه في اواخر القرن الخامس عشر . ومهما يكن من الامر فان امبراطوريته ، الحديثة العهد والمنشأة في وقت قصير ، لم تكن راسخة الاركان . وما كان المغلوبون ليرقبوا سوى ساحة للثورة والمنافسون سوى ساحة للهجوم .

٣ - حضارات عصر الشبه

حضارة الـ « انكا »

جاءت مواجهة الاسبانيين لارفع حضارة في آخر المطاف . وصلت المعلومات الاولى الى باناما في السنة ١٥٢٢ . ولكن « فرنساوبيزار » لم يشرع في الفتح الا بعد انقضاء عشر سنوات .

يتوفر للمؤرخين ، بالاضافة الى عدة أثرية ضخمة ، مؤلفات رصينة مبنية على الملاحظات الشخصية اثناء الفتح ، او على استقصاءات اجريت مع الهنود الباقين على قيد الحياة بعد الفتح . واهم مؤلفات الاختصاصيين هي « تاريخ العالم الجديد » لليسوعي « برنابا كوبو » ؛ « تاريخ حوادث البيرو » لـ « بدرودي شيزا » ، و « ليون » ، احد جنود بيزار ، الذي اجتاز امبراطورية الانكا من الشمال الى الجنوب ووضع يوميات استفاد منها في كتابه : « حصيلة وتفاصيل » سيرة « خوان بيتانزوس » ، الذي كان قد تزوج من ابنة « اتاهوالبا » آخر اباطرة الانكا ، وتكلم لغة الكيشوا وشاهد انهيار الامبراطورية ؛ مؤلفات « خوان بالودي اوندغاردو » حاكم كوزكو ، الذي اجري في السنة ١٥٥٠ تحقيقا حول شكل حكم الانكا وديانتهم ؛ واخيراً التحقيقات حول تاريخ الانكا وعاداتهم التي اجريت بين السنة ١٥٦٩ والسنة ١٥٨٢ ، بأمر من نائب ملك البيرو ، « فرنسيسكو دي توليدو » . اما معظم المعلومات التي يوردها « غارسيلازو دي لافيغا » والتي كانت موضوع ثقة لفترة طويلة من الزمن ، لانه كان ابنا لجندي اسباني واميرة من أميرات الانكا ، فلا يعيرها الاختصاصيون اليوم اية همة .

كانت امبراطورية الانكا حديثة العهد عند قدوم الاسبانيين . فقد ارتسمت في الثلث الاول

من القرن الخامس عشر . وكان الانكا حتى ذلك التاريخ محصورين في مدينة كوزكو تقريباً . وكانت الشعوب ، حتى مداخل المدينة ، شبه مستقلة . دخل الانكا حروباً كثيرة ، ولكنهم كانوا يكتفون بالسلب وفرض الجزية ، اذا ما تغلبوا على سكان احدى المدن ، ويعودون الى مواقعهم .

بذل المحاولات الاولى ، في سبيل تنظيم الفتوحات ، امبراطور الانكا الثامن ، « فيراكوشا » . ولكن الامبراطورية ما زالت صغيرة الرقعة . وفي شيخوخة فيراكوشا ، هاجم كوزكو هنود من الشمال ، هم الـ « شانكا » ، اول شعب محارب في ذلك العهد . تولى الدفاع ابن فيراكوشا ، يوبانكي ، وصد الهجوم . ثم قاد جيش الانكا وهزم الشانكا تكراراً في اراض منبسطة . فبسط الانكا نفوذهم على البيرو دفعة واحدة .

توج يوبانكي في السنة ١٤٣٨ ، بعد وفاة ابيه ، وحمل اسم « باشاكوتي » . فوسع سيطرة الانكا جنوباً حتى بحيرة تيتيكاكا التي بلغها في السنة ١٤٦٣ والتي وجد الـ « ايمارا » بالقرب منها ، وشمالاً حتى « كيتو » . وهو انما وضع القواعد الاولى لتنظيم الانكا الاداري .

جلس ابنه « توبا » على عرش الامبراطورية منذ السنة ١٤٧١ حتى السنة ١٤٩٣ . واصل فتوحات ابيه وهزم سكان « كيتو » ، الـ « كارا » ، واستولى على ما يؤلف اليوم بوليفيا وشيلي حتى مدينة « كونستيتوسيون » الحالية . واحتل ، في ما أصبح الارجنتين ، الانجاد الشمالية الغربية ومنطقة « توكومان » . وهو الذي أعطى تنظيم الانكا الاداري مميزاتة النهائية ، في الارجح .

خلفه « هويينا كاباك » . اعتلى عرش الامبراطورية منذ السنة ١٤٩٣ حتى السنة ١٥٢٧ وواصل الفتح . فبلغ ، الى الشمال من كيتو ، الحدود الحالية بين الاكوادور وكولومبيا . قمع ثورات عديدة وسار قدماً في تنظيم الامبراطورية . عند وفاته ، افاد الراصدون في « تومبز » : بان « مسوخاً غربية لحيازية تقيم في بيوت كبيرة عائمة » تطوف في البحر . لم تكن هذد المسوخ سوى الاسبانيين بالذات .

لسنا ندرك تماماً المبررات الاقتصادية لحروب الانكا . فكانت معظم البلدان المحتلة من الفقر بحيث اضطر الانكا لأن يمدوها بالمواد الغذائية . اضعف الى ذلك ان امطار منطقة الاندس غير منتظمة وارضها الزراعية ضيقة ومحصورة في منحوم المناطق البركانية . فكان الجوع من ثم خطراً دائماً مداماً . لذلك فان الفتوحات قد انجزت في سبيل المجد اولاً ، وفي سبيل ايجاد عمل بعيد عن المدينة للقادة ومنهم بذلك عن الاقدام على الثورة . وقد نظر اباطرة الانكا الى الحرب اخيراً كما الى حملة عسكرية مقدسة تستهدف نشر ديانة الانكا .

سبقت العمليات العسكرية مساع دبلوماسية . أوفد المنديويون الى القبائل للتشديد على قوة الانكا ومخادير المقاومة ، ولعرض الوراثة على الرؤساء مع امتيازات اخرى كثيرة . وقد

فاوض المندوبون ، على العموم ، اناساً لا يتمتعون بسلطة ثابتة يمثل نظام الانكا في نظرهم تقدماً كبيراً . لذلك غالباً ما جر خضوع الرؤساء الى خضوع القبائل .

وان لم يحدث ذلك ، فلا مناص من الحرب . الانكا كلهم ملازمون بالخدمة العسكرية . الجيش مجهز تجهيزاً حسناً بسيوف من الشبه وفؤوس من الحجر ومقاليح وتروس ودرع من زرد . ينتقل الجيش صفوفاً منظمة ، ولكنه لا يعرف ، على ما يبدو ، خوض المعركة او المناورة ، كلا منظماً . فلا تلبث المعركة ان تتحول الى مجموع معارك بين افراد . ينظم الجيش حركاته وفاقاً لتنبؤات العرافين والعائفين . تقدم الذبائح قبل المعركة ويعزى النصر للآلهة .

استولى الانكا على بعض الممالك احياناً ، كملكة الـ « شيمو » ، بين ليا وكيكو ، التي عرفت طبقة من الاشراف الوراثةيين . الا انهم اخضعوا في اغلب الاحيان عدداً كبيراً من القبائل لا تخضع لأي تنظيم سياسي ، وشتاتاً من الـ « ايلو » . اما الـ ايلو فوحدة انتاجية ، او رهط من الانساب المجتمعين للقيام بعمل مشترك في مساحة معينة ، اشبه بالزمرة الالغونكينية .

ما إن يستول الانكا على اقليم من الاقاليم حتى يرسموا له مصغراً نافرماً من الغرين تبرز فيه الجبال والودية والانهار والقرى والحقول المزروعة ، الخ . يحصون السكان ويدونون النتائج بواسطة حبال قصيرة مزودة بعقد « كيبو » كانت لهم بمثابة اختزال . بعد الفتح الاسباني ، املى بعض اليسوعيين مبادئ دينية على عدد من البلديين المتقدمين في السن . دونها هؤلاء بعناية بواسطة عدد من العقد . ثم رددوا بواسطة عقد الكيبو اللاهوت الذي علمه اليسوعيون . وكان لدى الانكا دور كيبو ، اشبه بدور الكتب ، تتضمن شتى الاحصاءات عن الامبراطورية .

ترسل الكيبو والمصغرات الى الامبراطور الذي يدرسها ويأمر باعادة توزيع القرى والسكان . وانما كان لا بد من مجهود جماعي كبير لتوسيع الاراضي الزراعية باحداث الارصفة الترابية ، وللري بواسطة الاقنية ولتجويد التربة بسجاد الـ « غوانو » . وكان قد سبق للامبارا ان سلكوا هذه الطريق بداعي الحاجة . وكانت القرى ، قبل الفتح ، قائمة على مرتفعات بعيدة عن الحقول . فأسكن الانكا المغلوبين في قرى جديدة قريبة من حقولهم بغية مضاعفة انتاج العامل . واعادوا تكوين الـ ايلو المحدود باضافة عدة عائلات مختلفة اليه . وجمعوا عدداً من الـ ايلو في قبيلة واحدة عدداً وجمعوا في قبيلة كبرى واحدة عدداً من القبائل الصغرى . واذا لم يبرهن السكان عن طواعيتهم ، اقصوا العصاة واستبدلهم بمستعمرات عسكرية من الكيشوا

يرسلون ابناء الرؤساء الى كوزكو للتخلتق بأخلاق الانكا . يتابع هؤلاء الابناء طيلة سنوات اربع دروساً عملية . في السنة الاولى : لغة الكيشوا ؛ في الثانية : لاهوت وطقوس ؛ في الثالثة : تدريب على الكيبو ؛ في الرابعة : تاريخ الانكا وتقاليدهم السياسية . الامبراطور يعين الرؤساء المحليين موظفين . يبادر الانكا الى بناء مخازن للمواد الغذائية في البلاد المحتلة

حيث يكون مستوى الحياة منخفضاً جداً على العموم . ويتمهدون تغذية السكان . وينظّمون العمل . ويفرضون الكيشوا لغة ادارية .

تم التوحيد بسرعة فائقة . زالت مئات اللغات السابقة للفتح . لم يبق سوى الكيشوا والايمارا وربما لغتان حضاريتان اخريان . استمرت لغة الكيشوا في العهد الاسباني . نسي البلديون مؤسساتهم ، والتنظيم الوحيد الذي بقيت له قوته بعد الفتح الاسباني هو تنظيم الانكا . اعتقد بعضهم ان ارکان امبراطورية الانكا تزعمت ، قبيل قدوم الاسبانيين ، بثورات المغلوبين من شيمو وكارا انتصروا لأحد ابناء الامبراطور المتوفى في الارجح . ولكن بعض المؤرخين لا يعترفون بواقع هذه الثورات ويردون الاضطرابات الى مجرد مناوذة حول الخلافة . لم يكن هنالك من نظام خلافي . كانت الامبراطور يعين بين ابناؤه ، المولودين من خمسين او ستين امرأة من نساء حرمه ، الابن الذي يريده خلفاً له . ولكن « هويئا - كاباك » توفي متأثراً بعرواء دون ان يستطيع اجراء هذا التعيين . فكان ان هواسكار ، بكر ابناؤه من امرأته الرئيسية ، اعلن نفسه امبراطوراً . ولكن اخاه من امرأة اخرى ، اتاهوالبا ، الذي كان في كيتو ، على رأس الجيش الكبير المحشود لمحاربة سكان كولومبيا الحالية ، اكد حينذاك ان « هويئا - كاباك » قد قسم امبراطوريته ، وهو على فراش الموت ، الى شطرين متساويين احدهما لهواسكار ، والثاني له . فنشبت الحرب بين الشقيقين ، وكان النصر حليف اتاهوالبا قائد الجيش المتحرك . ولكنه لم يفكر بعد ذلك بتقسيم الامبراطورية التي يراها بعض المؤرخين طويلة جداً : لم يكن من ضرورة لذلك .

توفرت لامبراطورية الانكا وسائل انتاج تفوق وسائل امبرطورية الازتيك . فقد استعمل الانكا المهرات الرجلي ، وهو اشبه بعضاً بتبلغ ١٤٨٠ م طولاً ، مزودة برأس شبيهي صلب وبركاب يتيح غرزها في الارض بواسطة الرجل التي ينوء عليها الفلاح بثقل جسمه . لذلك كانت حراثتهم ابعده عمقاً ، وامكن القيام بها في اوعر تربة . وكانت مسابحهم مزودة بشفرة شبيهة عريضة جداً تمكن من تهشم اشد المدر قساوة . وكان هاوئهم المد لسحق الذرة الصفراء افضل الى حد بعيد من هاوئ المكسيكيين . فقد استعمل هؤلاء اسطوانة يجب التثقل عليها بقوة . اما هاوئ الانكا فكان مؤلفاً من قاعدة مربعة الزوايا توضع عليها الحبوب ثم يوضع فوقها حجر آخر ثقيل جداً ، وحينذاك يصبح بإمكان فتاة في العاشرة او الثانية عشرة من سنها تحريك الحجر الأعلى الذي يحق الحبوب بمجرد حركته . فكان تحضير الطحين من ثم اسرع منه بواسطة الاسطوانة المكسيكية ، ولم يستازم تجميد شخص كبير . وللحياكة كان المكسيكيون يفرزون وتدا في الارض ويشتون فيه قضيين خشبيين فتجشو الحانكة على احدهما وتركب خيوط السدى بين القضيين . وترقع بعد ذلك الخيوط بتعاقب مطرد بواسطة عصا وتدخل المكوك بين الخيوط المرفوعة والخيوط غير المرفوعة . اما الانكا فقد ارتقا واربط القضيبي الثاني يحسم الحانك الذي يستطيع بذلك شد التول اليه

دون اللجوء الى ركبتيه او يديه ، بمجرد المخنأة منه الى الوراء ، بسهولة ودون عناء يذكر ، فتبقى يدها طليقتين ، وتزداد سرعة العمل ازدياداً كبيراً . واتاحت لهم الخمول الشبيهة نقل حجارة اكبر ؛ كما اتاحت لهم المطارق والسكاكين البرونزية معالجة الحجر معالجة سريعة . فينتضح من ثم ان طاقتهم الانتاجية كانت فوق طاقة المكسيكيين الى حد بعيد .

وتفوقوا عليهم بوسائل النقل ايضا . فقد ربي الانكا حيواناً داخناً هو الجمل الاميركي الذي يستطيع ان ينقل بين ٢٠ و ٤٠ كيلوغراماً ويقطع بين ١٥ و ٢٠ كيلومتراً في اليوم. يضاف الى ذلك استفادة الانكا من لحم هذا الجمل وصوفه . وشق الانكا شبكة طرقات ؛ طريقين من الشمال الى الجنوب ؛ تحاذي احدهما الشاطئ ابتداء من « توميس » حتى « اركويبا » . يتراوح عرضها بين اربعة وخسة امتار في الودية المروية ، وتحيط بها جدران واشجار مثمرة وقناة ماء ، ولا تتمدى مسلكا بسيطاً في الصحاري حيث ترسم بالارصاد ؛ وتمر الثانية في الجبال المرتفعة ابتداء من حدود كولومبيا والاكوادور حتى توكونان ، مروراً بكيتو وكوزكو وبحيرة تيتيكاكا ؛ وهي اضيق من الاولى ، اذ انها غالباً ما لا تتجاوز المتر عرضاً ؛ ولكنها جهزت بالسلام في اوعر المنحدرات ؛ ورصفت احياناً بحجارة مسطحة ؛ وطرقتاً معترضة تصل المدن بالشاطئ والمدن ببعضها ايضا . واقامت هنا وهناك وهناك ، على شبكة الطرقات ، مخارن مواد غذائية لتموين المسافرين ؛ ومراكز عدائين تتبج نقل خبر بين ليا وكوزكو ، اللتين تفصلها مسافة ٢٤٠ كيلومتراً تقريباً ، في ثلاثة ايام ، بينما اقتضى للبريد الاسباني ١٣ يوماً على ظهور الاحصنة ، في السنة ١٦٥٠ . وانشئت فوق الانهار والودية ، جسور كبرى ، معلقة ، قوامها خمسة حبال ضخمة متوازية قطر الواحد منها ٤٠ سنتمراً ، وحبال اخرى معترضة ، تملوها كلها اغصان الأشجار . وهكذا استطاع الانكا ، في بلاد توزعت مناطقها الزراعية بين شواطئ البحر وقمم الجبال ، ان يستفيدوا ، للتموين ، من محاصيل المناطق الحارة والمناطق المعتدلة والمناطق الباردة .

كل الحقول الزراعية ملك الانكا . بعضها يخصص للحكومة ، وبعضها لتمهد المعابد ، وبعضها يوزع للاستثمار على الافراد . ولكن العمل مشترك في كل الحقول ، ينفذ تحت اشراف مدير وتنشد خلاله الاناشيد الدينية . كل المنتجات موحدة . الحزفيات تصنع بالجملة ولا تتمدى نماذج معدودة ذات طابع عملي .

الديانة هنا ايضا تنسب صفات البشر الى قوى الطبيعة ، وتنطوي على زون متسلسل السلطات . ولكن الانكا وصلوا الى مفهوم اوضح من مفهوم الازتيك ، والى اجلي مفهوم لكائن اسمي لا اسم له ولا بداية ولا نهاية ، خالق كل الكائنات وسيدها المطلق ، عايش في السماوات ، ويأتي بين حين وآخر الى الارض ، ويمثل بصورة انسان . ان مذهب التشبيه هذا ينطوي على تقدم في الارجح . وهو يعني بصورة اكيدة ان الانكا تصوروا الاله شخصاً متميزاً عن الكون ، والديانة شأنها خاصاً ، وحديتها بين الانسان والاله .

وتفوق الانكا في تعاليمهم الاخلاقية ايضاً . فالذهاب الى الفردوس او الى جهنم ، عند الازتيك ، ليس مشروطاً بنوعية الاعمال بل بظروف الموت . اما عند الانكا فالميت يذهب الى الفردوس ، الى السماء ، ليعيش مع الشمس ، اذا كان قد قضى حياة صالحة . ويذهب الى جهنم ليقاسي الجوع والبرد في جوف الارض ، اذا كان قد ارتكب اعمالاً تسترذها التعاليم الاخلاقية . كانت الغاية من الاعتراف بالخطايا عند الازتيك تجنب عقاب القضاء المدني ، اما عند الانكا ، فالهدف من الاعتراف بالخطايا هو الحصول على حل من اهانة الإله ، والخطايا هي : القتل ، السرقة ، الزنى ، افساد الاخلاق ، عصيان الامبراطور ، الاملال في عبادة الآلهة . اما الكفارات فهي الصوم والاغتسال المطهر ، ولا سيما الصلوات .

الا ان الديانة ابقّت على ذبائح الاولاد ، بالمئات ، حين يعتلي الامبراطور العرش او يصاب بمرض ، وفي حالات المجاعة والمهزيمة والطاعون .

مركز المجتمع المائتة الكبرى ذات النسب الواحد لجهة الاب . الزواج محصور في نطاق العائلة . تجتمع العائلة حول المومياءات لعبادة الاجداد . لذلك تتألف المدن من عدد من الحضارات يقابل عدد العائلات الكبرى ويضم كل منها خمسة او ستة بيوت . وتتوزع العائلات الكبرى الى وحدات عمل ، « ايلو » ، حول جده اسطوري . يخصص الزوجان سنوياً بقطعة ارض يستثمرانها وتكفي لاعالتهما ، « توبو » . ويضاف اليها نصف « توبو » كلما زرقا ولدأ .

عم « باشاكوتي » نظام الأيلو على كل ادارة الامبراطورية . كل امبراطور ، ابن الشمس ، يتمتع بسلطة مطلقة ولكنه ملزم باحترام العرف وتوفير الاود لرعاياه . ولكل امبراطور حريمه وابناء كثيرون . الاعقاب الذكور المنتسبون الى امبراطور واحد يؤلفون « ايلو ملكياً » مسؤولاً عن عبادة الجد . كان عدد الاباطرة قد بلغ ١١ في السنة ١٥٣٢ ، فكان في كوزوكو ١١ ايلو ملكياً . وقد ضم ايلو امبراطور الانكا الاول ، « مانكو-كاباك » ، خمسين عقب . وارتفع هذا العدد الى ٥٦٧ في السنة ١٦٠٣ . الامبراطور يختار من هذه « الأيلوات » الملكية كافة كبار موظفي الادارة .

اعضاء هذه « الأيلوات » الملكية هم الانكا بالنسب . ولكن الانكا انشأوا طبقة نبيلة من الانكا بالامتياز ، تضم الرؤساء المهلبين الذين يتكلمون الكيشوا وانسالم الذين يربون في كوزوكو . واخيراً نظموا طبقة نبيلة ثالثة وراثية دنيا تضم موظفي الادارة الذين لا يتكلمون الكيشوا ، « كوراكا » . كل هؤلاء النبلاء موظفون معفون من الرسوم واعمال التسخير ، يمتاشون من محاصيل حقول الحكومة ويتقبلون الهدايا من الامبراطور ، الزوجات ، الاقشة ، الرياش ، الاراني ، الجمال الاميركية ، اراضي الاستنار ، الخ . فنجم عن ذلك تمييز بالثروات ، الا ان واحداً لم يملك وسائل الاتاج .

منذ السنة ١٤٦٠ قسمت الامبراطورية الى اربع حكومات ، وقسمت كل حكومة الى

ولايات تضم مقاطعات ، وضمت كل مقاطعة عدة « ايلوات » . يتولى ادارة الحكومة « آبو » يختار من عائلة الامبراطور . رؤساء الحكومات الاربعة يؤلفون مجلس الدولة . ويتولى السلطة في كل ولاية حاكم انكا يميل طبعاً الى جعل منصبه وراثيا ويجمع في شخصه الصلاحيات القضائية والادارية . ويتوزع الوظائف الاخرى ، وراثيا وبالتسلسل ، « رؤساء الـ ١٠٠٠٠ » ، و « رؤساء الـ ٥٠٠٠ » ، و « رؤساء الـ ١٠٠٠ » ، الخ ، حتى « رؤساء الـ ١٠ » .

الامبراطورية لا تعرف نقداً ولا ضريبة . ولكن الجميع يخضعون للعمل القسري . المواطنون موزعون طبقات بحسب سنهم وطاقتهم على العمل . لا يطلب منهم سوى القيام باعمال صغيرة بعد بلوغهم الحسنيين . الجميع ملازمون بالعمل في حقول الحكومة وحقول الكهنة وحقول الجماعة وحقول الجيران . ولهم قدوة في ذلك بالامبراطور ورجال البلاط والرؤساء . ولكن مدة العمل تختلف باختلاف مراتب المجتمع . كل ما لا يترك لاستهلاك الافراد يخزن في مخازن الدولة حيث يجمع كل ما هو ضروري لاعالة الجيش والنبلاء والموظفين والارامل والشيخوخ والمقعدين والصناعيين وعائلات الجنود المحاربين ، وموظفي البريد وعمال المناجم ، والشعب كله اذا اجذب الحصاد .

كل مواطن ملازم بالـ « ميتا » ، بالاضافة الى العمل في الحقول . فالحكومة تصادرسنوياً هندياً من اصل عشرة . الشبان الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ و ٢٠ سنة يستخدمون كعمدتين لنقل البريد ، والرجال الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٥ و ٣٥ سنة يستخدمون في المناجم او المشاريع العامة الكبرى او فرق المشاة . ويصبح غيرهم خدماً او موظفي ادارة .

يعفى من الميتا والعمل في الحقول الـ « ياناكوتا » ، او اعضاء الفئات التالية من الصناعيين : النجادة ، الحدادون ، الحزاقون ، الصاغة ، صانعو الاسلحة ، نجاروا الابنوس ، الذين تملهم الحكومة . لا يعملون الا في الخازن الامبراطورية ، ويوزع الامبراطور انتاجهم على موظفي الادارة بحسب الخدمات المؤداة .

ولما كان الانتاج يتجاوز الحاجات بصورة عامة ، تعاطى الامبراطور تجارة رسمية كبرى ، وجاز لكل رئيس عائلة مقايضة فائض انتاجه بفائض انتاج سواه . فنجم عن ذلك تفاوت في الثروات . ولكن هذا التفاوت لم يكن ليبيح الانتقال من طبقة اجتماعية الى طبقة اجتماعية اخرى او تملك وسائل الانتاج .

راقب الانتاج والاستهلاك جيش من المفتشين . وكانت العقوبات قاسية جداً ؛ فيلقى مثلاً بالموظف الذي يخالف واجبات منصبه الى الثعابين السامة ؛ ويضرب المواطن الكسول بجعر ثقيل على سلسلته الفقرية .

لم يعتبر الهنود انهم اجرؤا صفقة رابحة بانتقالهم من حكم الانكا الى الحكم الاسباني . لا ريب في ان حكم الانكا كان استبدادياً ، ولكنه حاول ان يكون عادلاً وان يوفر لكل فرد ما يحتاج

اليه في حياته . الا ان الهنود اعتبروا الحكم الاسباني أشدّاد فاشمين ، ظالماً ، يشذرع بالحرية والملكية والمنافسة ولا يكثر عملياً لرفاهية الفرد ولا لحياته نفسها . ويبدو ان الهنود ، حتى المغلوبين وابناء المغلوبين منهم ، تحسروا على حكم الانكا .

يتبين من كل ما سبق ان الاوروبيين وجدوا امامهم ، في كل مكان ، شعوباً منقسمة بعضها على بعض ، وسائل عملها دون وسائل عنهم ، اضطرت الى الاستسلام عاجلاً ام آجلاً . والشعوب التي تغلب الاسبانيون عليها بسرعة وحققوا في مناطقها حضارة مختلطة يغلب فيها الطابع الاوروبي ، هي بالضبط ابعد الشعوب رقياً وتقدماً ، اي شعوب المكسيك والبيرو التي الفت التنظيم السياسي والخضوع لسلطة حل محلها الاسبانيون ، والتي كانت قبائلها اقل القبائل بعداً عن الاوروبيين عقلية وتفكيراً . اما في المناطق الاخرى فقد برهن الهنود عن عناد في العداة ونفور من كل اندماج . وغالباً ما ادى استيطان الاوروبيين الى افناء مثل هؤلاء الهنود او الى اقصائهم عن مناطقهم .

obeikandi.com

الفصل الثاني

الأوروبيون والأعراق الملونة في أميركا

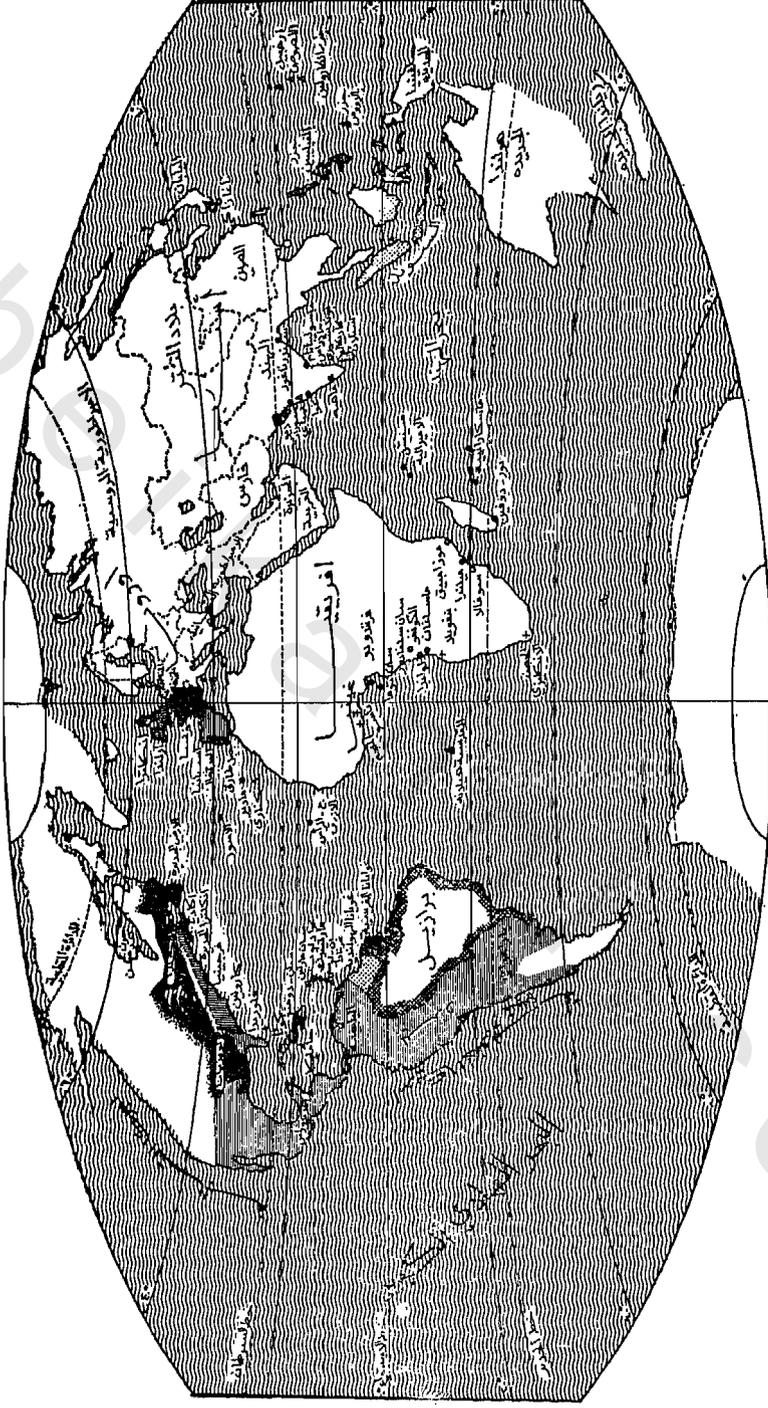
١- الأوروبيون في أميركا

الفضاء الأوروبي الجديد

كان الهدف من رحلة كولومبوس البحث عن الهند ، وحين بلغ اليابسة
اكتشافات عجيبة :
قارة أميركا الجديدة
اطلق على البلديين الاول الذين رأهم اسم الهنود الذي احتفظنا به على الرغم
من عدم انطباقه على الواقع . وصل كولومبوس في رحلته الاولى الى هايتي
التي اسمها « اسبانيولا » وترك فيها المستعمرة الأوروبية الاولى وعاد الى اوروبا في شهر كانون
الثاني من السنة ١٤٩٣ مقتنعاً بأنه انما بلغ اراضي « سينفو » الامامية ، اي اليابان . فلم يبق من
مسألة ، في نظره ونظر معاصريه ، سوى بلوغ القارة نفسها وبلاط امبراطور الصين . وغني عن
البيان ان رحلات عديدة لاحقة لم تسفر عن اية نتيجة . في السنة ١٥٠٠ بلغ البرتغالي « كابرال »
بدوره شواطئ البرازيل في منطقة رأس « سان - روك » . كان الهدف من رحلة كابرال
الدوران حول افريقيا . تقيد بالعمليات الملاحية البرتغالية ، فابتعد منذ « الرأس الاخضر » عن
الشاطئ الافريقي وتوغل غرباً رغبة منه في ان يبلغ اضيق منطقة هدوء استوائية ، وفي ان
يتجنب كذلك الرياح والتيار المعاكس في محاذة الشاطئ الغربي لافريقيا الجنوبية . فكان من
حسن تصرفه ان التيار الاستوائي الجنوبي حمله الى البرازيل ، ثم اتاح له تيار « الغويان » ان يبلغ
جزر الانتيل الصفري . وقد أخذ الملاحون والجغرافيون يفكرون جدياً بانهم ليسوا امام
آسيا بل امام قارة جديدة . وقدم « بالبوا » البرهان على ذلك في السنة ١٥١٣ . انطلق من
« داريان » مع ٢٠٠ اوروبي و ١٠٠٠ هندي واجتاز مضيق باناما ، فشاهد امامه ، على مدّة
النظر ، تلالاً امواج محيط جديد ، المحيط الباسيفيكي . فازدوجت الهند ، وأصبح هنالك الهند
الشرقية ، القديمة ، الحقيقية ، والهند الغربية ، بديلة الهند ، أميركا .

كان رصيد المغامرة نحو الغرب ، في نظر الأوروبيين ، فشلاً ذريعاً ، وانهار آمال زاد من خطورته ان البرتغاليين اكتشفوا طريقاً الى الهند من الشرق ، وانه يقتضي التغلب على هذا المنافس . فعدت المسألة الكبرى منذ ذاك الحين ايحاد بحر الى الغرب من خلال الحاجز الاميركي . فجماعت رحلة « ماجلان » في السنة ١٥١٥ مأثرة رياضية لا تنطوي على اهمية تجارية تذكر . لذلك لم يكن البحث عن المر الشمالي الشرقي وعن الطريق الى الصين اقل منه عن الامازون . فوجه الاسبانيون عدة بعثات الى جنوبي الولايات المتحدة الحالية . وكان البرتغاليون السابقين الى بلوغ شواطئ « اكاديا » و « الارض الجديدة » . وقام الفرنسيون بمحاولات جديدة . فقد ارسل فرنسوا الاول في السنة ١٥٢٣ ، الى شمالي المستعمرات الاسبانية ، « فرازانو » الذي خيل له انه رأى ، وراء مضيق يبلغ ميلاً عرضاً ، البحور التي تقوم على شواطئها الهند والصين و « كاتاي » ، في حين لم يكن ما رآه سوى بحيرة صغيرة ، « بمبليكو سوند » . ولكن « بحر فرازانو » الذي أبعد تدريجياً نحو الغرب قد ورد ذكره على الخرائط حتى القرن الثامن عشر . وبين السنة ١٥٣١ والسنة ١٥٤١ حمل فرنسوا الاول « جاك كارتيه » على القيام بثلاث رحلات . دخل جاك كارتيه مجرى « سان - لوران » وصعد فيه حتى جزيرة « مونريال » ووضع يده على تلك البقاع باسم ملك فرنسا . وظن بانه غدا على قاب قوسين من البحر الطلق وبحر الصين . واكثر الانكليز من محاولاتهم ايضاً . فعند السنة ١٤٩٧ قام « جيوفاني كابوتو » ، بمساندة تجار « بريستول » ولندن ، برحلة انتهى بها الى « لابرادور » وجزيرة « الرأس البريطاني » . وفي عهد « اليزابت » ، واصل « فروبشر » و « هدسون » و « بافن » الجهود لمنفعة الشركات التجارية وعلى نفقتها ، بينما حاول السر « همفري جلبرت » و « وولتر رالي » في « فرجينيا » مشاهدة « بحر فرازانو » .

لم يتوفى الاوروبيون الى اكتشاف طريق آسيا من الغرب . ولكنهم بمخروجهم
 الفضاء العالمي
 الاوروبي الجديد
 من مجار اوزوبا الضيقة ، فتحوا خلال عقود معدودة ، بين السنوات ١٤٩٠ - ١٥٠٠ والسنوات ١٥٣٠ - ١٥٤٠ ، فضاء اوروبياً جديداً ، وأوجدوا اول اقتصاد على مستوى العالم . فبعد « سان - دومنغ » ، استولى الاسبانيون بين السنتين ١٥٠٨ و ١٥١٦ ، على « كوبا » و « بورتوريكو » . وبعد ان استقروا في البر ، عند شاطئ « اللاك » ، ثبتوا أقدامهم في مضيق داريان وبلغوا المحيط الباسيفي في ٢٤ أيلول من السنة ١٥١٣ ، وأسوا « باناما » في السنة ١٥١٩ ، في « قشتالة الذهبية » . ومنذ السنة ١٥١٩ شرعوا في فتح المكسيك ، ثم جاء دور البيرو في السنة ١٥٣٢ . وفي الجنوب أقام بعض التجار البرتغاليين والفرنسيين في شواطئ « باراهيبا » و « برنموك » و « ريو - ريك » و « رأس « فريو » وجون « ريو دي جانيرو » . انفجر الخلاف منذ السنة ١٥٢٧ بين البرتغاليين والفرنسيين . في السنة ١٥٣٤ اخذ التجار البرتغالي ينشئ القبطانيات . حوالى السنة ١٥٤٠ رسمت الخطوط الكبرى للاتلسي الاوروبي ،



- ٥٠٥ ممتلكات هولندية
 - ٤٤ ممتلكات إنكليزية
 - ٥٣ ممتلكات برتغالية
 - ٤٢ ممتلكات إسبانية
 - ٥١ ممتلكات فرنسية
- ١ - ممتلكات فرنسية
 ٢ - ممتلكات إسبانية
 ٣ - ممتلكات برتغالية
 ٤ - ممتلكات إنكليزية
 ٥ - ممتلكات هولندية
- الشكل ١٧ - العالم الاستعماري في أواخر القرن السابع عشر

الذي سيتسع تدريجياً حتى القرن الثامن عشر دون ان يتبدل جوهر طبيعته . انتقلت المساحة التي أشرف عليها الاسبانين في اميركا من الصفوف في السنة ١٤٩٢ الى قرابة ٣ ملايين كيلومتر مربع حوالي السنة ١٥٤٠ . ولم يشاهد قط بعد ذلك مثل هذا التوسع السريع . ففي اقل من نصف قرن تأسس عالم اوروبي جديد ، وتبدل وجه العالم .

تحدثت دفعة واحدة ، منذ كولومبوس ، طرق اجتياز الاطلسي الاوروبي والوقت الذي تستغرقه . تنطلق الاساطيل من اشبيلية باتجاه الجنوب - الجنوبي - الشرقي حتى تبلغ تيسار جزر « الكنتاري » ، فتسير فيه وترسو في هذه الجزر . ثم تجتاز القوس الكبير الذي تكونه الرياح الشمالية الشرقية بين دائرتي الانقلاب ابتداء من الدرجة ٢٨ حتى نقطة تقع بين الدرجتين ١٣ و ١٤ من العرض الشمالي في جزر الانتيل الصغرى ، بين « ماري - غالانت » و « الدومينيك » . وللعودة يجب البحث صيفاً ، الى الشمال الشرقي من جزر باهاما ، عن الرياح الجنوبية - الغربية - الشمالية - الشرقية ، والمرور شمالي جزر « برمودا » ، ثم السير شرقاً باتجاه مستقيم ، والرسو في جزر « اسور » . تصرف القوافل ١٢ يوماً تقريباً من قانس الى جزر كاتاري . ومن جزر كاتاري الى جزر الانتيل الصغرى ٣٠ يوماً . ومن جزر الانتيل الصغرى الى « فيرا - كروز » ، او الى « نومبره دي ديتوس » ، في مضيق باناما ، ٣٠ يوماً . وفي طريق العودة من « فيرا - كروز » ، او « نومبره دي ديتوس » الى « هافانا » بين ٦٠ و ٧٠ يوماً ، ومن « هافانا » الى قانس ، ٧٠ يوماً . فالذهاب يعني اجتياز الاطلسي بحصر المعنى ، وهو اقصر مراحل الرحلة ، باتجاه اميركا الجنوبية ، ويمحاذي شطر كبير من المسيرة الشواطىء الافريقية ويمر بجزر ماديرا وكاتاري والرأس الاخضر و « سان - بول » و « فرناندو نورونها » . ولا تخلو المسيرة من الجزر الاعلى مسافة ٩٥٠ كيلومتراً بخط مستقيم بين رأس « سان - فنسان » و « بورتو - سانتو » ، وعلى مسافة ١٧٠٠ كيلومتر بين اقصى جزر « الرأس الاخضر » وجزيرة « سان - بول » . وقد استفادت الاساطيل من الرياح الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية بين دائرتي الانقلاب بدونها منها جهد المستطاع تجنباً للرياح الماكسة . وكان باستطاعة السفن قطع المسافة بين لشبونة وريودي جانيرو في مدة ٦٠ يوماً . ولكن غالباً ما استغرقت الرحلة بين شهرين وثلاثة اشهر .

اتسع الفضاء الاوروبي بسرعة قصوى . فخطر للاسبانين في عهد
 سفينة مانيلا الكبرى
 مبكر جداً ان يعملوا من الشاطىء الغربي في اميركا الوسطى منطلقاً نحو آسيا . ومنذ السنة ١٥٢٧ اندفع الاسبانين نحو بلدان الافاويه . الا انهم واجهوا صعوبة تحديد الطريق الواجب سلوكها . فارسلت في خلال خمسين سنة عشر بعثات توفقت الى اكتشافات هامة في الباسيفيكي ، دون ان تفلح في تحقيق المطلب المنشود . الا ان « فيلالوبوس » ادرك في السنة ١٥٤٢ ضرورة الانطلاق من « اسبانيا الجديدة » ، وبلوغ دفع الرياح بين دائرتي الانقلاب على ارتفاع الدرجة العاشرة من العرض الشمالي ، والاستفادة منها في السير حتى جزر

« ماريان » ، وهي رحلة سهلة تستغرق بين ثمانية وعشرة ايام . ولكن ما ان وصل الاسبانيون الى الفيليبين حتى وجدوا انفسهم شبه محاصرين ، فقد اصطدموا بالبرتغاليين غربا ويحدها الرياح ما بين دائرتي الانقلاب شرقا . وفي هذه الاثناء مست الحاجة اكثر فاكثر الى النفل الذي ارتفع سعره في لشبونة اكثر من كل المواد الاخرى . فقام « لغازبي » في السنة ١٥٦٨ برحلة اسند القيادة البحرية فيها الى العالم الفلكي الاوغسطيني « اوردانيتا » . ولعل هذا الاخير هو من اكتشف ، بعد تردد كثير ، طريق العودة ، اعني بها دفع الرياح الذي ينقل الهواء من الغرب الى الشرق في مناطق العرض المتوسطة . فعند مغادرة الفيليبين يجب الاتجاه شمالا والسير ضد الريح يمنة ويسرة في منطقة الاعاصير الخطرة ؛ وغالبا ما تستغرق مسافة الـ ٥٠٠ كيلومتر بين خليج مانيل وراس « بوجادور » شهرين كاملين يجب خلالها اللجوء تكرارا الى عملية خطيرة هي اطلاق مدافع السفن في آن واحد . فيجدر والحالة هذه الانطلاق بين منتصف حزيران ومنتصف تموز بنية تجنب الاعاصير جهد المستطاع ، واستخدام سفن سريعة ومتينة . ثم يجب الصمود حتى الدرجة ٤٠ او ٤٣ من العرض الشمالي والسير ضد الريح يمنة ويسرة باتجاه فورموزا « ساكي - شيا » و « ريو - كيو » و « كيو - شيو » و « سيكوك » و « هوندو » وبلوغ خط عرض الرأس « ريمو » في « هوكايدو » تقريبا . ثم تدفع الرياح السفن حتى الشاطئ الاميركي عند الدرجة ٣٥ تقريبا ، ومنها تحاذي السفن شاطئ كاليفورنيا حتى « اكابولكو » . الا ان هذه الرحلة محفوفة بالخطار وتستغرق بين اربعة وسبعة اشهر ، تبلغ نسبة الخسائر في الارواح خلالها بين ٣٠ و ٤٠ ٪ ، وكثيرا ما ترتفع حتى ٦٠ و ٧٥ ٪ . واذا استغرقت الرحلة اكثر من سبعة اشهر فينظر الى السفن الكبرى وكأنها اشباح سفن تجرى التحقيق مع ملاحها سفن اكابولكو الحربية التي ترسل للبحث عنها . وانما قد تحقق بذلك الاتصال بين اوربا وآسيا عن طريق الغرب ، عن طريق العالم الجديد ، بواسطة « سفينة مانيل الكبرى » او بالاحرى بواسطة السفينتين الكبيرتين اللتين تسافرتا معا كل سنة . اجل انه اتصال هزيل ، ولكنه جعل من الفيليبين ملتقى العوالم وحصن المسيحية في وجه المسلمين والاورثان .

بينما كان الاسبانيون مستعمرين في التقدم خلال القرن السابع عشر ، أسهم الفرنسيون والانكليز بدورهم في توسيع القضاء الاوروي . فقد واصل الفرنسيون السير في الاتجاه الذي رسمه جاك كارتية ، يدفعهم الى ذلك الازمة وسياسة الكسب التجاري . اكتشفوا شبكة مدهشة من المواصلات الداخلية ، نهر « سان - لوران » ، البحيرات الكبرى ، نهر « ميسيسيبي » واستطاعوا سبق الانكليز في كل مكان وتأسيس « كيبيك » (١٦٠٨) وبسط سيطرتهم على البحيرات الكبرى وال « البينا » (١٦٧١) . واخيرا نزل « كافليه دي لا سال » في السنة ١٦٨٢ نهر الميسيسيبي وبلغ مصابه واستولى باسم لويس الرابع عشر على كل البلاد التي اطلق عليها اسم لويزيانا . وانهم سبل من المستعمرين الانكليز على الشاطئ الاميركي بين الملكات الفرنسية والملكات الاسبانية . اما عناصر تفسير هذا العدد الكبير من المهاجرين ففي انطلاقة

الرأسمالية التجارية والصناعية ، وازمة المشاريع المتوسطة ، وازمة تصوين الاملاك التي دعت الى الاعتقاد بضيق انكلترا بسكانها ، واقفال الاسواق الاوروبية بسبب حرب الثلاثين سنة ، والمنازعات الدينية في انكلترا واضطهاد المنشقين ، وثورة انكلترا ، والسير منذ السنة ١٦٦٢ على نهج نفي محكومي الحق العام الى المستعمرات حيث يصبحون مواطنين صالحين ، بعد انقضاء مدة احكامهم ، لانهم انما كانوا يحاكمون بسب مخالفات صغرى .

زد على ذلك ان الاستعمار الانكليزي ، بسبب تقدم الرأسمالية في انكلترا ، قد تولته شركات تجارية او جمعيات ملاكين نهضت به في سبيل الكسب : الكسب التجاري والدخول العقارية . لم تتدخل الدولة في البداية الا بمنح الاحتكارات بشكل رسائل تحمل توقيع الملك بنية اجتذاب رؤوس الاموال وبانظمة تستهدف ضمان اولوية الصالح العام وسياسة الكسب التجاري . وحاول الملاكون اجتذاب المزارعين . فوزعوا البيئات ونشروا روايات المسافرين ورسائل المهاجرين واسسوا وكالات الهجرة مطمئنين في وفرة الاراضي وخصبها وتدني سعرها وارتفاع الاجور وانخفاض كلفة المعيشة وامكان العثور على المعادن الثمينة .

تجمع بعض المستعمرين كتلا كثيفة نسبيا على طول الشاطئ .

وتمكن الفرنسيون والانكليز من الإقامة في جزر الانتيل الصغرى المحصنة جدا على انها خالية من المعادن الثمينة وآهلة باقوام من اكلة لحوم البشر : « كرايب » . كانت هذه الجزر داخلة في قطاع الدفوذ الاسباني . ولكن الاسبانيين املوها بسبب افتقارهم الى الرجال . فاستطاع الفرنسيون ، منذ السنة ١٦٣٥ ، الاستيلاء على « سان - كريستوف » و« مارتينيك » و« غوادولوب » و« دومينيك » و« غرنادا » و« سانت - لوسي » و« سان - برتلي » و« سان - مارتين » و« سانت - كروا » . واستقر الانكليز في « بارباد » و« نيس » و« مونسرا » و« انتيفوا » و« انغويلا » . واحتلوا جزر برمودا وياهو وجامايكا .

أما اسباب توزيع الاوروبيين فهي التالية : كان الاسبانيون والبرتغاليون سابقين في السفر الى اميركا ، فاحتفظوا لانفسهم باحتكار الاراضي الجديدة . وحصلوا من البابا على تثبيت

اسباب توزيع الاوروبيين
الادعاءات الاسبانية - البرتغالية بالاحتكار

حقوقهم ، لان البابوية كانت تطالب بسيادة دولية شاملة . ففي رسالة مؤرخة في ١٢ تشرين الثاني ١١٩٩ ، اوضح انوشنتيوس الثالث لبطريرك القسطنطينية بان بطرس ، حين سار على البحر ليذهب الى يسوع ، « قد عبّر بهذا السلوك عن امتياز الحبرية الوحيدة الذي يوليها حق حكم الكون كله » ، اي كافة الامم الوثنية منها واليهودية على السواء . واثبت بعض رجال القانون حق الباباوات في تفويض احتلال الاراضي الحديثة الاكتشاف الى سوام . يضاف الى ذلك ان البابا ، من حيث هو اب روعي لكافة الشعوب ، قد احتفظ لنفسه بحق تنظيم العلاقات بين المسيحيين وغير المؤمنين . وبموجب الرقيم « من بين الاشياء الاخرى » ، الصادر بتاريخ ٤ ايار

من السنة ١٤٩٣ ، وهب البابا الكسندروس السادس « الملك الكاثوليكي » كافة القارات والجزر التي اكتشفت او ستكتشف في المستقبل ، في ما وراء خط رسم على مسافة ١٠٠ فرسخ الى الغرب من جزر الأسور وجزر الرأس الأخضر . وبموجب الاتفاق المعقود في السنة ١٤٧٩ ، الذي صادق عليه البابا في السنة ١٤٨١ ، احتفظ للبرتغاليين بتجارة غينيا وأراضيها . الا ان الملك جان الثاني رفض القبول بالرقيم لان السفن البرتغالية التي تدور حول رأس الرجاء الصالح كانت بحاجة الى الابتعاد مسافة كبرى عن الشاطئ الافريقي . فمقد الاسبانيون والبرتغاليون معاهدة « تورداسلاس » (٧ حزيران ١٤٩٤) : ابعد الخط الفاصل الى مسافة ٣٧٠ فرسخاً الى الغرب من جزر « الرأس الأخضر » . ولو حظ في وقت لاحق ان البرازيل و « الارض الجديدة » بقيتا في المنطقة البرتغالية . فأصدر البابا « جول » الثاني رقياً آخر أبرم الاتفاق (٢٤ كانون الثاني ١٥٠٦) . وبعد رحلة ماجلان ومحاولات الاسبانيين الاولى في الفلبين ، بات لزاماً تحديد المناطق في الباسيفيكي . كان البرتغاليون راغبين في الاحتفاظ بتجارة الافاويه ، فاستفادوا من متاعب شارل الخامس المدلية . فوافق الامبراطور في معاهدة « ساراغوسا » (٢٢ نيسان ١٥٢٩) ، لقاء ٣٥٠٠٠٠٠ دوقية ، على ان يكون الخط الفاصل دائرة الطول التي تمر في الدرجة ١٧ شرقي جزر الـ « مولوك » ، وهي الجزر الغنية بالافاويه . بقيت الفلبين في المنطقة البرتغالية ، دون ان يمنع ذلك من استقرار الاسبانيين فيها ؛ فحدثت بين هؤلاء والبرتغاليين نزاعات مسلحة عديدة .

كانت كافة الامم الاخرى مقصاة عن الاراضي الجديدة . وكان البرتغاليون والاسبانيون مقتنمين بالطابع المقدس الذي يتميز به احتكارهم ، فعاملوا التجار والرواد الاجانب معاملة القراصنة .

في القرن السادس عشر كرس بحارة وتجار الشاطئ الاطلسي الفرنسيون الاستثمار الفرنسي جهوداً تلقائية للاراضي الجديدة . ازدرى تجارهم وقراصنتهم بالحروم والاثارات ، فتوجهوا شطر البرازيل وأنزلوا فيها عملاء « خالطوا » الهنديات وانجسوا العديد من الخلايين ذوي الشعر الاشقر والوجه الابيض الامش واملوا المسيحية وتعاليمها ، وحظوا بسلطة كبرى على البلديين بروح مبادرتهم وحسن تدبيرهم وقاموا بعمل الوسطاء بينهم وبين التجار . وقد استمال هؤلاء البلديين اليهم بتواضعهم وصدقهم في المعاملة اللذين ابرزوا عجرفة البرتغاليين وخداعهم .

ولكن الحكومة الفرنسية لم تساند هذه الجهود مساندة تذكر ، فكان عليها ارضاء اكثرية السكان في امة تحصر اهتمامها في الاراضي والزراعة ولا تعير اهتمامها ، في ما عدا ذلك ، الا الاتراك وآسيا . وقد تضايق ملوك فرنسا ، بوصفهم بكون ابناء الكنيسة ، من المراسم البابوية التي تمنح الاحتكار للاسبانيين والبرتغاليين . ورغبوا كذلك في ارضاء رعاياهم في اللندوك وبروفنسا وكرسوا جزءاً من قواهم للمتوسط وموانئ الشرق الادنى .

وصرفتهم كذلك عن مساندة جهود المستعمرين مستلزمات الصراع ضد آل هابسبورغ وواجباتهم في الحلف التركي . اضيف الى ذلك ان صفوف البحارة والتجار المستعمرين قد ضمت كثيراً من البروتستانت . وقام الاميرال « كسبار دي كولينيبي » ، بين السنة ١٥٥٥ والسنة ١٥٧٢ ، في « ريو دي جانيرو » وفي فلوريدا ، بمحاولات عدة لتأسيس امبراطورية فرنسية كان مقدراً لها ، في نظر فرنسيي ذلك العهد ، ان تكون بروتستانتية قبل ان تكون فرنسية . لهذه الاسباب جميعها ، ساند الملوك المستعمرين حيناً واحجموا عن مساندتهم حيناً آخر ، وفقاً لحاجات التهويل الدبلوماسي على الحكومات الاسبانية والبرتغالية . وفي معاهدة « كاتو - كمبريزيس » ، قبل « هنري الثاني » ، المشغول بتوحيد القوى الكاثوليكية ضد المرطقة ، بأن يحتجز على السفن الفرنسية كسفن قراصنة ، بدون جدال ، في ما وراء خط طول يمر على بعض المسافة من الشواطئ الاوروبية والافريقية وفي الجنوب من دائرة انقلاب السرطان . فتخلت فرنسا عن كل محاولة في اميركا الجنوبية ولكنها احتفظت ببلد حريتها في اميركا الشمالية .

٢ - الاوروبيون وشعوب الحضارة النيوليتية

الاسبانيون وهنود ان الفكرة التي كوتها ملوك اسبانيا للاستعمار كانت عظيمة وجميلة . الحضارة النيوليتية فقد تمخض الاستعمار في ذهن ملوك اسبانيا ، الملوك الكاثوليك ، لا سيما شارل الخامس وفيليب الثاني ، بشكل تمثيل او دمج . كان على الاسبانيين ان يؤلفوا شعباً واحداً مع الهنود . وكان مفروضاً ان تصبح اميركا ولاية من ولايات اسبانيا . فكان من ثم من واجب الاسبانيين تلقين الهنود كافة طرائقهم في الحياة : تبشيرهم بالانجيل اولاً ؛ ثم تعليمهم اللغة القشتالية مع كل ما تنطوي عليه من صيغ فكر واشكال حس ؛ واخيراً طبعهم باخلاق الاسبانيين : الزي ، السلوك ، الطقوس ، النظم الاجتماعية والسياسية . وكان على الهنود ان يصبحوا قشتاليين . لذلك اوصت الملكة « ايزابيلا » بالزواج المختلطة . وقد اوضح قانون السنة ١٥٠٣ ان الهنود احرار ، ولا يتوجب عليهم سوى الضريبة والخدمات بأشكالها المختلفة ، على غرار الاسبانيين انفسهم .

الا ان حسن نوايا الحكومة قد عاكسه الفرق البعيد في الحضارة بين « الفاتحين » والهنود . فقد اعتبر كافة الاسبانيين انفسهم « أسياداً » او تاقوا الى ذلك . ولم ينظروا الى علائقهم مع الهنود الا كما الى علائق السيد بفسداديبه . زد على ذلك انهم كانوا اقلية ضئيلة . فتكونت عندهم ، بتأثير ردة فعل دفاعية ، رغبة ملحة في اقناع الهنود بتفوقهم . ورغبوا اخيراً في الاثراء . ولكن الذهب ، في اسبانيولا ، يجب البحث عنه في رمال الانهر ، وقد رفض الهنود العمل . فأرغم « الفاتحون » الارواك « الودعاء المهادئين على البحث عن الذهب . ومنح

كولومبوس الامتيازات الاولى ، فأثار بعمله حفيفة الملكة ايزابيل التي عادت وسلمت بها في السنة ١٥٠٢ ؛ فكان ذلك كارثة حلت بالهنود . كان الهنود كثيري العدد عند قدوم الاسبانيين ، دون ان يستطيع احد تحديد هذا العدد على اي حال . ولكن لم يبق منهم سوى ٤٦٠٠٠ تقريباً في السنة ١٥١٠ ، و ١٦٠٠٠ حوالي السنة ١٥٢٠ ، و ١٠٠٠٠ حوالي السنة ١٥٣٠ . وكان الهنود « تاينوس » ضعفاء البنية ، يشكون من نقص في التغذية ويكرهون كل مجهود متواصل لأنه يتنافى وتقاليدهم الموروثة . ولم تكن علاقتهم بأصحاب الامتيازات انفسهم في اغلب الاحيان بل برؤساء ووكلاء يلزمونهم بالعمل منذ الصباح حتى المساء . وكان هؤلاء الكادحون بحاجة الى المزيد من التغذية . ولكن العمل في حقول التنقيب عن الذهب خفض انتاج المواد الغذائية ، ففعل سوء التغذية فعمله . زد على ذلك ان المواشي الاوروبية قد تكاثرت بسرعة واتلفت مزروعات الهنود . ولم يبد هؤلاء اية مقاومة امام الامراض الجرثومية التي استوردتها الاوروبيون معهم . ففتكت بهم الحصبة والجذري ، لا سيما وانهم لم يعالجوها الا بالفطس في المياه الباردة . ولم تكف الولادات لتعرض عن الحسائر بالارواح . وبسبب افتقار الهنديات الى ما يحل محل حليب الام ، اخترن الفطام ما استطعن الى ذلك سبيلا ، فأرضعن اولادهن حتى اربع سنوات . ولكن العمل في حقول التنقيب عن الذهب استنزف حليب الامهات وارغم على الفطام باكراً جداً : فأدى ذلك الى ارتفاع نسبة الوفيات بين الاطفال ارتفاعاً خفيفاً . وزاد في الطين بلة النتائج العاطفية لسيطرة الاجنبي ، وعزلة الافراد الموزعين بين اصحاب الامتيازات ، وفصل الأزواج عن نساءهم ، والاتجار بالهنود ، والقضاء على القبائل والعشائر . فنجم عن كل ذلك حالة يأس جعلت الهنود يؤثرون الانتحار او الاستسلام للموت . اما الاسبانيون ، الذين افترقوا الى اليد الساملة ، فقد غزوا الهنود في جزر باهاما و « لوكاي » ولم يلبثوا ان افنوم افناء تاماً . منذ السنة ١٥٠١ اخذ الاسبانيون يستوردون الزنوج . ولكن اثمان هؤلاء كانت مرتفعة جداً . وهو القصد في اليد العاملة الضرورية لحقول التنقيب عن الذهب ما ادى الى موجات الفتوحات المتعاقبة ، في كوبا وبورتوريكو اولاً ، وفي المضيق ثانياً . فجاءت النتائج متماثلة في جزر الانتيسل الكبرى ومناطق المضيق حيث كان البلديون في مستوى حضاري واحد .

ان هذه الوقائع وضعت الاسبانيين امام المسألة القانونية . هل يحق لهم احتلال الهند الغربية؟ وهل يحق لهم استعباد الهنود؟ وقد نتج عن ذلك سيل من الرسائل والمذكرات والكتب لان ملوك اسبانيا قد استطلعوا رأي تبعتهم من اصحاب الاخاذات في كل ما يتعلق بالهند . فأكد المقربون الى ملوك اسبانيا ان للملك حق تملك البلاد وان له من ثم حق الفتح . واقعدوا هذا الرأي على الرقيم « وبين الاشياء الاخرى » الذي اعطاه البابا الكسندروس السادس بورجيا في ٣ ايار من السنة ١٤٩٣ . فان البابا الذي بلغه « ان هذه الشعوب نفسها ، التي تعيش في الجزر المذكورة وشمى مناطق البر الجديد ، تؤمن بالله واحد ، الخالق في السماء ، وتبدو مستعدة

استعداداً كافياً لاعتناق الايمان الكاثوليكي وتلقي مبادئ اخلاقية قوية ، « قد عين فردينان وايزابيل « سيدي الاراضي التي اكتشفت والتي تم اكتشافها ، مع ما يستلزم ذلك من صلاحية وسلطة كاملة وحررة ومطلقة . ومن لقب السيادة هذا استنتج ملوك اسبانيا انهم مالكو العالم الجديد . ولهذا السبب اصدر شارل الخامس في السنة ١٥١٩ امراً بضم العالم الجديد بكليته الى اقاليم تاج قشتالة الملكي . ولهذا السبب ايضاً اعتبروا ان لهم الحق ، في ارضهم ، في اخضاع الهنود .

ولكن هل حق لهم استعبادهم يا ترى ؟ لم يخامر الشك المستعمرين وعلماء نظريات كثيرين في ذلك . وكان « اوفيدو » ابعد هؤلاء تأثيراً . اوضح نظرياته منذ السنة ١٥١٩ ضد « لاس كازاس » ، وعاد اليها في كتابه « موجز في طبيعة الهند » ، ثم في كتابه « تاريخ الهند العام » ، الذي يعكس روح المستعمرين . يستصوب اوفيدو نظرية ارسطو ؛ هنالك اعراق يعدها تخلفها للعبودية بموجب الحق الطبيعي . وانما الهنود من هذه الفئة . فهم كسالى وفاسدون وسوداويون وجبناء وكذبة وبهائم . زواجهم مجموعة من الطقوس المدنسة للقدسيات . انهم عبدة اوثان وشوانيون ولواطيون . لا يفكرون الا بالمأكل والمشرب وعبادة الاصنام الوثنية وارتكاب القذائع البهيمية . اذا ما ابدوا ، فلأن الله يعاقبهم ، على غرار سدوم وعمورة ، بسبب خطاياهم الجنسية . محضيرهم امر مستحل . يجب استعبادهم بالقوة الى الابد .

واثبت آخرون ، ضد اوفيدو وانصاره ، ان الهنود كائنات عاقلة يجب معاملتها كالاسبانيين ، ولكن بتحفّظ ومداراة ، لأنهم متأخرون حضارياً ، كما هو واضح . كان هذا جوهر نظرية الدومينيكانيين ولا سيما نظرية عالم النظريات السياسية الشهير في جامعة « سلنكا » ، « فرنسيسكو دي فيتوريا » ، الذي توفي في السنة ١٥٤٩ . ففيتوريا يجاهر بأن هنالك ، خارج الحقائق الموحى بها ، نظاماً زمنياً ، اوحقاً بشرياً ، يمكن ادراكه على ضوء العقل وحده . ان هذا الحق الطبيعي هو مرتكز « النظام والاتفاق » ، اساس كافة المجتمعات . وان هذا « النظام والاتفاق » واحد لكافة الكائنات العاقلة ، من مسيحيين او غير مسيحيين . ولكن الهنود كائنات عاقلة ، من حيث انهم بشر . لذلك فان الحق الطبيعي يشملهم كما يشمل الاسبانيين . ولذلك كانت لهم كافة حقوق الاسبانيين الطبيعية ، الحرية ، التملك ، القدرة على حكم انفسهم .

ان الآراء التي جعل منها « فيتوريا » عالماً سياسياً ، قد اطلقها ، للمرة الاولى ، « مونتسينوس » في عظته في اسبانيا يوم الاحد الواقع قبل عيد الميلاد في السنة ١٥١١ . وفيما يلي خلاصة ما قاله مونتسينوس : الهنود كائنات عاقلة ؛ فلهم الحق من ثم في ان يعاملوا معاملة الاسبانيين ؛ ويجب بالتالي تلقينهم حقائق الديانة لتخليص نفوسهم ؛ كما يجب الابقاء على حريتهم ، وعدم اضناكهم بالعمل ، واعطاؤهم كفافهم من المأكل ؛ والاعتناء بهم في امراضهم ، ومخالصتهم الود . ان الاسبانيين القساة والمستبدين الذين لا يتقيدون بشيء من ذلك يكونون جميعهم في

حالة الخطيئة الميئة. الا ان رئيس الدومينيكانيين في اسبانيا قد حظر على رهبانه في اسبانياولا التبشير بمثل هذا التعليم المشين ، بناء على شكوى المستعمرين وعلى امر صادر عن الملك .

ولكن « برقلمايو دي لاس كازاس » قد اتاب عن مونتسينوس بعد ذلك في موقفه من الهنود . كان كاهناً ، وصاحب امتياز ، في اسبانياولا منذ السنة ١٥٠٢ ، ثم في كوبا منذ السنة ١٥١٢ ، ووقف موقفاً عادئياً من الهنود ، فحلت عليه النعمة بينما كان يعد احدى المواعظ في السنة ١٥١٤ . اقتنع بأن معاملة الهنود كانت ظالمة واستبدادية ، فتخلى عن ممتلكاته واعتق هنوداً وغدا نصيرهم الذائد عن حياضهم منذ مذكركه الاولى (١٥١٦) الى ملك اسبانيا . يرى لاس كازاس ان سلطة الملك على الهنود سلطة لا شرعية لان كافة البشر احرار ، بموجب حق طبيعي ، اذ انهم مخلوقون على صورة الله احراراً ومسؤولين . كل ما استطاع البابا ان يفعله هو اسناد ادارة الى ملوك اسبانيا لمنع الهنود من طرد المرسلين او قتلهم . ولكن ليس لأحد حق في تخطي هذا الحد ، او في تصير الهنود بالقوة . اما استعبادهم فلا شرعي ايضاً لان الهنود بشر كثيرهم . الاغريق الاقدمون ، التتر ، الهنود ، الاسبانيون ، افراد جنس بشري واحد ، انطلقوا من مستوى هجي واحد ، وتوصلوا الى مستويات تقدم مختلفة بفعل ظروف مختلفة . « يتضح من هذه الامثلة القديمة والمعاصرة ان ليس من شعب في العالم ، مها بلغ من قساوته وغمارته وبربريته وخشونته ووحشيته وبهيميته ، يستحيل اقناعه واستمالته واعادته الى النظام وترويضه وجعله وديعاً وسهل المراس ، اذا اعتمدنا الارابة واللياقة وسلكتنا هذه الطريق الطبيعية الخاصة بالانسان بدافع من المحبة والحلم والوداعة والبهجة ، واذا كنا لا نشد سوى هذه الغاية » (« التاريخ الدفاعي ») . فبالامكان من ثم ترقية كافة الشعوب اذا ما نظرنا اليها كما الى اخوة نفرغ جهودنا في سبيلهم دونما سمي وراء فوائد شخصية او قومية . ويجب بالتالي هديهم الى الدين القويم بالملاطفة ، « باقناع العقل » ، ثم « بتحرك الارادة برفق » . (« الوسيلة الوحيدة لاستمالة كافة الشعوب الى الديانة الحقيقية » ، ١٥٣٧) . زد على ذلك ان الاسبانيين هم الهمجيون . ففي مؤلفه « بيان موجز في تدمير الهند » (١٥٤٢) المرفوع الى الامبراطور شارل الخامس ، يظهر لاس كازاس الهنود ، عند قدوم الاسبانيين ، مطيعين ، أوفياء لرؤسائهم ، ضعفاء ، متبصرين ، هادئين ، ودعاء ، صادقين ، طيب القلب ، سليمي السريرة ، فقراء ، مجردين عن الغايات ، متحلين بذكاء حاد وجديرين بتقبل الايمان الكاثوليكي المقدس . دخل الاسبانيون ديار هؤلاء المتوحشين الطيبين وكانهم ذئاب وانمر واسود تتضور جوعاً . فأقصروا عملهم على تقتيل الهنود واسخان اعينهم وتعذيبهم وافنائهم بوحشية نادرة . لا بل منوا الرهبان من التبشير بالانجيل . وقد دفعهم الى كل ذلك تكاليفهم على الذهب الى هذا الكتاب ، الذي انتشر في كل مكان ، يمود تاريخ « الاسطورة السوداء » حول القول الاسباني ، سبب ارتعاد الامم .

اقرت قوانين « بورغوس » مبدأ اللجوء الى منح الامتيازات . وبناء على مطالبة

الدومينيكانيين ، اعلن تفسير قوانين بورغوس في السنة ١٥١٣ ان باستطاعة بعض الهنود ، المثقفين بمعاشره الاسبانيين ، ان يستحصلوا من القضاة على اعلان حريتهم . ولكن المستعمرين ولاس كاراس اعترضوا على ذلك لاسباب مختلفة .

امام تضارب الآراء ، قرر الكردينال « كسيميليس دي سيسروس » اجراء تحقيق بواسطة لجنة تعين لهذه الغاية . فأرسل ثلاثة اخوة ايرونييمين مع « لاس كازاس » الذي اطلق عليه اسم « حامى الهنود » . طرح المحققون على كل شاهد سبعة اسئلة صيغ ثالثها على الشكل التالي : « هل يعلم الشاهد او يعتقد ، او هل سمع او لاحظ ان هؤلاء الهنود ، ولا سيما هنود اسبانيولا ، رجالاً ونساء على السواء ، يتحلون بمعرفة وكفاءة تتيحان اعطاءهم حرية كاملة ؟ هل هم قادرين على ممارسة حياة سياسية على غرار الاسبانيين ؟ هل يستطيعون تأمين حاجاتهم بجهودهم الخاصة ، كأن يستخرج كل هندي الذهب من المناجم او يحرث الارض او يؤمن معيشته بعمل يومي آخر ؟ هل يعرفون كيف يستفيدون مما قد يدره عليهم هذا العمل بأن ينفقوا على حاجات حياتهم فقط كما يفعل العامل القشتالي ؟ » اجاب المستعمرون كلمهم بالنفي ، وكان احدهم متزوجاً من هندية منذ ١٤ سنة . واستندوا في ذلك الى اختبار الحاكم « اوفندو » . اعطى هذا الاخير ، في السنة ١٥٠٨ ، الحرية لرئيسين هنديين منصرين تعلموا الكتابة والقراءة واتقنا الاسبانية وكانا متزوجين وابوي عائلة . جعلهم اوفندو صاحبي امتيازات . ولكن هذين الهنديين قضيا ست سنوات احراراً دون ان يحرثا الارض ، او يتمكنوا من إعالة أنفسهم وتأمين ملابسهم بعملهم . فبدت هذه النتائج حاسمة في نظر الايرونييمين الذين جمعوا الهنود في قرى تحت سلطة محافظين اسبانيين وتسببوا بعملهم هذا في انتشار وباء الجدري الفتاك .

اعترض « لاس كازاس » واستحصل من شارل الخامس على أمر باختبار جديد أجراه في السنة ١٥١٩ و١٥٢٠ ، في اسبانيولا ، « رودريغو دي فيغورورا » . اختار هذا الاخير عددا من الهنود ممن رأى فيهم الكفاءة وقدم لهم سلف اغذية وملابس وأدوات وعين لهم مناجم ذهب ترك لهم امر استثمارها وترك لهم الحرية في العمل على هواهم . فجاءت النتيجة فشلاً ذريعاً .

في السنة ١٥٢٦ ، استطاع المستعمر القديم « بارونوفو » ، الذي كان في المستعمرة منذ ٢٤ سنة ، الاستشهاد بمثل هنديات كثيرات تزوجن من اسبانيين أو دخلن الاديرة مكرسات انفسهن لخدمة الجمعيات الرهبانية . فما ان يصبحن أرامل أو يخرجن من الدير حتى يتخلقن حالاً بالاخلاق الهندية ، بما فيها العمري والحرية الجنسية ، كما لو انهن لم يعشن طيلة سنوات عبثة اوروية . واكد « بارونوفو » بان لا أمل يرجحى من الهنود عموماً بسبب ضعف تفكيرهم وذآكرتهم . فهم ينسون صلاة « السلام عليك يا مريم » اذا مريم واحد دون ان يتلواها .

اجريت اختبارات اخرى في كوبا ، وفنزويلا ، وغواتمالا ، وفي المكسيك عند الشيشيميك . فجاءت النتيجة اخفاقاً في كل مكان . حاول الاسبانيون بين السنة ١٦٣٥ والسنة ١٦٧٦ انشاء

مستعمرات ثابتة ، يضم بعضها الاسبانيين والبعض الآخر الـ « اوثوميس » ، في الجبال التي لجأ اليها الشيشيميك ، ثم جمع الشيشيميك في قرى منفصلة خاصة بتعودون فيها ، على غرار جيرانهم المزارعين ، حياة القرار والزراعة . فلم يفلحوا في هذه المحاولة ايضاً اذ ان الشيشيميك رفضوا الاقامة في القرى ولم يأتوا اليها الا لبعض الاحتفالات الدينية . وكانوا يقدمون على الانتحار اذا ما ارغموا على حضور القداس بانتظام ، ويفرون الى اقصى القفار اذا ما طلب اليهم حضور دروس التعليم المسيحي بانتظام ايضاً . فكان في النهاية ان اباد الاسبانيون الشيشيميك في القرن الثامن عشر . ويتضح من ثم ان الاسبانيين قد اخفقوا في محاولاتهم استمالة اقوام القناصين والصيدان والمزارعين الوقتيين .

الا ان المسيحيين لم يعترفوا بالاختفاق . فان البابا بولس الثالث قد اعلن في رقيه « الحقيقة نفسها » المؤرخ في ٢ تموز ١٥٣٧ ، ان الهنود بشر حقيقيون وان لهم نفساً جذيرة بالحياة الابدية ، وان معاملتهم يجب ان تستوحي هذه الحقائق . بيد ان مجمع « ليا » الثالث الذي انعقد في السنة ١٥٨٣ قد اخذ نتائج الاختبار بعين الاعتبار واعترف بان الهنود ، مع كونهم بشرأ سوا ، قد بقوا في حالة طفولة وان الواجب يقضي بان تضمن لهم كمال القصر حماية دائمة . فتولى اليسوعيون اجراء اختبار شيعية ابوية ، في « بارغواي » ، كمرحلة اولى ، بغية الانتقال بالهنود الى الحياة الشخصية . وكان هؤلاء من قبيلة التوي غواراني الذين اخفقت في تبشيرهم بعض الارساليات المتنقلة . في السنة ١٦٠٧ اسند ملك اسبانيا ادارة البلاد الى اليسوعيين بغية تحضير الهنود في قرى اطلق عليها اسم « المعادات » لانها انشئت « لاعادة الهنود الى الحياة المدنية والكنيسة » . وضع الآباء تحت سلطة الملك ومجلس الهند ونائب الملك في البيرو ، وسلطة مجالس « شاركاس » و « شونكيساكا » و « بوينوس ايرس » القضائية ، ورقابة حاكمي باراغواي و « ريو دي لابلاتا » اللذين زارا « المعادات » زيارات منتظمة . وطبق اليسوعيون شرائع الكنيسة تحت ساطة اسقفي « اسومبسيون » و « بوينوس ايرس اللذين كانا يتفقدان « المعادات » .

لم يلحق هنود القرى المسيحية قط « بالامتيازات » التي كان اسمها مثار هول ورعب لهم . ولم يمر وقت طويل حتى توارد بين الناس ان « المعادات » مواطن حرية . فتهاقت عليها الرؤساء والامراء مع قبائلهم . تأسس اول « معاد » ، وهو معاد « سان اينياسيو غوازو » ، في ٢٣ ١٦٠٩ من السنة ١٦٠٩ ، على مسافة ١٢٠ كيلومترا الى الشرق من « اسومبسيون » . ثم تأسس حوالي ثلاثين معاداً آخر . الا ان هذه المعادات قاست الامر من هجمات تجار الرق في ولاية « القديس بولس » البرتغالية ، بمساعدة قبائل التوي - غواراني الباقية على وثنتها ، الذين كانوا يقبضون على الاسرى ويبيعونهم من البولسيين مقابل مقصات وسكاكين وصفناير . ولم تعرف المعادات الهدوء والسكينة الا بعد ان استحصل اليسوعيون من ملك اسبانيا على اذن بتسليح الهنود بأسلحة نارية والحقوا بالبولسيين هزيمة نكراء في السنة ١٦٤١ .

شيدت المعادات على مرتفعات ، لاسباب تتعلق بالسلامة ، على بعض المسافة من نهر يستخدم

لنقل المحاصيل . يتوسطها ساحة عامة كبرى تحيط بها الكنيسة والمدرسة وبيت الارامل ومستشفى الشيوخ ودار البلدية ومركز اقامة الآباء وتحيط بها كذلك شوارع كثيرة تكون بتقاطعها مربعات تتوزع فيها المساكن . وحين يخرج الانسان منها يشاهد منطقة حدائق تتخللها معامل الآجر والقرميد ، والمسابك ، والمهاجر ؛ ومنطقة حقول زراعية : الذرة الصفراء ، الحنطة ، الفاصوليا ، الحمص ، التي تستبدل سنة بعد اخرى في تعاقب مطرد بالشاي والقطن وقصب السكر ؛ ومنطقة املاك عامة مشتركة ، مروج ومراع تشرح فيها قطعان المواشي الكثيرة .

اخضع الهنود للنظام الاجتماعي الاوروبي . تتألف من الامراء واقاربهم طبقة اشراف وراثية جعلت في نظر القانون على مستوى طبقة الاشراف الاسبانيين . لكل امير سلطة على ٣٠ او ٤٠ هنديا يقومون نحوه بواجب الطاعة والعمل . يتمتع الهنود بالاستقلال الذاتي في نطاق المعادات . لكل معاد بلديته الهندية ، يعين الحاكم فيها قاضياً أولاً مدى الحياة بناء على ائناء الآباء .

اما القضاة البلديون الآخرون فينتخبون انتخاباً ويوافق الحاكم على انتخابهم . لكل معاد كاهن رعية ، يسوعي يعينه الاسقف بموافقة الحاكم . ولما كان الغواراني يعتبرون كل ما يقوله ككلام الله بالذات ، فهو الذي يمارس السلطة الاولى . الخدمة العسكرية الزامية . الغواراني جنود اكفاء يجمعون فرقاً بقيادة الامراء ، يدينون للملك بالخدمة العسكرية ويشيدون الكنائس والمساكن والحصون . تفرض على الغواراني ضريبة ينعم عليهم بدفعها نقداً لا عينا .

ينشأ المعاد في مكان منزول حفاظاً على الهنود من معايب الاسبانيين ، ولا يسمح بدخوله لا لاسباني ولا لزنجي ولا لخلاسي . وعليه من ثم ان يستقل اقتصادياً . كل الاراضي ملك الجماعة وفاقا لمعاد الهنود الاقدمين . وعلى كافة الرجال ان يعملوا يومين اسبوعياً في حقول الجماعة التي تقدم البذار والادوات والمحارث وحيوانات الجر . تجمع محاصيل الارض المشتركة في مخازن خاصة . يباع قسم منها لتسديد الضريبة وابتياح الملح والحديد . ويستخدم الباقي لاعالة الشيوخ والارامل والايتام . يقسم ما يتبقى من اراضي الجماعة قطعاً صغيراً توزع للاستثمار مدى الحياة على رؤساء العائلات الذين يتبقى لهم اربعة ايام لزراعتها وتكون حصاندها ملكاً خاصاً .

يضم « المعاد » عدداً من المصانع البلدية التي يمارس فيها الغواراني كل الحرف باتقان كامل وتنصرف الهنديات الى الغزل في بيوتهن . اما المصنوعات فتجمع في مخازن مشتركة وتوزع ملكاً شخصياً صرفاً بحسب الحاجة .

يتوقف العمل في الساعة الرابعة أو الخامسة مساءً بغية افساح المجال لشؤون العبادة . ايام الاعياد مائة وثمانون ، ينقطع الهنود فيها عن كل عمل ، وتقام فيها الاحتفالات الدينية ، وترافقها ضروب اللهو المختلفة : الموسيقى ، الرقص ، اطلاق النار على الرمي ، العاب الكرة ، التمثيليات . وغني عن البيان ان الحياة الدينية تسيطر على الحياة اليومية : صلوات وتعليم مسيحي صباح مساء ، اناشيد دينية قبل العمل وبعده ، الخ .

وخلاصة القول ان هذه الشيوعية استهدفت الانتقال بصيادين لا يزالون في حضارة المهسد النيوليتي الى مستوى اخوانهم من متحضري عصري النحاس والشبه. ولكن العمل ، في نظر اليسوعيين ، ما كان ليتوقف عند هذا الحد . فقد بذلوا جهداً كبيراً بغية بعث روح المبادرة الشخصية . استحثوا رؤساء العائلات على زراعة شاي الباراغواي والتبغ وقصب السكر والاتجار بها . وتناولوا لو يصبح هؤلاء الرؤساء اصحاب مشاريع صغرى ويكفون انفسهم بأنفسهم ويجمعون الثروات اذا ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً . وهذا يستلزم ، كما لا يخفى ، روح التمييز والتبصر في العواقب والثبات والمبادرة والاقدام ، كما يعني ، في حال توفر هذه الروح ، ان الغواراني قد اصبحوا قادرين حقاً على سياسة انفسهم وغدوا اشخاصاً مسؤولين حقاً واحراراً .

الا ان الغواراني بقوا شعباً طفلاً ، غافلاً ، متقلباً ، جامعاً . يأكلون البذور التي يستلمونها لزراعة اراضيهم . يهملون زراعة اراضيهم الخاصة فلا يكفهم انتاجها اكثر من شهرين او ثلاثة . يعتمدون لما يتبقى من اشهر السنة على محصول الحقول المشتركة . يتركون مواشيم تتيه او تموت جوعاً اذا ما ارتفعت الرقابة عنهم . اذا ما اشتغلوا ، فانهم ينجزون في ستة اشهر ما ينجزه العامل الاوروبي في اربعة اسابيع . لم يتفوق اليسوعيون يوماً الى حملهم على بذل مجهود شخصي . تزوج خلاسي من هندية فسمح له اليسوعيون بالاقامة في المعاد . باع هذا الخلاسي في بوينوس ايرس انتاج حقوله ومواشيه وعاش حياة يسر ورفاهية . انذهل الغواراني واعجبوا به ولكن واحداً منهم لم يخذ حذوه . زد على ذلك ان واحداً منهم لم يتوصل الى ادراك كيفية معاملة حيوان أليف . برهنوا في اعمال الحرف عن مهارة فائقة في تقليد المصنوعات الاوروبية ولكنهم لم يبتكروا قط شيئاً جديداً .

اما مشاعرهم فلم تتقدم خطوة واحدة حتى بعد اربعة او خمسة اجيال . فعواظهم العائلية لم تتطور قط ، وكذلك ديانتهم الشخصية . وحافظوا في الناحية الفكرية على مستوى ابناءهم يجدهم من سكان الغابات .

ان المعادات اليسوعية في الباراغواي لخير مثل عن سلة مؤسسات مماثلة انشأها اليسوعيون في كافة أنحاء اميركا على طول حدود الاستعمار الاوروبي وأعطت النتائج نفسها تقريباً .

وصل البرتغاليون الى شواطئ البرازيل واتصلوا بقبائل التوبي -
 غواراني منذ السنة ١٥٠١ ؛ اما الفرنسيون فنزلوا السنة ١٥٠٤ . أتوا
 البرتغاليون
 ومنود الحضارة النيوليتية
 في البدء تجاراً يؤسسون المصانع تلقائياً . اما في جنوبي البرازيل حيث
 تأسست « سانتو - باولو » فيما بعد ، فقد اقام محكومون برتغاليون ومنقبون وبحارة . وثبت
 الفرنسيون اقدمهم في رأس « فريو » وجون « غواناغارا » حيث قامت ريو دي جانيرو
 بعد ذلك .

وقد اجتذب الاوروبيين خشب الصباغ الاحمر ، « البرازيل » ، والقطن ، والهجرس ،

والبيضاء والفلل . وافتتن الهنود بالمصنوعات الحديدية . فان مجرد اقتنائهم سكيناً او فأساً او اسافين يوليهم التفوق في العمل او الحرب على سواهم . فقطعوا الاشجار ببله ارادتهم ونقلوها وقدموا « البرازيل » بغية الحصول على « الحديديات » . فتمكن البرتغاليون والفرنسيون على السواء من ابقاء العملاء بن ظهرا في الهنود لتعلم لغتهم . « خالط » هؤلاء العملاء الهنديات ، لا بل قصد بعضهم القبائل للميش فيها ، « على طريقة البرابرة » ، وامسوا وثنين من أكلة لحوم البشر وأنسلوا ذرية من الخلاسين الذين سهلوا الملائق بين الاوروبيين والهنود .

قدم الهنود ، في الدرجة الاولى ، للبرتغاليين والفرنسيين ، المحاربين الذين افتقروا اليهم للقتال في حرب استعمارية لا هوادة فيها . استولى القراصنة الفرنسيون على عدد كبير من السفن البرتغالية على طول الطريق البحرية . وأفلحوا في استمالة البلدين بلطفهم وصدق معاملتهم وتساهلهم وحسن التفاتهم : فحين تأكدت لهم رغبة الـ « بوتيفوارا » في اكل لحوم البشر ، نظموا خدمة منتظمة تنقل زوجاً من غينيا يقدمونهم لهم ما كلاً . ويؤيد نجاح الفرنسيين عدد الخلاسين ذوي الشعر الأشقر والبشرة الوردية ، وواقع النجاة من اكلة لحوم البشر بمجرد الادعاء بالجنسية الفرنسية .

خشي البرتغاليون مغبة الامر . زد على ذلك ان استعمارهم تبدل شكله منذ السنة ١٥٣٠ واصبح استعمار مزارع ومشاجر . استفادوا من اختبارهم في « ماديرا » « وكاناري » « واسور » ، فزرعوا قصب السكر . وطلب بعض كبار الملاكين عون التاج على الفرنسيين ، فأنشأ ملك البرتغال بين السنة ١٥٣٤ والسنة ١٥٣٩ اثنتي عشرة ضابطية في البرازيل . اسند كل منها الى سيد او الى ملاك كبير في اغلب الاحيان . برهن الاسياد عن استبدادهم او عن عجزهم . في السنة ١٥٤٩ استلم الملك نفسه زمام ادارة المستعمرة ، واسس الحاكم العام الاول ، « توميه دي سوزا » ، مدينة « سان - سلفادور دي باهيا » .

سارت الحكومة البرتغالية في الحرب بقوة وحزم بينما لم تقم الحكومة الفرنسية الا بجهود متفرقة بسبب انشغالها بمحاربة آل هابسبورغ . فان الاميرال كولينيبي ، الذي حلم بامبراطورية فرنسية وبروتستانية ، ارسل « فيليمانيون » الذي اسس مستعمرة عسكرية في جون « ريودي جانيرو » في « جزيرة الفرنسيين » . ولكن الحاكم البرتغالي اصطحب اليسوعيين ، الذين كان لهم نفوذ « كبار السحرة » : فابعدوا عن الفرنسيين حلفاءهم من الهنود الواحد تلو الآخر . واحتل البرتغاليون « جزيرة الفرنسيين » في السنة ١٥٦٠ ، ثم استولوا تدريجياً على كافة المستعمرات الفرنسية . وحتى في السنة ١٥٩٧ ، توجهت الى منطقة « ريوغرانده دل نورته » ٢٠ سفينة فرنسية . ولكن المدفعية البرتغالية انتصرت في السنة ١٦٠٣ على حلفاء فرنسا الاخيرين ، البوتيفوارا . وهكذا لم يستطع الاوروبيون تسوية منازعاتهم الا بفضل المحاربين الهنود .

كان الاستعمار البرتغالي ، الا في منطقة سانتو - باولو ، استعمار الاملاك الكبرى ، الخاضعة

للنظام السيدي او الابوي ، والمرتكزة الى زراعة قصب السكر الوحيدة ، ومن ثم الى الرق .
فقدت عملية جمع الرقيق شغل البرتغاليين الشاغل ، لا بل غدت صناعة قائمة بجد ذاتها لسكان
ولاية القديس بولس ولا سيما لفئة « المالك » ، الخلاسين المتوحشين .

أتاح العبد في منطقة سانتو - باولو ، حيث استقر صناعيون برتغاليون معوزون ، قيام
استعمار الاملاك الصغرى . « اذا اتى شخص الى هذه البلاد وتوفى الى امتلاك اثنين منهم
(الهنود) ، توفرت له وسائل تمهد عائلته بشرف ، حتى ولو لم يمتلك اي شيء آخر ، لان
احدهما يؤمن له القنيص والثاني الاسماك ، والآخرين يزرعون في مزارسه ويجمعون الحصاد .
وليس عليه ، بهذه الطريقة ، ان ينفق على تأمين المواد الغذائية لهم ولعائلته ولنفسه ، (الاب دي
نوبرغا) . الا ان هؤلاء الهنود الاقوياء قد خيخوا الآمال في الاملاك الكبرى . فقد مارسوا القنص
والصيد في مواعيد معينة تتخللها فترات بطالة طويلة ، ولم يستطيعوا قط تعود عمل المشاجر
والمغارس المنتظم الممل ، ففكك الموت باعداد كبيرة منهم . وبات لزاماً منذ السنة ١٥٣٠
استحضار الزوج من افريقيا . ولكن كل مشجر او مغرس احتفظ بعدة عشرات او عدة مئات
من المحاريين الهنود لحماية المزروعات ومطاردة المبيد وجمعهم .

الا ان الاستعمار ما كان ليتحقق لولا الامراة الهندية ، زوجة كانت ام سرية . فهي من حالت
دون موت الاوروبيين جوعاً بتعليمهم فن صناعة طحين المنيهوت واستخدامه الذي ما زال
مرتكز الطهاية البرازيلية . وهي من وفرت لهم شتى الوصفات الصحية والمنزلية . وبفضلها
خطيت الخطوة الاولى الصعبة للاستعمار . واستخدمت لانجاب جماهير غفيرة من العبيد .

كانت نتيجة الاستعباد الاولى على الهنود نقصاً في التغذية . فان اصحاب المشاجر والمغارس
لم يكثرثوا لزراعة المواد التي تدخل في تحضير الاطعمة ، ولم يتمكن الهنود من الحصول على
المنيهوت ، في يوم من الايام ، الا بكيات محدودة . كما ان المشاجر والمغارس اقصت الماشية ولاسيما
ماشية « سرتاو » التي غدت اشبه بياكل عظمية . وبات القنيص والسملك اكثر ندرة كلما ارتفع
عدد المستعمرين الاوروبيين . ولم يتناول العديد من الهنود العاملين في المشاجر والمغارس سوى
وجبة طعام يومية واحدة قوامها معجون المنيهوت مع بعض الارز .

تأثر الهنود تأثراً شديداً بالجدري ، وقتك بهم الداء الزهري ، لان جميع العاملين في
المشاجر والمغارس قد عاشوا منذ سن الثانية عشرة حياة زنى دائم . وكان كل من لا تظهر فيه
علائم الداء موضوع تهكم وسخرية . ونقلت اليهم الالبسة امراضاً جلدية وساعدت بتحويلها
وظائف الجلد على انتشار الامراض الرثوية . فتناقص عدد الهنود تناقصاً مستمراً .

حاولت الدولة البرتغالية هدي الهنود اى الانتقال بهم من المذهب القائل بوجود الروح في
كافة الاجسام الحية الى مذهب التوحيد ، من منطق المشاركة الى منطق الادراك ، من التفكير
السحري الى كفاية العقل النوعية . جعل الرقم « ومن بين الاشياء الاخرى » الصادر عن

الكسندروس السادس بتاريخ ٤ ايار ١٤٩٣ ، من ملك البرتغال ، « نائب المسيح في الاراضي المكتشفة حديثاً » . فكان ملك البرتغال مسؤولاً شخصياً عن التبشير بالانجيل . وقد ادرك جان الثالث (١٥٢١ - ١٥٥٧) مسؤولياته ، فأوعز بارسال الآباء اليسوعيين الستة الاولين في السنة ١٥٤٩ وتعهد بالانفاق على معيشتهم . وحذا حذوه خلفاؤه من بعده . اما الحاكم الذي بعث الحركة الحاسمة فهو « مم دى سا » الذي تولى مهامه منذ السنة ١٥٥٧ حتى السنة ١٥٦٨ والذي كرس الايام الثمانية الاولى من ولايته للقيام بالتارين الروحية باشراف الاب « نورغا » . وعين اسقف على البرازيل في السنة ١٥٥١ . فانصرف الاساقفة الى تبشير الهنود بالانجيل ، واشتهر منهم في هذا المجال الاسقف الثاني « بدرو ليتاو » .

الا ان تقدم التبشير كان بطيئاً . فان كهنة الرعايا المرسلين من البرتغال غالباً ما برهنوا عن جشع وفضاظة وسوء سلوك ، بينما كان اليسوعيون قلة ولم يتجاوز عددهم الـ ١٤٢ في السنة ١٥٨٤ بينهم ٧٠ كانوا فقط . وكان الهنود متوزعين قبائل صغيرة متنقلة : تشاهد الواحدة منها في الصباح وتختفي بعد الظهر في الـ « سرتاوو » . تكلم الهنود لغة عامية مشتركة هي لغة التوبي التي لم يتقنها المرسلون قط واضطروا بسبب ذلك الى سماع الاعترافات بواسطة الترجمة . ولكن هنالك استثناءات ، كالأب « انكيئا » مثلاً الذي وصل في السنة ١٥٥٣ الى سانتو - باولو والف اجرومية وقاموسياً وكتاباً في التعليم المسيحي وموجزاً لسامي الاعترافات وانشيد ومسرحيات دينية ، وجعل من التوبي لغة حضارة . وانما اقتقرت لغة التوبي الى مفردات تعبر تعبيراً صادقاً عن المعتقد المسيحي . فقد اختار المرسلون للتعبير عن مفهوم « الله » كلمة « توبان » التي تشير الى قصف الرعد والتي اعتقدوا بانها تعني « الشيء الالهي » ، اي الكائن الجدير بصفات الاله المسيحي . ولكن « توبان » انما تشير الى شيطان الرعد ، فجر استعمالها الى شتى ضروب اللبس والتشويش . وقد حدث مثل هذا اللبس والتشويش في تعابير دينية كثيرة بسبب فقر اللغة . وتوصل « السحرة اليسوعيون » بسهولة اخيراً الى اقناع هؤلاء الهنود السريعي التأثير . الا ان هؤلاء كانوا يعمدون الى وثنيتهم بمثل السهولة ننسها بسبب تقلبهم وتغافلهم . لذلك توجب وجود الكاهن بصورة دائمة .

افلح اليسوعيون من ثم في حمل الحكام على الزام الهنود بالتجمع والعيش في قرى تأسست القرى الاولى في السنة ١٥٥٧ في منطقة « باهيا » . ومنذ السنة ١٥٦٢ كانت هنالك عشر كنائس لجمع حولها بين ٤٠٣٠ و٤٠٣٠ الف هندي متحضر . وعاون الآباء في مهمتهم « امير نهوس » ، الامراء ، الذين تعينهم السلطات المدنية قضاة بناء على اقتراح اليسوعيين .

فرض اليسوعيون بعض السلطة على الهنود بتعاطيهم الطب والجراحة والحدادة والبناء والتجارة . فقد اتى الهنود الى التعليم المسيحي وطلبوا الى الآباء تربية اولادهم ، بغية الحصول على الادوات الحديدية . يبدأ النهار في القرية وينتهي بالتعليم المسيحي وتخله الصلوات في اوقات معينة على الطريقة الرهبانية تقريباً . استهدفت الجهود الاولاد بصورة خاصة ، ومنذ السنة ١٥٥٠

استحضر الآباء بعض الايتام من البرتغال وادخلوهم مدارسهم الى جانب اولاد الغواراني ليجعلوا من العرقين شعباً واحداً يعبد الله . اسندت الى هؤلاء الاولاد مهمة التنبيه الى الولادات والامراض ، كي يتاح للآباء توزيع سري العمداء والمسحة الاخيرة ، ومهمة الوشاية بالسحرة وتعليم الاولاد الآخرين ، وحتى الفتيان ، مبادئ الدين المسيحي . زد على ذلك ان هؤلاء الاولاد اثروا في الهنود بتطوافتهم وانشيدهم .

استند التبشير بالانجيل الى دعوة نفعية . فقد بشر اليسوعيون الغواراني بانهم اذا ما اهتموا سيحصلون ، بفضل الله ، على غذاء وفير ، وسيتمتعون بصحة جيدة وسيحجزون النصر على اعدائهم . ارتعب الهنود من جهنم ، فشدد اليسوعيون الكلام عن العقوبات الابدية . وبغية التأثير في الهنود تمجيباً واحتراماً ، وبغية صرفهم عن « اعياد المسكر » والرقص ، اكثروا من الاحتفالات الزاهية مع ما تستلزمه من موسيقى وانشيد شغف بها الهنود ، ونظموا تطوافات عديدة رفعت فيها الرايات الكنسية الزاهية الالوان والشموع والمشاغل وتخللتها الرقصات ولا سيما الرمزية منها . وقد تجلت الرقصات الرمزية في المسرحيات الطقسية والايماثية التي برهن الهنود عن اهلية كبرى لتمثيلها .

علم اليسوعيون الهنود مبادئ الدين ملياً وبطول اناة . فرضوا عليهم مرحلة اعدادية طويلة . طلبوا اليهم ان يختاروا بين نسايتهم العديداً واحدة يصرح الهنود بانهم يريدونها زوجة فريدة لهم مدى الحياة . وبعد زواجهم على هذا الشكل ، « بحسب سنة الطبيعة » ، كان باستطاعة اليسوعيين تنصيرهم بالعماد وتزويجهم بعد ذلك « بحسب سنة النعمة » . ثم يسمع اعترافهم بعد فحص ضميري تمهيدي . لم يفرض اليسوعيون عليهم سوى كفارات خفيفة ، وكفارات اديبية بصورة خاصة . وبكل احترام قدموا الهنود الى تناول سر القربان محور الحياة المسيحية . وفي السنة ١٥٧٣ سمح للهنود بالتناول مرة واحدة في السنة . ولكنهم كانوا قدوة في تقبل هذا السر فأجيز لهم في السنة ١٥٧٤ بتناول جسد الرب في الاعياد الاربعة الكبرى : الميلاد ، الفصح ، العنصرة ، انتقال السيدة .

برز بين الهنود مسيحيون صالحون كانوا تسايح حقيقة حية للرب . الا ان اليسوعيين لم يرفعوا احداً منهم الى درجة الكهنوت لانهم اعتبروهم عاجزين عن حمل نير البتولية وغير مهئين للدروس اللاهوتية المعمول فيها على المنطق الصوري والفلسفة الكلامية . ولكن النتائج جاءت غير مرضية في اغلب الاحيان . « ان هؤلاء الاوثان من الهمجية بحيث لا يعيش شخص واحد منهم حياة مسيحية اذا انقطع اتصالهم بالآباء ثمانية ايام متوالية » (« غبريال دي سوزا » ، ١٥٨٧) . وغالباً ما يحدث ان القبائل التي تبدر وكأنها تسير في السبيل القويم تستعيد اولادها وتتوارى عن الانظار . وقد القى احد اليسوعيين في الدهش يوم عيد الشمانين من السنة ١٥٦٠ : نظم هنود قرية « سان جوان » في منطقة « باهيا » تطوافاً فجعاً تجلت فيه ارواح مظاهر التقوى وفعجأة انسحبوا الى السرتاو . فكيف تفسر مثل هذه التقلبات يا ترى ؟ هنالك تقلب الهنود . وهناك العمل الذي يطلبه اليسوعيون منهم . وهناك ايضاً مقاومة السحرة الذين يحرضون

الهنود سراً . واططر ما هنالك السحرة المعروفون بالـ « قديسين » الذين يحتفلون من المسيحية بما يرضي الهنود ، وينبذون ما هو شاق كوحدة الزواج والاعتراف .

وهنالك اخيراً المثل السيء الذي اعطاه بعض المستعمرين البرتغاليين بزواجهم سفاحاً من عشرين عبدة معاً أحياناً ، وعلى الاخص الغزو الذي استهدف مطاردة المبيد وجمعهم . تواصل هذا الغزو على الرغم من قانون السنة ١٥٧٤ الذي منح الحرية هنود القرى ، فأدى الى فرار هنود الجماعات المسيحية بحيث لم يبق من الكنائس العشر والـ ٤٠٠٠٠ هندي حول بأهيا سوى اربع كنائس و ٣٥٠٠ هندي في السنة ١٥٩٠ . اما الهنود المبيد فقد بذل سيادهم جهد مستطاعهم لمنع اليسوعيين من تبشيرهم بالانجيل . ومرد ذلك الى ان العبد المسيحي يحتمي بشريعة الله من بطش المستعمر وراثته . لهذه الاسباب كلها تكررت الاصطدامات بين اليسوعيين والمستعمرين . وجاءت المنافسة التجارية تزيد في الطين بلة . فقد استخدم اليسوعيون الهنود في جني العقاقير والمفردات ، وزراعة قصب السكر والقطن والتبغ واللوز الهندي والافاويه ، والعمل في مصانع تقطير الكحول والمطاحن . فاستعالت مزاحمة اليسوعيين في النوعية وانخفاض الاسعار . لذلك قامت بين اليسوعيين والمستعمرين حرب اهلية دائمة . وقام كبار الملاكين شيئاً فشيئاً المسيحية واليسوعيين . وبلغ هذا النزاع ذروته في القرن الثامن عشر فكان سبباً رئيسياً من اسباب إقصاء جمعية اليسوعيين .

كان هؤلاء الغواراني المساكين منطلقاً لبعض المع النظريات التي هاجت أوروبا . فان المعلومات التي اعطاها التراجمة ، وهم من تخلقوا بالاخلاق البلدية واطفوا عليها مسحة جمالية ، قد عرفت الانتشار بواسطة البحارة والتجار وكتب المسافرين . افنتن علماء الادب القديم باسطورة العصر الذهبي ورغبوا في ارشاد مواطنهم من لا يعيشون حياة مسيحية حقيقية ، فاستخلصوا من هذه الروايات ، ومن مؤلفات « لاس كازاس » وابنائهم الروحانيين ، ومن الاحاديث التي جرت بينهم وبين الهنود الذين جيء بهم الى أوروبا بواسطة تراجمة حوآروا اجوبسة الهنود ، اسطورة « الهمجي الصالح » . اشهر هؤلاء المؤلفين هو « مونتانيه » في « محاولاته » . تحدث في السنة ١٥٦٢ ، في روان ، الى ثلاثة من التوبي - غواراني بواسطة احد التراجمة . فأعلن في فصل « العربات » وفصل « اكلة لحوم البشر » ان المجتمع الهندي انقى مجتمع لانه اقرب المجتمعات الى السنن الطبيعية . وقد ارتأى ان الهمجيين يجب ان يكونوا قدوة لنا في سلوكنا ، لأننا نحن البرابرة حقاً . وكان مقدراً له الهمجي الصالح ، « ذاك الشخص الاسطوري الذي يمشي حرراً ، بحسب طبيعته ، بوحى ارادته ، متمطلاً ، متغافلاً ، بريئاً ، دون ايذاء ، دون تلك ، دون حكومة ، فرحاً ، سعيداً ، ان يعرف شهرة مدهشة فآدرة . فهو من سيشق الطريق امام الملعبين ، « بيير شارون » ، و « لاموت له فاييه » ، ويسهم في بلبله الافكار وفي ازمة القرن السابع عشر ، ويلهم بعد ذلك « الفلاسفة » واعداء الاستثمار في القرن الثامن عشر ، ويحقق الغلبة مع « جان جاك روسو » . وهو البربري الصالح ، من برّر

الإيمان بطبيعة الانسان الأصلية ، فوفر بذلك احد المبادئ الاساسية للمذاهب الاشتراكية .
لا بل ان قسماً هاماً من حضارتنا المعاصرة يعود ، بصورة غير مباشرة ، الى آراء بعض
الاوروبيين في هنودلا يزالون في مستوى الحضارة النيوليتية .

الفرنسيون وهنود
منذ السنة ١٥٠٤ ، ازدحم النورمنديوت والبريتانيون الفرنسيون
الحضارة النيوليتية في « الارض الجديدة » و « اكاديا » وحول مصب نهر « سان -
لوران » . وقد اجتذبهم الى تلك المناطق صيد الاسماك للايام الصائمة الكثيرة التي تقرضها
الكنيسة اولاً ، والفراء النفيسة ثانياً . منذ هذا التاريخ تكررت اتصالاتهم بال « بيوتوك » في
الارض الجديدة وال « واناياكي » وال « مونتانيه » . وحين وصل « جاك كارتيه » في السنة ١٥٣٤
الى « جون القيوط » لوج المسماك بالفراء في اعلى العصي لاجتذاب رفاقه اليهم . وفي ذلك
دليل على انهم عرفوا اثر جاذب الفراء في الملاحين الفرنسيين . وبمسد السنة ١٥٧٥ انتشر في
اوروبا زرع القبعات المصنوعة من وبر القندس ، فارداد طلب القندس ازدياداً مطرداً .

ادت هذه التجارة الى تطوير الحياة الهندية تطوراً كلياً . ابدى الهنود رغبة كبرى في اقتناء
الادوات الحديدية من سكاكين وفؤوس ، وفي الاسلحة النارية ايضاً . وبلغ من استعمالهم لهذه
الادوات انهم نسوا ، خلال قرن ، تقنياتهم الخاصة في صناعة الادوات الحجرية والمظمية
والخشبية . فقدوا مضطرين لان يتناغوا من الاوروبيين كافة المعدات الضرورية لحياتهم وبات
لزماً عليهم تنظيم نشاطهم للتجار مع الاوروبيين .

وجد جاك كارتيه ، في البعثة التي تقوم عليها « مونريال » ، « الانهر الثلاثة » ، « كيبيك » ،
وال « هورون » ، وفي السنة ١٦٠٣ ، وجد « شامبلين » الالفونكيين الذين اقصوا الهورون
والايروكو وقاموا بعد ذلك بهجمات دائمة على اراضيهم . الا ان الهورون ، المتفوقين في
الزراعة ، اسسوا امبراطورية تجارية واخضعوا لسيطرتهم الاقتصادية كافة الشعوب الالفونكيية
وبعض الشعوب الايروكية ، كالا « توباكو » وال « نوترال » . واخذوا يتعاونون من هؤلاء
الآخرين كميات كبرى من الذرة الصفراء ويبيعونها من القبائل الشمالية . كما اخذوا يجمعون
فراء المونتانيه وال « كريبه » وال « ناسكاي » مباشرة ، وفراء قبائل « البحيرة العليا » وقبائل
شعوب « المروج » وقبائل الالينويز سكان وادي الميسيسيبي الاعلى ، بواسطة ال « اوتاوا » .
وهكذا فإن الاقتصاد الهوروني الذي كان زراعياً في الدرجة الاولى ، قد غدا تجارياً قبل اي
شيء آخر . وكانت كثافة الهورون حوالي السنة ١٦٣- مساوية لكثافة الاوروبيين في
المنطقة نفسها في السنة ١٩٠٦ . وقد بلغها الهورون بلمب دور الوسطاء بين القبائل وبتوجيه
نشاطها التجاري . كانوا يفضون فصل الامطار في جمع الذرة الصفراء الضرورية ؛ وفي الربيع
يصعدون عن طريق الضفة اليمنى للبحيرة العليا والبحيرات الكندية باتجاه اعالي « ساغناي »
ويقايضون الذرة الصفراء بالفراء ، ثم ينزلون « ساغناي » ، ويبلغون الفرنسيين عن طريق « ادوساك »
ويقايضونهم الفراء . وعلى هذا المنوال وصل كل سنة الى كيبيك ٢٥٠ هرونيا في حوالي

اما الايروكوا ، فبعد ان هزموا الـ « موهيكان » ، أصبحوا حوالي السنة ١٦٢٦ - ١٦٢٧ المستارين الرئيسيين لشركة الهند الغربية الهولندية ، واقاموا في امستردام الجديدة ، اي نيويورك الحالية . ولكن الايروكوا كانوا قد ابادوا القندين عملياً في منطقتهم حوالي السنة ١٦٤٠ . فطلبوا حينذاك الفراء من الفرنسيين . الا ان الفرنسيين لم يروا اية فائدة من تزيق الحلقة الهورونية ، فرفضوا عروض الايروكوا . عند ذلك اخذ هؤلاء يشنون الغارات في السنة ١٦٤٣ ، وفي السنة ١٦٤٩ انقض اكثر من الف ايروكي فجأة على الهورون ، الذين ما كانوا ليحرسوا قراهم ، فايده هذا الشعب . لجأ بعضهم الى كيبك ، وقصد البعض الآخر الميش الى الجنوب من بحيرة « ايرييه » . أراد الايروكوا حينذاك الحلول محل الهورون كوسطاء لتجارة الفراء . هاجموا على التوالي كافة طرق المواصلات وتوصلوا في النهاية الى ان يقطعوا جزئياً طرق الاتجار بالفراء . استمرت الحرب ضد الفرنسيين حتى السنة ١٧٠١ . ويفسر تفوق الايروكوا العسكري هذا بانهم كانوا يستمضون عن قتلام بتبني اسرى الحرب وتجنيدهم ، وقد ضم جيش محاربي الايروكوا عدداً كبيراً من الفرنسيين والانكليز والهولنديين . وهكذا فان الرغبة في الحصول على المصنوعات الاوروبية قد تمخضت عند هنود الحضارة النيوليتية الزراعية عن الحرب الاقتصادية .

تقدم الفرنسيون بعيداً جداً باتجاه الغرب . وشق المرسلون الطريق امام « عدائي الغابات » . استشف اليسوعيون منذ السنة ١٦٤١ أهمية اتصال البحيرة العليا وبحيرة ميشيغان وبحيرة هورون . وأسسوا رساليات « سولت سانت - ماري » التي أقاموا فيها منذ السنة ١٦٦٩ حتى السنة ١٦٨٣ و « سانت - اينياس » التي أقاموها ، في السنة ١٦٧١ ، في جزيرة « ميشيليا كيناك » وفي الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة التي تقابلها . ارتفع عدد « عدائي الغابات » في هذه الرساليات ، بين الالفونكينيين والهورون ، لانها كانت مركز امتياز الذرة الصفراء قبل الغزوات . الا انهم حاولوا بدورهم الاستغناء عن الوسطاء فتوجهوا الى أعالي الميسيسيبي وبحيرة « المطر » وجون « هدسون » بقية امتياز الفراء مباشرة من القنصين . بلغ العدو ذروته في ايام الوكيل « تالون » . أدرك هذا الاخير ان « عدائي الغابات » كانوا خير أعوان لسياسته الاستعمارية . فشحهم وقدم لهم المساعدات ، الى أن اصبح العدو ، الذي لم يكن سوى تكلفة للزراعة الكندية ، صناعة مستقلة كرس لها بعض الفرنسيين كل نشاطهم . وقد حمت « عدائي الغابات » بعض الحاميات العسكرية . في السنة ١٦٩٠ وجد في « ميشيليا كيناك » ١٤٣ رجلاً من فرقة « كارينيان » رأوا ان اجورم غير كافية ، فأثروا الانحراط في صفوف العدائين وتنتج عن ذلك انتشار الحضارة الاوروبية في المناطق البعيدة .

اقتبس الهنود عن الاوروبيين الادوات من سكاكين وفؤوس وصناير خبروا فعاليتها وديمومتها . واستعاضت النساء عن الحزفيات بالاناء المعدني وعن الابرة العظمية بالابرة الفولاذية

التي تؤمن عملاً سريعاً . تعلموا من الفرنسيين قرن الكلاب لجر المزالج التي كانوا يجرونها بأنفسهم ، فسار العمل بسرعة . وبواسطة الفؤوس الحديدية تمكن الأوروبيون والهنود على السواء من ان يبناوا في سبعة ايام كوخاً كان بناؤه يستغرق شهوراً عدة بواسطة فؤوس حجرية تكاد لا تفعل في الجرمشق والبتولة . وتوفرت للهنود البنادق التي اصبح استعمالها عاماً . « كانوا يقتلون اوزة برية واحدة بواسطة السهم ؛ اما بواسطة الطلق الناري فيقتلون خساً او ستاً . وكان القنص بالسهم يوجب الاقتراب من الحيوان ؛ اما بواسطة البندقية فيقتلون الحيوان من مسافة بعيدة » . ولكنهم تقادوا في القتل حتى ندر القنص .

الف الهنود خبز الفرنسيين وطمهم ولوباءهم وجلبانهم . حين تصل السفن الفرنسية صيفاً يكفون عن القنص ويتشبعون من المواد الغذائية الفرنسية . الا ان الالفونكيين ، الصيادين ، لم يستطيعوا تعود الاعمال الزراعية ، فعدوا من ثم مرتبطين ارتباطاً كلياً بالاروبيين وبتجارتهم .

تولع الهنود بالمسكر ، فباتوا سكارين . واذا ما ثملوا ، اغتالوا وتضاربوا وتقاتلوا واحرقوا الديقوم وأتوا كل قذع فاحش . في سبيل الحصول على المسكر ، استسلمت الهنديات لرغائب الاروبيين . فحرم اسقف « لافال » في السنة ١٦٦٠ كل من يبيع مسكراً من الهنود . وحظرت الحكومة الملكية احياناً بيع المسكر ، ولكن السلطات الاستعمارية كانت مقتنعة بأن منع المسكر معناه القضاء على تجارة الفراء والنفوذ الفرنسي . ففتك داء الغول بالقبائل الهندية .

اما الهنود الذين بقوا على وثنيتهم ، فقد تكون فيهم شعور جزع وقلق ونوع من اليأس بمخالطة الفرنسيين . لم يفقهوا شيئاً من العدالة الفرنسية والمسؤولية الشخصية والملكية الفردية والنعمة والغفران . اعتبروا انفسهم متفوقين على الفرنسيين ، كما اعتبروا خضوعهم لأقوام يستحيل عليهم احترامهم جوراً وعسفاً لا يقرهما حق وعدل . وكان الفرنسيون كلهم في نظرهم سراقاً ولصوصاً اذ ان التجار يقايضونهم كميات ضخمة من الجلود بينادق لا تنفجر او بارود لا يحترق . وكان الفرنسيون جنباء ايضاً في نظرهم ، اذ ان السفن الفرنسية التي يشتمونها او يسرقون بعض ما تنقله ، تبحر ثانية دون ان تنتقم منهم . سلموا بأن الفؤوس والسكاكين الحديدية تنطوي على شيء من ال « مانتيو » . ولكنهم اعتبروا انهم احذق وادهى من الفرنسيين اذ ان هؤلاء قد اعجبوا بادواتهم الحجرية والعظمية واعترفوا من ثم بانهم دونهم ذكاه . يضاف الى ذلك ان في بحث الفرنسيين عن جلود القندس دليلاً على انهم افقر من الهنود . وقد اعلن احد الرؤساء الهنود يوماً في احدي نزوات سخائه انه يريد اهداء لويس الثالث عشر مائتي جلد قندس ليجعله اوسع ثروة من كافة اسلافه . فما هو من ثم مبرر هذه السيطرة الاجنبية التي لم يروا لها نهاية .

كانت النتيجة ارتفاعاً في نسبة الوفيات وتدنياً في نسبة الولادات ونقصاً في عدد السكان .

يتشبع الهنود في الحريف من طحين الخنطة والجلبان والفاصوليا ، فتفتك بهم التسمات المعوية . اما النساء اللواتي يصبن بدهاء الغول فيجهضن او يقتلن المواليد . وقد سبب المسكر اضراراً هائلة . فقد جاء في تقرير يعود الى السنة ١٦٩٣ ان الاوروبيين كثيراً ما يعمثون على طول الانهر في الغابات على جثث هنود تجاورها ابدأ او اتي المسكر . وقتك بهم كذلك التدرن الرئوي والجدري والداء الزهري . فكثيراً ما اباد وباء الجدري ثلاثة ارباع سكان القرية الهندية وترك الباقين على قيد الحياة في هزال يكاد يقدم عن القنص : ومات غيرهم جوعاً بدورهم . اما الحروب الهندية فقد تحولت الى ملاحم ومجازر ، فأبديت بعض القبائل عن بكره ابها .

كان مستوى سكان كندا الفرنسيين عالياً يضم اشراقاً ريفيين وبورجوازيين مثقفين وصناعيين وفلاحين موزعين سيادات وفقاً للنظام الفرنسي الشرعي الراهن : اسياد واصحاب اقطاعات . ولكن ذلك لم يحل دون تأثرهم بعمادات الهنود ، وعقليتهم ، ولم يؤلفوا قط سوى طرائد ضيقة على طول شواطئ « اكاديا » او على طول ضفتي نهر سان - لوران . ويرد ذلك الى صعوبة احياء الاراضي المحرجية في بلاد يدوم شتاؤها خمسة اشهر ونصف الشهر ، والى ان انتاج الاراضي لا يوازي نصف انتاج الحقول الفرنسية . لذلك لم يلبث الكنديون ان اعتمدوا اقتصاداً مختلطاً يرتكز الى القنص والصيد تارة ، والى الزراعة طوراً ، في تعاقب مطرد . ولكن سرعان ما احتل القنص والصيد المركز الاول ، وانصرف بعضهم الى العدو في الغابات . الفوا الجهد غير المنظم واقتبسوا عن الهندي تقائله وتقلبه . عاشوا في عزلة كما يطيب لهم الميش فعدوا متمجرفين وعصاة وسريمي الاغتياظ من رؤسائهم ، على غرار الهنود . ومارسوا الحرب على الطريقة الهندية : كمناء وغارات فجائية .

وجلة الكلام انهم اكتسبوا شيئاً فشيئاً عقلية هندية كان من شأنها ان تشجع التقارب بين الشعوب . وهذا ما تمته الحكومة الفرنسية وريشليو وكولبير ، الذين رغبوا في ان تصبح كندا فرنسا - الجديدة ، وان يتفرنس البلديون ، وان تعمق زواجات مختلطة كثيرة ، وان تصحح المستعمرة ولاية فرنسية ، اذ انهم انتهجوا سياسة هي سياسة الدمج .

ولكن هذه السياسة آلت الى الفشل . فلم تعمق سوى زواجات قانونية قليلة جداً بين الهنديين والاوروبيين ، اذ ان الهنديين لم يرغبوا في دخول العائلات الاوروبية بسبب الفروق الكبيرة التي تباعد بين الماديات . وكان الحلاسون : ابناء التسرر الدائم او التسرر الوقتي ، يؤثرون الميش في قبيلة والدتهم . الا ان « عدائي الغابات » في جوار مراكز العدو او الحاميات العسكرية ، وهم ابناء اشراق ريفيين وقضاة وجنود مسرحين وصناعيين يدويين ومشردين ، لم يستطيعوا الاستغناء عن الهنديين اللواتي يعرفون وحدهم تحضير الحساء وصناعة الاحذية والمياحير واعداد الجلود للبيع . فابتاعوا من ثم الهنديين لزواج وقتي . وتزوج بعضهم من اكثر من امرأة وتعدوا « مرابض صبايا » . واعتنق بعضهم الوثنية وكرموا ارواح الصخر وارواح النهر وارواحاً اخرى كثيرة . ففي ميشيليا كناك وفي « سولت سانت - ماري » مجانبت

قرية اوروبية وقرية هندية كان اطفالها الحلاسيون ينتقلون بحرية بين قرية واخرى . ولولا الضباط والكهنة لألفت القريتان قرية واحدة ، ولانتهى الاستعمار الى « الهند - الجديدة » ، لا الى « فرنسا - الجديدة » . وانما الوقائع التي نسردها ليست سوى وقائع متفرقة على كل حال ، ولكن على الرغم من مقاصد الحكومة الملكية ، بقي المجتمعان منفصلين يترك احدهما في الوقت نفسه اثرأ بعيداً في الآخر .

كان النشاط التبشيري في فرنسا - الجديدة كبيراً على غراره في المستعمرات الاسبانية . فان « جاك كاتييه » قد بيّن لفرنسوا الاول ، بعد رحلته الاولى ، في « روايته القصيرة وقصته الموجزة » ، ان ملك اسبانيا قد نشر لواء الانجيل في اميركا الاسبانية وان ملك فرنسا لا يجوز ان يتأخر عنه في هذا المضمار . وفي السنة ١٥٤٠ ، حين فوض فرنسوا الاول الى جاك كاتييه القيام برحلة ثانية ، اعلان عن رغبته في اشاء مستعمرة دائمة من الفرنسيين في فرنسا - الجديدة « لتسهيل حمل الشعوب الاخرى في هذه الارض على اعتناق ايماننا المقدس ، ولعمل شيء ما يرضي الله خالقنا وفادينا ويسهم في تعظيم اسمه الاقدس وامننا الكنيسة الكاثوليكية المقدسة التي ندعى نحن باسم ابنها البكر » . واقتفى اثره هنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ، لان الخضوع للملك هو في نظرهم وسيلة تبشير وهداية ولأن التبشير والهداية شرط ديمومة سلطة ملك فرنسا ؛ الهداية تلازم التحضير اي انها تستلزم حمل الهزود على تبني اخلاق الفرنسيين ولغتهم وعقليتهم . فيتضح من ثم ان الملوك اخضعوا التبشير للسيطرة الاجنبية ولتقبل شكل حضاري معين ، في حين ان الايمان بالمسيح مستقل كل الاستقلال عن كل شكل سياسي وكل شكل حضاري .

ان تبشير فرنسا - الجديدة لاحدى ظواهر النهضة الكاثوليكية الفرنسية في القرن السابع عشر . فان المركيزة « دي غرشفيل » ، والدوق « دي ليفي - فنتادور » ، البورجوازي ، و « ماري غوتار » ، ارملة احد الحرييين ، التي اصبحت « ماري التجسد » وذهبت الى كيبك بالراهبات الاورسوليات في السنة ١٦٣٩ ، قد اسهما مع يسوع المسيح في بث الكلمة الالهية ، بحسب تعاليم « بيرول » و « كوندردن » و « جان - جاك اوليه » .

منذ السنة ١٦١١ ذهب اليسوعيون الاول الى بلاد الميكاك . وفي السنة ١٦١٥ استدعى شامبلين الى كيبك رهبان القديس فرنسيس الذين كلوا يشرون الالفونكيين . وفي السنة ١٦٤٢ اسس جادام رعية « سان - سوليس » ، جان - جاك اوليه ، بناء على طلب رهبانية القربان - المقدس ، جمعية سيده « مونريال » واقام فيها السوليبسيين .

الا ان اليسوعيين هم من ادوا القسط الاكبر للتبشير . فقد حاولوا هدي الموتانبييه والناسكابي والكرييه والابناكي والهورون وحتى الايروكوا . ولم يختلف نهجهم في جوهره عن نهج اليسوعيين الاسبانيين والبرتغاليين ، فلا حاجة من ثم ان ندخل هنا في التفاصيل . وقد

توقفوا الى نتائج حسنة احياناً . فان الابناكي قد اصبحوا كاثوليكين متأصلين في ايمانهم وغدوا بالفعل نفسه حلفاء فرنسا الاوفياء على الانكليز البروتستانت . وقد اجابوا الانكليزي الذي جاء يطلب اليهم البقاء على الحياد ، خلال حرب حلف اوغسبورغ : « ايها الضابط العظيم ، انت تطلب الينا الا تنضم الى الفرنسي اذا ما اعلنت عليه الحرب . فأعلم انت الفرنسي شقيقي . صلاته وصلاتي واحدة . نعيش في كوخ واحد حول نارين ، ناره وناري . محبتي لأخي اقوى من ان اتقاعس عن الدفاع عنه » . ولم يكف الابناكي عن شن الغارات على المنطقة الانكليزية . وكان من محافظة الميسكاك على كاثوليكيتهم في قلب المنطقة البروتستانتية حتى القرن التاسع عشر ، ان احد المرسلين البروتستانت قد اقام فيما بينهم ولم يفلح في حمل شخص واحد منهم على التخلي عن عقيدته . وبرهن الكثيرون من هؤلاء المهتمين عن ايمان حار واخلاق طاهرة وضمير حي . اما المونتانيه والناسكابي فلم يبرهنوا عن انقيادهم الا في حضور الآباء . واذا ما ذهب الآباء ، عادوا هم الى وثنيتهم . وجدير بالذكر ان معظم البلديين لم يهتدوا . ففي السنة ١٦٤٠ لم يبلغ عدد المهتمين من الهورون سوى ١٠٠٠ شخص تقريباً من اصل ١٢٠٠٠ تناوهم التبشير والوعظ . وقدّر الاب « انطوان سيلفي » ، حوالي السنة ١٧٠٠ ، ان رسالة الهدي قد تستغرق عدة قرون . وقفاني اليسوعيون في تأدية رسالتهم حتى الاستشهاد . ولدنا خير مثل في ما حدث للاب « دي بريوف » في السنة ١٦٤٩ . اسره الايروكوا مع الاب « لالمان » في غارة شنوها على الهورون . الا ان النصر لا يكون تاماً في نظر الهنود الا اذا استسلمت ارادته ايضاً ، اي اذا صاح من الام وطلب الرحمة . امرّوا الابوين بين صفين من الايروكوا المزودين بالدابيس الذين انهلوا عليها ضرباً ، كل بدوره ، فلم يبق في جسيمها جزء واحد سالم من الضرب . وضعوا عصياً ملتهبة تحت ساق الاب « دي بريوف » وابطيه . فلم يجب الاب الا بالصلاة من أجلهم . مزقوه حينذاك بالسكاكين ورؤوس النبال ؛ وعلقوا له في عنقه عقداً من الفؤوس الحماية . ولكن الاب قال لهم ان حروق جهنم ستكون اشد ايداء اذا لم يهتدوا . عندئذ البسه الايروكوا نطقاً وحائل من قشور صمغية واشعلوا فيها النار . ولكن الاب استمر في التوجع لحالمهم وفي استنزال رحمة الله عليهم . فاستشاط الايروكوا غيظاً من انهم يعاملون معاملة النساء وعمدوه بالماء الغالي . عندما رأوا ان الاب يواصل الابتهاال الى الرب من اجلهم قطعوا لسانه وشفتيه وانفه واقتلعوا عينيه . ثم جرّوه الى سطح احد البيوت ليقدموه ذبيحة لإلههم « اغرسكوي » . وبينما لم يزل حياً ، انتزع احد الرؤساء قلبه وشواه واكله رغبة منه في ان تتجسد فيه بسالته . ثم قطعه الهنود الآخرون ارباً ارباً والتموه . وقد بدأ تعذيبه ظهراً وانتهى بعيد الساعة الثالثة زوالية ، في السادس عشر من آذار من السنة ١٦٤٩ .

لم يبذل الانكليز جهوداً تذكر في سبيل هداية الهنود . نقل الانكليز ومنود الحضارة التبويليتية « جون البيوت » التوراة الى اللغات الهندية فأتاح بذلك اهداء بعض الاقوام ، ٤٠٠٠ بلسدي تقريباً « دجنوا » ، كما قال الانكليز دجوناً ميمزاً .

وقامت بعض الملائق التجارية . فقايض الهنود الفراء بمرق السكر والمصنوعات الحديدية . واستغلهم التجار . ولكن الهنود من جهتهم قد زاووا السرقة لأنهم لم يفقهوا معنى للملك الخاص . فاشترى المستعمرون اراضي الهنود الذين لم يدركوا معنى العملية واعتقدوا بانهم انما يشاركون البيض استثمار الارض فقط . وحين طغت موجة المهاجرين والمزروعات ، ففرت من امامها الطرائد ، اراد البلديون الدفاع عن اراضيهم المخصصة للقص . فأقدم بعض البلديين من قبيلة الـ « بيكو » على قتل بعض التجار ، فقام طابور من متطوعي « ماساشوستس » بأحراق قرام في السنة ١٦٣٦ . عند ذلك احاط المحاربون البيكو بقري كونكتكت وقتلوا البيض الذين صادفهم . في السنة ١٦٣٧ ، احاط جيش كونكتكت (٩٠ رجلا) ليلاً بأهم قرية من قري البيكو واشعلوا فيها النار ، مات ٥٠٠ هندي بين رجل وامرأة وطفل . ثم طورد فلول القبيلة ، فقتل معظم الذكور واستعبدت النساء مع صغارهن . فقد كتب احد الرعاة البروتستانت الى حاكم ماساشوستس يقول له : « سيدي ، نحبيك في الرب يسوع انا والسيد « اندكوت » . أما بعد فقد بلغنا ان قسمة نساء واطفال تجري في الجون . فترغب في الحصول على نصيبنا ، اي على فتاة او امرأة شابة وعلام اذا ما رأيتم ذلك موافقاً ... » . احدث الجشع في طلب الاراضي غضباً وحقدأ شديدين على الهنود . فاستهدفت الجهود الكبرى اباده هؤلاء « الاوثان » . غدت الارض « احد آلهة انكلترا الجديدة » . ولأدنى حجة اقتيد الـ « ساشم » عنوة الى « بوسطن » و « بليموث » وارغوا ، تحت طائلة النحر ، على تسليم اسلحتهم والتخلي عن بعض اراضيهم . في السنة ١٧٦٥ ، اعلن « الملك فيليب » الثورة . فدكت القرى وقتل ٦٠٠ من البيض عند حدود ماساشوستس وبليموث وكونكتكت . ولكن الهنود لم يكونوا متحدين ، فتمكنت قوى المستعمرات من قمع الثورة بمساعدة القبائل الوفية . هزم الهنود شر هزيمة وبيع الامرى عبيداً وأعدم المسؤولين المجرمون . واستمر المستعمرون في كل مكان في تقتيل الهنود .

وهكذا فان الاوروبيين ، على اختلاف جنسياتهم ، قد اخفقوا في كل مكان في محاولاتهم الرامية الى دمج هنود الحضارة النيوليتية . ويرد ذلك الى التفاوت الكبير بين الحضارات . اما الهنود الذين حافظوا على علاقاتهم بالاروبيين فقد اضمحلوا تدريجياً . الا ان بعضهم ، كالليكياك مثلاً ، قد عرفوا البقاء لانهم انما « تكيّسوا » الحضارة الاوروبية . ولم يعرف البقاء حقاً الا عامة شعب المايا بعد ان ازال الاسبان الكهنة الاسبانيون اشراف وكهنة المايا وحلوا محلهم . ولكن المايا كانوا قد بلغوا ، لاعتبارات خاصة ، مرحلة عقلية عليا . فتمكنوا من ان يصبحوا مساعدين وضماء للاروبيين ويتقبلوا الحضارة الاوروبية ، بعد خسائر فادحة في الارواح . ولكنهم احتفظوا عملياً تحت اسماء مسيحية ، بألهمهم الزراعيين ، وتحت ظواهر مسيحية ، بعبادات حياتهم اليومية ، اي انهم تمكنوا من البقاء .

اما الهنود الآخرون فلم يتمكنوا من تغيير عاداتهم . والدليل على ذلك اختبار حاسم

اجري في القرن التاسع عشر . ثبني زوجان من الميكاك طفلا ابيض صغيراً سلخ سني حادثه في هذه القبيلة ، ثم تزوج من كندية فرنسية وغادر نطاق القبيلة . يقول لنا ابنه مايلى : حوالي السنة ١٨٩٠ ، « حين تقدم والدا ابي بالتبني في السن وضعفت قوامها الجسدية ، اتى بها الى بيته كي يقضيا شيخوختها فيه . ولكنها لم يتمكننا من تعود طرائق حياتنا . فلم يربدا الجلوس حول المائدة لتناول الطعام ، بل عندا في قعود الاربعاء والاستعاضة عن الحوان بقطعة من جلد تمد امامهما . قدمنا لها سريراً ، ولكنها نزعا الشراشف والدر واما ارضاً . لم يحبا طعامنا ، حتى ولا خبزنا ، الا اذا خبز على الفحم . تاقا ابدأ الى لحم الطرائد ، وحين بلغ توقها الذروة ، بلغاها من الانهار والوهن ما حمل من لا يعرفها على الاعتقاد بانها مريضان . كلما اقتنصت لها ارنباً او سنجاباً او دلدا ، غمرتها البهجة ... والحنا ابدأ على ان يشوى لحم الطرائد فوق النار في الهواء الطلق » . ان حالة انهيار الهندي المحروم من طعامه المألوف تنطوي لعمرى على مغزى كبير .

فهل ان صعوبة الانتقال هذه من حالة حضارية الى حالة حضارية اخرى هي ما يميز بعض الاعراق ياترى ؟ ان هذا الافتراض ، كما يبدو ، ليس متفقاً والواقع . فان هنود الحضارة النيوليتية ، حتى البدائين منهم ، قد برهنوا عن قابلية كبرى للتكيف اذا ما فصلوا عن بيئتهم في حداثة سنهم . والدليل على ذلك ان اولاد المونتانيه الذين عاشوا في كيبك في السنة ١٦٣٦ قد الفوا بسهولة كلية المآكل والملابس الاوروبية ونبذوا مآكل البرابرة وملابسهم . وقد ذكر « جلبرتو فرير » في كتاب شهر ان زوجين من البيض تبنيوا في ايامه احدى قنيات الغواراني . فصلاهما عن قبيلتها ورباهما كما لو كانت ابنتها بالذات . ولم تبلغ السادسة عشرة من عمرها حتى لمعت في دروسها ، تسلك سلوك الفتاة البيضاء ولا تتميز بشيء عن رفيقاتها في المدرسة . وكذلك فان ابن الملك « اروسكا » ، التوبي - غواراني « اسونيك » ، قد جاء الى فرنسا واقام في نورمنديا وورث اسم اشيبه « بينو بوليه دي غوتفيل » والقابه وبعض ممتلكاته . واقام هنود آخرون كثيرون في فرنسا واندجوا في الحضارة المسيحية بالعماد وفي المجتمع بالزواج . ان هذه الوقائع تثبت قابلية هندي الحضارة النيوليتية لاستساغة الحضارة الاوروبية ، وتقدم دليلاً اضافياً على وحدة الجنس البشري . اما فشل اورويبي القرنين السادس عشر والسابع عشر فليس قضية عرق بل قضية حالة إجتماعية . افلم يتوقف تشبه هندي الحضارة النيوليتية على العموم آنذاك بالاوروبيين على هذين الشرطين : اخذه طفلاً وفصله كلياً عن بيئته الهندية وعائلته وقبيلته ؟ ولكن هب ان المسيحيين لم يأنفوا من ذلك ، فهل ان الوسائل اللازمة توفرت لهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر ؟

٢ - الأوروبيون وهنود حضارة عصر النحاس

المكسيك كان وصول القشتاليين حديثاً نسبياً . فقد بلغ عددهم ، حوالي السنة ١٥٥٠ ، بين ١٧٠٠٠ و ١٨٠٠٠ ، وضم حوالي ٣٠٠٠ مشرد . ومرت المستعمرات الجديدة ، حتى السنة ١٥٣١ - ١٥٣٢ في المكسيك ، وحتى حوالي السنة ١٥٤٠ في البيرو ، في مرحلة لامركزية حقيقية . تولى الفاتحون الوظائف العامة الرئيسية وحصلوا على «امتيازات» وأقطاعات وعلى القاب الاشراف احياناً . وسبق لكورتيس ان عين ضابطاً - عاماً وحاكماً بموجب مرسوم «فالادوليد» المؤرخ في ١٥ تشرين الاول من السنة ١٥٢٢ . فتسلم اقطاعة تضم ٢٨ مدينة وقرية . وفي ٦ تموز من السنة ١٥٢٩ منح لقب مركزين «فاليه دى اراجاكا» و «فارس» «سانتيغو» .

وطد الفاتحون الاستقلال الذي اعطاه ايام بعددهم عن الحكومة بالتجمع في نقاط استراتيجية وبتأسيس مدن وتميين بلديات تمارس فيها سلطات المدبريات الاسبانية القديمة دونما اكترات لرجال القانون الذين ارسلهم الامبراطور كوظفين . ومارس الفاتحون حيال الهنود السلطات السيدية بحلولهم محل الارستوقراطيات البلدية . اهلوا سياسة الحكومة القائلة بالدمج ونصبوا انفسهم عرقاً متفوقاً ، بمركة انمكاسية دفاعية ، وحاولوا اشعار البلديين بدونيتهم . تزوجوا من بنات الامراء واختاروا سراري لهم من عامة الشعب ، ولكن هؤلاء النساء والاولاد الذين رزقنهم منهم لم يحظوا باعتبار كبير . فخير ما حصل عليه انسال بنات الامراء هو صفة مواطنين إسبانيين من منطقة ، ثانية بينما حصل سوام على اقل من ذلك بكثير . اما رؤساء البلديين فقد ثبتوا في وظائفهم ، ولكن ارستوقراطيتهم بقيت خاصة للارستوقراطية الاسبانية البيضاء .

انتزح اعيان الهنود ظرف زوال امبراطورية الازتيك ليستولوا على الاراضي التي امتلكها اما الامبراطور واما الدولة واما المعابد واما «الكلبول» . حولوا الهنود الاحرار الى مزارعين دائمين يقدمون لهم ٥٠٪ من محاصيل الارض وخدمات اليد العاملة . فرفض بعض الهنود تحمل هذا النظام . ولجأت عشائر كاملة الى الجبال ، وهامت على وجهها جماعات وافراداً ، فعم التشرذم وهكذا انحزل المجتمع الهندي .

منذ السنة ١٥٠٢ حتى السنة ١٥٢٦ ، اعيد بناء مكسيكو التي توجب تدميرها للاستيلاء عليها وشيدت فيها كاتدرائية القديس فرنسيس حيث كان ينتصب المعبد الكبير . وشيدت كذلك ثلاثون كنيسة اخرى وبعض القصور . وبرز فن استعماري مستهجن . واخذ كبار اصحاب الامتيازات يستثمرون اراضيهم ، فاعطى كورتيس المثل في املاكه . شيد في «كوارنافاكا» قصرأ فخماً وانشأ حدائق عظيمة . وانشأ كذلك مزارع قصب السكر والتوت والقنب وحاول تربية دودة القز والاغنام الاسبانية واسبس مصانع النسيج واعار اهتمامه مناجم الفضة . ولا غرو فان محاصيل الاملاك والمطلوب من الهنود ذرة صفراء وقطنسا ولوزا هندياً لم تكن سهلة التصريف .

فليس هنالك اسواق لمثل هذه المحاصيل ، والمسافات شاسعة ومليئة بالاعطال . ولكن الحاجة ملحة الى استحضار الاسلحة والملابس والزيت والنيبذ من اوروبا . فمست الحاجة الى معادن ثينة غالية الثمن وصغيرة الحجم تستسهل في سبيلها مواجهة اخطار النقل ونفقاته . فبعث الجميع عن المناجم يمشح .

نضبت حقول الذهب بسرعة . فتوجب التوغل في البلاد بعيدا . زد على ذلك ان هؤلاء الجنود القدامى لم يثبتوا في مكان ، فهم السكان على وجوههم « كالدادة الفلينية على سطح الماء » . وباعصفار اصحاب الامتيازات امتيازاتهم وهاموا على وجوههم ايضا واقتحموا الأخطار . ونظم كبارهم حملات جديدة ، كحملة كورتيس مثلا في السنة ١٥٣٦ الى خليج كاليفورنيا . ودفعت الحاجة الى اليد العاملة باصحاب الامتيازات الى مضاعفة اعمال التسخير التي افضت الى انهك الهنود او استعبادهم . كان المستعمر يوجه انذاراً الى القبيلة بوجود الاهتداء الى الدين المسيحي ، فترفض القبيلة وتعامل آنذاك معاملة القبيلة الثائرة ويستعبد من يقع من أفرادها في الأسر .

لم تكن هذه الظروف مؤاتية للتبشير ، ولكن التبشير تقدم تقدما حثيثاً على الرغم من ذلك . قال كورتيس والفاخون ، القساة المتسرعون ، بالاكرام ، اي يهدم المعابد وتحطم التماثيل وتقتيل الكهنة والعبادات الالزامية بالجملة . وطبقوا ما قالوا به بدون اعتدال . ولكن كاهن كورتيس الخاص ، الاخ « برتولوميو دي اوليدو » ، والمرسلين الذين استحضروهم كورتيس ، الفرنسيين (١٥٢٤) والدومينيكيين (١٥٢٦) والاوغسطينيين (١٥٣٣) قد اعتبروا الهداية بالقوة عملا جائراً . اعتناق المسيحية يجب ان يكون هبة ذاتية طوعية . فنصعوا بان يترك الهنود وشأنهم ويبشروا بالدين المسيحي بحلم وتؤدة . واستغل « اوليدو » فضول البلديين . فكان الفاخون يحضرون قداساً في الهواء الطلق ويصلون بالسبحة ركوعا ويتلون صلاة « الملاك » امام الصليب كل يوم عندما يسمعون صوت الناقوس . وكان الهنود ينظرون اليهم بدهشة . وكثيراً ما سأل بعضهم عن سبب اقتضاع الاسبانيين امام هذه القطع الخشبية . فكان اوليدو يشرح حينذاك العقيدة المسيحية ويفسر لهم كيف ان يسوع ، الاله والانسان ، مات على الصليب محبة باخوته وكفارة عن خطايا البشر ورغبة منه في ايصالهم الى الحياة الابدية . ولم يفرض اوليدو في البدء ممن طلبوا التنصر سوى هذين التخيلين : الامتناع عن اللواط والامتناع عن الذبائح البشرية . وحين مات في السنة ١٥٢٤ ، خلف وراءه تقليداً .

في هذه الاثناء ، واصل الملوك الاسبانيون جهودهم الكبرى ليخضموا العالم الجديد لسلطتهم المطلقة والمركزية الملكية . التاج نفسه يملك الهند وقشتاليا : لذلك يجب ان تتشابه القوانين ونظام الحكم مما امكن التشابه . انشئ في الهند تدريجياً جهاز كامل من المؤسسات .

عهد
المركزية الملكية
المؤسسات السياسية

تألف مجلس الهند الى جانب المجالس الملكية الاخرى . ورد ذكره رسمياً في السنة ١٥٠٩ ، ثم غدا مؤسسة دائمة ابتداء من السنة ١٥٢٤ . وكما كان يفعل مجلس قشتاليا حيال القشتاليين ، حرر

مجلس الهند لاميركا القوانين التي اوحى بها الملك ، وراقب تنفيذها بالمراسلة او بارسال المفتشين ، ووضع اسس التنظيم الاداري واقترح المرشحين للوظائف ، وحى الهنود ولعب دور محكمة الاستئناف . منذ السنة ١٥٠٣ ، تأسست في اشبيلية غرفة تجارة الهند التي اشرفت على كل تجارة الهند وسهرت بصورة خاصة على جمع النصيب الملكي ، الذي حدد بعشرين بالمئة من قيمة المعادن الثمينة . وسلمت القباطنة ايصالات بهذه الضريبة . وقمهدت مكتبا لقيادة السفن ومدرسة ملاحه كانت موضوع اعجاب عام ، وعالما فلكيا لوضع الخرائط . وصدرت تحت اشرافها كتاب « فن الملاحة » الذي ألفه « بدرودى مدينا » ووافق عليه « الريان الاكبر » « دى لا كازا » ، ونقل الى الايطالية والفرنسية والفلمنكية والانكليزية وبات كتاباً مدرسيا طيلة ١٠٠ سنة . ومنذ السنة ١٥٣٥ عينت قاضيا يمثلها في قانس ، بسبب حاجز « سان - لوكار » الصخري الذي حال دون وصول السفن الكبرى الى اشبيلية ، ولكن اشبيلية احتفظت لنفسها بالرقابة .

وانشأ الملوك في اميركا مجالس شبيهة بمجالس اسبانيا ، اى انها تلعب في آن واحد دور مجالس السلطة التنفيذية ، نائب الملك أو الضابط العام ، ودور الاجهزة الادارية على غرار المجالس (البرلمانات) الفرنسية . تالفت على العموم من رئيس واربعة موظفين (مستمعين) يعدون القرارات . انشئ المجلس الاول في اسبانيولا في السنة ١٥١١ ؛ وانشئ مجلس ثان في مكسيكو في السنة ١٥٢٧ ؛ وثالث في باناما في السنة ١٥٣٦ ؛ ورابع في ليا في السنة ١٥٤٤ ، الخ . وعين الى جانب المجلس ضابط عام يتولى قيادة الجيوش ويؤمن الدفاع ويسهر على تنفيذ القوانين والمقررات القضائية والادارية . وقسم نطاق صلاحية المجلس او الضابطية العامة الى حكومات يتولى السلطة فيها الحكام ، وقسمت الحكومات الى محاكم يتولى السلطة فيها القضاة ؛ وقسمت المحاكم الى محاكم بلدية يرأسها « قضاة عظام » . وفرض على ذوي الامتيازات اقسام اليمين واعتبروا ، هم ايضا ، موظفين ملكيين .

وعين في قمة هذا الهرم نواب ملك يعززون السلطة التنفيذية ويلقون الاهابه والخوف في الفاتحين النازعين الى مزيد من الاستقلال . كان اول نائب للملك « انطونيو دى مندوزا » ، مركزيز « موندخار » ، الذي عين في السنة ١٥٢٩ ووصل إلى مكسيكو في السنة ١٥٣٥ . ثم عين نائب ملك آخر في ليا في السنة ١٥٤٢ .

خضع نواب الملك وكافة الضباط الملكيين لرقابة المجلس ورقابة مفتشين او « زائرين » . وكانوا عرضة ، عند انتهاء ولايتهم ، لمحاكمات اقامة تسمع فيها شكاوى رعاياهم ويتوجب عليهم تبرئة أنفسهم منها .

توطدت السلطة الملكية شيئا فشيئا . في السنة ١٥٢٦ ، اضطرت كورتيس لان ينيخ عنقه لتحقيق قضاة الاقامة . وحوالي السنة ١٥٣٠ ، أخذ قضاة الحاكم يستلمون مهامهم . وحوالي السنة ١٥٣٠ - ١٥٣١ ، اقصى كورتيس عن الحكم وتاسس مجلس مكسيكو الثاني . فبدأت

منذ هذا التاريخ المركزية النسبية في المكسيك ؛ ثم بدأت في البيرو ما بين السنة ١٥٤٤ والسنة ١٥٤٧ ، وكان مقدراً لها أن تدوم بعد شارل الخامس حتى السنة ١٥٧٣ تقريباً في عهد فيليب الثاني .

اسهم مجهود الحكومة في تنمية اقتصاد علائق مسافات كبرى بين مناطق المكسيك المختلفة وبين أوروبا ، افضى بالنتيجة الى تمكين السلطة النسبية . استمر مستعمرو البيرو في التوغل بعيداً في البلاد بحثاً عن المناجم ، فاكتشفوا في السنة ١٥٤٥ مناجم « بوتوسي » في « بوليفيا » الحالية ، التي تفجر منها سيل من الفضة ؛ واكتشف مستعمرو المكسيك في السنة ١٥٤٦ عروق « زاكاتيكاس » على مسافة ٧٠٠ كيلومتر مكسيكو ، وفي السنة ١٥٦٧ بلغوا « هندو » و « سانتا - بربارا » في قلب بلاد البدو على مسافة ١٥٠٠ كيلومتر ونيف عن مكسيكو . منذ السنة ١٥٤٨ قامت في زاكاتيكاس بين ليلة وضحاها مدينة ضمت خمس كنائس وحوالي خمسين « مطحنة معادن » . فتميز الاستعمار الاسباني منذئذ بسرعة التوسع واسترخاء الاحتلال . اعتمدت في البدء الطريقة الهندية : يسحق المعدن الخام بين حجرين قاسيين ويوضع فوق النار في افران ذات ثقوب للتحليل ، فتتحل الفضة في الرصاص اثناء الذوبان . ثم يبعد الرصاص باكسدته بالهواء . الا ان نفقات المحروقات كانت باهظة ، والحصول على المعدن الثمين استغرق وقتاً طويلاً ؛ فبات لزاماً معالجة خامات تكون نسبة الفضة فيها مرتفعة . في السنة ١٥٥٤ ادخل « برتولوميو دي مدينا » الى المكسيك طريقة الملمع او المزج التي اقتبسها عن أحد الالمان . يسحق المعدن الخام ويرش بالماء ويخلط بالملح والزنحاس المزوج بكبريتور الحديد والزنبق . الزنبق يستولي على الفضة لانها قابلة للذوبان فيه . ثم يصعد الزنبق بخاراً وتجمع الفضة . فاتاحت هذه الطريقة وفراً كبيراً في الوقت والمحروقات ومعالجة خامات تكون نسبة الفضة فيها متدنية . وفي السنة ١٥٦٣ ادخلت هذه الطريقة الى البيرو بعد اكتشاف مناجم الزنبق في « غواناكافليكا » .

ان عمل المناجم أوجد حركة بضائع كبرى . فكان على المناجم نقل انتاجها من المعدن الثمين . وحوالي السنة ١٦٠٠ بلغ تصدير الفضة الى أوروبا وآسيا مغلطة الموصلات والمون ذروته ، ومثلت الفضة ثلثي أو ثلاثة أرباع قيمة المشحونات . وكان على المناجم الحصول على الزنبق الذي استورد الى المكسيك من أوروبا ، وعلى الجلود الضرورية لتجفيف الدهليز ونقل الفضة ، وعلى المواد الغذائية . فتوجب من ثم تأمين حماية الطرقات من البدو وتعزيز الانتاج الزراعي وتربية المواشي . فان الشيشيميك ، في المكسيك ، وقد أصبحوا فرساناً مهرة في وقت قصير ، أخذوا يحرقون تجهيزات المناجم الصغرى المنزلة ، ويمحقون الاستثمارات « فلا يبقون فيها على كلب أو هر في قيد الحياة » ، ويهاجمون المسافرين ويقتلونهم ويحرقون البضائع . فتوجب التنقل مواكب كبرى مسلحة تضم حتى ٨٠ عربية مصنوعة من الخشب السميك المتين كانت اشبه بمجسوم متحركة ، وأحداث نقاط عسكرية يواكب جنودها

المسافرين . الا ان الحل الحقيقي كان اعمار البلاد على جوانب طرقات المدن باقامة جماعات من المزارعين ومرربي المواشي فيها . فأكثر نواب الملك والبلديات ، تحقيقاً لهذا الهدف ، توزيع امتيازات استثمار الاراضي والمراعي لقطعان الماشية .

سبق للاسبانيين ان استحضروا حيوانات اوروبا الداجنة للتغذية
فتح حيوانات اوروبا الداجنة العالم الجديد
والاعمال ، الخنزير ، الثور ، الخروف ، الحصان ، الحمار ،
واستخدموا البغل الذي ما كان الاستعمار ليصبح ممكناً بدونه .
ازدهرت تربية المواشي . فالمساحات واسعة جداً . ويكفي عدة حراس لالوف الحيوانات .
ولم تكن الحراسة على ظهر الحصان عملاً خديماً بل عملاً جديراً بمرق متفوق . خلال عقود
اجتاحت العالم الجديد موجات متعاقبة من المواشي . المراعي غنية بالكلأ لان حوافر الحيوانات
لما تطأها . الابقار تضع صغارها قبل ان تبلغ السنتين من عمرها . تتضاعف القطعان خلال ١٥
شهرًا . اصحاب القطعان يمتلكون ١٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ وحتى ١٠٠٠٠٠ حيوان . سعر اللحم
ينخفض الى ثمنه في الاندلس فينبج عن ذلك خدمة جلي للاستعمار ، ولاخوف على الابيض من
ان لا يجد ما يؤمن غذاءه . اما الجلد الذي مست الحاجة اليه للمناجم وللجيوش الاسبانية في
اوروبا فقد غدا انتاجاً تصديرياً رابحاً . ولكن تربية المواشي لم تجسد سوى ملاكي القطعان
الكبرى ، وكان مقدراً لها ان تقضي الى الاملاك المقاربة الكبرى .

حافظ الاسبانيون على مبداهم القشتيلي : المشب هبة الطبيعة ، فيجب ان تكون المراعي
مشتركة ، وقد اعترف بالمرعي العمومي حقاً وقانوناً بعد الحصاد . القطعان تنتقل بحرية ، وقد
توطدت من جهة ثانية عادة نقل المواشي من المناطق المرتفعة الى المناطق المنخفضة والمكس
بالمكس . انما يقتضي لمربي المواشي نقطة ثابتة لاقامة زرائب البهائم واكواخه . فاخذت
الجماعات تمترف للمربين بنطاق وراثي قابل التخلية ، اي بنقطة ثابتة لا يحق لاي مرب ان يقيم
حولها ضمن دائرة يبلغ شعاعها اربعة كيلومترات على الاقل . الا ان هذه الهبة لم تول حق تلك
بل مجرد حق استعمال . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الحرية لم تقدر سوى الاسبانيين اذ ان
الهنود لا يمتلكون قطعاناً والمواشي تجتاح مزروعات الهنود فتفر جماعات كاملة الى الجبال . حتى
نواب الملك الهنود بتحديد نطاق حماية جول القرى ، وبانقاص المدة المسموح خلالها الاستفادة
سويًا من المراعي العمومية ، وبمحاولة رسم طرق تسلكها المواشي المنطلقة من منطقة الى اخرى .
وحاولوا اخيراً تحويل سبل القطعان نحو البورات الشمالية بمنح النقاط الثابتة مع نطاقاتها في قلب
مناطق البدو . فكان نصيب بعض كبار الموظفين والمستعمرين النافذين بين سبع نقاط واحدى
عشرة نقطة ثابتة ، فاشتمروا امتيازات غيرهم من المستعمرين الثانويين وكونوا لهم املاكاً كبرى .
والى جانب الثور ، وفرت اللحوم الشبيهة بقطعان كبرى من الاغنام نسجت اصوافها وحيكت
في النقاط الثابتة عينها وبيعت الاقمشة في كافة أنحاء العالم الجديد .

فتح نباتات اوروبا للعالم الجديد
استحصل الاسبانيون من البلديات او من نواب الملك على املاك
تقارب مساحتها ٤٣ هكتاراً من الاراضي الزراعية ، رغبة
منهم في انتاج اثمار وحبوب بلادم . زرعوا القمح بصورة خاصة على جانبي الطريق . بين
« فيراكروز » ومكسيكو ، واشجار البرتقال والليمون والتوت في منطقة « بوابلا » ، وربوا
دودة القز في بوابلا والـ « مكستيك » . صدر الحرير خاماً الى اسبانيا او غزل وحيك في البلاد .
وبيع القمح بسهولة لتموين الاساطيل الاسبانية والمناجم . اما اليد العاملة فقد وفرها الهنود
باجور زهيدة بلغ من ثديها ان العمل اليدوي حظر على البيض . شجع نواب الملك زراعة
الحنطة ولكنهم تقيدوا بتعليمات سرية ووقفوا عثرة في سبيل زراعة الكرمة وشجرة الزيتون
اللتين تتوفران بكثرة في اسبانيا . وهنا ايضاً توصل بعضهم ، بالتخلية المباشرة او بالشراء ، الى
امتلاك مساحات كبرى ، مع ان الاملاك المتوسطة المساحة لم تكن نادرة .

ازدهرت في الوديان العميقة والسهول الساحلية والمنحدرات المطلة على البحر زراعة قصب
السكر ، وشجرة اللوز الهندي والعظم في مغارس ومشاجر صغرى منعزلة تتوزع على مئات
الكيلو مترات . في البدء استخدم اللوز الهندي نقداً ، وفي اواخر القرن السادس عشر اصبح
الشوكولاتا المشروب المفضل في المكسيك واسبانيا ، ومسحوق اللوز الهندي مادة تجارة وتصدير
كبيرين ، ونمت زراعة قصب السكر نمواً سريعاً بسبب تزايد استهلاك « الحلويات » الذي جعل
من السكر مادة ضرورية جداً . ونمت كذلك زراعة العظم بفضل الاحتكار الذي استحصل
عليه ، في السنة ١٥٦١ والسنة ١٥٧٢ ، « بدرودي لدسما » ، « مكشفه » ، والمركيز
« دل فاله » احد حفدة فرنندو كورتيس . كانت كل هذه المغارس والمشاجر املاكاً كبرى او
مشاريع رأسمالية . فتوجب استخدام عدة مئات من العمال وعدة مئات من الحيوانات في كل
منها لحراستها حراسة عميقة ورعاية بها . سحق قصب السكر بواسطة محادل من الخشب
الصلب تحركها مطاحن تسير على الماء او البغال ، ومست الحاجة الى قدور معدنية كبرى وقدور
معدنية صغرى . كما مست الحاجة ، لمعالجة العظم ، الى مضخة ماء ، وقدور معدنية للانضاج ،
وعجلات ذات لوحات تحركها البغال لمزج المعجون ، واحواض للتصفيق ، واحواض للتجفيف .
فلم يتمكن من تأمين الاموال اللازمة لكل ذلك سوى كبار الملاكين .

اعتمد نائب الملك « مندوزا » وخلفه « فيلاسكو القديم » (١٥٥٠ - ١٥٦٣) النظريات
الدومينيكية وحاولا حماية الهنود وممتلكاتهم . فعين حماة للهنود في الولايات منذ السنة ١٥٤٢ .
وانشئت في مجلس مكسيكو محكمة للشؤون البلدية منذ السنة ١٥٧٤ . الا ان الهنود بقوا احراراً
في بيع ممتلكاتهم . فباعوا الكثير منها في اواخر القرن السادس عشر ، مع انهم كانوا مسؤولين
عن الجزية المفروضة على جماعاتهم . ثم انتشرت الاوبئة ما بين السنة ١٥٧٦ والسنة ١٥٧٩ وقضت
على نصف السكان الهنود . ولكن مقدار الجزية لم يتبدل . فاضطر زعماء الهنود للبيع لاجل
دفع الجزية . بيد ان بعضهم احتفظوا باملاك واسعة جداً .

لم تستثمر الجماعات الهندية سوى مساحات صغرى من اراضي المكسيك . فاتيح للاسبانيين من ثم الاستيطان وتملك اراض شاسعة دون التعرض مباشرة للجماعات . ولكن الاراضي الخصبة في منطقة « اناهواك » مالبثت ان امتدت واحاطت تدريجياً بالقرى الهندية . فاعتصب الاسبانيون الاراضي ، وانتهى الهنود احياناً الى الفاقة . وحدث في اماكن اخرى ان خربت قطعان الاسبانيين المزروعات الهندية . انما يبدو بصورة عامة ان اراضي الجماعات كادت تكون كاملة سليمة في اواخر القرن السادس عشر . ففي اواسط القرن السابع عشر ، وامام ابواب مكسيكو بالذات ، ما زالت بعض الجماعات الهندية تمتلك اراضي غنية جداً . وحين اجاز قانون السنة ١٨٥٦ بيع الاملاك العامة ، كان حجم المبيعات كبيراً جداً ، مما يثبت ان الجماعات الهندية احتفظت بمساحات كبرى حتى القرن التاسع عشر .

المركزية والعمل التبشيري
 الرعاية الملكية

وجدت المركزية عوناً لها في العمل التبشيري . توغل المرسلون في البلاد وراه المستعمرين من اصحاب التاجم والمشاريع الزراعية . التمسوا ايد الملك وغدوا بالمقابلة عوناً قوياً للسلطة الملكية . نظر ملوك اسبانيا الى التبشير كما الى واجهم الاول . ومنذ السنة ١٥٠٨ خط الملوك الكاثوليكيون بحق رعاية كنيسة الهند كما مارسوه في اسبانيا : يقترح الملوك احداث الاسقفيات والخورنيات وينفذ البابا مقترحاتهم ، ويقدم الملوك للبابا مرشحين للاسقفيات ورفاسة الاديرة ، وللأساقفة مرشحين للمناصب الكنسية الاخرى . منذ السنة ١٥١٢ - ١٥١٣ انشئت ثلاث اسقفيات في الجزائر . وفي السنة ١٥٢٨ احدثت اسقفية مكسيكو مع ٢٣ اسقفية اخرى . وفي السنة ١٥٤٦ جعلت كل من ليا ومكسيكو مركزاً لرئيس اساقفة . وفي السنة ١٥٥٥ انعقد اول مجمع اقليمي في مكسيكو ، كما انعقد في السنة ١٥٦٧ اول مجمع اقليمي في البيرو . وتأسست جامعات في مكسيكو ، وليما ، و سانتا - فيه ، وكوردوبا وشاركاس .

فوض شارل الخامس شؤون كنيسة المكسيك الى جمعيات الرهبان المتسولين لانه لم يطمئن الى الكهنة العلمانيين . وفي ٩ ايار من السنة ١٥٢٢ ، وجه البابا اوربانوس السادس رقيماً الى شارل الخامس حوّل بموجبه سلطته الرسولية للرهبان لهداية الهنود في كل مكان يبعد اكثر من مسيرة يومين عن الاساقفة . وكان اسقف مكسيكو الاول فرنسيساً هو الاخ « خوان دي زوماراغا » (١٥٢٨ - ١٥٤٨) . وسم بعد ذلك اساقفة من بين الكهنة العلمانيين ، ولكن المسافات وتأثير الرهبان على البلديين شلت سلطتهم .

الاديرة

قامت الاديرة في كل مكان ، متقاربة في المناطق المكتظة بالسكان الغريبيين ومتعاقبة على جوانب طرق المواصلات في المناطق الاخرى . في السنة ١٥٥٩ ، كان للفرنسيين ٨٠ ديراً و ٣٨٠ راهباً ، وللدومينيكيين ٤٠ ديراً و ٢١٠ رهباناً ، وللأوغسطينيين ٤٠ ديراً و ٢١٢ راهباً . احتلت الاديرة مواقع ستراتيجية ، على مرتفعات داخل القرى او في

جوارها ، وقامت في اغلب الاحيان على انقاض معابد بلدية قديمة . وصحمت بشكل كتلة شرفاء تتألف من دور واحد فتحت نوافذه في اعلى الجدران وتدعما من الخارج ركائز كبيرة مربعة الشكل وتقوم امامها مصطبة للمدقمية وفناء واسع يحيط به سور اشرف . وشكلت حصوناً لضبط الهنود في نطاق الطاعة وملاجيء للسكان الاوروبيين في حال اندلاع الثورات . وغالباً ما كانت الديرية ضخمة وكنائسها زاوية فاخرة لان الهنود كانوا شديدي التأثر بالآهة والفضامة وشديدي الولع برؤية ديرجيل بفعل غطرستهم المحلية . ولكن اديرية كثيرة كانت ابنية عادية .

تجنب المرسلون جهد المستطاع ، خشية من الهرطقة ، الاستفادة من التشابه بين الديانات البلدية والديانات المسيحية ، وذلك على الرغم من نظريات الفرنسيسي « برناردو دي ساحاغون » وبمجهه المستفيض حول البلديين . ولكنهم استفادوا من عادات الهنود وتزعاتهم . فقد استمر الشيوخ كما في السابق في مرافقة تلامذة الصفوف الابتدائية الى المدرسة ، ولكن لتعلم مبادئ الدين المسيحي . وكما في السابق ، تلقى ابناء الارستوقراطية الهندية دروساً خاصة ، ولكنهم كانوا داخليين في الديرية . واشبع ميل الجماهير الهندية الى الموسيقى والرقص والتمثيل وعظمة الاحتفالات .

حاول المرسلون ، بالاتفاق مع نواب الملك ، اعادة تجميع الهنود الذين ارغموا على الانتزاح عن قراهم وتحسين سكنى الجماعات التي لم تغادر قراها . فأحدثت «قرى التجميع» التي أطلق عليها اسم « المعادات » منذ السنة ١٥٩٥ . تبني المرسلون آراء رئيس أساقفة مكسيكو « زوماراغا » واعتقدوا بأن الهنود لن يلبثوا أن يتخلقوا بالاخلاق القشتيلية اذا ما عاشوا على الطريقة الاسبانية في قرى ماثلة لقرى إسبانيا . وفي سبيل هذه الغاية ، تعاقبت الاوامر الملكية بين السنة ١٥٢٣ والسنة ١٥٧٠ . وأفاد الرهبان مما له طابع جماعي في النظم البلدية الاسبانية بغية تسهيل الانتقال من نظم الازتيك الجماعية . فبنوا من ثم قرى ضمت ساحة عامة وكنيسة وداراً بلدية ومستشفى وسجناً ، وشيدوا حول هذه الابنية احياء هندية ، على غرار الكلبولي القديمة ، اشتملت منازلها على أكثر من غرفة . وأحدث المرسلون بلديات هندية ، وانشأوا صناديق قروية . وكان على الهنود ان يديروا شؤونهم بأنفسهم . فوفق بين الملكية الجماعية والملكية الفردية . امتلك كل هندي بيتاً وأرضاً . وأعطى رؤساء العائلات أراضي أخرى يستثمرونها مدى الحياة على أن يزرعوها ولا يبيعوها . واستثمرت بعض الاراضي المشاعية بجهرد مشتركة لتغطية النفقات البلدية . واستزرع الرهبان أشجار التوت لتربية دودة القز وأشجار الصبار ذات الدودة القرمزية والاشجار المثمرة . وبنيت الاقنية والمجرات والاعين واعتمد أكثر فأكثر على الري . وتسلمت البلديات الهندية مراعي ممتنعة البيع لتربية الضأن والماعز وقضى الرهبان بين الناس واعتنوا بالارامل والايتام . وتوجب على المسافرين الاسبانيين ان يغادروا القرى في اليوم الثالث كحد أقصى . ولم يحق لاي اوروبي او زنجي او خلاسي ان يستقر في القرية . ولكن الهنود لم يتجمعوا تجمعاً كافياً . وكان عدد الرهبان ضئيلاً جداً لا يتجاوز الاثنين مقابل ١٠٠ ٠٠٠ هندي أحياناً .

وغالباً ما سعى الهنود وراء العيش في العزلة والانفراد ، بدافع من روحهم الاستقلالية حيناً ، وعجزهم عن تعود حياة جديدة حيناً آخر ، ورغبتهم في الاستسلام لردائهم في أكثر الاحيان .

التربية الدينية استخدم المرسلون ، في تعليم البلديين العاجزين تقريباً عن التجديد العقلي ، طرائق ممددة للتأثير في الحواس وربط الافكار بالجسم كله والحس كله . كانت الأيجدية صعبة الادراك بالنسبة للهنود ، وكان من شأن استخدامها ان يستتبع ثورة فكرية . فوجب من ثم ربط تمثيل الاحرف بتمثيل الاشياء التي كانت في متناول يد التلميذ : فمثلت **A** بالبركار و **B** بالقيثارة و **C** بنعل الفرس ، الخ . وأعطى المرسلون المثل في تفانيهم الكلي في سبيل القريب لارساخ تعليمهم في المقول . ورفضوا أبداً استيفاء العشر من الهنود . وارتدوا الحنيف أو نسيجا صوفيا خشنا ، وتقلدوا حفاة ، وافترضوا الألواح الخشبية ، وتقذوا بالجذور وامتنعوا عن اللحوم والحبز والنيذ ، وتمثلوا بالهنود . واذا ما سئل هؤلاء عن سبب محبتهم للفرنسيين ، أجابوا : « لانهم فقراء وحفاة مثلنا ، ويا كلون ما نأكل ، وقيمون قسماً بيننا ويمشون فيما بيننا مسلمين » . عاشوا معهم وماتوا من أجلهم . وقد بلغ من عناء الرهبان وحرمانهم ان نسبة الوفيات بينهم كانت مرتفعة جداً . وحين كان الأخ « انطونيو دي روا » يتكلم عن الجحيم ، كان يلقي بنفسه الى النار ويلفت نظر الهنود الى انه اذا لم يستطع تحمل مثل هذا الام ، فماذا سيكون من النار الابدية ! وكلما صادف أو نصب صليبا طلب أن يجلد ويسفح ويهان ويصق في وجهه ، لأن يسوع المسيح قد تحمل كل ذلك كفارة عن خطايا البشر . فكان يرسخ بذلك ذكرى تعليمه في ذاكرة الهنود . وانتعان الرهبان بلوحات تشكل تعليماً مسجياً مصوراً كما استعانوا بالمرسح وتمثيل الاسرار أو انتصارات المسيحيين على المغاربة . وحلوا الهنود على أن يعيشوا التعليم الروحي بالزامهم على أن يتناوبوا الخدمة أسبوعاً في المستشفى . وحولوا تلاوة فعل الایمان كل صباح ومساء ، والصلاة ، وترتيل صلاة السحر ركوعاً ، الى ممارسات لا تلبث أن تصبح حسية بخدمة القريب . وعامل الرهبان الهنود بحلم ومسامحة واكتفوا منهم بتقدم بطيء .

عرائق التبشير الا ان معلم التبشيري قامت في طريقه عقبات كثيرة . فكانت هنالك مقاومات البلديين : قبائل متوحشة تحرق الكنائس والصلبان وتشعل النار في الأديرة وتقتل الاخوة ؛ وكهنة وثنيون وسحرة يدعون الى الثورة في السنوات ١٥٤١ و ١٥٤٧ ، ١٥٥٠ ؛ وملحدون ينضمون الى الثائرين ؛ وفي غير مكان هنود يفرون أمام المرسلين ويختبئون ويستمررون في التسرر والملاطة . وغالباً ما اصطدم الرهبان بالمقاومة السلبية : فقد تظاهر الهنود بالاهتداء ومارسوا عبادة الاوثان سراً في الليل . وروى لهم كهنتهم ان الرهبان أموات وملابسهم أكفان ، يختفون ليلاً للالتحاق بنسائهم في الجحيم ولا يتركون على الأرض سوى عظامهم وثيابهم . أما مصدر هذه الاوهام فهو عدم ادراك الهنود لمعنى الامانة والتبوية وصلاة السحر . ولكن بعض الرهبان لم يستطيعوا التغلب على التجارب . فان بعض فرنسيسي المكسيك او البيرو

فد جمعوا الثروات وخلصوا الثوب الرهباني وعادوا إلى إسبانيا ليعيشوا فيها حياة يسار . حوالي السنة ١٥٦٢ شهده الاخ « أنطونيو دي سان - ايزيدورو » ، رئيس دير مكسيكو ، يساكن سرية ويرزق منها ابنة ، ويبرهن عن مهارة كلية في أعمال تجارية مثمرة . ودفعت روح التضامن بالمجمعات الرهبانية إلى التشاجر والتخاصم ورفض طاعة الاساقفة . وحدث أحيانا ان جمع الرهبان هنودهم وساحومهم وحلومهم على سلب ونهب وإحراق كنائس جمعية اخرى وطرده الزائرين الاسقفيين بمراشقتهم بالحجارة . وبديهي ان مثل هذه الزلات تصدر عن الكهنة قد أبعدت الهنود عن المسيح .

وأخيراً ، غالباً ما قاوم العلمانيون رجال الدين . ففي سبيل تشغيل الهنود ، حتى أيام الآحاد والأعياد ، أقدم بنض الملاكين على تشجيع ممارسة عبادة الاوثان والاشترك في الاحتفالات الوثنية ومهاجمة المرسلين وطردهم .

ولا عجب في هذا السلوك يسلكه الملاكون لأن المرسلين قدحموا الهنود وحاربوا حماية الهنود أعمال التسخير لأنها تتنافى والحق الطبيعي . وبلغاجتهم استحصولوا من شارل الخامس على قوانين السنة ١٥٤٢ الشهيرة : « تحظير » استعباد « الهنود » تحظير منح امتيازات جديدة ؛ ابطال وراثية الامتيازات الممنوحة . فكادت تحدث حركة انفصالية في المكسيك ؛ واندلعت ثورة في البيرو ؛ لان المستعمرين افتقروا إلى اليد العاملة ، والهنود الاحرار أنفخوا من العمل المأجور . فاضطر الملك إلى الرجوع عن هذه القوانين منذ السنة ١٥٤٥ . ولكن النتائج استعاد شيئاً فشيئاً امتيازات كثيرة من الاحبار وكبار الموظفين ؛ وفي السنة ١٥٤٩ فصلت أعمال التسخير عن الامتياز الذي آل إلى مجرد دخل ؛ ووزعت أعمال التسخير منذ ذلك التاريخ على المشاريع التي اعتبرت مفيدة ، أي على مشاريع زراعة الحنطة في الدرجة الاولى . ثم أخذت هذه التوزيعات تتلاشى عدداً وتواتراً إلى أن القيت نهائياً في السنة ١٦٣٢ . وانما فرض على المتعطلين القيام بما يطلب منهم من أعمال مأجورة . وبينما كان لا يزال هنالك ٤٨٠ صاحب امتياز في المكسيك في السنة ١٥٦٠ ، هبط هذا العدد إلى ١٤٠ فقط في السنة ١٦٠٢ .

لم تكن المركزية قوية في يوم من الأيام . فالضباط الملكيون لم يلبثوا أن أصبحوا من بين كبار الملاكين ، لأن مرتب الموظف في بسلاذ تفتقر إلى رؤوس الأموال يعطي امكانات كبرى . فان « تيخادا » ، الهجاز في الحقوق ، وعضو مجلس مكسيكو ، وصل في السنة ١٧٣٧ ، وبنى بيتاً في مكسيكو للتأجير واستحصل على أراض ، ورواها ، وجنى منها ١٠٠٠٠ مد من الحنطة ، وزرع التوت والكرمة والخضار ، واقتنى قطعان المواشي ، وخفض سعر الفواكه في أسواق مكسيكو . وغدا من ثم قوة حقيقية . أضف إلى ذلك أن نظام التبعية والأنساب قد زاد من قوة واستقلال الضباط والملاكين . فان قضاة مجلس الحدود على مقربة من غواتمالا كانوا كلهم في السنة ١٥٦٢ أصعاب

أحماء أو أصهرة أو أختان الضباط المهلين وأصحاب الامتيازات وأصحاب المشاجر والمغارس .
 أفسحت المركزية المكان ، منذ السنة ١٥٧٣ ، للامركزية تدريجية . أما السبب الأول
 في ذلك فافتقار الملكية الاسبانية إلى الأموال : فقال الملك طبعاً إلى تحويل نفقات
 الاستعمار إلى عاتق الأعيان بتخليه لهم مقابل ذلك عن بعض سلطته . منذ السنة
 ١٥٧١ ، حق لكل من يؤسس مدينة جديدة ضد البدو ان يحتفظ بحصون وراثية ويمتلك ربع
 الأراضي ويستعبد أسرى الحرب ويحصل على امتيازات . ومنذ السنة ١٥٩١ انتقلت الأملاك
 والمراعي العامة ، وأملاك الجمعيات الرهبانية ، التي لم يسمح بها نظرياً ، إلى الأعيان مقابل
 « تسوية » مالية . فحل محل الحقوق العرفية القديمة تلك حقيقي للأرض . وزاد من اتساع
 الاملاك اقدام الأعيان على اغتصاب حقول الجماعات الهندية وفوزهم بموافقة المسؤولين على
 اغتصابهم . وبلغت الحركة ذروتها ما بين السنة ١٦٤٢ والسنة ١٦٤٨ . وتصرف الملاكون في
 هذه الاملاك الكبرى تصرف الاسباد وادعوا لانفسهم بعدة حقوق ملكية . أما الملك ، الذي
 لا مال لديه والذي لم يوفد بعد ذلك سوى نواب الملك من اسبانيا ، فقد تفاوض عما جرى
 مكتفياً بتأمين النظام والدفاع .

اتجه الاقتصاد المكسيكي في الوقت نفسه الى الاقتراب من اقتصاد أملاك
 كبرى ، اقتصاد الاملاك العامة . سبق مثل هذا الاتجاه ، في القرن السادس
 عشر ، اتجاه ملاكي المناجم الى انشاء أملاك كبرى تكفي نفسها بنفسها .
 الا ان الانتاج والنقد المتداول قد تدنيا منذ السنة ١٦٠٠ ، فأدى تدنيها بعد السنة ١٦٣٠ إلى
 كارثة حقيقية نرجح ان احد أسبابها ارتفاع سعر الزئبق الذي يحتكره الملك . وانخفضت في
 الوقت نفسه ، بفعل « التسويات » ، نسبة النقد المتداول . فتدنت الاسعار ، لان المال « عصب »
 الاقتصاد المكسيكي ، وانتقصت التيارات التجارية ، وانخفض الانتاج ، وانغزلت
 المناطق .

لم يُعص عن ذلك دور الوسيط الذي لمبته المكسيك بين الصين واوروبا في انتقال حرير
 الصين الى اوروبا عن طرق ماكاو ومانبلا واكابولكو ومكسيكو وفيراكروز واشبيلية بين
 السنة ١٥٧٠ والسنة ١٦٤٢ . لابل ان حرير الصين قد افقر منتجي الحرير المكسيكيين
 واسهم في انكماش مناطق انتاج الحرير على نفسها .

زد على ذلك ان تقييد الحكومة للعلائق بين المستعمرات ، وانخفاض حجم تصدير الاقمشة
 الصوفية من المكسيك الى البيرو ، وحرب القرصنة بين الفرنسيين والانكليز والهولنديين ،
 والقضاء في السنة ١٦٢٨ على اسطول كامل للمرة الاولى في التاريخ ، ورفع رسم الضمان الالزامي
 لتغطية نفقات « الاساطيل » او قوافل السفن الى اوروبا ، واقدام حكومة في حالة اليأس على
 رفع الرسوم والضرائب ، واحتكار تجار اشبيلية ، قد انقصت تدريجياً التصديرات ومحمول

الاساطيل الى اوروبا . ف منذ السنة ١٥٧٠ ، توقف نمو قطعان المواشي ، واستنزفت ارض المراعي وتدننت نوعية العشب ، وما عادت الايقار لتضع حملها الاكل ثلاث او اربع سنوات . فالحظ نوع المواشي . وتوجب العدول عن زراعة التخصص لان الحاجة مست لان تنتج الارض من كل شيء . لهذه الاسباب جميعها تدنت التجارة الداخلية وتوزعت المكسيك الى املاك كبرى تسد كل الحاجات ، تتوفر فيها المزروعات والقطعان والمصانع والآلات ، ويتولى السيد ، فيها النظام وتوزيع العدل والامن العام الداخلي والحرب ضد البدو .

للسيد عبده الزنوج والهنود الذين يحملون في وجوههم سمة والمركيز
 صلاحيات « السيد » وتقت العالم الجديد على طريقة القرون الوسطى
 دل قائلته « او » الدونا ايزابيل دي فيلينيغا . يمارس عملياً سلطة لحدود لها على العمال الهنود الذين اطلق عليهم اسم « المشاة »
 الازدرائي . الدمال احرار مبدئياً ، ولكن الملاكين لم يعدوا وسيلة استدراك زوال اعمال التسخير التدريجي . يرغمون الهنود على تسلم قرض : مال ، او بالتفضيل ، ملابس ، او جوارب ، او احذية ، وكلها فتنة لهؤلاء المساكين الذين يرون انفسهم مرتدين ملابس مماثلة للباس اسياهم . فيرتبطون من ثم بالارض ، واذا ما باع السيد الارض فانه يبيع الهنود معها . وقد ارغم اغتصاب اراضي الجماعات عدداً متزايداً من الهنود المحرومين وسائل العيش على الممسل في ملك مجاور حيث لا يلبثون ان يصبحوا قدايين بسبب ديونهم . السيد يقضي بين عبده ، ولديه سجن واصفاد وغلول يتعرض لها « مشاته » ايضاً . وغالباً ما يتمتع بحصانة حقيقية ، اذ انه يستحصل من نائب الملك على امر بمنع الضباط العدليين من دخول املاكه . والسيد في الوقت نفسه « ضابط » او « قائد » الجيوش الملكية . وهو يقود من جهة ثانية جيشه الخاص الذي يجنده من بين « مشاته » ويعين ضباطه من بين « معاليه » ، بموجب اجازة ملكية يحصل عليها لقاء تعهد بخدمة الملك على نفقته الخاصة . وهو في الوقت نفسه قاض ايضاً في المدينة وفي الولاية . وغالباً ما تكون هذة الوظيفة الملكية او البلدية ملكه الخاص لان ملوك اسبانيا قد شملوا العالم الجديد ايضاً بنظام بيع الوظائف . وغالباً ما تؤلف املاكه عقار شرف ممتنع البيع والتجزئة فيمنحه الملك لقب « كونت » او « مركيز » . لابل ان الملك قد باع هذه الالقاب بيعاً في اواخر القرن السابع عشر . وينشئ السيد كنيسة لمستخدمي املاكه ، وديراً ، ومدرسة ، ويضع فيها رسومه واشعرته الشرفية ويمارس فيها حق التسمية لرواتب دينية ، فيعين خوري الرعية ورئيس الدير اللذين غالباً ما يكونان من انسابه او « معاليه » . وتربط السيد روابط تبعية ونسب بالاسياد المحاورين ، وهم ارستوقراطيون يحملون ألقابا شريفة وضباط مدنيون وعسكريون واسياد يتمتعون بالحصانة ويتولون السلطة العامة المحلية ، وغالباً ما يكون حليف كبار موظفي المجالس في ليما ومكسيكو .

تشتمل « السيادة » على قرية حقيقية او ضيعة تتألف من مساكن « المشاة » . مركز

« السيادة » ساحة عامة كبرى مربعة الشكل . يقوم على احد جوانبها مسكن السيد ، وهو بناء حجري كبير يتميز بأسوار ضخمة شرقاء وبأبراج لمقاومة قطاع الطرق والثوار البلديين . يشتمل على فناء كبير ذي احجبة يدخل منه الى القاعات والغرف التي يسكنها السيد وترى فيها الاسرة ذات المظال وصناديق الملابس والمجوهرات والآنية والصحون من قطعة واحدة والسنور في الجدران ، وعلى فناء ثان محيط به الاصطبلات لحيول هؤلاء الفرسان الذين يسلخون معظم حياتهم على ظهور الجياد ، وللوازم من سروج خشبية وجلدية ثقيلة تزدان بالفضة ، وجلول فاخرة ، وملابس جلدية ، ومهاميز كبرى . وغدت الاديرة مراكز سيادات ايضا ، وغالبا ما مارس رؤساؤها عمليا كافة سلطات السيد . اما اكليروس السادات العلمانية ، وهو خليفة السيد ، فكان يتحول تدريجيا الى اكليروس ارستوقراطي ، وعنصري .

والجزء الفدادية تفكيك القبائل وتقويضها . فقد عاش معا في الاملاك الكبرى فدايون مدينون انتسبوا الى شتى القبائل ، تصاهروا و صاهروا الاسبانيين ، وتعلموا اللغة الاسبانية او حشوا لهجاتهم بالتمايز الاسبانية ، ونقلوا عن الاسبانيين كثيراً من عاداتهم ، والذوا من ثم ، بالانصهار ، فئات اجتماعية جديدة تتألف منها الامة المكسيكية .

فيتضح من ثم ، خلافا لما ذكرنا عن شعوب الحضارة النيوليتية ، ان هنود المصراع النحاسي ، المزارعين المتحضرين ، قد تيسر تمثيلهم ، بل ضمهم الى الحضارة الاوروبية اما بشكل فئات ، الجماعات والقرى الهندية ، المتميزة عن الاوروبيين مع اشتراكها في النظام الاوروبي ، واما بشكل طبقة دنيا من العمال ، المشاة . ففي الواقع استطاع المزارعون المتحضرون ، ال « اوتومي » ، وال « مكسيكا » ، وال « تلاككالتيك » ، الخ ، الاندماج في النظام الاقتصادي الاوروبي ، لانهم استطاعوا التحول الى مواني مواد غذائية يحتاج اليها الاوروبيون في حياتهم اليومية . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان المزارعين المتحضرين قد استطاعوا تمرد العمل في المزارع والمناجم بفضل تعدم عمل الفلاحين المنتظم الثابت . فهم هنود الحضارة النيوليتية من افناعم عمل المناجم . في حال ان ال « اوتومي » الذين لم يمارسوا عملا زراعيا دائما قد تمكنوا من الصمود . ولكن التلاككالتيك ، الفلاحين الحقيقيين ، قد تحملوا عمل المناجم وبرهنوا عن انهم عمال اكفاء . وهم ايضا من انتقلوا مع بعض هنود منطقة مكسيكو الى مزارع الشمال والفوا اكثرية المشاة .

وتحمل هؤلاء الهنود كذلك التجمع في قرى اسبانية ، لانهم عرفوا في القرى الهندية ، قبل الفتح ، حياة شبيهة بحياة الاسبانيين من حيث قوة التنظيم العائلي والبلدي والحضارة الزراعية المبنية على الزراعة وتربية المواشي ، وان كانت الزراعة اهدأ تقدماً عند الاسبانيين .

يضاف الى ذلك ان هؤلاء الهنود قد بلغوا عقليا مرحلة نسبة الحياة للاجرام السماوية . وتوصلوا الى طريقة عدديّة ، وعرفوا الحساب واستخدموه حتى في حياتهم العادية اذ انهم كانوا

يحصون خطاياهم حين يتقدمون من سر الاعتراف ، في حال ان التعداد كان عملية لا تطاق في نظر هنود الحضارة النيوليتية . وقامت بين ديايتهم والديانة المسيحية بعض نقاط التشابه . فقد توصلوا الى مثل اله اسمى . واعتقدوا بان هويتزيلوبوشي ولد من عذراء . ومارسوا معمودية تطرد « الشيء المؤذي » ؛ واعترفوا بخطاياهم وآمنوا بالحياة ؛ وتناولوا بأكلهم قلب الضحية الذي مثله بذات الله ؛ وآمنوا بخلود النفس وبالفردوس وجنهم والطوفان ، وتوصلوا الى فكرة ذبيحة الآلهة . لا ريب في ان العقيدتين اختلفتا كل الاختلاف من حيث الجوهر ولكن اوجه التشابه السطحية هذه قد سهلت التعامل ومهدت سبل التحول .

وعرفت هذه الشعوب واجب الطاعة للملك اعلى بواسطة الموظفين . وتعودت الخضوع لارستوقراطية سيديية . لا بل لم تجهل التجارة الكبرى . ولم تكن الدولة المنظمة شيئاً جديداً كل الجدة بالنسبة لها .

فليس من الصعب ، والحالة هذه ، ان ندرك كيف ان هذه الشعوب استطاعت ، بفضل التخليط ، وبعد تكيف استغرق ثلاثة قرون وكتلف الكثير من الضحايا ، ان تؤلف الشعب المكسيكي والامة المكسيكية .

٤ - الاوروبيون وشعوب حضارة عصر الشبه

كانت مقاومة الـ « انكا » اطول ديمومة من مقاومة الازتيك . ففي ولاية « فيلكا بيا » لم تتم التهدئة الا في السنة ١٥٧٢ . وقد استمر حتى هذا التاريخ نظام الانكا السياسي في هذه الولاية ، ولكن بواسطة الاسلحة الاوروبية والخيول التي حصلوا عليها بالغزو او بمقايضة التبغ والكوكا والمعادن الثمينة . بيد ان الانكا المقاومين قد تسامحوا في دخول المرسلين الى مناطقهم لانهم لم يقاوموا الديانة بل نظام الاسبانيين السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

قضى الاسبانيون على سيطرة الانكا وحلوا محلهم طبقة حاكمة . الا انهم احتفظوا لمصلحتهم بالايلاو والكوراكا والاياناكونا . وحصل الاسبانيون في كل مكان على الامتياز . ولكن صاحب الامتياز ، قد اصبغ عمليا ، على الرغم من القوانين ، سيداً اغتصب السلطات العامة الرئيسية : القضاء ، جباية الضرائب ، نشر الايمان . فصاحب الامتياز يعين كاهن رعوية يصبح عملياً رئيس خدامه وداعيته وقاضيه في الشؤون المدنية ؛ الامتناع عن دفع الجزية لصاحب الامتياز والتقايس عن التفاني في خدمته يصبحان خطيئتين ضد الله . ويعين صاحب الامتياز « كوراكا » لامتيازته وآخرين لكل « ايلو » يسند اليهم ادارة العمل وجباية الجزية . ولكن الكوراكا الذين لا رقابة عليهم والذين يدفعون الجزية كغيرهم ولا يتقاضون اجراً ، ينصبون انفسهم طبقة في خدمة الفاتح ويستغلون اخوتهم في العرق ، المهزومين . يمتلك الكوراكا مساكن جميلة ومزارع وقطعانا ويرتدون الحرير ويحتسون النبيذ الاسباني ويمتطون الجياد .

ويحيطون انفسهم بموسين زوج او خلاسين اشد حزماً واسبق مبادرة واعظم وفاءً ، بحيث اصبح عدد الموظفين ، لثة هندي ، يوازي عددهم لالف هندي قبل الفتح .

كان هنالك ، في السنة ١٥٩١ ، ٧٧٥ امتيازاً و ٨٠ « كورجيمينتو » . والكورجيمينتو هو امتياز ملكي يشرف عليه قاض يعينه الملك . ولكن الملكية الاسبانية لم تعرف قط كيف تكافئ موظفيها مكافأة لائقة . لذلك فان القاضي نفسه ، « كورجيدور » ، يجمع الثروات باغتصاب اموال الهنود ويحيط نفسه بجيش من المستخدمين الزوج والخلاسيين .

وهكذا استمرت سلطة امبراطور الانكا المطلقة موزعة على مئات الاشخاص الذين مارسوها كاملة ، ولكن على فئات محدودة .

الاياناكونا هم بعد الفتح هنود هجروا الـ « ايلو » ، ليعيشوا بين الاسبانيين خداماً وصناعيين . يعتبرون اعضاء في الجماعة المسيحية ويعفون من الجزية والـ « ميتا » . يحق لهم اقتناء الممتلكات الخاصة وممارسة الصناعة اليدوية او التجارة بحرية . وهم يشكلون في الواقع طبقة كادحة في خدمة الاسبانيين . وقد احاط هؤلاء انفسهم بالعديد من الاياناكونا رغبة منهم في اثبات نفوذهم . وحين اثار « مانكو انكا » الـ « كيشوا » على الاسبانيين في السنة ١٥٣٦ والسنة ١٥٣٧ ، لم ينج هؤلاء الا بفضل مساعدة الاياناكونا . الا ان نائب الملك في « طليلطة » اوقف تفكك الـ « ايلو » في السنة ١٥٧١ . فحظر احداث « اياناكونا » جدد ، وارغم كافة المشردين على الالتحاق بآسياد . وامر بان لا يترك احد عمله او يسرح منه الا باذن رسمي . فبات الاياناكونا من ثم اشبه بالفدائيين المنزليين .

الـ « هاتورونا » هم اعضاء الـ ايلو . يلزمون بدفع الجزية لا لتأمين اقتصاد تغذية في مجتمع قائم على تعاون متسلسل فحسب ، بل لتوفير مواد التصدير الى اوروبا ايضاً التي يجب ان تؤمن اثمان المستوردات الاوروبية وتوفر كسباً في اقتصاد تنافس ورأسمالية تجارية . فاضطروا من ثم الى تبديل انتاجهم . لم يتغير غذاؤهم قط : ذرة صفراء ، بطاطا ، لحوم جل اميركا المجففة . وانما اضافوا الى ذلك السكر والاجبان والـ « شركي » او لحوم العجول المجففة . ولكنهم اعتمدوا زراعة النباتات الاوروبية ، لا سيما لتقديم مايتوجب عليهم . فزرعوا قصب السكر في المناطق التي لا تعلق ٢٣٠٠ متر . وربوا المواشي في المناطق التي تعلق ٤٠٠٠ متر . وفي المناطق الواقعة بين هذين الارتفاعين ، زرعوا الحنطة والشعير والبطاطا . غير انهم فشلوا نسياً في زراعة الحنطة والكرمة التي لم تناسب عاداتهم الجماعية . تعودوا تربية المواشي : الثور الذي استخدموه لنقل الاحمال ووفر لهم اللحم والشحم والجلد ، والضأن والماعز ، في كل مكان ؛ والخنزير والدجاج والبيض لتلبية طلبات الاسبانيين . بيد ان قطعان اصحاب الامتيازات ، وقد تراوحت بين ٢٠٠ و ٣٠٠ رأس ، قد حالت احياناً دون تربية الهنود للمواشي ، واتلفت المزروعات واكرهت الهنود على الاحتماء في المناطق الجبلية الصخرية .

توجب على الهانوزونا تأدية الـ « ميتا » . ففي اواخر القرن السادس عشر كان هنالك في الولايات السبعة عشر المحيطة بمناجم « بوتوسي » ٨٠٠٠٠ مكلف تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٥٠ سنة . كان سبع هذا العدد يقضي ١٨ اسبوعاً في المناجم كل سنة . ولكن عدد السكان تدنى ، واستخدم الكوراكا عمالاً ماجورين من بين الايانا كونا زاد عددهم على ٤٠٠٠٠ في بوتوسي ، في السنة ١٦٠١ . وكان الهنود الـ « ميتايو » (ميتا) يأتون الى بوتوسي مع عائلاتهم ويصطحب كل منهم ثمانية او عشرة جمال على الاقل . اما الاغنياء فكانوا ينتقلون مصطحبين ٤٠ جملاً يحملونها الذرة الصفراء والبطاطا ويعتبرونها لحوماً احتياطية . وبالإضافة الى الخدمة في المناجم ، كان الميتايو يقومون طيلة شهرين بالخدمة المنزلية في بوتوسي . ولم يعد الكثيرون منهم الى مناطقهم ، فبقي بعضهم في بوتوسي كايانا كونا ويهرب غيرهم شرقاً باتجاه الاحراج والادوية الجبلية .

والتخذت الميتا ايضاً شكل عمل في مصانع الجماعات الهندية للاسهام في الجزية المتوجبة . انتجت هذه المصانع المنسوجات في الدرجة الاولى ، ولكنها انتجت كذلك الخزفيات والزجاجيات والفضيات والمصنوعات الخشبية . ولذلك ادعى الحكام ، « كورجيدور » ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، باحتكار التجارة مع الهنود . فارغموم على شراء كافة المصنوعات التي لا يحتاج اليها اوروبيو اوروبا . وترقت من ثم على الهنود ديون وفوائد جعلتهم فداديين مدينين حقيقيين .

شكا الهنود من المساعي التي بذلها الاسبانيون بغية ارغامهم على التسليم بالملكية الخاصة الفردية والمطلقة . وابدوا مقاومة سلبية في وجه المحاولات الرامية الى الزامهم بوضع وصية خطية لمصلحة وريث وحيد ، اذ ان الارث في عرفهم يبقى شائعاً بين كافة الورثة وبديره يمثل الابلو . ولم يستطيعوا قط تمرد العمل الجاف على الطريقة الاوروبية الذي لا يستهدف سوى الانتاج فقط ، اذ ان العمل في نظر الانكا كان طقساً دينياً . وقالم الهانوزونا في شعورهم . ويبدو ان عددهم قد تدنى تدنياً ملحوظاً ربما بلغت نسبته ٥٠ ٪ ما بين السنة ١٥٦١ والسنة ١٦٥٤ . ولكن قد يرد ذلك الى انتقالهم نحو الشرق ، نحو الاحراج والادوية المنخفضة ، والولايات القائمة الى الغرب من بوينوس ايرس ، بعيداً عن الاسبانيين .

كان موقف الهنود من التبشير موقفاً اشدّ تصلباً من موقف هنود المكسيك . استؤصلت شافة الديانة الهندية كما استؤصلت شافة المجتمع الهندي . لم يبق ذكر للكائن الاسمي والآلهة المظلمة . ولكن بقي الـ « هواكا » اي الارواح المقيمة في الاشياء . فهواكا هي الشمس والجبال والاكام والجداول والبحيرات والمناجم ومدينة بوتوسي والجثث المهنطة . اما المصنوعات الاوروبية من زجاج وحرير وشمع فقد اصبحت تعاويد وطلاسم . ومزج بعض السحرة بين مفاهيم المسيحية والانكا : فبات يسوع والشيطان اخوين توأمين ، كما بات القديسون المسيحيون « هواكا » آدير العالم الطبيعي .

لم يصبح عدد الكهنة كافياً للقيام بجهود تبشيرية منتظمة الا منذ اوائل القرن السابع عشر فقط .
 حاربوا الخطايا الرئيسية ، الملاوطة ، والبهيمية ، والسكر ، وزواج الاختبار ، وعبادة الهواكا .
 وأوعزوا بالقاء القبض على الكهنة البلديين والسحرة وتدمير بيوت العبادة وتحطيم الاصنام . بين
 السنة ١٦٠٧ والسنة ١٦١٥ احرق في ساحة ليا العامة اكثر من ٦٠٠ صنم هندي ما زالت
 موضوع عبادة . وخلال السنتين ١٦١٧ و ١٦١٨ اكتشف ٦٧٩ ساحراً في ولاية « شانكاي »
 وحدها . حوالي السنة ١٦٧٧ ، كان ايمانهم بطبيعة الهواكا الالهية قد تلاشى نهائياً ، فلم يكونوا
 من بعد عبدة اصنام بل كاثوليكاً غير كاملين لان الثالوث لم يكن في رأيهم طبيعة واحدة في ثلاثة
 اقانيم بل ثلاثة اقانيم متميزة ، والاب اكبر سناً من الابن ، ولم يميز بعضهم بين الله ومملك
 إسبانيا . وكان الكهنة قد أسسوا « أخويات » أو جمعيات من المؤمنين تخصص مواردها لتعهد
 المذابيح والكنائس وتنظيم التطوافات والاحتفال بالاعیاد وتبادل المساعدة في ظروف الرفاهة
 أو المرض . انتخب الهنود أنفسهم رؤساء هذه الاخويات واداروا أنفسهم بأنفسهم ، وأدت
 هذه الجمعيات خدمة جلی في محافظتها على الطوائف الهندية .

وهكذا نجح هنود حضارة عصر الشبه في البيرو أكثر من هنود حضارة عصر النحاس في
 المكسيك في الامتزاج بالنظام الاوروي والاحتفاظ مع ذلك بفرديتهم . واستساغ هنود البيرو
 تقنيات أوروبية كثيرة لم يستسغها هنود المكسيك . ونضلوا الاوتومي والمكسيكا في الجمع بين
 الزراعة وتربية المواشي . ويبدو انهم تمكنوا من تلبية طلبات الاوروبيين بمزيد من السهولة .
 ولكنهم فضلوا بصورة خاصة في الاحتفاظ بشخصيتهم ، وكان من نجاحهم في هذا المضمار ان
 الجماعات الهندية والايلا القديمة قد لعبت دوراً رئيسياً في ثورات البيرو ولا تزال حتى اليوم
 أحد مرتكزات الامة البيروية .

٥ - الاوروبيون وشعب حضارة عصر الحديد

تعايش أوروبا - افريقيا السوداء - اميركا

حين عجز الاوروبيون عن تمويد هنود الحضارة النيوليتية عمل المشاجر
 والمقارس والمناجم ، استوردوا عبيداً زنجياً الى المناطق الاميركية الحارة .
 وقد وصلت قوافلهم الاولى الى اسبانيا منذ السنة ١٥٠١ .

لم يتعرض الاوروبيون تقريباً لافريقيا السوداء الى الجنوب من العالم الاسلامي الذي حصروا
 مهم في الدوران حوله لبلوغ آسيا . فاكتفوا بأن أقاموا على شواطئها القواعد البحرية ،
 والاسواق التجارية للذهب والعبيد والعاج ، وقاموا ببعض محاولات التبشير دون ان يتعرفوا
 جدياً الى حضارة مختلفة معادية . ولعل لامبالاة الاوروبيين بافريقيا ونفور المجتمعات البلدية من
 الحضارة الاوروبية يفسران عدم التوغل نسبياً في افريقيا اكثر من الاسباب الجغرافية : اتساع

القارة الافريقية ، المرتفعات الدائرية ، الشلالات المتعاقبة على الانهر ، الشمس المحرقة القاتلة ، العواصف الرملية في الصحارى أو كفن الحمى في الرطوبة الاستوائية ، الاحراج الشاسعة ، الحشرات والجراثيم القتالة ..

كان البرتغاليون السباقين الى الاقامة على الشواطئ الافريقية . أشأوا أسواقاً وموانئ لتموين السفن في جزر الرأس الاخضر ، وجزر « بيساغوس » ، وشاطئ العبيد ، و « بنين » (١٤٧٢) ، وجزيرة القديس توما . في السنة ١٤٨٢ اكتشف « ديفو كاوو » ، مصب الكونغو وعلم بوجود دولتين كبيرين احدهما الى الشمال من النهر ، « لوانفو » ، والثانية الى الجنوب ، « كونغو » ، التي كانت تمتد حتى نهر « كوانفو » ونهر « كوانزا » . استولى ديفو كاوو على البلاد واتصل بالملك « ماني - كونغو » . أرسل هذا الامير الى لشبونة بعض رعاياه الذين أوعز الملك بتعليمهم ليجعل منهم تراجمة ووسطاء . في السنة ١٤٩١ ، بلغ البرتغاليون العاصمة « مبالي » وكانت قرية كبرى قائمة على هضبة مكشوفة . شيد البرتغاليون فيها كاتدرائية وكنائس وبيوتاً حجرية وأطلقوا على المدينة الجديدة اسم « سان سلفادور » . الا انهم سيضطرون في آخر الفترة التي تعيننا الى الاقامة في « سان - بول دي لواندا » على شاطئ الاطلسي . وبعد اكتشاف « فاسكو دي غاما » ، اعوزتهم الموانئ لتموين السفن على الشاطئ الشرقي ، وانتظار الريح المؤاتية أو تعاطي التجارة أحياناً . احتلوا « سوفالا » ، و « كيليبانه » ، و « موزامبيك » ، محطتهم الرئيسية ، و « مومباسا » ، وماغادوكسو . وقعوا معاهدات مع المالك البلدية الكبرى ولا سيما مملكة « مونوموتابا » عند منعطف نهر « زامبيز » . انسل البرتغاليون الى « بومبيرو » الخلاسين وحاولوا انشاء املاك كبرى .

جاء بعدهم الهولنديون والانكليز والفرنسيون . أنشأ الهولنديون اسواقاً في المناطق القائمة بين شاطئ الذهب وبلاد الكفرة وكادوا يحتكرون في القرن السابع عشر الذهب والعاج والجلد والصمغ ولا سيما العبيد . اعوزهم ميناء لتموين السفن على طريق امبراطوريتهم في المحيط الهندي . كانت الرحلة من « تكسل » الى « الرأس » تستغرق بين ثلاثة اشهر ونصف وستة أشهر . ولكنها استغرقت وقتاً أطول حين نشبت الحرب بينهم وبين الانكليز والفرنسيين واكرهت القباطنة على مساحة النزوح والدوران حول جزر « شتلند » والمرور بين جزر « فاير - اوير » وجزيرة « اسلندا » للنجاة من القراصنة . وكانت السفن ، حين تصل الى جنوب افريقيا ، مستشفيات ملأى بالمرضى المصابين بداء الحفر . لذلك أرسلت شركة الهند الشرقية ، في السنة ١٦٥٢ ، « جوهان فان ريببيك » وكلفته انشاء محطة تستطيع السفن فيها « بلوغ اليابسة بأمان والتمون باللحوم والحضار والماء » . في ٦ نيسان من السنة ١٦٥٢ ، دخل فان ريببيك « جون الطاولة » وأسس مدينة « الرأس » . وفي ٢٠ شباط من السنة ١٦٥٧ أقطع المستعمرون الاول الاحرار املاكاً واسعة . وفي أواخر القرن السابع عشر بلغ الاستعمار سلسلة الجبال الاولى . وأنشأ الانكليز اسواقاً في غينيه والشاطئ الذهبي وبلاد « اشانتي » وبنين . اما الفرنسيون فقد استقروا في

السنغال وجزيرة « غوريه » سان - لويس وفي عدة نقاط من الشاطئ، الغيني .

لم يتم الهولنديون لتبشير البلدين . اما البرتغاليون والفرنسيون فكان التبشير
فشل التبشير شغلهم الشاغل . فبموجب المراسم البابوية منح البرتغاليون امتياز التبشير
ورعاية المؤسسات الدينية ، والخورنيات والابرشيات التي تحدث في المستقبل . طلب بعض الملوك
الزوج مرسلين من ملك البرتغال ، كملك « بنين » في السنة ١٤٨٦ والسنة ١٥١٥ ، وملك
« اردر » في السنة ١٤٨٦ . وطلب المرسلين كذلك ، من فيليب الرابع ملك اسبانيا ، « توكسونو »
ملك اردر ، في السنة ١٦٥٨ . تحققت بعض النجاحات الجزئية . ففي الكونغو ، تنصر الملك
جان في السنة ١٤٩٢ . وأمر حفيده ، الملك الفونس (١٥٠٧ - ١٥٤٠) ، بتحطيم الاصنام
وراسل روما ولشبونة بانتظام باللغة البرتغالية واللغة اللاتينية . اما ابنه هنري ، الذي استقبله
البابا في السنة ١٥١٣ ، فقد أصبح أسقف سان - سلفادور في السنة ١٥٢٠ وكان اول اسقف
اسود . ولكن النجاحات كانت محدودة وصار التبشير في النهاية الى الفشل . اما اسباب هذا
الفشل فيجب البحث عنها عند السود من جهة وعند البيض من جهة أخرى .

ان الملوك السود الذين طلبوا المرسلين ، لم يطلبوهم في اغلب الاحيان الا بداعي المصلحة العليا .
فان ما كانوا يصبون اليه هو تسهيل الملائق التجارية ، وتأمين تجساج المفاوضات للحصول من
الاوروبيين على بنادق ومدافع ، واستمالة قوى خفية مجهولة . فهم لم يدركوا الدين المسيحي ولم
يروا فيه سوى رقية جديدة وفي الكهنة سوى سحرة مهرة من الافضل ان يكونوا لهم لاعليهم .
واذا ما تعمقوا في الدين ، كما فعل توكسونو ملك اردر في السنة ١٦٦٠ ، هالتهم مستلزمات
المسيحية ، كواجب الاكتفاء بامرأة واحدة والزهد في كل شيء ما عدا الله . زد على ذلك ان
الخوف من استمداء كافة ارواح البلاد والخشية من الخروج من المجتمع الزنجي ، قد قاوما في
النفوس الخوف من الموت وامل الحصول على الحياة الابدية بالسير على خطى المسح .

ولم يحسن البيض ايقاظ محبة يسوع المسيح للتغلب على هذا النفور وهذا الخوف . برهن
الاكليروس ، عند البرتغاليين ، عن تصلب واستبداد . فبادر الى ادخال التفتيش ، وزاد من خوف
الهنود وكرهيتهم . وكان من شأن النخاسة وحدها ، وهي منبع وحشية وقساوة وردائل ،
ان تخرج موقف البيض وتعرض كل عملهم للخطر . ففي شيخوخته ، لم يخف ملك الكونغو ،
الفونس ، في مراسلاته مع لشبونة ، اشتمازاه وخمود همة . وبعد وفاته ، اغتاط خليفته ديفغو
من تصرف البيض فطرد الاكليروسهم من ولايته . فتخطى اليسوعيون عين . عملهم التبشيري
مكروهين بعد ان نصروا ٥٠٠٠ زنجي . ولم يبق سوى اسقف وبعض الكهنة البلديين في سان -
سلفادور .

نظر الاوروبيون الى أفريقيا السوداء ، في الدرجة الاولى ، نظرتهم الى مخزن عبيد . وقد
اشتمى العبيد المنقولون الى اميركا ، بصورة خاصة ، الى اربع مجموعات من الشعوب . فقد توزع

الـ « بانتو » ، ولا سيما بانتو « انغولا » ، في كافة أنحاء اميركا المزودة بالزنج . وتكاثر عدد الداهوميين في كافة أنحاء البرازيل وغويانا وغوادلوب والمريتينيك وسان - دومنج . ونقل الـ « فانتى - اشانتي » باعداد كبيرة الى كل مكان ولا سيما الى مناطق غويانا المختلفة . أما « ياروبا » و « بنين » حيث حققوا حضارة جميلة جداً اشتهرت ببرونزياتها ومنقوشاتها العاجية والخشبية ومصنوعاتها الخزفية وبلغت ذروتها بين السنة ١٥٧٥ و ١٦٤٨ ، فقد أرسلوا بصورة خاصة الى كوبا والبرازيل في المنطقة المحيطة بباهيا . وجاء مسلو شمالي وشرقي افريقيا ايضا يجمعون العبيد لآحرامهم وثكناتهم ومشاغلمهم في افريقيا وآسيا الصغرى ، وللهند وجزر السوندي . فقدت افريقيا سوقاً كبيرى صدرت منها المواشي البشرية الى كل ناحية وصوب . لسنا ندرى لعمري من أبعد منهم العدد الاكبر . ولكن الاضطرابات التي نجمت عن الاستبعاد قد اسهمت اسهاماً أكيداً في ركود السودان في نكوصهم .

يمكننا ان نتخذ مثلاً لهؤلاء السود ، الداهوميين الذين كانوا موضوع حضارات افريقيا السوداء الممالك الداهومي التفريق بين درجات الشك . الا اننا لا نستطيع ، من جهة ثانية ، معرفة هذه الشعوب الا في القرن السابع عشر . ففي هذه المرحلة نرى ان قوام مملكة « داهومي » هو منطقة « اومبي » . وتفصل المملكة عن الشاطئ مملكتنا « أويده » و « آردر » . وكانت أويده المرفأ الرئيسى لتصدير العبيد ، وتنافسها في هذا الدور « ازدر الصغرى » او « جودا » . اسس السلالة الداهومية ، سلالة « الاواكونو » ، الملك « داكو » الذي تربع على العرش منذ السنة ١٦٢٠ او ١٦٢٥ حتى السنة ١٦٤٠ او ١٦٥٠ . ومن خلفائه « اكايا » الذي ملك منذ السنة ١٦٧٩ حتى السنة ١٧٠٨ ، و « اغادجا » الذي ملك منذ السنة ١٧٠٨ حتى السنة ١٧٢٩ .

يبدو الداهوميون شعباً تاجراً طامعاً في الكسب . فعلى الرجل المعتبر ، بموجب مثلهم الاعلى ، ان يورث خلفاه فوق ما ورثه من ممتلكات ويعمل بوحى الشرف في الانفاق من أجل النفوذ على الزواج والدفن وعبادة الجدود . وعليه من ثم ان ينتج ويبيع . يسهل التجارة النقد الصدفى المعروف باسم « كوري » . الجميع يتعاملون التجارة ، والمالك يتعاطاها قبل سواه . يبيع محصول نخيله وملحه وعاجه من مسلمي الشمال وممالك الشرق والغرب . ويبيع العبيد بصورة خاصة . وليست الحروب السنوية سوى غزوات لجمع العبيد . الجندي الذي يقبض على اسير يبيعه من الملك بخمسة « كوري » فيبيعه الملك بـ ١٤٠٠ « كوري » من تجار العبيد . فيصبح يمكنه الملك حينئذ ان يتتاع من الأوروبيين أسلحة ثارية ، وحديدأ من الصنف الممتاز جعل مستخرجي المادن السود ينصرفون عن صهر المادن الافريقي ، وقطائف وأنسجة حريرية مذهبة ومفضضة لتقديم القرابين للآلهة . الحروب حروب اقتصادية . ولم يستول الداهوميون على ممالك الساحل في السنة ١٧٢٤ والسنة ١٧٢٦ الا للتخلص من الوسطاء بينهم وبين الأوروبيين .

يبدو ان حمى الانتاج والتجارة قد وجدت لها عوناً في الملكية الخاصة . الملك ، مبدئياً ، صاحب كافة الممتلكات . ولكنه عملياً يمارس هذا الحق . له أملاكه الخاصة ، وللقبائل التي يقارب عددها الأربعمين أملاك جماعية محدودة جداً : أماكن العبادة ، والهياكل المصنوعة من جذوع النخيل . فالملكية الخاصة هي السائدة على ما يبدو . وهي تشمل وسائل الانتاج ، الأراضي والأدوات ، كما تشمل الملابس والبيوت والأثاث .

تتوزع المحاصيل يومياً في الأسواق . كبار المزارعين يبيعون في أسواق جملة من بائعات ثانويات يقصدن أسواق البيع بالتفصيل في « ابومي » و « اويده » . يتفق المزارعون فيما بينهم على تحديد السعر ولا يتزاحمون . زد على ذلك من جهة ثانية ان الانتاج لا يتمدى على العموم امكانات السوق .

للمزارعين والصناعيين اليدويين المستقلين عبيدهم وفداديوهم . العبيد كثيرون في مشاجر الملك والزعماء والنبله وكبار المزارعين ومقارسمهم . يمتلك هؤلاء الاخيريون مزارع تبلغ ٣٠ كيلومترا طولا وعدة كيلومترات عرضا يشغلون فيها العبيد بالشروط نفسها التي يفرضها الاوروبيون على عبيدهم في مشاجر ومقارم العالم الجديد . في المساكن يستخدم عبيد منزليون . أبناء العبيد المولودون في داهومي ليسوا عبيداً بل فداديين يستقرون في الاملاك ويعطون نصف المحاصيل .

يعمل الداهوميون ، بالإضافة الى ذلك ، على العمل المشترك . فان كافة رجال القرية أو كافة أعضاء حرقة واحدة يؤلفون وحدة عمل ، أو « دو كويه » . الدو كويه تحمّر أراضي كل فرد من أفرادها دورياً وتلشد الاناشيد أثناء العمل . اذا ما طلب من الحداد مسحة ساعدته الدو كويه التي ينتمي اليها على تطريق المسحة التي تصبح ملكه الخاص ، فيبيعها لحسابه الخاص ويحتفظ بمكسبها . ولكن اذا ما طلبت هذه الاداة او غيرها من حداد آخر ، فان الحداد الأول يبادر بدوره الى مساعدته مع الدو كويه .

في كل قرية نفر من القناصين يتولون توين القرية باللحوم لان الماشية مفقودة . ولكن هؤلاء القناصين قد احتفظوا ، بالإضافة الى نوع عمل الالفونكينيين ، بمفهوم هؤلاء للطبيعة وبمعتقداتهم القائلة بوجود الروح في كافة الاجسام الحية . القناصون يؤلفون في وسط الشعب الداهومي ، وفي حضارة من عصر الحديد ، فئة اجتماعية تحتفظ بطريقة انتاج قناصي الحضارة النيوليتية وذهنيتهم . يؤلفون مجتمعاً قديماً جداً عرف الديمومة في مجتمع أكثر تقدماً لانهم يستطيعون ان يوفروا له نتاجاً ضرورياً . وفي ذلك دليل على تداخل المجتمعات .

يحتكر بعض النقابات الوراثية حرفاً معينة ، الحاكة وهم ينسجون القطن والرافية اللذين يغزلان في العائلات ، والحياطين ، والنحاسين ، ونقاشي التماثيل ، والحدادين ، ونقابات الخزافات .

الزراعة متقدمة . الرجال ينظفون الحقول بالنار . ثم يحرثون الارض جماعات بمساح حديدية عريضة الشفرة قصيرة المقبض . الشفرة منحرفة بالنسبة للمقبض ويستعملها الشخص بشدها اليه . توفر مزيداً من القوة والضغط وتتيح شق أثلام حقيقية . وللمها تفوق محراث الكيشوا الرجلي انتاجاً . بذر الداوميون الذرة الصفراء ؛ واللوبياء بين جذوع الذرة الصفراء ؛ وأنواع القرعيات على طول الأثلام . وعرفوا مبادئ الزراعات الدورية ، ذرة صفراء - لوبياء - حمص . وزرعوا كذلك الذرة البيضاء والجاورس والقطن . وعاد الى الملك تنظيم الزراعات وفرض نسبها وفاقاً لحاجات التنفيذ والتجارة . وقد فعل الشيء نفسه في حقل الصناعة اليدوية بتحديد عدد المشاريع وتوقيه بين الانتاج والاستهلاك .

الملك يحكم هضبة آيومي وهضبة كانا حكماً مباشراً . اما في المناطق البعيدة فيمين « كابييسيس » يسند اليهم احقاق الحق ، وجباية الضرائب ، وتميئة الجنود من الرجال الاحرار ، والاشراف على الامن ، ورقابة الزراعة ، وتنظيم العمل الجماعي . فكان هؤلاء الموظفون ، كما نرجح ، اشبه بقضاة الكابيتيين .

الملك يتمتع بسلطة مطلقة مبدئياً . مركزه يستازم عدداً من المراسيم . زائروه يخرون امامه سجداً ويقبلون الارض وينثرون القبار على رؤوسهم . الملك يختار خليفته بين ابنائه الكثيرين ، كما يختار زوجاته وسراريه العديداً . فينجم عن ذلك دسائس بلاط كثيرة ودموية . الملك يعيش مع افراد عشيرته ، « ابنا الفهد » . الا أنه شديد الفطنة لا يسند اية وظيفة الى الامراء والاميرات الذين تولد بطالتهم انفلاتاً اخلاقياً مفرطاً . اما الوزراء والموظفون والضباط فيختارهم الملك من بين الطبقات المتوسطة خصوصاً . يفرض مراقبتهم الى زوجاته وبناته من زوجاته اللواتي لسن من عشيرته . ستة عشرة زوجة « كبوسي » يراقبن الزوجات الغريبات او « ناية » . والناية يراقبن كافة الموظفين . يعاون الملك في الحكم جدوده الملكيون . كلما احتاج الى مشورة او مساعدة ، يقتل عبيداً و محاربين وموظفين وافراداً من عائلته وفاقاً لخطورة الظرف ، فيذهب هؤلاء الى العالم الثاني وينبهون ارواح جدوده الملكيين ويستحثونها . ويحمي الملك وينصحه ايضاً الآلهة الملكيون العظماء ، « ماوو » ، « القمر » ، « وليزا » ، الشمس ، اللذان يتعكس نفوذهما على الملك . الا أنه يقصي عن « آيومي » عبادة « سغبانا » اله الارض ، الذي قد يصبح ، بهذه الصفة ، هو وكهنته ، منافسين للملك .

الملك يفرض رسوماً جمركية على كافة البضائع المنقولة والاسواق التجارية . ويحبي ضرائب مباشرة يفضل احصاء الاثابر والمصنوعات الذي يجريه ، في هذه البلاد التي لا تعرف الخط ، بواسطة الحصى في الارجح .

بالاضافة الى الكابييسيس ، يمين الملك في كل قرية رئيساً قابل المنزل يختار من بين حفدة ملك القرية قبل الفتح . ينفذ هذا الرئيس الاوامر الملكية ، ولكن عليه ان يأخذ بعين الاعتبار

رأي رؤساء العائلات الكبرى التي تتألف منها القرية من جهة ، ورأي رؤساء العشائر من جهة أخرى . كل قرية تضم عدة عائلات كبرى تنتسب الى طبقات مختلفة . العشائر موزعة على كافة المحامد « داهومي » وتمثلها عائلات كبرى في العديد من القرى . ولكنها تحتفظ بالوحدة والقوة بقيام اكبر الذكور سناً على رأسها يعاونه مجلس رجال ونساء من الجيل نفسه يتخذون المقررات باسم العشيرة .

تعاون الارواح كل داهومي في حياته اليومية . قبل زراعة الحقل يفحص احد السحرة اذا كانت روح الحقل متلاطفة . في الايجاب ، تقدم لها القرابين . اذا انتج الحقل عدة حصائد متوالية ، تحصل الروح على ترقية . يشيد لها معبد صغير عند اقدام شجرة نخيل ، وترفع الى منزلة اله القرية .

يحمي كل داهومي جدوده الذين يؤدي لهم واجبات العبادة . لكل انسان ثلاث نفوس يمنحها « ماو » : اولاً ، « سيميكاكاتو » ، القرين الذي يؤلف جسم الانسان ؛ ثانياً ، « سيميديو » ، الروح الشخصية التي تعطي القرين شكل الانسان ؛ اخيراً ، « سيليدو » ، « ماو » الذي يقيم في جسم كل انسان ، وهو انبثاق الهي ، وصوت داخلي يمنبه الانسان الى ما يجب عمله في فترات معينة . عند وفاة الفرد تعود السيميكاكاتو الى القوى الاحيائية الكبرى . وتعود السيليدو الى « ماو » . اما السيميديو فتبقى وتندوم . ان مفهوم النفس هذا قريب جداً من مفهوم الاوروبيين المثقفين الذي راج في القرن السادس عشر . السيميديو تجتاز الانهر بعد ان تدفع الاجور المتوجبة لصاحب البطيخ . تبلغ الفردوس ، وتدخله اذا اقام الاحياء من عائلتها بالاحتفال المناسب ، ثم تلحق بالجدود ، وتؤله حين يجبي رئيس العائلة العائش على الارض احتفالات التآليه ، وتدخل الزون العائلي . وان النفوس المتلصقة من الجسد ، التي تغدو اعظم قوتة منها حين تكون في قيد الحياة ، تصبح حاميات العائلة الكبرى ، وتؤدي لها واجبات العبادة .

ويحمي كافة الداهوميين اخيراً كبار آلهة الزون الساهوي او الارضي . يوجد كبار الآلهة هؤلاء في كل مكان من الفضاء ولكنهم يأتون في فترات معينة الى اماكن خاصة حيث يستطيع الانسان الاتصال بهم والتاس تدخلهم ، وهو هذا الاعتقاد ما افضى الى عبادة « فودو » التي اشار اليها الكبوشيون منذ السنة ١٦٠٦ في مملكة اردر ، والتي وصفها غيرم في داهومي . « فودو » إله يستمر وجوده في الفضاء ولكنه مع ذلك اختار له مائتين او ثلاث مائة مكان مختلف ، تحت الجرار ، حيث يستطيع الانسان مناداته وتوجيه الاوامر اليه وارغامه على العمل . والاله نفسه يعين المكان الذي يريد الإقامة فيه . اذا مات احد قروخ النبات في بيت من البيوت ، استدعي عراف على الفور ، لتعيين الاله الذي يريد معبداً . فيشيد المعبد في مكان قريب . ويعين الملك احد افراد العائلة كاهناً يكون كهوته وراثياً .

وقد درجوا ، في تحديد مكان الفودو ، على رش الماء وبذر الذرة الصفراء في ثلاث نقاط من

مساحة مثلثة الزوايا بغية استئذان الارض . في كل من هذه النقاط يوضع اناء يحتوي على حصص واوراق خاصة ، ويحتوي الاناء الاول على بعض ماء البحر ، والثاني على بعض زيت النخيل ، والثالث على بعض الكحول . في وسط المثلث يوضع رأس حيوان غريب . فقتلى حينذاك صيغة تكريسية ومحدد بالضبط كافة المهام المطلوب من الاله ان يقوم بها . ثم تغطى الآنية الثلاثة ورأس الحيوان بيجرة كبرى . وكانوا يحتفظون بكل عناية بالسائل الذي استخدم لغسل رأس الحيوان . فاذا ما احتاجوا الى مساعدة ، رشوا الجرة بقليل من هذا السائل مستحضرين الاله . فيأتي حالا الى الجرة ، ويطلبون منه ما يريدون ، فيلبي الطلب في اليوم نفسه ، حتى ولو كان الطلب قتل احدهم .

اقتضى درس اوليات عبادة الفودو . وكان هذا الدرس يستغرق ستة او سبعة اشهر ينمزل خلالها الطالب في مدرسة خاصة . وكانت مرحلة الدرس مرحلة خطيرة لان الاله قد لا يقبل الموعوظ ويمتته . يتعلم المرشح لغة العبادة ، والانشيد ، والرقصات الطقسية التي تتيح الاتحاد بالله ، والمحرمات الغذائية ، ويحافظ خلال فترات الدرس على طهارة تامة . حينذاك يدخل الفودو الى رأس الطالب الذي يموت روحيا ، ثم يعيا حياة جديدة بواسطة الاحتفالات التي تنهي مرحلة الدرس . وبعد تحماده بالاله يشارك فودو قوته مشاركة دائمة . وما ان تقرر طبلة الرقصات حتى يأتي الاله ويسكن في من وقف على مبادئ عبادته . فيركض هذا الاخير ركضاً جنونياً ويرقص ويصبح صيحات حادة ويشعر بالحماد بالاله . ولكن الفودو ، على نقيض ذلك ، يكون تحت تصرفه اذارش الجرة بالماء وتلفظ بالكلمات المناسبة . فنحن اذن هنا امام حماد صوفي حقيقي ، وبالتالي امام ديانة ارفع من ديانة هنود اميركا .

الزئوج في اميركا
ادخل الزئوج الى البرازيل منذ السنوات الاولى من القرن السادس عشر
لمساعدة الهنود على قطع الاشجار وجرحها . وما ان ظهرت مفارص
قصب السكر حتى استوردوا باعداد كبيرة . في السنة ١٥٣٣ ، انشأ الحاكم « مارتين افونسو »
اولى مطاحن السكر في جزيرة « سانتو - فيسنته » امام مدينة « سانتوس » الحالية . ثم
حذا حذوه الحكام الآخرون والاسياد .

احتل السكر بسرعة مركزاً متزايد الاهمية في الاقتصاد الاوروبي . ففي اواخر القرن
الخامس عشر ، كان عقاراً يباع بأسعار مرتفعة . وفي اواخر القرن السادس عشر غدا استهلاكه
يومياً في البرتغال ، عند النبلاء والبورجوازيين ، بشكل حلاوى مختلفة ، وتجارقه شاملة .

ان اكبر كمية من السكر وفرتها في البدء جزر شرقي المحيط الاطلسي : اسور ، مادير ،
جزر الرأس الاخضر ، وجزر خليج غينيا ، جزيرة الامير ، وجزر القديس توما . اما البرازيل
فكان دورها ثانوياً . ولكن البرازيل لعبت ، منذ السنة ١٥٨٠ تقريباً ، دوراً متزايد الاهمية ،
وما لبث انتاج الجزر ، بسبب منافستها ، ان انخفضت قيمته المطلقة . ويفسر نجاح البرازيل

بتدلي سعر كلفة السكر . فليس من حاجة هنا للري ، وتسميد الاراضي الواطئة التي تنتج قصب السكر كل ستة اشهر طيلة ثلاثين سنة ونيف . وتنتجها الاراضي المرتفعة اربع او خمس دورات متوالية دون تسميد . وتيسر للبرازيليين ان يزرعوا قصب السكر في حقول واسعة كانت اكلافها العامة اقل ارتفاعاً نسبياً من اكلاف الحقول الصغرى في الجزر . اذف الى ذلك اخيراً ان الديدان التي غالباً ما اثلقت قصب السكر في الجزر لم تصل الى البرازيل .

كان في البرازيل ، على ما يقال ، ٦٠ مطحنة للسكر في السنة ١٥٧٠ . وحوالي ١٥٨٣ - ١٥٨٥ ، تراوح عددها بين ١١٥ و ١٣٠ ، كما جاء في كتب المؤلفين . ولعله بلغ ٢٣٥ و ٣٤٦ بين السنة ١٦٢٨ والسنة ١٦٣٩ . وربما كان في البرازيل ، حوالي السنة ١٧١٠ ، بعد نقصان الذي يرد الى الحرب الهولندية ، ٥٢٨ مطحنة سكر تقريباً .

ولكن لا مغارس ولا مطاحن سكر بدون الزوج . وفي تزايد عدد هذه المغارس والمطاحن يكن السبب الاكبر لنقل زوج افريقيا الى اميركا . منذ « السنوات الخمسين » في القرن السادس عشر ، غدا نقل السود الافريقيين في اتجاه البرازيل تصديراً بالجملة . وبين السنة ١٦٢٥ والسنة ١٦٥٠ ، وبعد استيلاء الهولنديين على باهيا في السنة ١٦٢٥ وبرنمبوك في السنة ١٦٣٠ ، وازدياد حركة القرصنة الهولندية في الاطلسي ، واحتلال الهولنديين لـ « انغولا » في السنة ١٦٤٠ ، انتشرت في البرازيل « مجاعة السود » . ولكن التصدير باعداد كبيرة ما لبث ان تجدد بسرعة . اصدر البابا اوربانوس الثامن ، في ٢٢ نيسان من السنة ١٦٣٩ ، رقياً بتحضير الرق يجمع اشكاله . ولكن الرقم لم يسفر عن اية نتيجة .

كانت النخاسة بين افريقيا والبرازيل وقفا على البرتغاليين . فقد توجب على البرتغاليين تأدية رسوم معينة للتاج يجيبها العملاء المنكحون احياناً ، وتلازم غالباً بالتعاقد مع ملتزم يحتكر النخاسة . فيعطى هذا الملتزم اجازات للنخاسين الذين يدفعون له الرسوم .

النخاسون ينقلون « قطع » العبيد . اما « القطعة » فزنجي تراوح منه بين ١٥ و ٢٥ سنة ، ويبلغ ١٤٨٠ م طولاً ، ويتمتع بصحة جيدة . بين الثامنة والخامسة عشرة ، وبين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين ، يقتضي ثلاثة زوج للحلول محل القطعة . اما دون الثامنة وفوق الخامسة والثلاثين ، فيقتضي اربعة زوج . وقد استحصل النخاسون على العبيد عن طريق مفاوضة الزعماء الافريقيين الذين يبيعون امرى الحرب . لذلك عمد النخاسون الى الدبلوماسية بشتى اساليبها ، فشجعوا النزاعات واضرموا نيران الخلافات حول وراثة العرش . ولكن الزوج المنقولين لم ينتموا الى الطبقات الدنيا في المجتمع الاسود فحسب . فان شحنة الزوج اشبه بمملكة زنجية مصفرة تضم مهزومي حرب وراثة عرش من الامراء وكبار الموظفين ، ورجال الحاشية ، والمهاريين والمزارعين . فوصل من ثم الى البرازيل زوج متطورون فكرياً ، ضليعون في امور الادارة والقيادة والتنظيم ، جنود وعمال اكفاء ، اي شعوب مصفرة بلغت مستوى حضارياً رفيعاً .

استخدم النحاسون في افريقيا وسطاء زنوجاً (تانفوسمو) يقومون بالمقايضة في الداخل ويلجأون عند الاقتضاء الى الحيلة والعنف . واستخدم اصحاب المزارع في انغولا بعض عبيدهم ، البومييرو الزنوج او الحلاسين ، القساء والمفسدين . وكان التانفوسمو والبومييرو يفاوضون عملاء الامراء الافريقيين (لنادو) ، وهم خلاسيون مسيحيون يعتبرون انفسهم بيضاً ويقومون في بلاط الامراء ويبيعون عبيد هؤلاء . اما الثمن فبارود او اسلحة من البرتغال ، او ادوات حديدية ولعب من البرتغال او الهند الشرقية ، او « زمو » او اصداف اخرى تستخدم نقداً ، او « بانو » (اقشعة) تصنع خصيصاً لهذه الغاية ، ترسم عليها اشعة وتكون لها قدرة تحريرية . وكانت قيمة البانو ١٠٠ ريال ، اي ان عبداً ثمنه ١٢٠٠٠ ريال يشتري بـ ١٢٠ بانو .

في السنوات الاولى من القرن السابع عشر ، صدر مرافقاً لواندا سنوياً بين ١٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠ عبد ينقلون في سفن ذات اربعة صوارق تراوح حولتها بين ٨٦ و ١٣٠ برميلاً ، يكسب فيها ٥٠٠ عبد تقريباً . وكان الملاحون يستفيدون من الرياح الجنوبية الشرقية التي تهب بين دائرتي الانقلاب من الشرق الى الغرب ، ثم من التيار الاستوائي الجنوبي ، فتستغرق الرحلة ٣٥ يوماً تقريباً من انغولا الى برنمبوك ، و ٤٠ يوماً الى باهيا ، و ٥٠ يوماً الى ريودي جانيرو . ولكن نسبة الوفيات اثناء الرحلة كانت مرتفعة جداً . فقد حدث احياناً ان نصف الزنوج لم يبلغوا اميركا . ولم يرسل الباقون على قيد الحياة الى البرازيل وحدها . فبين السنة ١٥٢٤ والسنة ١٥٢٦ ، نقل احد النحاسين ١٧٧٠٣ قطع ، ارسل منها ٧٤٥٤ قطعة الى البرازيل ، و ١١٨٤ الى جزيرة القديس توما و ٩٠٧ الى الهند القشتالية في المنطقة الاسبانية . واعدت تصدير زنوج البرازيل بالثلاث سنويا الى منطقة « ريودي لابلاتا » الاسبانية . زد على ذلك اخيراً ان الاسبانيين والفرنسيين والانكليز كانوا يتعاطون التهريب ويزاولون المقايضة في المنطقة البرتغالية نفسها . كان في البرازيل ، حوالي السنة ١٦٠٠ ، بين ١٣٠٠٠ و ١٥٠٠٠ زنجي و ٢٥٠٠٠ ابيض و ١٨٠٠٠ هندي « متمدن » اي متنصر . ولكن عدد العبيد الذين دخلوا البرازيل بين السنة ١٥٧٠ والسنة ١٦٧٠ يقدر بـ ٤٠٠٠٠٠٠ ، اي بمعدل ٤٠٠٠ في السنة . الا ان معدل حياة الزنجي في البرازيل لم يتجاوز السنوات السبع .

وفر الزنوج القسم الاكبر من اليد العاملة في مزارع ومطاحن السكر . فقد عمل فيها ٧٠٪ منهم . وقد استخدم فيها ، بصورة خاصة ، زنوج انغولا من الباتو وهم قصيرو القامة ، وزاهرو البشرة ، وذوور ذلف ، واقل نتوءاً في الفكين ، ومتناسبو الاعضاء ، ومزارعون ممتازون لا حد لقدرتهم على تحمل التعب . اما الزنوج الباقون فقد استخدموا خداماً وطهاة وحوذيين وحمالين ، الخ ، وكانوا داهوميين بصورة خاصة ، اكبر قامة ، واجمل جسماً ، يتميزون بحسهم وشدة حميتهم .

في مطحنة السكر ، كان مدير الانتاج ، والنجار ، والعمال الاختصاصيون ، والمرشد وامين السر ، ورؤساء العمال ، والوكيل ، من البيض . الزنوج يزرعون قصب السكر ويحجمونه

وينقلونه ويسحقونه في ارجاء المطحنة ويقطعون الاخشاب للافران وينقلون عصير القصب الى القدور لتصفيته في ثماني مراحل متعاقبة ، ويضعونه بعد ذلك في آنية خزفية مجففة تعطي قالب السكر شكله المميز ، ويجمعون السكر غير الصافي ، ونقل القصب الذي يستخدم للتغذية والازباد التي يستعمل بعضها لتغذية المواشي والبعض الآخر لصنع الاشربة الكحولية ، « غارابا » و « كلاروس » .

استخدمت مطحنة السكر في كلية سانت - انطوان ٨٠ زنجيا في السنة ١٦٣٥ . وكان رأس مالها آنذاك ٥٠٠٠٠ كروزادو . الاجهزة تمثل ٢٠ ٪ ، والثيران والعربات والزوارق ٤٠ ٪ ، رأس المال الاساسي ٢٠ ٪ ، والزئوج ١٦ ٪ . ويتضح ان الزئوج لا يمثلون الا نسبة ضئيلة من رأس المال ، في حال انهم الشطر الاهم فيه . فلولا مهارتهم التقنية وقوة سواعدهم لما امكن تحقيق شيء البتة .

معدل الانتاج السنوي ٧٠٠٠ كيس من السكر الابيض و ٣٥٠٠ كيس من السكر غير الصافي . نصف هذه الكمية يعود للمزارعين . اما النصف الآخر فيوفر « لسيد المطحنة » مجموع دخل يقدر بـ ٣٨٧٤٠٠٠ ريال . اجور اركان الارادة تبتلع منه ٢٤ ٪ ، والمحروقات ٢١ ٪ ، والواني التحاسية ١١ ٪ ، والزوارق ١٠ ٪ ، والاعمال ٨ ٪ ، والنفقات المختلفة ١٤ ٪ ، ورديف الموتى من الزئوج وغذاء الاحياء (لحوم واسماك) ١٠ ٪ .

الكسب الصافي يبلغ ٥٦٨٣٦٧ ريالاً ، اي ٣ ٪ من رأس المال الاساسي و ١٣ ٪ من المجموع . وجلي انه كسب محدود جداً . ولو اضطر « سيد المطحنة » الى تشغيل يد عاملة مأجورة ، لما استطاع المشروع الى العيش سبيلاً . فالمشروع مدين بوجوده لليد العاملة العبدية .

أتاح عمل العبيد من ثم ، في البرازيل ، انما رأسمالية صناعية في صناعة غذائية ثقيلة تسيطر على الاقتصاد البرازيلي . وليس التجار من يمولون هذه الصناعة . السكر هو محصول البرازيل الاول . انتاجه وتصديره يوفران القدرة على الشراء .

لعبت البرازيل دور المنطقة الاقتصادية المسيطرة بالنسبة لانغولا وغينيه . فاذا تزايد طلب السكر البرازيلي في اوروبا ، طلب البرازيليون عبيداً وعاجاً وجلوداً من غينيه وانغولا . واذا هبطت نسمة تصدير السكر البرازيلي ، انهارت تجارة انغولا وغينيه . ولكن البرازيل من جهتها تلعب دور المنطقة الاقتصادية المسيطر عليها بالنسبة لاوروبا ، المنطقة الاقتصادية المسيطرة . فان انتاج البرازيل من السكر مرتبط كل الارتباط بالاستهلاك الاوروبي وبقدرة لشبونة على بيع السكر من امستردام التي يوزع منها على كافة انحاء اوروبا حتى بولونيا وبوهيميا وهنغاريا . اذا حدثت اوروبا من استهلاكها ، دخل الاقتصاد البرازيلي في ازمة . البرازيل هي الراجحة . فالصناعة الثقيلة البرازيلية تنتج اصلحة الرأسمالية التي يشرف عليها « المسيحيون الحديثون » من اصل اسرائيلي . واوروبا هي الراجحة ايضاً . ففائدتها من البرازيل تفوق الى حد بعيد فائدة

البرازيل التي لا تحصل مقابل سكرها على عناصر الانتاج الضرورية ، اي الرجال ورؤوس الاموال ، التي قد تحتاج اليها . اما كبار المستفيدين من الصناعة البرازيلية الثقيلة فهم تجار السكر البرتغاليون والهولنديون الذين يبيعون المصنوعات في افريقيا والعميد في البرازيل ويمتكرون في النهاية هذه التجارة المثلثة الزوايا . فالرق الزنجي في البرازيل هو من ثم شرط نظام اقتصادي كامل ، وقاعدة حضارة .

ان زوج حضارة عصر الحديد ، بنقلهم الى البرازيل تقنياتهم في الزراعة وتربية المواشي وصناعة الحديد والعمل المنزلي ، وبتعمدهم تطبيق التقنيات الاوروبية ، قد اتاحوا نمو حضارة عقارية قبلية . فان سيد المطحنة يعيش في البطالة متكلا على العميد الزوجي يحمونه ولبسونه ثيابه ويفلونه ويعدون عنه الذباب . « سيد المطحنة » لا يستخدم يديه الا لتلاوة سبحة اللب بالورق واخذ قبصات السموط واستعمال السيف والخنجر . وغالبا ما يجهل القراءة والكتابة ، ويستخدم امين سر . دوره هو الادارة والقيادة . منذ سن العاشرة يتزيا بزي الرجال ويحمل خنجرأ كبيراً على جنبه ويفرض ارادته على صفار الزوج وينظم الالعاب ويضرب ويعذب ويؤلم . وحين يبلغ اشده ، يصبح ضابطا ممتازا يبرهن عن بسالة في الحروب ضد الهنود والفرنسيين والهولنديين . يقود الى المعركة فرقا من العميد الزوجي تحارب بشجاعة واخلاص . اما الفتيات فيربين مع الزنجيات الصغيرات ، ومع الـ « موكاما » ، القينة السوداء . وبتعودن توزيع الاوامر بصوت عال ويصبحن قاسيات وشرسات ، وظالمات احيانا . يتزوجن في سن مبكرة ، في الثانية عشرة او الثالثة عشرة او الرابعة عشرة ، لان الشغل الشاغل هو تركيز الاراضي ومطاحن السكر . ولكنهن أعجز من ان يلعبن دورهن كزوجات وامهات ، فيحتجن الى الزنجيات لارضاع الاولاد وتربيتهم وتحضير الطعام وتدبير المنزل .

لما كانت الارباح محدودة ، كانت الحياة ، في المنازل السيدية الكبرى ، حياة فقيرة نسبيا . فالاسياد يرتدون في منازلهم قيصاً وصدرة ذات كمين ، والعميد اسحالا . الغذاء زهيد والاثاث محدود ولكن التفخيل شيء مألوف في الاحتفالات الكبرى

لم يبد الزوج اي انزعاج من حياتهم في اقليم البرازيل الاستوائي . فقد الفوها بسهولة . كانوا جذلين وثرارين وحسني المعاشرة وسريعى البداهة وضحوكين ومنفتحين ، فبرز التضاد بين سلوكهم وسلوك الهنود العابسين الحزاني المنكشين على انفسهم . برهنوا عن قيمة عقلية حقيقية ومزيد من المبادهة الشخصية واهلية للتنظيم وقوة ابتداعية ومهارة . اذا ما أرسلوا الى المدرسة ، سبقوا التلاميذ البيض في التحصيل .

لم يقطعوا اتصالهم بافريقيا ، بل استمروا في استحضار مصنوعات دينية وكثيراً من الحاجيات الشخصية : جوز الكولا ، والكوري ، والزيت ، والاقمشة ، فانتقلت من افريقيا الى البرازيل تقاليد وافكار وممارسات دينية . ان الزوج « افرقوا » الساحل البرازيلي .

ان الرق أذل الزوج . فقد قضى البيض وقتهم في فض بكارات العذارى من السود ومضاجعة الزنجيات ، العبدات اللواتي لم يحررهن على المقاومة ، هذا بصرف النظر عن اولئك اللواتي كن يهدن لهم السبيل لذلك . وقضت مصلحة الابيض من جهة ثانية بانجاب العبيد وتأمين اليد العاملة . ولكن الزنجيات غالباً ما فحن البيضاوات جمالا واستملن البيض يجاذبين . فلم يكن عسيرا على السودانيات والداهوميات ، المتميزات بقدم مياس وهيبة ملكية وثديين ناتئين تحت القميص واسنان لماعة ووجه متفغم ، ان يتفلبن على البيضاوات المحبوسات في منازلهن ، الامهات في سن مبكرة ، الداويات في الثامنة عشرة ، المعروفات ببهشرتن الصفراوية واسنانهن المتلفة وحركاتهن المتليكة ، وبدانتهن المبكرة وذقنهن المزوج .

يستدعي الأبيض الى منزله اولاده من سراريه السوداوات ويحلبهم على مائدته الى جانب اولاده من زوجته البيضاء . وتقضي السرايري والمرضعات حياتهن في منزل السيد . يعتبرن واولادهن من افراد العائلة ، ويخصصون بنصيب في الوصيات ويعتقن على العموم بعد وفاة السيد . بالاضافة الى الخدام الزوج ، عاش هكذا حول السيد بين ستين وسبعين شخصاً من غير البيض . لم يكن الدين الكاثوليكي مستنيراً ولكن الايمان كان حاراً ، لان هذه الاخلاق قد بدت طبيعية جداً . لا بل ان اعضاء الاكليروس ، باستثناء اليسوعيين ، قد سلكوا سلوك اسياد المطاحن وكان لهم سراريهم الدائمة والمؤقتة . كان الملمانيون من البيض والزواج اتقياء جداً . كان كل العبيد منصرين ، وكان على السيد ان يقدمهم الى الخورنية بعد تعليمهم الصلوات .

وقد رغب العبيد في ان يكونوا مسيحيين لان غير المسيحيين قد اعتبروا وكأنهم بهائم . واصبح بعض العبيد مسيحيين مثالين ، وقضى بعضهم حياتهم في الصلوات . ومنهم من اعلنت قداستهم ، كالقديس « بنديتو » .

بيد ان بعض العبادات الافريقية قد عرفت البقاء متداخلة مع المعتقد الكاثوليكي او متنكرة به . فان عبادة الفودو مثلاً قد بقيت مزدهرة . وانتشرت في الاملاك الكبرى جمعيات من عبدة الالهة . وبشر بعض الزوج بالاسلام واحرزوا بعض النجاح في اكواخ العبيد باظهارهم الاسلام ديناً يعارض دين الالهياد . وجملة القول ان العبيد المستوردين باستمرار قد حافظوا على المعتقدات والعبادات الافريقية .

ادخل الطهاة الزوج على اطعمة البيض مواد جديدة ، زيت النخيل ، والفلفل ، وتوابل اخرى مختلفة . وادخلوا اصناف مأكولات جديدة . ولطفت المرضعات السوداوات اللغة البرتغالية التي استغني فيها عن بعض الاحرف المضاعفة وحورت بعض مفرداتها . وادخل الزوج بعض التعابير الجديدة وبعض الصبغ الصرفية الجديدة ، وجعلوا الفكر البرتغالي بروايات واساطير وخرافات افريقية .

اضف الى ذلك ان الاله كويلومبو ، او الزوج الفارين ، قد عدلوا الهنود العبادات

الاوروبية . التجأوا الى مناطق البرازيل الوسطى التي لم يبلغها المرسلون قط ، فعملّموا الهنود اللغة البرتغالية ومبادئ الدين الكاثوليكي والتقنيات الزراعية وطرق تربية الطيور الداجنة وزراعة القطن وصناعة الاقمشة . وفي « ماتسو - غروسو » ادخلوا فن الحدادة وتربية المواشي فكانوا بذلك عوامل حضارة نشيطة .

في المستعمرات الاسبانية والفرنسية والانكليزية ادى دخول السود الى نتائج ، لا متماثلة ، بل متشابهة ، وآل الى نشوء حضارات من نوع واحد . فلا داعي من ثم الى الكلام عن هذه النتائج وهذه الحضارات في مثل هذا الكتاب .

وهكذا فان الاوروبيين قد اوجدوا ، مع سود حضارة العصر الحديدي ، حضارة جديدة . وانما حقق الاوروبيون خير نجاح مع شعوب حضارة عصر الحديد . فان حضارة السكر هذه نجح حققه البيض والسود على السواء ، الاوروبيون والافريقيون . وكان الافريقيون عوامل نشر حضارة اوروبية افريقية ، اوروبية الطابع ، في داخل القارة الاميركية . فكانت القارة الاميركية من ثم ، خلال هذين القرنين ، حقلاً فريداً للتلقي العروق والحضارات ومكاناً نادراً للاختبارات الاجتماعية . فان حضارة اطلسية متمدة المميزات الخاصة تصل بين شاطئي المحيط .

الكتاب الثاني

أوروبا والعالم الجديد

كان هدف أوروبا ، خلال قرنين كاملين بلوغ آسيا . فالوصول الى الهند والصين واليابان ، واستثمار ما فيها من موارد طائلة ، حل سكانها على اعتناق المسيحية ، والقيام بمركلة التفات على الاسلام ، من وراء ، والعمل على سحقه بحيث لا يبقى على الارض سوى ايمان واحد وحضارة واحدة ، تلك كانت الغاية الاولى والاخيرة ، والحلم الاسمى البعيد الذي راود خواطر الاوروبيين بكثير من الاغراء .

فقد حلت أوروبا بتحقيق تبدل كامل بأخذ بتلابيب آسيا . ففي الوقت الذي تم لها التغلب على الصعاب ونجحت محاولتها في الكشف عن العالم الجديد واستصفاء خيراتاه ورفع لواء المسيحية في ارجائه وطبعه بطابع أوروبا ، بقيت آسيا الهدف الاكبر ، شبه مغلقة ، يصعب النفاذ اليها . كل شعوب أوروبا : من البرتغاليين اول من اسسوا في القرن السادس عشر اول امبراطورية اوروبية شملت بحار الهند والصين ، الى منافسيهم ومزاحمهم الاسبان ومن جاء بعدهم او خلفهم في هذه الرسالة من هولنديين وانكليز وفرنسيين ، في القرن السابع عشر ، واخيراً الروس الذين اطلوا ، من سيبيريا على مشارف الصين الشمالية ، بعد عام ١٦٤٠ ، كل هؤلاء وارثك اضطروا ان يقنعوا ببعض غرسات شتلوا بها سواحل القارة الآسيوية ، ممثلة بهذه الوكالات التجارية، وهذه الحصون والمعازل، وهذه الرسائل الدينية، فقتنوا من مسعاهم وحلمهم العريض، بالتجار مع سكان البلاد ، إن هم استجابوا لهذا المطلب ورضوا بالتعامل ، كما اقتنوا باعتناق قلة ضئيلة من سكان البلاد ، المسيحية . آسيا هذه التي تحرقت قلوبهم بامتلاكها كفاهم ان يمتصوا خيرات بعض اطرافها ، وصاحب الحظ بينهم من قبيض له التجول في ارجائها ويضرب في مجاهلها ، فلم يبدلوا منها الا القليل ، في القليل من بعض مظاهرها . وبقي ما اصابهم من فشل وخسف ، سراً مطبقاً يحاول المؤرخ ان يكشف ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، عن اسبابه الخفية .

obeikandi.com

الفصل الأول

أوروبا والاسلام

١ - الاسلام

جاء البرتغاليون والاسبانيون البحار ، مشرقين ومغربين ، تفادياً منهم للاسلام الذي كانوا يجدونه اينما اتجهوا وفي اي مكان وطأته اقدامهم . وقد حالقهم النجاح . ففي دورانهم حول جنوبي افريقيا ، وايغالهم بمبدأ الى الغرب ، انما رموا الى الالتفاف حول المسلمين واخذهم من الورا ، اذ انهم اينما اتجهوا ، وأنى حلوا ، انتصب المسلمون امامهم . وقد اتضح للاوروبيين ان الاسلام يؤلف قوة اضخم مما ظنوا ، وهي قوة آخذة دوماً بالانتشار والامتداد والتوسع . فمن المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي ، ومن شطآن المغرب الاقصى الى هذه الجزر التي تقيض بالتوايل حتى في بكين نفسها وفي هذه الفيافي والسباسب التي تحيط بالعالم القديم إحاطة السوار بالمعصم : من الصحراء الكبرى والمغرب والجزيرة العربية وآسيا الصغرى وفارس وافغانستان والتركستان ، ومن الشمال الغربي ، من الصين ومن مقاطعة كنصو حيث يؤلفون جماعات كبيرة ، ومن سو - تشو مروراً بالجماعات التي يزخرها التركستان الصيني الى ما وراء لان - تشاو وننغ - هبا حتى مشارف سي - نغان ، وفي آسيا الموسمية ، والمحيط الهندي ، في بنتام وفي جنوبي الصين ، في يونان وكوانغ - سي ، وفي كوانغ - تونغ حيث كان عددهم يتناوح بين ٢ - ٣ ملايين نسمة ، وفي مرفأء الصين ، وفي الحواضر التجارية الكبرى في الصين حيث اقبلت قوافل التجار المسلمين وأسست لها مجتمعات تنعم بالكثير من الامتيازات والانعامات والنفوذ ، اينما اتجه البرتغاليون والاسبانيون ، وجدوا امامهم قائمة ، راسخة ، دولا وامارات اسلامية ، ومرسلين مسلمين ، وتجاراً مسلمين من جميع العروق والاجناس يعدون بالملايين . ففي بلاط امبراطور الصين نفسه ، وجد المرسلون

قيام الاسلام
وحضوره في كل مكان

اليسوعيون الذين جاؤوا يحاولون حمل الامبراطور على اعتناق المسيحية ، انفسهم وجهاً لوجه مع المنجمين وعلماء الفلك المسلمين الذين واجهوا العالم الاوروبي بالعالم العربي ، كما جابهوا المسيحية ، بالديانة الاسلامية . وهكذا بدا لهم الاسلام كلياً الحضور حتى ان الاب لاثيز ، مرشد لويس الرابع عشر أيقن بان كل آسيا انما هي اسلامية .

حيوية الاسلام وانتشاره سبق للاسلام وانتشر ، كالشهاب الخاطف ، في آسيا وافريقيا ، في هذه الحقبة التاريخية التي سبقت عهدنا هذا . وهذا المد لم يكن ليتوقف . وطاقة الاسلام على الانتشار والتغلغل لم تكن لتنضب . فقد استمر الاسلام في مده الصاعد ، جازفاً في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، متدفقاً نحو الجنوب بين قبائل السودان . كثيراً ما تم هذا التغلغل بالفتح تقوم به شعوب وقبائل إسلامية ، او زعماء وملوك وطنيون ، ما كانوا يمتنعون الاسلام حتى يفرضوه فرضاً على جميع رعاياهم ، وقد قيل : الناس على دين ملوكهم . ففي مدن مقاطعة هاووساس ، في النيجر ، التي دخلها الاسلام في القرن السادس عشر ، وزازون ، وغوبيس وكستينا وبيرام ، استمر الاسلام في انتشاره في الوقت الذي كان فيه سكان الريف يستمسكون بمعتقدهم الدينية . ففي مملكة أوادات ، يبدو ان أسرة تونجور الملكية الاسلامية تمكنت ، في مطلع القرن السادس عشر من ان تحل محل الامراء المحليين في اقاليم كثيرة ، وبذلك فتحت ، في مطلع القرن السابع عشر ، الباب على مصراعيه ، امام رعاياهم ، لاعتناق الاسلام . واستطاع احد علماء المسلمين يدعى عبد الكريم ، ان يتغلب ، بين ١٦١٠ و ١٦٥٣ على سلطان تونجور . وفي دارفور ، تمكن السلطان سلّوم سلمان ، في القرن السادس عشر من انتزاع السلطة من احدي الأسر المالكة من قبائل تونجور التي كانت على الوثنية . وهكذا تمت السيطرة على مقاطعة كردفان التي كان سكانها على الوثنية ، لقبائل الغويا المسلمة ، الى الشرق من تشاد . وبين ١٥٠٠ و ١٥٦١ ، تم إنشاء سلطنة ، بكيرمي على يد غزاة فاتحين . وفي عهد الملك عبدالله (١٥٦١ - ١٢٠٢) راح الامراء البكيرميون يمتنعون الاسلام . وفي القرن السابع عشر ، قام اقوام رعاة من قبائل *Peuls* ، في مقاطعة فوتا جالون ، بهاجرون ، بحركة واسعة ، من مقاطعتي السنغال وماسينا ، ليستقروا في بلاد ماندينغ ، حيث تخلى لهم الاهلون عن اراضي واسعة تصلح لرعي الماشية . وقد تسلل معهم الى المقاطعة المذكورة ، مسلمون من فرقة القدرية من مدينة تمبكتو وشداهايا حملوا الكثيرين من حملتوا بين ظهرانيهم ، على اعتناق الدين الاسلامي . وهكذا لم تلبث ان عرفت قبائل «البول» في فوتا جالون ، بعصبيتها الدينية الشديدة ، وراح زعمائها ينظمون رجالهم للجهاد ، فاستطاعوا ، عام ١٧٢٥ ، ان يؤلفوا دولة اتحادية ، من هذه الولايات السبع تحت ادارة حاكم مستقل ليحملوا الوثنيين على اعتناق الاسلام . ثم اختاروا لهم زعيماً نصبوه رئيساً للاتحاد . وقد جرت ، على نطاق اضيق ، إرتدادات في مقاطعة فوتا تورن الواقعة عند نهر النيجر الاوسط ، وبين سكان ماسينا . وهكذا تمكن الاسلام من

التطفل بعيداً في أفريقيا السوداء . وسجلت ارتدادات إسلامية كثيرة بين سكان الغابات في الفيتية ، المطلة على المحيط ، ومع ذلك بقيت جامير غفيرة ضخمة على الوثنية ، بين سكان مقاطعة ماندنغ ، ألفت من وجودها ومن تمسكها بعبادة الأرواح ، مراكز مقاومة تحد من تقدم الإسلام في تلك البلاد .

أما في آسيا ، فقد تابع الإسلام جهوده في اكتساب جزر السوند وبلاد التوابل والأفاويه . فقد عمل سلاطين ترات وتيدور على نشر الدين الإسلامي . في جزر المولوك . وحمل دعاة الإسلام ، سكان جزيرة مندناو ، إحدى جزر الفلبين ، على اعتناق الإسلام . واضطر الأسبانون إلى اغراق السفن الإسلامية التي كانت تقوم بالنشاط التجاري في تلك المنطقة ، إن تعرضت مصالحهم التجارية للذى والحسرة ، للحوول منهم دون تطفل الإسلام ، إلى جزيرة لوسون التي ألفت الحصن الأممي للحد من تقدم المسلمين في هذه المنطقة . وفي الهند الصينية وسيام وكبوديا ، راح المسلمون من الملايو بعد أن كانوا يلتزمون بجباية الضرائب والرسوم ، بزاحون بشدة الرسائل المسيحية التي كان يقوم بها مرسلون إسبان وبرتغاليون وفرنسيون ، وتوصلوا ، عام ١٦٤٤ ، إلى حل رهاما ديباتي ، ملك كبوديا ، وراماتو بداي تشام ، ملك تشامبا ، على اعتناق الإسلام .

أما الصين . فلم يقم المسلمون فيها ببعثات دينية . وكان لهم فيها أتباع عديدون أخذ عددهم بالازدياد في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ففي القرن الخامس عشر كان الدرويش علي أكبر يعتره الذمهور لكثرتهم ، لما كان عليه المسلمون من إزدهار وما تمتعوا به من حريات واسعة ، وما نعموا به من نفوذ . فقد كتب ما يلي : « تدل بعض تصرفات الامبراطور على أنه اعتنق الإسلام سراً إلا أنه لم ير من المناسب الجهر بذلك علانية . وقد اقترح على سلطان الأتراك أن يتولى فتح الصين ليحمل الأهلين فيها على اعتناق الإسلام .

أما في أوروبا . فلم تتوقف الفتوحات الإسلامية عن تسجيل انتصارات جديدة لها ، حتى أن المسلمين اطلوا على أبواب فيينا ، إذ إن أعداداً كبيرة من رعيا الشعوب التي علبت على أمرها ودالت دولها للترك ، راحوا يعتنقون الإسلام ، كما إن عدداً محترماً من الأوروبيين نزحوا ليقبوا بين المسلمين ، في السلطنة العثمانية ، أو في بلدان شمالي أفريقيا . ونرى في البلقان بعض المناطق تصبح بين ١٥٦٦ - ١٦٤٨ إسلامية بكامل سكانها ، في مقاطعة رودوب الجبلية والبانيا وجزيرة أوبه وكريت . كذلك نلاحظ وقوع ارتدادات كثيرة في مقدونيا وتاليا ومولدافيا وبلاد الفلاخ . ويؤكد أحد المعاصرين أن الناس كانوا يقبلون على الإسلام بعشرات الألوف بل بمئات الألوف ، وإن أعداداً كبيرة من النازحين والأسرى والهاربين كانوا يعتنقون الإسلام وينصرفون للعيش بين المسلمين . فالحميات الإسبانية في أفريقيا تألف معظمها من النازحين هجروا بلدانهم زرافات من كورسكا وسردينيا وصقلية وكالابريا وجنوى والبندقية وإسبانيا ، في قوارب تنص بركابها ، قاصدين شمالي أفريقيا كانوا مرشحين لاعتناق

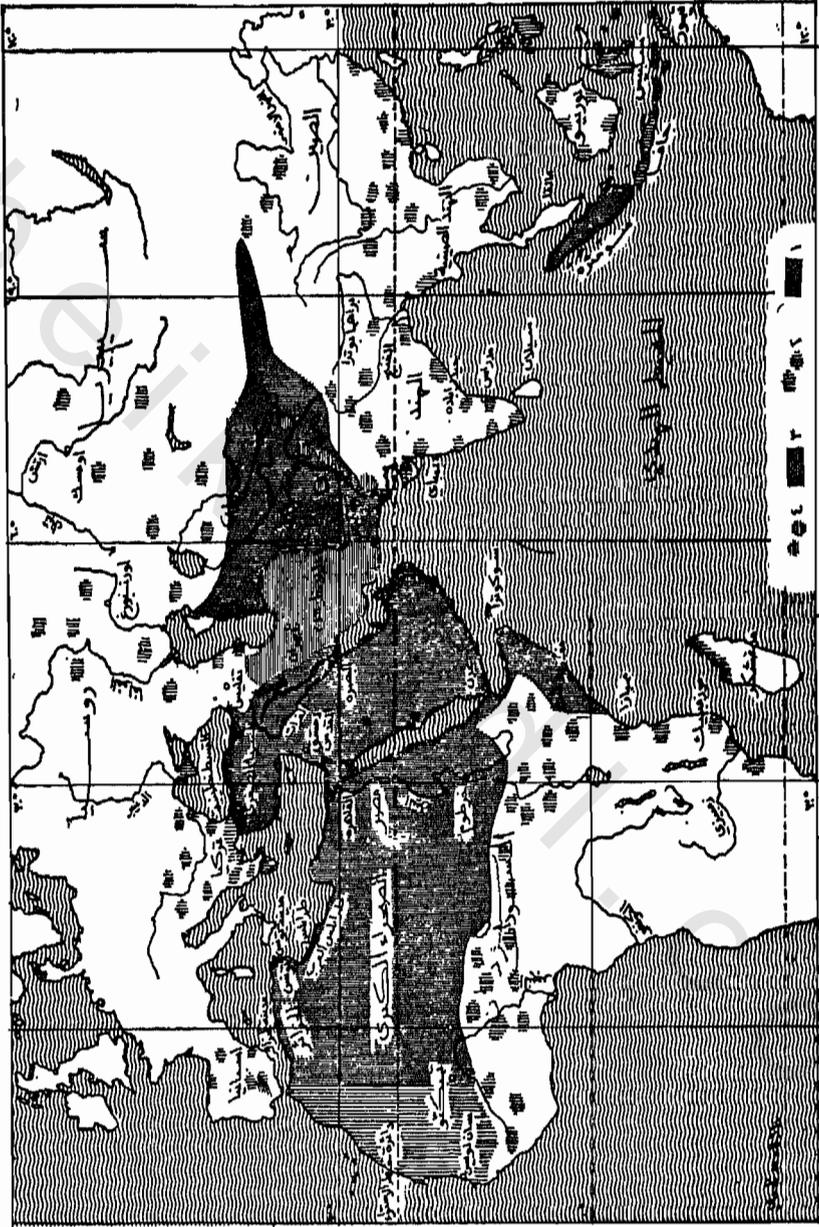
الاسلام . ويؤكد احد المؤرخين : « ان اضطرابات الذين جعلوا دينهم توكفاً اكداساً من الوثائق التاريخية » . فاينا مرتت في أنحاء الامبراطورية العثمانية ، وقعت انظارك على جاحدين او مارقين لدينهم ، من كل درجات السلم الاجتماعي والسياسي . فالجنوي جبرونيمو كمبودي مغليو ، الذي وقع اسيراً في مدينة الجزائر ، كان عمره عام ١٥٩٨ ؛ خمسين سنة . وعندما توفي سيده الذي كان تاجراً من تجار تلك المدينة ، تحلى له عن دكانه . وقد شومد يسير في الشارع مرتدياً الزي التركي ، ويؤكد عارفوه انه متزوج من مسلمة ، « وفي اعتقادي انه خرج عن دينه المسيحي ولا يفكر قط بالرجوع الى امله » . ونرى في عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٢) ان من اصل عشرة تولوا مركز الصدر الاعظم ، ثمانية منهم كانوا جاحدين لدينهم ، حتى ان نائب السلطان في الجزائر أولج علي ، انما هو واحد من هؤلاء المارقين .

ولم يكن الاسلام اقل اجتذاباً للاروبيين ، من المسيحيين القاطنين الشرقي . وعندما قام المغول الاكبر اكبر ، يفتح مملكة احمد نجار ، المسلمة ، اغرى المدافعين عن قلعة اسيرغار ، على الاستسلام ، عام ١٦٦١ . وكان بين ضباط الحامية سبعة ضباط برتغاليين ، وعدد كبير من المدنيين البرتغاليين ، من كلا الجنسين ، كلهم على الاسلام .

كل شيء كان يغذي التكررة في قلب الاروبي . فالاسلم يتمثل عنده ، اول ما يتمثل في مغربياته ، في هذا التركي ، الذي اصبح مفزعة الغرب . « أليس الاتراك شرراً من الذئاب في كل ما يصنعون ؟ » (١٥٩٦) . وهل من عجب قط اذا ما اتخذ الله من الاتراك سوطاً لتأديب المسيحيين ، اسوة بما فعل باليهود عندما أهلوا شريعة المهيم ... فالاتراك بالنسبة للمسيحيين ، هم بمثابة الاشوريين والبابليين لاسرائيل : مقرعة الله وموطه اللاهب ، (من اقوال فيريه ، عام ١٥٦٠) . ثم أو ليس المسلم هو هذا الشرقي الذي يقف مع الاروبي ، على طرفي نقيض ؟ هذا المسلم الذي تميز بالختان ، ولا يأكل نجساً كلحم الخنزير او لحم اي حيوان آخر لم يذبح بيد مسلم ، وفقاً لاحكام القرآن ، هذا الشرقي الذي يمضي في كتابته من اليمين الى اليسار ، والذي يضع مقدمة كتابه والفصل الاول منه حيث نهاية الكتاب عند الاروبي .

هذا الانسان الذي يتبول مقرصاً كالنساء والذي يجلس القرفصاء والذي لا يشعر باي حياء في رسم عندهما يمشو ، حركة يشتمز منها الاروبي لانها تتم على العبودية ، والذي يخلف حذاءه عندما يدخل المنزل ، والذي يزهو بثوبه الفضفاض ، والذي يولد مقدساً بالوراثه ويسمح لنفسه ان يعمل كل شيء ، اذا انحدر من ولي او من شريف . فالاسلم هو نقيض الاروبي والاسلام نقيض أوروبا ، فالاسلم هو من خرج على المسيحية وسبب للمسيحي الهلاك الابدي .

الاسلام تمة المسيحية من العناصر الاساسية التي ميزت الاسلام ومن ابرزها وابعدا اثرأ على الانسان الابيض في اوروبا وعلى الاسود والاصفر معاً ، قوة الجذب التي تتجلى في الديانة الاسلامية ، مما جعل للمدينة الاسلامية ، هذا الاثر البعيد ، فقد رأى



الشكل ١٨ - العالم الإسلامي في القرنين السادس عشر والسابع عشر

الابيض الاوروبي في الاسلام تنمة للمسيحة . بعد هذه السلسلة الطويلة من الانبياء : من آدم ونوح و ابراهيم ويسوع الذي يعرف عند الاوروبيين بالمسيح ، جاء خاتمهم الرسول العربي ، محمد آخر النبيين واعظهم . فقد رأى المسيحي في الاسلام ، عناصر كثيرة مألوفة لديه : الوحي المتوارث بين الناس على السنة انبياء أوحى الله اليهم به ، وكتاب موحي به هو القرآن الذي كان في نظر النبي تنمة للتوراة والانجيل ، وتفسير لنشوء الكون فيه قصة الخلق والخطيئة والسقوط وملائكة متشفعين وأبالسة ونفس خالدة ، ويوم الحساب ، وجنة ، وجحيم . كل هذه العناصر ألفت لدى المسيحي المتفرس في الاسلام ، جوأ ليس بغريب عليه قط ، فهو لا يجد نفسه غربياً في محيط كهذا المحيط ، ولذا فالصدمة ، ان كان ثمة صدمة ، تأتي ضعيفة الوقع ، خفيفة ، بينما كل هذا قد يصدم بعنف الاسود الذي آمن بفعل الارواح . فكل ما يقدمه له الاسلام من تفسير لخلق العالم ولصير الانسان ، بشكل قصة او اسطورة ، يتفق تماماً ، في جوهره ، بما ألفه من قول وسمعه من تعاليم ، في هذا الشأن .

رحدانية الله
 فقد ظهر الاسلام للمسيحي وللزنجي والآسيوي بسمو تعاليمه ولاسيما بنظرته الى الله . فقد كان تم للزنجي فكرة غامضة ، مشوشة عن الكائن الاعلى . اما انسان آسيا فقد توصل بالادراك العقلي الى وحدانية الله ، مع ان الفلسفات الاساسية التي طلعت عليه لم تحسن خدمته اذ لم تستطع ان تخلصه من هذه الرموز والشبهات التي عاش في جوها ، فتلبست ليوماً حولياً ، تارة ، وطوراً مشركاً ووثنياً . فالمسيح قال بالثالوث الاقدس ، وهو يقول بوحدانية الله وبوحدة الجوهر في ذات الله في ثلاثة اقاليم ، يتميز الواحد منها عن الآخر ، هم الابن والابن والروح القدس ، وهي عقيدة يبقى العقل حيا لها حائراً ، لا يستطيع النفاذ اليها وهو امام امر لا يتصوره الخاطر ، وهي عقيدة وقفت دوماً حجرة عثرة لدى العقول وحالت كثيراً دون اعتناق الناس لها او دون استمرار من اخذ بها ، على القول بها . وعلى عكس ذلك جاءت العقيدة الاساسية في الاسلام . فهي تنطلق عفوية من الارض الى السماء ، الى السه ، كما ترتفع الماذنة البيضاء نحو القبة الزرقاء : هي وحدانية الله : « لا اله الا الله » . فالله هو الكائن الحي الاحد ، الابددي ، الازلي السرمددي الكلي القدرة ، والكلي المعرفة ، والعلم المطلق . فيه كل شي وهو يتميز عن كل شيء . وكبيرة الكبائر هي من يقول بان الله شريكاً ، وهذه هي خطيئة المسيحي الكبرى في نظر الاسلام . وهذا الشعور بوحدانية الله تغفل في تعاليم الاسلام وسيطر على حياة المؤمن وهيمن على الفن ولا سيما على فن البناء والرسم . فالمسجد نفسه مشبع بهذه الفكرة : قهندسته صلاة وموعظة ، فالمسجد هو نسخة عن كنيسة يوستينيانوس ، غير ان الاسلام نشر على كل شيء ، لونه وضيائه الخاص بحيث انت مجموع هذه الاشكال المعروفة جعلتنا نتصور اننا امام بناء جديد او بالاحرى امام طراز هندسي جديد ، منه ينقلت النظر الى آفاق عالم غير منظور حيث تهب نفحة الهية جديدة . وتقع العين في داخل المسجد على صحن فسيح ، رحب تشعر حيال بساطته بالمهابة والعظمة ، دائم البياض ، ينفذ النور الى باحته

الداخلية من هذه النوفذ التي تطل من الحارج فتفيض على الداخـل ضوءاً ناعماً حيث تقع العين على كل شيء وترتاح مع الفكر الغافي ، في ظل هذا السكون العميق الذي يشبه سكون الوادي اكتسى جلباباً من هفـاف الثلج ينعكس عليه سماء ابيض . ليس في الجامع ما يشتت الفكر : من خلال هذا الفراغ ، وعلى ضوء هذا السناء ، تـجد النفس ذاتها امام موضوع عبادتها . . . فهي ترى نفسها مكتنفة بفكرة نيرة واضحة ، جليلة ، وضاعة تملأ الروح رهبةً وخشعةً ، فكرة الله مالىء هذه الوحدة ، ومالىء هذه الفراغ الصارم المهيب الذي يسيطر على هذه الصغارى التي يغمرها النور . فهذا النور ، وهذا التجرد العاري للايمان برب أوحد احد ، كلي القدرة ، هذا ما حمله الاسلام للانسان المشدوه المتطلع نحو الكمال الاسمى .

وهذا الكمال الاسمى له ، في الدين الاسلامي ، من الوسائل علاقة الانسان بالله - الصلاة الاسلامية . ما يمكن الانسان من الاتجاه اليه والاتصال به . كم هو عظيم وبالغ تأثير الاسلام على الزنجي ، مثلاً ، عندما يتبين بوضوح ، طريقة الأخذ بهذا كـله ، وعندما يتبين ويفهم مقدار اهتمام الخالق بالخلية التي برأ من العدم . فالمسلم في نظر الزنجي هو من يصلي الى الله ويبتهل اليه ، فلا تسل عن عظم تأثير الاسلام على الزنجي ، فهو لا يصدق نفسه ، ان باستطاعته ان يخاطب الله عزّ وعلا . فالدين الاسلامي يسئل للجميع ، اكثر من اي دين آخر ، اتجاه الفرد بنفسه الى الله الأحد . كل مسلم يكهن لربه . فهو يقـدس نهاره باقامته الصلاة ، خمساً في النهار : في السحر ، وعند الظهر ، وفي الأصيل ، وعند المغيب وفي العشية . فالصلاة فردية هي ، وان تمت مع الجمهور فهي فعل ايمان يتجلى بالبساطة والتجريد العكلي . وهذه الصلاة يمكن للانسان ان يقوم بها ايّما كان . ففي صلاته لا يطلب المسلم شيئاً لنفسه . والشيء الذي يطلبه هو ان تشمله نعمة الله ، فالصلاة عند المسلم هي اعتراف علني بربوبية الله . فهمي شكر له وعمل عبادة الله ، الشمس المضيئة للنفوس .

فالشهادة ، في الاسلام هي فعل ايمان ايسر بكثير واخصر من فعل الايمان عند المسيحيين :
« اشهد ان لا إله الا الله ، وان محمداً رسول الله » ، كما تتبين ذلك في سورة الفاتحة :

« باسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهـدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، آمين » .

ومع هذه الصلاة السامية ، على المسلم ان يصوم رمضان المبارك وان يدفع ما عليه من زكاة ليظهر قلبه وامواله ، وان يقوم بفريضة الحج الى مكة ، لمن يستطيعه ، وان يتصف بالمعدل والنصف والامانة والصدق والهمة .

وجه المسلم والتسليم لمشيئة الله القوي بقدرته الله الكلية ، بقداسته وبحضوره الكلي الشامل ، يجعل معه الايمان بالقضاء والقدر والتسليم الى مشيئة الله وإرادته . « هذا شيء مقدر » ، لتكون إرادة الله ، « فالله قدر كل شيء في حكمته الازلية » ، بنأى عن الزمن ، وقضى به الى الابد وسيجازي كلا بأعماله ويثيب المسكين العادل . فكل مشاغل الحياة ، مها كانت مقبضة ، لا تلبث ان تفقد حدها وان تزول . ماذا يفيد الانسان ان يهتم ، اكثر مما يجب ، وان يشغل باله بما هو ظل زائل . فقراءة القرآن وتصفحه أبقى وأجدى ، ولنتعمق في حفظ شريعة الله وناموسه . فارادة الله هي الباقية وما مقدر هو الذي سيكون .

فقد يسرت الشريعة الاسلامية حياة الدنيا في كثير من القضايا كما بعثت في المؤمن الرجاء بحياة أفضل وأبقى . فقد أباح الاسلام تعدد الزوجات : إنكحوا لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، هذا ان عدلتم . باستطاعة المسلم ان يطلق زوجته لاختلافها الرديئة . واذا تعذر على بعضهم ، لفقرهم ، الاحتفاظ بعدة زوجات معاً ، فباستطاعة المؤمن ان يطبق الآية بحيث تم له عدة نساء باستمرار . فالفردوس الذي اعده الله للمؤمن يتألف من ثماني سموات ، تكون وفقاً لاستحقاق المؤمن ، تجري من تحتها الانهار ، كما فيها انهار من اللبن والعسل ، وما تطمع فيه النفس من الحلوى والمجوهرات والمأكول والمشرب وحوريات لهن عيون دعيج . فكم هو شاسع الفرق بين هذا النعيم يعده الله للمسلم وبين الفردوس الموعود للمسيحيين حيث ينعمون بمشاهدة الله الى الابد . فعلى ضوء هذه العقيدة الاسلامية وتحت تأثيرها ، يستهين الانسان أوروبا : ابيض كان ، او زنجياً أو آسيوياً او مسيحياً ، بأحوال الموت ، وبالعذابات التي قد يتعرض لها ، اذا ما كان من القائلين مثلاً بتناسخ الارواح وتقمصها ، امام ما ينتظره من سعادة واقعية ، محسوسة ، ملموسة . وهذه السعادة الابدية ، يمكن للمؤمن ان يؤمنها دفعة واحدة ، اذا ما استشهد في سبيل الله ولبي نداء الجهاد المقدس . ففي سبيل هذه السعادة التي لا نهاية لها تطيب كل تضحية ويعذب كل بذل .

أعد الاسلام لهذه النفوس ذات الشعور الرقيق والحس الناعم الاعتكاف والتصوف الاسلامي الى العبادة ، والإعراض عن بهرج هذه الدنيا وزينتها ، والانفراد عن الخلق والتعبد له في نجوى ومسارّة بعيداً عن الناس للانقطاع للتصوف . فالله ، هذا الكائن الحي المحب يسره ان يهيم الناس بحبه وان يتفانوا في الشوق اليه . ولذا راحت هذه النفوس الثملى بالحب الإلهي تحاول الاتصال بالله ، وهي بعد في هذه الحياة . الا انها لن تلبث ان تقوم في وجهها المصاعب . فالله لا يمكن ادراكه عن طريق الحواس لانه غير محدود بزمان او مكان . كذلك لا يمكن ادراكه بطريق العقل لان العقل عاجز عن ذلك . وانما يُدرك بطريق القلب والروح . ولذا حاول المتصوفة ان يتخلصوا من ذواتهم ، من « الانا » ، لينذوبوا في الوجود الإلهي . وقد اشتط بعضهم السعي فوقعوا في وحدة الوجود مع الله . كما ان بعضهم ذاب في محبة الله . فاصبحوا أولياء ، شيئاً من الفيض الإلهي ، لهم قدرة روحية « بركة » خاصة . وقامت

للسوفية تكيّات خاصة ، ارتدى المنقطعون اليها مسوحاً من الصوف ، ومن هذا الزبي جاءت الكلمة « صوفي » ، ونظموا انفسهم 'طريقاً ومذاهب خاصة ، لكل منها زعيمها او شيخها ، له على اصحابها سلطة انتقلت اليه بالبزكة من مؤسس الطريقة ، وهي قوة كان شيوخ الطريقة يتوارثونها خلفاً عن سلف . وقد اشتهر بعض هؤلاء المتصوفة بمسلكهم في هذا المجال مما يذكرنا بالنهج الذي سار عليه كل من القديسة تريزيا دافيللا ويوحنا ديه لاكروا ، مما حمل البعض على التساؤل ما اذا كان التصوف الاسباني في القرن السادس عشر ، لم يتأثر بالطرق الصوفية الاسلامية ، وعهد المسلمين بالاندلس ، قريب لم يندرس ذكره ولم تُنسخ أعرافه وعوائده . وقد أجب البعض بالنفي على هذا السؤال ، وذلك لان الاعتقاد بالله القيموم قد ولد ، في اماكن مختلفة ، متباعدة ، حالات متشابهة . وعلى كل ، فالمشكلة المطروحة على بساط البحث هي ان مسيحياً من أبناء القرن السادس عشر او السابع عشر ، لم يكن من المستهجن لديه قط ان يرى في الاسلام ، كثيراً من تعاليم المسيحية وعقائدها الاساسية ، انما على نقاء اكثر ، واسهل تساهلاً . كما يستطيع ان يجد شخص آخر ، في الاسلام من الوسائل ما يمكنه بلوغ الذروة من حياة كلها سمو وتعال .

انتشار الاسلام والتجار المسلمون ساعد التجار المسلمون على نشر الاسلام في كل ربوع الشرق .
 فعندما بلغ البرتغاليون المحيط الهندي ، وجدوا امامهم التجار المسلمين من عرب ويرانيين يسيطرون على الحركة التجارية في هذه الاصقاع المترامية بين مضيق الموزنبيق ومضيق مالقا . فقد وجدوا في اهم المرافئ الواقعة على سيف المحيط الهندي جوالي ومستعمرات اسلامية نالت مجتمعاتها من سلطات البلاد ، امتيازاً بحكم انفسهم بانفسهم ، تحت إدارة زعيم او رئيس ينتخبونه ، يقضي فيها بينهم ، وفقاً للشرع الاسلامي . وكثيراً ما تغفل هؤلاء التجار بعيداً في قلب البلاد وأسوا لهم مراكز او وكالات خاصة لعمالهم . فقد قامت في بلدة فيجينا غار ، الواقعة الى الجنوب من الهند ، جالية اسلامية محترمة . وكثيراً ما حدث ان تزوج ممثلو او وكلاء شركات تجارية اسلامية اقاموا في الهند باستمرار ، من احدى نساء البلاد بعد ان يلقنوها اصول الديانة الاسلامية . وقد دخل الهند من نحو خمسمائة او ستمائة سنة ، عدد غفير من المسلمين جاؤوها من الشمال الغربي ، استقر كثيرون منهم فيها بصورة نهائية ، وقد اتمرت هذه الهجرة على نشاطها في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد اضطر البرتغاليون للاخذ بواقع الحال ومراعاته واقاموا علاقات تجارية مع التجار المسلمين ، دون ان يحاولوا مسهم باذى او ان يجربوا إخراجهم من البلاد . وعلى العكس ، فقد استمر هؤلاء التجار في اعمالهم ، في كل ارجاء المحيط الهندي ، بعد ان رخص لهم البرتغاليون بذلك ، فصاحفوا على الانشاءات والمؤسسات التي كانوا اقاموها من قبل ، كما أسوا لهم مراكز جديدة في الممتلكات البرتغالية . وقد مثل سكان الملايو الذين عرفوا بمقدرتهم على الاعمال التجارية ، دوراً هاماً في كل ارجاء الهند الصينية . فقد امتطاعوا ان يسيطروا تقريباً على كل الانشاءات الرسمية ولا سيما

ما تعلق منها ببلاط مملكة سيام ، كما سيطروا على الاحتكارات الرسمية ، وُعهد اليهم بتنظيم استقبال السفراء الاجانب . فعادت عليهم هذه الاعمال المتنوعة بارباح طائلة ، كما عادت عليهم بنفوذ كبير . واستمر مسلو الانسولاند بالاتجار مع الصين حتى بعد وصول الاوروبيين اليها .

دعاة الاسلام
كثيراً ما رافق قوافل التجار ، دعاة عملوا على نشر الاسلام ، من قبل طوائف اسلامية او من قبل بعض المساجد الكبرى في السلطنة العثمانية ، باذن خاص من سلطات البلاد وبموازرتها احياناً . فاذا ما حالفهم التوفيق ، عمدوا الى إنشاء جامع ليبدأ نشاطه متواضعاً ثم لن يلبث ان ينمو ويتطور بحيث يصبح ، كما هي الحال في العالم الاسلامي ، دائرة قطب وسط مجموعة من الابنية فيها كل ما يؤمن الإشعاع للجماعة : بيت للصلاة حيث تجري مناسك العبادة والصلاة إشباعاً لحاجة النفس الطبيعية ، وملجأ لتخفيف الآلام عن النفوس المعذبة ، ومدرسة تلقن الناس تعليم القرآن وتمهد للنفس الطريقتي المؤدية الى الله كما تلقنهم تعليم سُنة الله ورسوله ، فتعلمهم على أحاديث الرسول واعماله واقواله وما وضع المفسرون لها من تفسير وتعليق من شأنها ان تساعد على ضبط الاخلاق والآداب . ولم تلبث ان ظهرت الاوقاف التي جاءت ترصد الصدقات والذكاة ، مساعدة للطلاب على طلب العلم ودرس العلوم العقلية والنقلية ، كالصرف والنحو والمنطق وعلم ما وراء الطبيعة ، واللغة والحطابة والهندسة وعلم الهيئة حتى اذا ما تم لطلاب العلم ، القدر الكافي من التحصيل ، أصبحوا بدورهم من علماء الملة ، يقومون للعلم في المعاهد الشرعية الكبرى ، او عملوا في خدمة الدولة أو خدمة الدين بوصفهم من العلماء .

كثيراً ما تميز هؤلاء الدعاة بصفات عالية . فبعد ان قارن الاسقف سلارار اسقف مانبلا الدومنيكي بين الاساليب التي اعتمدها هؤلاء الدعاة في نشر الاسلام والاساليب الأخرى التي عول عليها المرسلون البرتغاليون والاسبان ، كتب ، عام ١٥٩٠ ما يلي : « ان يقوم المبشر او الكارز بالدين بالدعوة للانجيل وسحمة البنادق الى جنبه ، ليس قط بالطريقة التي يرضى عنها الله في نشر الايمان والدعوة الى السلام . من سوء حظنا جداً ومن دواعي خجلنا ان تكون تعاليم النبي العربي محمد قد توغلت في هذه الجزر وان يُقبل السكان على اعتناقها ، لما تبينوا في دعاة الدين الجديد من دعوة صادقة للسلام ، ومن رحمة للعباد وتحنان ، نرجو ان يتم شيء منها للدعاة بالانجيل ... فقد حمل دعاة الاسلام تعاليم الاسلام وهم أشبه ما يكونون عراة ، حفاة ، لا يعولون قط على نفوذ البشر » .

الممالك الاسلامية

السلطنة العثمانية

عمل في خدمة الاسلام والدعوة له ونشر تعاليمه ، الممالك الاسلامية الكبرى التي قامت اذ ذاك . فالقوة التي تمت لها ، والنفوذ الواسع الذي نعمت به ، وحاجتها الملحة الى أخصائين

وتقنيين ، والامكانات الطائلة للعمل في ممتلكاتها الواسعة ، كل ذلك جعل منها مراكز استقطاب وقطب جذب ، في الوقت الذي مهدت الفتوحات العريضة التي تمت لها السبيل لانتشار الاسلام فوق اقطار واصقاع جديدة لم يعرفها من قبل . ولعل اقوى هذه الدول قاطبة ، وابعدها اسماً وشهرة وصيتاً بلغ مشارف الصين ، وواقعها طراً في قلوب الاوروبيين ، هي السلطنة العثمانية .

فقد احتفظت السلطنة العثمانية من الصفات التي احاطت بنشأتها الاولى بصفة جيش نصب سراقه فوق بلاد فتحها بجد السيف . وهذه الميزة او الصفة شاركت بها ، الى حد بعيد ، امبراطورية المغول في الهند ، كما شاركت بها كذلك ، على قدر واسع ، امبراطورية المغل او المغول في منشوريا . يعود الاتراك العثمانيون ، باصلهم الى هذه القبائل الرحل التي كانت تدق ، من حين الى آخر ، مداخل آسيا وتقرع بشدة ابوابها . فاذا ما اردنا تصوير الامور تصويراً قريباً أمكننا ان نميز نوعين من آسيا : آسيا الخصبية ، الخيرة التي تتمثل في هذه الوديان الظليلة وهذه الدلتات الخصبة ، وهذه السهول الساحلية الفيحاء التي تقع في الصين والهند وبلاد ما بين النهرين ومصر ، حيث نجد اقواماً نعمت لديهم جوانب الحياة ، واهاجهم الحر الشديد على رطوبة ، وانهمكتهم الحميات التي تألفت عليهم ، واخلوا باسترسالهم للراحة وهطول الامطار الموسمية وتخنث أغنياؤها لما رفلوا به من صنوف البذخ والقصف والتسري . اما آسيا الاخرى ، فهي آسيا الموحشة التي تتمثل في هذه الصحارى المترامية ، وهذه الجبال الشاهقة وما بينها من مقاطعات وارجاء : كمنغوليا والتركستان والجزيرة العربية وافغانستان ، وكرديستان والقوقاس حيث تمر قبائل وأقوام على البداوة تظعن ابداً في طلب الكلاً والماء . برح بها الجوع والعطش ، وأثار شهوتها ما هم عليه سكان السهول من خصب ومجوحة وما هي عليه الوديان من غنى وظلال وارقة ، فيفدون عليها مع مواشيم او يأتونها قوافل للإتجار والمقايسة ، فيقتبسون شيئاً مما يقعون عليه فيها من الأفكار الدينية والسياسية ، ويتبينون مكان الضعف لدى سكان المنخفضات ، ويتألبون حول زعيم من زعمائهم العديدين يرون فيه القدرة على التنظيم وفرض هيئته ، فلا يمتعون ان ينقضوا على هؤلاء الحضرة ، يفرضون عليهم سيطرتهم ويستثمرونهم شر استثمار . ويتمكن هؤلاء الزعماء من المحافظة ، بضعة اجيال على ما تم لهم من شأن وسلطان ، ويأخذون عن مواليهم ما لديهم من اخلاق وعادات ، يحرصون على الدفاع عنهم ويردون عنهم ما يستهدفون له من غزوات تقوم بها قبائل وأقوام تطمع بهم ، كما يحاولون توسيع نفوذهم ونشره بحيث يخضعون لهم مقاطعات حضرية اخرى . ولن يلبثوا ان يجدوا سعياً وراء مفاتيح الحياة ولذائذها ، فيدب فيهم الضعف وتهين شوكتهم وتسترخي عضلاتهم بعد ان ينغمسوا في ملذات الاكل والشرب والقصف والتسري ، والغفلة ، فتميل ، شمس دولتهم نحو الغروب لتنهيار فجأة تحت ردة وطنية او تحت غزوة اجنبية .

الدولة متمسدة الجيش اقتست ذراري القبائل الرحل التي قامت بالفتح ، الكثير من حضارة الشعوب التي غلبوها على امرها ، اذ كانت اسمى بكثير مما تم لهم منها ، فصح بهذا القول ، بانهم هم ايضا غلبوا بدورهم على امرهم ، الا انهم لم يذوبوا مع الاهلين الذين جرى اخضاعهم ، بل ألفوا طبقة ممتازة هي طبقة العسكريين التي سيطرت على البلاد واستغلت أبشع استغلال الرعايا المغلوبين . ولم يشذ العثمانيون عن القاعدة . فقد ألفوا مادة الجيش وكانوا عماده ومادته ، فاذا بالجيش هو الدولة ، واذا بالسلطان زعيم حرب وقتال يجري انتخابه من قبل الجيش من بين اعضاء الاسرة الحاكمة ، بالنظر لما لها من نفوذ ومنزلة رفيعة في قلوب السكان ، لانحدار هذه الاسرة من السلطان عثمان جد العائلة ومؤسس الدولة الاول . وللسلطان سلطة مطلقة هي أكبر سلطة تمت لحاكم منذ التاريخ القديم . فهو « أمير المؤمنين » ، هذا اللقب الذي حمله منذ ان فتح السلطان سليم الاول ، مصر ، عام ١٥١٧ ، بعد ان حمل آخر خليفة عباسي ، هو الخليفة الثامن عشر من الخلفاء العباسيين في مصر ، على التنازل له عن هذا اللقب وبذلك أصبح السلطان خليفة الرسول العربي بعد ان انتقلت الخلافة من العرب الى الاتراك ، فولي أمر المسلمين ، وأصبح « خادم الحرمين » فجمع في قبضته : السلطة الزمنية باعتباره قائد الجيش الاعلى ، والسلطة الروحية ، باعتباره خليفة الرسول ، وبذلك شكلت السلطنة العثمانية دولة ثيوقراطية . فقد حمل بوصفه القائد المظفر ، ألقاب وسلطات الملوك الذين اخضعهم لسلطانه ، فهو البادشاه او باديشاه او الامبراطور ، منذ ان تم له فتح القسطنطينية (١٤٥٣) ، وهو أمير البرين والبحرين ، وهو قيصر الروم وخليفة او غوسطس قيصر وقسطنطين ، وهو الفاسيلفس في نظر رعاياه من اليونان وريث الامبراطورية البيزنطية . وعلى هذا الاساس راح ينظم بلاطه وحكومته . فالقانون لا يطاله لانه فوق القانون . له وحده الحق ملء الحق بفتوى من كبار العلماء ، ان يفتي بالصورة التي يراها ، اخوته واولاد اخوته ليؤمن للدولة الهدوء والسلام والاستقرار . ومع ذلك ، وبالرغم مما يتمتع به من حقوق وسلطات واسعة فهو يبقى جديراً بحمل هذا اللقب طالما يوجه جيوشه المظفرة ، من نصر الى نصر ، ويسهل لهم الغزو واسبابه وما يوفره الغزو من سلب ونهب واستباحة ، ويقضي بضربة سيف ، على من يجرؤ برفع صوته محتجاً او مطالباً ، طالما له هالة القائد المظفر وطالما تتهيبه النفوس ، ويتفادى الناس ضربته القاضية التي لا طب لها ولا منها شفاء .

فهو يتولى قيادة جيش يتألف أساساً من كتائب يشكل الامراء الذين له عليهم حق التبعية والولاء ، ومن فرق حديثة معظمها من المرتزقة ، فيعمل اصحاب الاقطاعات على توفير ما يلزم له من خيل لفرق الخيالة ومن مشاة . وتتألف فرقة الخيالة من اصحاب التيمادات ورؤساء المقاطعات . فعلى صاحب التيمار ان يقدم فارساً مع خادمين او ثلاثة خدام ، بينما يقرب على الزعيم ان يقدم حوالي ٢٥ فارساً .

المنزلة الاولى في الجيش لفرقة الإنكشارية ، التي بلغ عدد افرادها ، في عهد السلطان سليمان

القانوني ١٢٠٠٠ من المشاة ، كما ضمت بعض الكتائب من فرسان الحياطة

كانت البلاد تخضع لسلطات مسلحة على شاكلة نظام الجيش نفسه ، يماون السلطان كبير الوزراء او الصدر الاعظم يساعده اربعة وزراء ووزير للشؤون الخارجية يُعرف برئيس افندي . وكان يحف به عدد الآغاوات او ضباط بعض الفرق ، امثال آغا الانكشارية ، وآغا المشاة . ويرأس قيادة الاسطول الحربي موظف كبير يلقب قبطان باشا تمتد سلطته فوق الجزر ويشرف على علاقات الدولة مع المسيحيين . ويأتي في الدرجة الثانية ، بعد هؤلاء ، عدد من كبار الموظفين ، بينهم : النسخنجي او امين سر الدولة ، والدفتدار او وزير المالية ، وقاضي عسكر او قاضي الجيش . اما شيخ الاسلام ، فكان رئيس فرقة العلماء والفقهاء ورجال الدين ، ومن بين رجال هذه الطغمة ، كان السلطان يختار القضاة والفقهاء وقاضي العسكر ، وغيرهم من رجال الدين الذين كانوا يقومون بوظائف رسمية في الدولة العثمانية .

اما علاقات الدولة او الادارة بالولايات والسناجق ، فكان يؤمنها موظفون كبار يحملون لقب بيلربك ، يتولون مهام الادارة العليا في الاناضول والرومي ، ويلبهم مرتبة ، الباشوات الذين امتدت سلطتهم الى عدة سناجق : ويقوم على ادارة السنجق « بك » الذي كان يشرف على اعمال وتصرفات اصحاب التيارات والزعماء . وكثيراً ما كان البكوات يلتزمون اعمال الادارة ، شرط ان يتمهدوا بضبط العدل واقامة حدوده بين الناس ، والحفاظة على الامن ، وقأمين جباية الضرائب والرسوم وحملها الى خزينة السلطان وتقديم ما يترتب عليهم من الرجال للعمل في الجيش . وكان اصحاب التيارات والزعماء يتوارثون ابا عن جد ، إقطاعاتهم فينتقلوها الى الذكور من ولدهم ، وكانوا يخضعون لنظام دقيق من الترقية والترفيح ، بحيث يرقى احدهم من تيار الى زعيم ، الى حاكم سنجق .

وتحت العسكرين ومن في خدمتهم من العلماء والكتاب ، كان يأتي رعايا الدولة معظمهم من الفلاحين والمزارعين وسكان المدن والريف ، بين مسلمين ومسيحيين يستغلونهم أبشع استغلال .

كان السلطان ، ولا شك في ذلك ، اغنى ملوك اوروبا قاطبة ، يتناول من رعاياه المسلمين العُشر ومن المسيحيين من يخضعون لسلطته ، رسم الخراج . وهناك رسوم تُفرض على الاملاك والمقارنات ، سواء أكان اصحابها مسلمين او نصارى . كذلك كانت تصل الى خزينة الدولة ، واردات المكوس ، ورسوم الجزاوات ، والمصادرات وحصائل الغدبة المفروضة على المغلوبين ، وأسلاب الحرب ، وغير ذلك . وكان القسم الاكبر من هذه الواردات يلزم للمتعمدين الذين يقومون على مسؤوليتهم باعمال الجباية وضبط الرسوم . فلا عجب ان تبلغ واردات السلطان من الاموال ، ضعفها ما كان يدخل خزانة الامبراطور شارل الخامس .

الفترة التركية ومن
باصحاب التقنيات من الأوروربيين

كان الأتراك العثمانيون ، قليلي العدد ، نسيباً ، كما انهم
المحدروا من حضارة قليلة الشأن والشأن . ومع ذلك ، فقد
استطاعوا ان يصونوا امبراطوريتهم طويلاً وأن ينمّوها ،

بعد أن عرف السلاطين ان يُدخلوا في خدمتهم ، افضل الموظفين ، ويستفيدوا ، على احسن
وجه ، مما تم لهم من تقنيات ومهارات فنية . فقد جيه بجانب كبير من افراد الجيش التركي
ورؤسائه وصنّاعه من بين المغلوبين على امرهم من المسيحيين والارقاء وأسرى الحروب ، راحوا
فريسة الغزو ، او من بين الذين جعدوا ايمانهم . ولعل خير كبار رجال الادارة ، وخير ضباط
الجيش كانوا من بين رجال هذه الطبقات التي أشرنا اليها . فقد تولى ادارة الدولة واشرف على
تطورها ونمّوها ، وقام بأمر الدفاع عنها فريق طلع من بين الارقاء ، او من بين الذين جعدوا
دينهم من المسيحيين .

وفرقه الانكشارية نفسها التي كانت خير فرق الجيش التركي ، تألف معظم افرادها من
احداث مسيحيين وقموا في الاسر . وكان الأتراك يتقاضون كل خمس سنوات ضريبة الدم ، اذ
كانوا يتوغلون بعيداً ، في غزواتهم ، داخل بلاد النصرى ، فيأخذون ٢٠٪ من احدثهم
ينتقونهم من احسنهم ملاحه وأقوام بنية وقوة واعظام صحة ، ويخضعونهم لتربية اسلامية
ويخرجونهم بتعاليم القرآن ، ثم يدخلونهم في الجيش ويعملون منهم جنوداً محترفين يحظر عليهم
الزواج ، وتماطي التجارة او اية مهنة أخرى ، فتألفت منهم فرقة ذات قيمة حربية عالية ،
أخلص الكثيرون منهم الخدمة للاسلام وللسلطنة ، وتميزوا بمصيبتهم المغالية للاسلام . احتفظ
بعضهم ، وهم قلة ، في سرائرهم ، بذكريات من العقائد الدينية التي شبا عليها في حدائهم
الاولى ، كما غرق بعضهم في بحر من التشكك . الا انهم استمسكوا كلهم بروح النظام ، وتمشقوا
الخدمة العسكرية واخلصوا لها ، وكانوا يتباهون بانتهاهم الى فرقة مختارة ، كثيراً ما رفعت الى
العرش او دحرجت الى الحفيض ، السلاطين ، على قدر ما اخلصت لهم او تنكّرت لهم .

كذلك ، هنالك عدد كبير من الذين قولوا مراكز الصدارة والوزارة والقيادة كانوا غرباء
الاصل ، بين أرقاء وأسرى وجاحدين لدينهم المسيحي . فمن بين ٤٨ صدرأ أعظم ، ١٢ لاغير
ولنوا من أب مسلم . ومجلس الوزراء ، لم يكن في الغالب الا من الارقاء . ثم ، السلطان نفسه .
من هو ؟ فقد اعتاد سكان القسطنطينية ان يلقبوه بـ « ابن العبد » . والسلطانة الوالدة ، ام
السلطان ، كثيراً ما كانت : روسية او شركسية ، او يونانية او ايطالية . فالسلطان سلم الثاني
(١٥٦٦ - ١٥٧٤) كان بأمه ، نصف روسي ، والسلطان محمود الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣)
كان ، بأمه ، نصف ايطالي ، وعثمان الثاني (١٦١٣ - ١٦٢١) ومراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠)
وابراهيم الاول (١٦٤٠ - ١٦٤٨) ، ومصطفى الثاني (١٦٩٥ - ١٧٠٣) كانوا ، بأمهاتهم ،
نصف يونان .

برهن الأتراك العثمانيون عن مقدرة وكفاية بالفتن ، في اقتباسهم للاختراعات والاكتشافات

الحربية التي حققها الاوروبيون ، مما آمن لهم التفوق العسكري والحربي . فقد كانوا أول من استعمل ، على نطاق واسع ، الاسلحة النارية والمدفعية وقد حافظوا بدقة على اساليب التعبئة الحربية عندهم . فالمينة ، تألفت على الاجمال ، من فرسان الخيالة ، يؤتى بافرادها من الاناضول وبلاد الكرمات ، بينما تألفت وحدات الميسرة من عناصر اوروبية . وقام في القلب فرقة الانكشارية ، سلاحها المفضل البندقية يحميها سور من المركبات والجمال ، ثم المدفعية القائمة من كلا الجانبين . وكانت النار تطلق بفرارة من المدفعية ورمات البنادق ، فتحصد صفوف العدو حصداً قبل ان تنقض عليه فرقة الانكشارية لتمزقه شرمزق . وعندما استولى السلطان سليمان عام ١٥٢٣ ، على جزيرة رودس ، اخذ الاتراك بتنظيم حملات بحرية واسعة وانشأوا لهم عمارات واساطيل قوية جابت ارجاء حوض البحر المتوسط ، وجعلت المواصلات فيه يخطر دائم وتمكنت من قطعها احيانا بين الجزر العديدة . وما خسروا معركة ليبانت البحرية ، عام ١٥٧١ ، الا لتفوق سلاح المسيحيين على سلاحهم . ولذا راحوا يعملون بنصيحة أولع علي ، حاكم مدينة الجزائر ، وهو من اصل مسيحي ومن مواليد نابولي ، جحد إيمانه ، فجهزوا سفنهم برماة مسلحين بالبنادق والمدفعية ، وبذلك أفسدوا على المسيحيين استثمار فوزم العسكري السابق .

وهذه التجهيزات الحربية الفنية ، عهد الاتراك بها الى فنيين من المسيحيين . فالتركي عسكري بدمه ، ولم يكن عنده اي إلمام بالتقنيات ، اذ كان الاسلام يحول دون اعدادهم رجالاً فنيين . ألم يكن القرآن مصدر كل العلوم النافعة . اما العلم الاوروبي ، فقد تبين فيه المسلم عمل الشيطان وصنيعه . فالاسلام لم يكن ليكثرث بالعالم الخارجي . فخير الاعمال لدى المسلم هو الانقطاع لدرس القرآن والاسترسال في تفهمه : اما مهمته الثانية فهي تحقيق ما كان يحلم به المسلم ، الجهاد المقدس ، وهي مهمة لم تكن لتنتهي قط . ولذا كان على السلطان ان يستقدم من اوروبا التي تميزت بتفوقها الفني والتقني ، ما كان بحاجة اليه من المدافع والمعادن والبارود . وكان يسعى جهده ليجد خارج السلطنة العثمانية الاخصائيين الذين كان بحاجة اليهم : كعمال النسيج وبنائي السفن ، والبحارة ، والعاملين في صب المدافع ، وفي اعمال الحديد وشغله على انواعها ، والعاملين في صناعة الاسلحة ، وراسمي الخرائط . وكان اول ما يهتم الاتراك فعله بعد فوزم في المعركة وضع ايديهم على الفنيين بين الاسرى . وعندما احتل السلطان سليم مدينة تبريز ، عام ١٥١٤ ، عاصمة الفرس آنذاك ، قبل ان يفتح القاهرة ، عام ١٥١٧ ، امر بنقل مهرة الصناع الى القسطنطينية . وبيع ذلك فاوروبا وحدها تستطيع ان تقدم للسلطان اكبر عدد ممن يحتاج اليهم من مهرة العمال . واستثناءهم كان يفرهم بمرقيات ضخمة ، وبذلك أغرى الكثيرين على جحد دينهم المسيحي واعتناق الاسلام . وقد نشطت حركة التهريب على شواطئ البحر الابيض المتوسط ، في الشمال والجنوب . فحملت هذه الحركة الألوف من الاوروبيين الى نكران دينهم واعتناق الاسلام . ولما كانت هذه الحركة لم تكن لتفي بحاجة

السلطان ومطلبه ، فقد عمد الى الغزو ومجنيد الحملات العسكرية . وما تكاد المعركة تنتهي حتى كان يصدر اوامره بنقل المدافع التي وقعت في ايديهم في جملة ما وقع من مساويات الحرب ، الى القسطنطينية . كما كان يجري انتخاباً دقيقاً بين الاسرى ليختار من كان فنياً منهم وينتفع بمهارته . كانت اعمال القراصنة توفر له العدد الكافي من الاسرى . فالحرب وحدها هي التي تساعد على مد السفن بمحاجتها من المهندسين ، ومن الاسلحة الحديثة ، ولذا كانت الحرب الناجحة او المظفرة من ضرورات هذا الجيش الذي كانت السلطنة العثمانية عماده الاكبر .

الخطر التركي ألفت السلطنة العثمانية خطراً مستمراً على اوربا وشوكة حادة تنخص على اوربا ولسوا اسبانيا في جنباها ، وقد بلغ هذا الخطر أشده في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) . وعندما تم له الاستيلاء على جزيرة رودس عام ١٥٢٣ ، هذه الجزيرة التي كانت تمثل نقطة الدائرة في اعمال القرصنة التي كان يقوم بها القراصنة المسيحيون في الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، اذ كانت سفنهم تقف سداً منيعاً يحول دون الاتصال بالمرافئ والاسلحة الواقعة على سواحل سوريا او في مصر او تتناثر على سواحل افريقيا الشمالية حتى اسبانيا ، اذ كانت هذه الاعمال تقطع اتصالاتها مع صقلية ومقاطعات بُولْيُوتل وناپولي المشهورة بانتاجها ، فتهدد اسبانيا بالجماعة ، كما كان من شأنها ان تشوش عليها امر تنفيق وارداتها من العالم الجديد ، كما كانت تقطع عليها الاموال والعوائد المجدبة من المقاطعات الايطالية كما كان من شأنها ان تهدد املاكها السيادة في ايطاليا ، هذه الاموال التي كانت اساس المعاملات المصرفية مع متمولي المانيا وجنوى ، والتي كانت تمد شارل الخامس وابنه فيليب ، يجانب كبير من الاموال اللازمة للدهوض بالحروب التي خاضها . ثم ان اسبانيا كانت تحسب حساب قيام ثورة مسلحة في اراضيها نفسها كما كانت تخشى ان يقوم الاترك انفسهم بعملية ازالة جيوشهم في بلادها اذ كان لا يزال فيها عدد كبير من ذراري المسلمين بعد سقوط مملكة غرناطة في ايدي الاسبان ، واعداد غفيرة منهم في مقاطعة قشتالة اقسام في مملكة بلنسية عدد كبير من العرب من ذراري الفتح يؤلفون جانباً كبيراً من البروليتارية يعملون تحت اشراف رؤساء مسيحيين . اما في اراغون ، فقد كان عدد العرب كبيراً ايضاً تتألف من بينهم جماعة الصناع ويؤلفون مجتمعات تعمل في الزراعة وتربية الماشية . وكان يوجد بعض جماعات منهم في مقاطعات استوريا وبسكاي ونافار يعملون في الصناعة او في التجارة متنقلين . وألف العرب المسلمون في مملكة غرناطة مجتمعاً حسن التنظيم كان معظمهم من البورجوازيين اغنياء ، ينتشرون في هذه الربوع التي تمتد من مدينة الدبسي الى غرناطة او كانوا يقومون باعمال البستنة ، واستمروا يباشرون بحرية تامة واجباتهم الدينية . ونزولاً عند رغبات المسيحيين ، قام الملوك الكاثوليك ، عام ١٤٩٩ ، بمحاولات كبيرة واسعة لتمثيل هذه العناصر وامتصاصها . وصدرت الاوامر الى عرب غرناطة بوجوب اعتناق المسيحية او النزوح عن البلاد ، خلافاً لمنطوق الاتفاق الذي وقع بين الطرفين ، عام ١٤٩٢ ، هذا الاتفاق الذي ضمن لهم الحرية الدينية وحرية ممارسة طقوس الاسلام . وجرى

تطبيق هذا القانون في جميع أنحاء قشتالة . كذلك طلب تطبيقه بالعنف والقوة نصارى مقاطعات اراغون وكنتالونيا وبلسية اثر هذه الحركات الانتفاضية التي قام بها المسلمون ، سنة ١٥٢٠ - ١٥٢١ واستمر العرب في ممارسة شعائرهم الدينية سرأ في منازلهم بعد ان احتاطوا الامرم ، كما انهم اتخذوا لهم علامات مميزة كاللباس الشرقي واستعمال الحمامات الشرقية والاحتفاظ باللغة العربية . وقد زاد شعور المداة نحوهم بعدما أطل على البلاد الخضر التركي . وقد غذت متاعب الحياة ومصاعب الحسد في نفوس الاسبان بعد الذي رأوه من قنائة القوم وحنقهم ومهارتهم في الصنائع والفنون التي كانوا يتعاطونها، والاعمال التجارية التي كانوا ينصرفون اليها بنجاح . وراح الاسبان ، ومعظمهم موظفون في خدمة الدولة او كهنة في خدمة الكنيسة يتقنون بإعمال العنف والتشفي ، ملهم على الثورة بغطرتهم واعمالهم المشيرة ، ويبتزون اموالهم ومقتنياتهم ، ويسلبونهم نساءهم وبناتهم . وقد عرف عرب الاندلس كيف يحافظون على علاقاتهم الوطيدة مع البلدان والممالك الاسلامية الاخرى وان ينموها ويزيدوها نشاطاً على نشاط . وكانت سفن المسلمين تجوب البحر ذهاباً واياباً بين المرافئ الاسبانية ، والموانئ الاسلامية الواقعة الى الشمال من افريقيا . وراح المسيحيون يتهمونهم بجمع الاسلحة بقصد الثورة واعلان العصيان . فتذرعت الحكومة الاسبانية بهذه الاسباب للقضاء على هذه الفردية ، فاصدرت عام ١٥٦٦ ، امراً يحظر على المسلمين ارتداء اللباس الشرقي ، وإيصاد ابواب منازلهم ليلاً واستعمال الحمامات العامة والانعطاع عن استعمال العربية لغة للتخاطب فيما بينهم . فثار غرناطة ، عام ١٥٦٥ ، وبعد ان اخذت الحكومة الثورة ، عمدت الى تهجير العرب القاطنين في سهول غرناطة الذين كانوا يفتنون ، بمساعدتهم المالية والعينية ، بعض مراكز المقاومة . اما في قشتالة والاندلس والمناطق الريفية الاخرى المحيطة بمديني اشيلية وطليلة ، فقد استمر العرب في اعمالهم ومصالحهم التجارية والصناعية ، يعيشون على هامش الحياة في اسبانيا ، مهمم الاثراء واكتناز الثروات ، رافضين بعناد كلي الذوبان في صفوف الاسبان . وفي سنة ١٦٠٩ ، قررت الحكومة الاسبانية ، التخلص منهم بابعادهم نهائياً واجلائهم عن البلاد .

تقدم الارك في البلقان

تابع الارك تقدمهم في ارجاء البلقان . فاحتل السلطان سليمان القانوني بلغراد عام ١٥٢١ ورفع حدود السلطنة ، من نهر الساف الى الدانوب

ونهر الدراف ثم تجاوزها نهر الدانوب ، ولم يلبث ان هاجم المجر . فبعد ان تمكنت كتائب خيالة المجر ، في معركة موهاكس ، من اختراق صفوف عدة فرق تركية ، راحت المدفعية التركية ورماة الانكشارية تحصد حصدأ ، وقتل الملك لويس في المعركة عام ١٥٢٥ ، ودخل السلطان مدينة بودا عاصمة المجر ، وبذلك انفتحت الطريق امامه لمهاجمة المانيا والنمسا . وجاء السلطان عام ١٥٢٩ ، ينصب الحصار حول مدينه فيينا ، حتى ان طلائع الخيالة بلغت في اندفاعها مدينة راتسبون ، الا انه اضطر ان يرفع الحصار . وبقيت حملات الارك وغزواتهم الدورية كل سنة ، سيفاً مصلتاً فوق رأس النمسا والمسيحية في اوروبا ، الى الحصار الذي تعرضت له

فبينما ، عام ١٦٨٣ . وقد يسر اعمال الفتح في البلقان والتوغل الى الشمال ، هذه الانقسامات التي نشبت بين المسيحيين على اختلاف مللهم ومذاهبهم . فقد خضع الشعب في البلقان لنظام سيادي بغيض وسيطرة شديدة الاسر ، جعل الفلاحين يعمدون كثيراً الى الثورة ضد اسيادهم . ولم يلبث ان حل محل هؤلاء الاسياد ، اصحاب التيارات الذين اخذوا يشددون في جباية الرسوم العينية بدلاً من اعمال السخرة التي أجبر الفلاحون على القيام بها ، من قبل . ولم يلبث هؤلاء الفلاحون ان شعروا بالارتياح الكلي للنظام الجديد الذي أخضعوا له والذي حمل لهم في ثناياه بالرغم من بعض الاعمال التعمسية والابتزازات التي تعرضوا لها ، من وقت الى آخر ، الهدوء والطمأنينة بعد الذي خبروا وعاشوا من الحروب الدائمة بين الامراء المسيحيين ، فاستتب الأمن ، وقطع دابر القرصنة والتعدييات ووضع حد لاعمال قطاع الطرق الذين اعتادوا ان يعمثوا فساداً ، فبرهن النظام الجديد عن روح تسامح ديني ، اذ تركهم يتمتعون بمؤسساتهم وعاداتهم . ثم ان عدداً كبيراً من الدولات التي وقعت فريسة الفتح التركي ، احتفظت بامرائها وحكامها ، بعد ان تمهدت للدولة الفاتحة بتأمين الخراج والاعتراف لها بالولاء والتبعية ، من بينها جزيرة نكسوس ومقاطعة مولدافيا وفلاخيا وترنسلفانيا ، وبقي سكان الجبال على استقلالهم بالفعل معتمدين بمآقلمهم الحصينة . بينما سيطر الاتراك سيطرة تامة على السهول وثغور البلاد ومعابرها الرئيسية لتأمين سلامة شبكة مواصلاتهم . بينما فضل المغلوبون على امرهم النظام الجديد على حكومة الاسبتارية في رودس ، وادارة عمال البندقية في كريت والموريه ، وعلى سلطة الامراء المحليين في صربيا ورومانيا وهنغاريا . وهكذا برز السلطان سليمان الكبير ، سيد اوربا غير المنازع ، له فيها الكلمة الفصل ، فاعاد توازن القوى بين فرنسوا الاول وشارل الخامس . فلولا وجود الاتراك والدور البالغ الاثر الذي لعبوه ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر لكان عامل آل هبسبورغ تمكن من تحقيق الحلم المعسول الذي كثيراً ما دغدغ منه الخاطر .

عجز الاتراك عن فرض سيطرتهم على المسيحية كما فشلوا في القضاء على ما اعترض سبيلهم وحداً من زخم اندفاعهم من روح المقاومة . فقد كانت المسافات الشاسعة العائق الاكبر

الاسباب الكامنة وراء فشل محاولات الاتراك العثمانيين ضد المسيحية

والحائل الاول الذي شل حركتهم وقت في عَضُدِهِمْ . ففي عام ١٥٦٦ ، قضى سليمان القانوني ثمانين يوماً ليبلغ شواطئ الدانوب . وقد كان بحاجة الى قوافل لا تنتهي ، لتأمين توين جيوشه ، تعد من ٢٠ - ٤٠ الف جمل او بعير . وهكذا أصبح تأمين عتاد الجيش امراً صعباً للغاية ، بعد ان ابتعد كثيراً عن قواعده ، ليعمل في بلاد درستها الحرب واقفرتها وكدست فيها الخراب والدمار . وبذلك فرضت المسافات والابعاد على السلطنة حدودها المعقولة .

ومن جهة اخرى ، لم يساند الاتراك جدياً ، في البحر المتوسط ، الحركات التي قام بها الفرنسيون والمسلمون في شمالي افريقيا . فافتنموا من حركاتهم باعمال الغزو والسطو الطارىء ،

أخذاً منهم بعاداتهم المألوفة وتردد الملك الحسن العبادة (لقب ملك فرنسا) . فلو عرف الاتراك عام ١٥٤٣ ، إثر تزولهم في مدينة نيس ، واقامتهم في فرنسا بعد احتلالهم لمدينة طولون ان يشنوا هجوماً مركزاً ضد مسينا و نابولي ، وعرفوا ان يحتلوا هذين المركزين ، لكانوا قطعوا تماماً مواصلات امبراطورية آل هسبورغ ، وقطعوا بالتالي سبل القوافل المحملة قحماً الى اسبانيا ، كما كانوا وقفوا حاجزاً في وجه العبارات الاسبانية التي كانت تنقل الامدادات الحربية والمسكرية الى المدن الايطالية ، ولكانوا سدوا في وجهها منافذ وصول النقد اليها وبذلك هددوا الامبراطورية بامواً مصير وتسببوا بانهارها .

الحرب ضد الفرس اضطر الاتراك مراراً لحوض الحرب على جبهتين ، وان يواجهوا في وقت واحد ، حروباً قامت في جبهات اخرى . ولحسن حظ اوروبا والمسيحية معاً ، فقد ابتلى العالم الاسلامي بالشقاق والانقسام على نفسه . فقد قام السلطان سليم الاول ، بين ١٥١٦ - ١٥١٨ ، بحروبه ضد المماليك في سوريا ومصر ، وقد فتحت له الانتصارات الساحقة التي حققها بفضل المدفعية ، على فرسان المماليك ، ابواب سوريا وفلسطين فدخل دمشق والقاهرة ظافراً ، كما احتل بعد قليل اليمن . كذلك اضطر الاتراك للقيام ، دورياً بجملات تأديبية ضد الفرس ، يستهدفون منها تأمين سيطرتهم على ارمينيا والعراق ، ليلغوا عبرها ، المقاطعات الفارسية ، التي كثيراً ما شرهوا الى امتلاكها كأذربيجان والكرديستان ومقاطعات بحيرة وان وتبريز . وقد تلبست حروبهم ضد الفرس طابع حروب دينية ، اذ ان الفرس كانوا في غالبيتهم السحاقية ، من الشيعة الامامة ، بينما كان الاتراك على السنة . وكان الفرس يقومون بدعوة ناشطة لنشر مذهبهم . وحاول الشاه اسماعيل ، في مطلع القرن السادس عشر ، نشر التشيع بنشر تعاليم الامامية بين سكان الولايات التركية الواقعة الى الشرق من امبراطوريتهم .

بين الشيعة والسنة عداوة زرقاء وعداء مستحكم ، اضطر معه السلطان ان يتوقف عن متابعة الحرب في اوروبا ليرتد يجيوشه ضد ممالك فارس . وكانت اولى ردة فعل من قبل السلطان سليم على جهود الشاه اسماعيل ومحاولته الدعوة للشيعة في الولايات التركية ، ان قام بمذابح دامية بينهم زهقت فيها ارواح كثيرة اربى عددها على ٤٠٠.٠٠٠ شيعي (١٥١٣) ، كما انه ابلغ الشاه ان علماء الاسلام اصدروا فتوى اعلنوا فيها خروجه على الاسلام واستباحوا دمه بوصفه من الخوارج ، معلناً ضده الجهاد المقدس ، وارسل ضده جيشاً مؤلفاً من ١٤٠.٠٠٠ محارب . وتابع سليمان القانوني الذي اتقد غيرة على السنة ، هذه السياسة ، وقام ضد الفرس بعدة حملات عسكرية ، سنة ١٥٣٥ و ١٥٤٨ ، و ١٥٥٤ . وقام خلفاؤه من بعده بعدة تجريدات دارت فيها الحرب سجالاً ، انتهت بماهدة اعادة السلام مؤقتاً بين الطرفين ، ابرمت عام ١٥٩٠ ، نال معها مراد الثالث تبريز وشيروان وبعض المرافىء الواقعة على بحر قزوين ،

وبلاد الكرج واللورستان . وقام السلاطين الاتراك ، بين ١٦٠٢ - ١٦٢٧ ، بمسدة حملات عسكرية ضد الشاه عباس الكبير ، كما قام السلطان مراد ، عام ١٦٣٠ ، و ١٦٣٨ بتجريدتين عسكريتين ضد الشاه صافي .

كان من بعض نتائج هذه الحروب المتعاقبة بين الفرس والاتراك ، ان رفعت الخطر التركي عن الغرب . كثيراً ما تغلب الاتراك بمدفيعتهم الثقيلة على فرق المشاة الفرس التي كانت فرقة الخيالة بينها تستعمل الدبوس والنبوت الحديدي والقوس والنشاب ، الا ان الاتراك عجزوا ، هنا ايضاً ، عن تحقيق نتائج نهائية وتسجيل انتصارات حاسمة لسبب بسيط جداً هو بعد المسافات التي كانت على جيوشهم ان تقطعها . وكثيراً ما كان الامراء المحليون الذين قامت اماراتهم في قلب هذه المناطق الجبلية الوعرة المسالك ، يملون بولائم لهذا الجانب او لذاك ، وفقاً لظروف الحروب . اذ كثيراً ما اضطر الاتراك لحل التجذات الى بعض النقاط والمراكز ، في جبهتهم الطويلة في اوروبا ، لتعرضها لهجوم مفاجيء . وقد استطاع الفرس ان يجهزوا جيشهم في عهد الشاه عباس الكبير ، بالمدفعية ، مما جعل كفة الحرب تميل اليهم .

كثيراً ما اضطر الاتراك للانشاء من حروبهم في اوروبا والانكفاء ليواجهوا
الاصطدام مع البرتغاليين
والازمات الاقتصادية
منافسة البرتغاليين بعد ان اشتدت مزاحمتهم لهم في الاسواق التجارية ، او ليعالجوا الازمات الاقتصادية التي كانت تشتد حلقاتها حولهم على اثر الجفاف والقحط الذي كان ينزل ببعض ولايات السلطنة العثمانية ، وهي ازمات كثيراً ما تضاعفت ورافقتها ازمات اجتماعية واضطرابات سياسية ، على غرار ما كان يصيب اوروبا منها . وقد زادت هذه الازمات عنفاً واحتماماً في السلطنة العثمانية وفي اقطار افريقيا الشمالية من جراء سيطرة البرتغاليين على سواحل القارة الافريقية . والظاهر ان البرتغاليين استطاعوا ان يستصفوا لحسابهم ، الذهب الافريقي وغير ذلك من محاصيل القارة السوداء ، مما ادى الى هبوط فاضح في الحركة التجارية مع اقطار المغرب وطرابلس الغرب ومصر نفسها . كما انخفضت حركة التجارة البحرية بين المرافئ الافريقية القائمة على الساحل الشرقي وجزيرة العرب ، كما نتج ، عن ذلك كله ، تناقص فاضح في النقد الذهبي في العالم الاسلامي المتوسطي . ولهذا رأى الاتراك انفسهم مسوقين لمحاربة البرتغاليين . فقد اصبح الاتراك ، بعد الفتوحات التي تمت لهم ، على سواحل البحر الاحمر وفي العراق كما اصبحوا بعد احتلالهم للسويس والبرصة ، احدى الدول المظلة على المحيط الهندي . ولذا كثيراً ما استنفرهم مسلمو الهند وجزر السوند وطلبوا تدخلهم لمخايتهم من تمديات البرتغاليين . فقد وردت على السلطان ، في القسطنطينية ، عام ١٥٣٨ ، بعثة دبلوماسية من يهادور ، امير غوجيرات ، يشكو اليه عدوان البرتغاليين على بلاده واستيلائهم على مدينة ديو . وفي سنة ١٥٤٧ ، ارسل الامير علاء الدين ، احد امراء الهند ، يستنجد بالسلطان . وفي سنة ١٥٦٣ ، وقد على السلطان وقد ملك أسي يطلب منه تزويده بالمدافع ليرد عنه عادية البرتغاليين ، وهكذا توالى وصول الوفود والبعثات من الهند ومن جزر السند ، حاملين

معهم الهدايا السنوية كالبيغان والتوابل والطيب والبسم والعبيد والخصيان ، يستنجدون بالسلطان ويستنفرون غيرته شعوراً منه ومنهم بالتضامن الاسلامي ، ودفاعاً عن حوزة الدين ومحافظة على هيبة السلطنة ، وحماية للحجاج المسلمين القادمين من الهند للحج الى بيت الله الحرام الذين كثيراً ما تعرضوا لاعمال القرصان البرتغاليين فيُصادرون منهم المواد الثمينة التي كان يحملها هؤلاء الحجاج ومعهم التوابل والخزفيات الصينية وغير ذلك ، ورغبة باستخلاص ذهب افريقيا من الذهاب الى ايدي البرتغاليين ، وتأميناً للخشب اللازم لبناء السفن ، هذا الخشب الذي كانت افريقيا وحدها تستطيع تقديمه للاتراك ، بعد ان ازلوا اسطولهم الى البحر الاحمر والخليج الفارسي ، كل هذه الاسباب مجتمعة ، حملت الاتراك على التدخل.. ففي سنة ١٥٣٨ احتل الاتراك عدن ، وبذلك سيطروا تماماً على البحر الاحمر الذي اصبح بالفعل بحيرة تركية . وقد قام الاتراك ، بهجمات متتالية ضد مدينة ديو ، مفتاح الهند الشمالية الغربية ، وذلك عام ١٥٣٨ ، و ١٥٤٦ ، و ١٥٥٢ ، تمكن البرتغاليون من إحباطها وتفشيها بنجاح ، كذلك اضطر البرتغاليون ان يبذلوا جهوداً مريرة ، حفاظاً منهم على الحبشة المسيحية ، وحاول الاتراك ، مرتين : عام ١٥٥١ و ١٥٥٣ ، ان يسيطروا على الخليج الفارسي ، باحتلالهم لمدينة ارموز فارتدت سفنهم خاصة بعد ان منيت بالفشل الذريع . ومنذ عام ١٥٧٥ ، حملت الازمة النقدية ، وضم البرتغال الى اسبانيا على يد الملك فيليب الثاني ، الاتراك العثمانيين على تحويل جهودهم الحربية الى البحر المتوسط حيث عهدوا الى اسطولهم بمراقبة حركات الدول المسيحية فيه ، وانصرفوا الى محاربة البرتغاليين في المحيط الهندي لكي يؤمنوا لهم ما يلزمهم من الذهب ، فاستطاع الاسطول التركي ، عام ١٥٨٥ - ١٥٨٦ ، ان يفرض فجأة سيطرته على الثغور والحاميات القائمة على ساحل البحر الاحمر ، كما احتل الاسطول التركي مدينة صوفاالا التي كان ينتهي اليها الذهب المستخرج من مناجم مونوموتابا . وقام امير موباسا يعلن ولاءه للسلطان وتابعيته له . لم يطل أمد هذا الفشل اذ استطاع الاسطول البرتغالي بقيادة توما ده صوزا ان يحطم الاسطول التركي في نهر موباسا ثم تحولت المنافسة بين الجانبين الى المحيط قاصح مجالاً لمنافسة حادة بين الطرفين . وهكذا بواسطة هذه الحروب المارضة تحول الخطر التركي عن اوروبا المسيحية .

بعد موت السلطان سليمان القانوني بقليل أخذت تبدو على الاتراك اعراض بين تأخر الاتراك والنظام التأخر والقهقري ، وهي اعراض ازدادت حدة منذ اواخر القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر . ولعلنا نستطيع ان نرد سبب هذا التأخر الى التنظيم الذي كانت عليه الأسرة المسلمة من وجهة تعدد الزوجات . فقد غام حق الوراثة بين اولاد الاب الواحد من عدة نساء مختلفات . ومن هنا طلعت علينا دسائس زوجات السلطان بغية تأمين الحكم لابنائهن ولابقاء هذا الابن الذي اصبح سلطاناً تحت نفوذ

امه باخضاعه لتربية رخوه . هشة ، متخنة بأشباع جميع شهواته ، حتى اذا ما صار اليه امر السلطنة لن يلبث ان يصبح العوبة بيد نسائه والخصيان والوزراء واخوته الذين لا يقفون عنه حقاً في الخلافة فيسلموا بسهولة بمثل هذا التدبير الجائر الذي حرّمهم حقهم المكتسب . فكثيراً ما حملوا السلاح وقاموا بثورات وحروب اهلية في سبيل تحقيق مطامعهم ، كهذه الحروب التي نهض بها وخرج منها منتصراً السلطان سليم الثاني ، بعد موت ابيه سليمان القانوني الكبير . وكثيراً ما لجأ السلطان الى القتل للتخلص من اخوته وبذلك يتفادى مطالبتهم بحقوقهم في الحكم . فالسلطان مراد الثالث الذي اشتهر بتقواه امر بختق اخوته الخمسة ، كما ان السلطان محمد الثالث امر بقتل ١٩ من اخوته .

فالسُلطان سليم الثاني « الكبير » (١٥٦٦ - ١٥٧٤) قد اعتلى العرش عدم كفاءة السلاطين بعد ان اقصى عنه اخوته ، مع انهم كانوا اكثر اهلية منه واكثر لباقة ، وذلك بفضل دسائس زوجته الروسية الاصل روكسلان ، وكان يقضي ايامه قابعاً في خبايا سرايه ، بين الحريم ، تركاً امر تدبير شؤون السلطنة للموظفين الذين وكل اليهم ايوه امر الادارة . وقد تولى الحكم بعده ، عدة سلاطين احدث بينهم السلطان احمد الاول (١٦٠٤ - ١٦١٧) وعثمان الثاني (١٦١٨ - ١٦٢١) ، ولهما من العمر ١٤ سنة ، ومراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) وعمره ١٢ سنة ، ومحمود الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) ، وعمره ٧ سنوات . حكم هؤلاء تحت اوصياء لعبت النساء في عهدهم دوراً رئيسياً .

وقد استسلم السلاطين الاتراك للنساء بعد ان افسدتهن التربية المترفة ، المهففة التي خضعوا لها منذ نمومة اظافرهم ، تقصت ايامهم بين الكأس والطاس والقصف ؛ لا يتفون على شيء من امر السلطنة ، ولا يباليون بشيء البتة ، فاصبحوا عاجزين عن اتخاذ اي قرار او النهوض باية مهمة او القطع باي امر . فالسلطان مراد الثالث ، مثلاً راحت امه تشجعه على العبث والتسرّي ، نكايته بزوجه ، فانجب مائة ولد وانتهى امره مصاباً بداء الحُبّاط . وقد جن ابراهيم الاول بعشق النساء ، فتيمة الفسق وتمتعه السكر ، فلم ير رجال البلاط بدأ من التخلص منه خنقاً .

كان هؤلاء السلاطين عاجزين ، فقبهوا في زوايا قصورهم بعيدين عن رعاياهم وتركوا شؤون الدولة وامورها جانباً ، وانقطعوا عن ترؤس مجلس الوزراء ، وابعدوا عنهم المتظلمين ولم يجلسوا للقضاء . فلم يُخضِعوا الوزراء والحكام لاية مراقبة وقعدوا عن الحرب . ثلاثة من بينهم لا غير قادوا جيوشهم ، اثنان منهم لمسدة وجيزة ، هما محمود الثالث في حملته على كارازتس ، وعثمان الثاني في حملته على خوتين ، واخيراً مراد الرابع الذي كان بالفعل ، رجل حرب وجهاد . وفقد السلاطين النفوذ والهبة التي كانت تحف بالسلطان من قبل كقائد مظفر ، ولم تعد فرقة الانكشارية ، لترعى لهم حرمة . ولما ساء ما كان عليه السلطان سليم الثاني من ماضٍ قدر لا يشرف صاحبه ، استصدروا ، عام ١٦٢١ ، من شيخ الاسلام ، فتوى

بجملته : أمن الجائر شرعاً قتل الذين يحملون السلطان على التزام الناس الأخذ بالتجدد ويعملون في الوقت ذاته على تبديد مال المسلمين ؟ ، ولما جاءت الفتوى بالايجاب راح الجندي يقتلون السلطان ويعينون مكانه ، شخصاً بسيطاً مسكيناً هو السلطان مصطفى العاشر الحظ ، وهكذا نرى لأول مرة ، رعايا السلطان يقومون بقتله وما كان جندي الانكشارية ليثوروا من قبل الا تلبية لمطلب احد الطامعين بالخلافة من افراد الاسرة الملكية . فان دل هذا القتل والظروف التي تم فيها على شيء ما ، فعلى ما وصل اليه الجنود والعلماء من اهمال واعراض وسد مبالاة لدم عثمان الاول .

تنظيم الاسرة في الدولة : الفوضى مالم يحجره سوء سلوك ملك ، في الغرب ، من المحاذير والعواقب على مملكته . فالسلطنة العثمانية لم تؤلف دولة ، بالمعنى الحضري . فلم تقم فيها نظم ولا منظمات رسمية ، ولا مؤسسات اجتماعية ، لها حياتها الخاصة ، ولا قامت فيها جمعيات استوت على نظام . فالدولة كانت عبارة عن اسرة ، او بالاحرى ، احد اعضاء اسرة السلطان عثمان يختاره الجيش ويعينه رئيساً له وحاكماً عاماً . فالاسرة ، في الشرق الاسلامي لا تؤلف كائناً او وجوداً له كيان شخصي ، مستمر ، كما هو معروف عن وضع الاسرة ، في الغرب . فهي لا تحمل اسماً تُعرف به وتتميز بجملة . فالافراد يحملون اسمهم الشخصي متبوعاً باسم الوالد او الاب ، فالمؤقت صفتها الملزمة . فهي تقوم مقام الاب اذا وجد . اما اذا مات وتوارى ، تشتت الاسرة بـدداً وتبعثر افرادها . فاذا مات السلطان زال معه كل شيء . فاذا ما انكشف ضعف السلطان ، اخذ كل شيء بالتفتت والانهيار . وهكذا اخذت السلطنة العثمانية بالتفسخ تدريجياً .

كثيراً ما تولى الصدارة العظمى اشخاص لا قيمة كبيرة لهم ، اذ جرى تعيينهم بتوجيه من الخصيان او من نساء السلطان ، وراحو فريسة الدسائس ، وبقي واقع الحكم والادارة بيد الخصيان والعبيد والزواج ، وراحت اموال الدولة نهياً بين من عرفوا من اين تؤكل الكتف فيمعنون عبثاً وعبثاً . فتناقلت الضرائب على الاهلين وأن الناس وتعلموا . وقد كتب احد المؤرخين قائلاً : « فبدلاً من ٤٠ او ٥٠ اسبر » توجب على كل منزل دفعها ، اصبح المنزل يدفع اليوم ٣٠٠ اسبر ، وبدلاً من نصف درهم يجب دفعه عن كل رأس غنم ، صار المرء يدفع ٧ - ٨ اسبر . ولم تكن الضرائب لتفسي بالفرض ، مما اضطر اولو الامر معه الى تخفيض قيمة النقد ، وبيع املاك الدولة وكل ما كان يرتبط بالإدارة العامة . واخذت الحكومة تبيع المناصب لمن يدفع احسن الاسعار ، وبيعت مراتب الانكشارية ، وبطلت عادة انتقائهم من بين المسيحيين . كذلك ابطلوا اخذ بضريبة الاعناق وكثيراً ما رأينا اصحاب المهن والصنائع ، واصحاب الدكاكين يشترتون وظائف الانكشارية . وارتفع عدد افراد فرقة الانكشارية من

١٢٠٠٠ الى ٤٦٠٠٠٠ . وقد جرت الحرب على معظم هؤلاء المدنيين المرتدين بزة الانكشارية ، الشؤم . اذ كان معظمهم يخلي المعركة ويهرب فاراً من امام العدو . وهكذا أصبحت هذه الفرقة ليماً يتخبط افرادها بالفوضى والدسائس .

كذلك بيعت بيع السلع بالمزاد ، الشهادات العلمية والمراتب الحكومية ، ولكي يوفروا ظروف الانتفاع وامكانات استغلالها ، كان القضاة والعلماء والأئمة والاساتذة يعينون في وظائفهم لمدة معينة ، ثم يعزلون منها ، ليفتحوا المجال لصفقات جديدة . وهكذا ضعفت بين الناس الرغبة في العلم ، كما ضعف الضمير المسلكي بين الناس .

ومنذ عام ١٥٨٢ ، أخذت التيارات ومراتب الزعماء تباع علناً لمن يقدم أحسن الاسعار ، أو توزع بدلاً من النقد على الحصيان والاقزام ، والمعتمدين ، وعلى النساء . وراح الحكام والوزراء يبتاعون منها ما تيسر ، وان تعذر عليهم ذلك ، عمدوا الى الاختلاس والمصادرة . وهكذا ألفوا عقارات سيادية واسعة عُرفت باسم جفتلك ، ولكي يجعلوها بأمن من كل مصادرة من قبل الحكومة ، أعلنوها أوقافاً ذرية يستثمرون ايرادها ، كما كان وكلاء الاديان يستثمرون ، في الأجيال الوسطى ما لهم من عقارات واسعة . وهكذا طلعت في البلاد أنواع جديدة من الاقطاع عُرفت بعدم انتظامها ، كما ان عدد أفراد الجيش هبط كثيراً . فقد كانت مقاطعة الرومي ، تعطي من قبل ، من ٧٠ - ٨٠ ألف خيال ، والبانيا ٣٠ ألف خيال ، وديار بكر وكرديستان ٢٠ ألف ، وارضروم ٢٠ ألف . أما اليوم (١٦٨٢) فقد هبط هذا العدد جداً ولم يعد يتعدى ٧ - ٨ آلاف فارس لكل من هذه المقاطعات ، بينهم عدد كبير من الارقاء والعبيد المرتزقة .

وهكذا تفشت الفوضى في السلطنة ، وأصبحت القسطنطينية مسرحاً لتنافس افراد الإنكشارية والصباحيين والعزب . وأعضاء نقابات المهن الحرة والعلماء عندما يكون السلطان تحت الوصاية . وكثيراً ما قام الجند باعمال النهب والسلب والقتل والحريق ، ثم يأخذ بالتحزب مع هذه أو تلك من أمهات السلاطين ، وزوجاتهم ، وأصبحت العاصمة سوقاً نشطت فيه الدسائس وحيكت الاحابيل وفسدت الضمائر بعد ان باعت نفسها بالمزاد لمن يدفع احسن الاسعار .

وكثيراً ما قام الحكام ، على المكشوف بثورة ضد السلطان ، او ضربوا عرض الحائط بالاوامر الصادرة اليهم . فقد كانوا يشرفون على املاك طائلة ويتولون ادارة ولايات واسعة فيفرضون على الاهلين ضرائب ورسوماً لم ينزل الله بها من سلطان . وقاموا باعمال لصوصية في نفس الادارة . وانتشرت اعمال اللصوصية بعد ان الغى الاتراك عادة إنتقاء افراد فرقة الانكشارية من بين اقوى الفتيان المسيحيين من الاسرى واشدهم بأساً ، واضطرت السلطة لان تتخلى للمدن والقرى الجبلية عن امر الدفاع عن نفسها بتشكيل قوة محلية تكون قيادتها لا احد المسيحيين ،

كما شهدوا في بعض الجزر اليونانية وشبه جزيرة الموديه قيام بلديات ومجالس ادارية لتدبير شؤون الجماعة .

كان يتبوأ عرش السلطنة من وقت لآخر ، سلطان شديد الشكيمة ، مهيب الجانب مثل السلطان مراد الرابع (١٦٣٢ - ١٦٤٠) وصدر أعظم يتصف بالمقدرة والنزاهة امثال الكوبرلي من أصل أرناؤوطي (كوبرلي الاول ١٥٦٦ - ١٥٦٨) ، واحد كوبرلي الثاني (١٦٦١ - ١٦٧٦) وكوبرلي الثالث مصطفى زاف (١٦٨٩ - ١٦٩١) وكوبرلي حسن امودجه زاده (١٦٩٧ - ١٧٠٢) ، فكان يدحرج رؤوس الوزراء والدفتردار وحكام الولايات والقضاة وافراد الانكشارية الذين يخرجون عن جادة الصراط القويم ، ويرغم على الطاعة وتقدم الولاء الولايات الثائرة ، ويشطب من سجلات المالية اسماء الانكشارية والصباحين ، ويعيد النظر في جدول امسحاب الاقطاع ويصححها ويتشدد ضد استئثار القضاة لوظائفهم ، وتلاعب المحاسين . ويمجد قيمة واردات الدولة ومرقيات الجند ويؤمن انتصارات الجيش او يحدد نتائج الانكسارات التي يبنى بها :

ولهذه الاسباب أخذ الاتراك بالتباطؤ ليتوقفوا عن السير تماماً . فقد قضاوا للهلم المئتين عشرين سنة ، في فتح جزيرة كندى او كريت (١٦٦٩) ولا يزالون مفرجة أوروبا ، ولكن قام بينهم وبين أوروبا المسيحية شيء من توازن القوى ، ولو بصموبة ، في القرن السابع عشر . وهذا الركود يصاب به الاتراك تقنياً ، ادى الى تأخرهم فلم يعد تحت تصرفهم ما كان تم لهم من صناعات مهرة وهذه المدفعية الشديدة الفعالية ، وهذا العدد العديس من الاسرى وأسلاب الحرب التي كانت تحبب اليهم الحرب وتحقيق الظفر . باستطاعتهم ، وائم الحق ، ان يحصلوا ، على أوروبا من تقنيين ، الا انهم بقوا عاجزين عن تمثيل ما يقتبسون من جديد الفنون والاختراعات واستناره على الوجه الأفضل ووضع موضع التنفيذ . وبقيت الحضارتان الاسلامية والمسيحية قائمتين وجهاً لوجه دون ان يتجازجا او ان تنصب الواحدة في الاخرى .

ولم يلبث ان ظهر تأخر الأتراك للميان ، بعد حصارهم لمدينة فيينا ، عام ١٦٨٣ ، اذ استطاع الامبراطور ان يلحق بهم هزائم نكراء وان يرغهم على عقد معاهدة كارلوتز ، عام ١٦٩٩ ، وان يتنازلوا له ، بموجب هذه المعاهدة ، عن هنغاريا وسلافونيا وترنسلفانيا . وبعد صد الاسلام واجباره على التقهقر في الغرب ، ممثلاً بطرد العرب من اسبانيا ، بدت عليه عوارض قوية على تقهقره في الشرق .

يبدو ان المغرب اصبح في القرنين السادس عشر والسابع عشر مسرحاً للمغرب والمد القبلي لتدقق البدو واستشاطتهم دفاعاً عن الاسلام . فالانتصارات التي حققها المسيحيون اثارت ردةً عنيفة في اسلام المغرب . فقد شعرت القبائل بتناقص الحركة التجارية بعد

ان عرف البرتغاليون وخلفاؤهم في هذا المجال ، من الهولنديين والانكليز والفرنسيين ان يحولوا ، شطر سواحل افريقيا الشرقية ، حركة انتقال الذهب والاتجار بالرق الى هذه المنطقة . كذلك أخذ البدو يشعرون بوطأة الغزوات التي أخذوا يتعرضون لها من قبل الحاميات الاوروبية التي ركزت أقدامها ورسخت سيطرتها على سواحل المغرب الشمالية ووسعت من نشاطها الزراعي ولاسيا زراعة الحنطة بقصد تصديرها الى اوروبا . والشر كل الشر في نظرهم كان مبعثه ومصدره هؤلاء الروم الذين يحملون لهم في القلوب كرهاً شديداً ولذا انفجرت قلوب هذه القبائل البدوية بالحقد على هؤلاء الطارئين . وقد تجلبى الحقد الديني على الاخص في هذه المراكز الدينية القائمة في قلب الواحات الواقعة الى الجنوب بمنأى عن مساعدة الألوف من العرب المسلمين الذين تم إجلاؤهم عن اسبانيا ، فراحوا يفرغون جام غضبهم على سكان المدن الساحلية ، وعلى السلاطين وعلى القراصنة الذين ينعمون بما ينعمون به من رغد ومجبوحة بينما ترسب القبائل البدوية في فقر مدقع ، فراحوا يوجهون لهم التهم بالتعامل مع الكفار ، اذ يرضون منهم بافتكالك اسراهم لقاء بعض الترهيبات ، او بالاتجار معهم وباستخدامهم والاستفادة من معلوماتهم التقنية والفنية . ففي الجزائر وفي تونس ، اخفق البدو اخفاقاً ذريعاً بعد أن تصدت لهم المدفعية التركية وحصدتهم حصداً . اعتدنا أن نرى في الغرب سلالات ملوكية تطلع من الجنوب وتستولي على الحكم ، وتأخذ بأسباب العمار والتحضّر ، ثم ترى نفسها ، في نهاية المطاف ، تتعامل مع المسيحيين ، الى ان يعتمريها الانحلال والفساد عن طريق الانحراف الى لذائذها ، لتفسح المجال ، من جديد ، لسلالة جديدة تسير على النهج ذاته .

في أواخر القرن الخامس عشر ، يقع المغرب للاسباب ذاتها التي ادت الى انحلال السلطنة العثمانية ، في حالة مؤسفة من التضعف والتفسخ . فالدولة الحفصية اقتصرت سلطتها على تونس وضواحيها ، كما ان ملكة ابي الوديد سيطرت على تلمسن وحدها . وقد انشاحت الجزائر وتونس الى عدد من الامارات المستقلة والى اِحلاف قبلية ومدن حرّة . وألفت هذه المدن الحرة جمهوريات جرى تنظيمها على أساس من التنافس أهمها تونس وبنزرت وبوجي ، والجزائر ووهران ، وكان القرصان يقومون بأعمال الجهاد المقدس ويهاجمون المسيحيين ويفزون السواحل ، وينقضون على السفن ويقومون بجلب الميرة والذخيرة لعرب اسبانيا . وقد أوجس الاسبان في احتمال قيام حلف يضم السودان وأمراء المغرب فيبادر اعضاؤه الى مساعدة العرب في اسبانيا ، بعد ان قامت غرناطة بثورة عام ١٥٠١ .

ولكي يقضي الاسبان على كل خطر يتهدد طرق مواصلاتهم في الحوض الغربي من البحر المتوسط وكل محاولة ازال جيوش عربية جديدة في اسبانيا ، وتأميناً لهم بعض القواعد الامامية

على سواحل افريقيا يتخذها القرصان المسيحيون 'تكأة' لهم وملجأ خلال اسفارهم التجارية ، قاموا بمحملة صليبية ، فاحتلوا تباعاً المرسى الكبير ، عام ١٥٠٥ ، وهران (عام ١٥٠٩) ، وبوجي وطرابلس الغرب (١٥١٠) ، والبنون (الجزائر) واضطروا امراء هذه المدن على دفع جزية لهم . الا ان امور اسبانيا وقضاياها جعلتهم يقصرون احتلالهم على هذه المدن دون التوغل في داخل البلاد ، الامر الذي اثار كثيراً من المضاعب في وجوههم ، كما سبب لهم مشاكل عدة مع سكان البلاد ، اذ ان عدم انتظام وصول الامدادات بالدقة اللازمة ، حمل هذه الحاميات على القيام ببعض اعمال الغزو في الداخل .

واخذ المسلمون يلتمسون مساعدة بعض القرصان الذين اتخذوا من بلدة جيلجلي قاعدة لهم بقيادة اربعة اخوة هم الاخود باربروسة . وفي سنة ١٥١٦ أصبح اوروج باربروسه سيد الجزائر وباشر عمله باخضاع داخل البلاد لسلطته ، وبعد وفاته ، عام ١٥١٨ ، قام بالأمر اخوه خير الدين الذي أسس نيابة السلطان في الجزائر . ولكي يتخلص من الاسبان والمسلمين المغلوبين على امرهم الذين كانوا يرغبون في اقتناكهم قدّم ولاءه للسلطان سليم الذي جاد عليه بلقب باشا بركلي وبقوة مسلحة قوامها ٣٠٠ جندي ومعهم مدفعية يردفهم اربعة آلاف من الانكشارية .

واستطاع عام ١٥٢٢ ، ان يتغلب على حلف تألف من سكان الجزائر وبعض القبائل ، ثم استولى على مدينة كولوبون (١٥٢٣) وله بينون ، وانشأ في مدينة الجزائر ، مرفأ يلجأ اليه القرصان المسلمون فيجعلون سفنهم بأمن من كل خطر ، بعد ان كانوا يسحبونها من قبل على الرمل . من هذا المرفأ الذي اصبح القاعدة للقرصان المسلمين ، استطاعوا ان يتحكموا بالمواصلات الحربية بين جبل طارق وحوض البحر المتوسط الشرقي ، وهددوا خطوط المواصلات مع ايطاليا وصقلية .

كان على رأس دولة الجزائر حاكم يلقب بيلربك او امير الامراء ، يعينه السلطان ، يكون رئيساً لباشوات تونس وطرابلس الغرب . ومنذ سنة ١٥٨٧ ، استبدل اللقب بلقب باشا ، وامتدت سلطته الى المدن الثلاث : الجزائر وتونس وطرابلس الغرب التي تألفت منها نيابة ملكية . ومع ان البيلربك لم يكن ملازماً للعمل بموجب نصائح مستشاريه ، فقد كان يترقب عليه ، كما يترقب على الباشا بعده ، ان يراعي الى اقصى حد ، وجهة نظر قيادة فرقة الانكشارية ورئيس فرقة القراصنة الذين كانوا ينتدبون بعض اعضائهم للعمل في ديوان الباشا . وقد قام مندوبو فرقة الانكشارية ، وفرقة القراصنة ، بعد عام ١٥٨٧ ، بمهام الحكم ، فعلا . وعندما دب الفساد الى جسم الدولة العثمانية ، دب الانقسام بين هؤلاء الحكام ، وقامت المنافسة بينهم الى ان تمت الغلبة للانكشارية ، سنة ١٦٥٩ . وفي سنة ١٦٧١ ، عهد القراصنة بهذه الحاكمة الى واحد من رؤسائهم بلقب داي . وفي سنة ١٧١١ ، رفض الداوي الثاني ، علي شاوش ان يقوم باستقبال باشا واقنع السلطان في القسطنطينية ان ينعم عليه بهذا المركز . ومنذ ذلك

الحين اصبحت الجزائر ولاية من ضمن الولايات التابعة للسلطنة العثمانية . وفي سنة ١٥٩٠ ، قام ضباط الجيش ، يختارون حاكماً لتونس يحمل لقب باي ، يحل محل الباشا . وبعد سلسلة من المناقشة الطويلة بين الداوي والباي ، وقادة الفرق التي كان ينشط بها جباية اموال الميرة والضرائب المرسومة وقيادة القبائل ، نودي بالأغا حسين بن علي قائد فرقة السباهيين . بك ، فألقي لقب داي (١٧٠٥) واسس دولة وراثية بقيت في دست الحكم حتى القرن العشرين . وكان عدد كبير من افراد فرقة الانكشارية والقراصنة والسباهيين المارقين عن دينهم المسيحي ، ينتمون في اصلهم الى سكان هذه الولايات الواقعة حول حوض البحر المتوسط ، او كانوا يرسفون ، من قبل ، في الأسر . واسوة بالسلطنة العثمانية نفسها ، وقعت هذه الولايات البعيدة عن المغرب فريسة عصابات من المكريين ، كانوا من قبل ، اسرى او من الجاحدين لدينهم ، وراحوا يستغلون سكان البلاد ابشع استغلال . وقد فتح الاتراك الجزائر بالفعل ، ووضموها حاميات قوية في المراكز الاستراتيجية الحاسمة ، واسوا ، منذ عام ١٥٦٣ ، قبائل المخزن تولت مع بعض الفرق العسكرية ، جباية الضرائب والرسم . وقد أبعده عن الوظائف العامة وعن الخدمة العسكرية ، عرب الاندلس من سكان المدن ، واحتفظ بها للاتراك الصميمين او للمسلكين من الجند . وكثيراً ما استعانوا بالقبائل المغلوبة على امرها او باصحاب الرُّبُط والارفاض المغالين في عصبيتهم الدينية .

واخذت مدينة الجزائر تتطور . فقد بلغ عدد سكانها ، في منتصف القرن السادس عشر نحواً من ٦٠.٠٠٠ ، ومعظمهم من المارقين عن دينهم ، بينهم اكثر من ٢٥,٠٠٠ اسير مسيحي وزاد عدد سكان هذه المدينة ، عام ١٦٥٠ ، على ١٠٠,٠٠٠ ، تراوح عدد الاسرى بينهم من ٢٥,٠٠٠ - ٣٠,٠٠٠ اسير . فقد كان القرن السابع عشر العصر الذهبي الذي بلغته القرصنة ، بعد ان ادخل القرصنة تحسينات عامة على سفنهم ، اذ رفعوا حاققتها عالياً . ويقدر عدد الاسرى الذين وقعوا بين ايديهم ، عام ١٦١٥ - ١٦١٦ ، بين مليونين وثلاثة ملايين أسير ، بحيث ألتف الاسرى اربح تجارة على الاطلاق ، وازداد الطلب على الفتيان من الشبان والشابات ، اذ كان مصيرهم معروفاً من قبل ، كما كانوا يهتمون بالاختصاصيين بين الاسرى ببناء السفن والذين يحسنون الاعمال المرفئية ، والطويجية . فليس بمعجيب قط ان تكثر اعمال الارتدادات بين هؤلاء الاسرى من المسيحيين ، ويحصدون دينهم بالرغم من عمل المرسلين وعمل بعض الرهبان كالرهبان الثالوثيين والعاذريين ورهبان سيدة الرحمة ، مع ان الحرية الدينية كانت متروكة ، في اكثر الاحيان لهؤلاء الاسرى ، كما تركت الحرية لهؤلاء الكهنة ليقدموا لهم الخدمات الدينية ، مع العلم ان اعتناق الاسرى للاسلام لم تكن ، في نظر القرصنة ، عملية ناجحة ، لانها كانت تفوت عليهم عملية الافادة من الفدية . وكنا نرى بين هذه المدن تجاراً اوروبيين يقيمون فيها بعد ان ينالوا ، لقاء دفع رسم عال ، ترخيصاً خاصاً من نائب السلطنة للعمل فيها ، كما كانوا يدفعون بالاضافة الى ذلك ، رسماً على الخروج . وقد برز في هذه الحركة

اليهود وسكان مدينة مرسيليا . الا انهم واجهوا ، بعد عام ١٦٨٥ ، منافسة قوية من قبل بروتستانت اللانغدوق اللاجئين . وكان الاوروبيون يتعاطون تصدير الجلود والشمع والصوف والتمر وريش النعام والمرجان والحبوب ، وغير ذلك من الاصناف ، كما كانوا يصدرون ، من مدينة تونس ، الاسفنج ، وكانوا يستوردون الاسلحة على انواعها والخبز ، والاقمشة . وكثيراً ما عمد الحكام ، في حال هبوط معدل الاسرى ، الى فرض ضرائب جديدة ، وفي هذا ما فيه من ازعاجات ومضايقات . ولذا لم يكن سكان الجزائر يتعاملون الا مع الدول ، بينما كانوا يعاملون الآخرين بدون رحمة . وقد أحدث الصلح المقود مع الهولنديين ، عام ١٦٦٣ ، ردة فعل قوية لدى القرصنة ، فزادوا من نشاطهم ضد الفرنسيين ، ثم تم الصلح مع الفرنسيين عام ١٦٧٠ في عهد لويس الرابع عشر ، واستئنفت الحركة بعنف ضد الانكليز والهولنديين . ولذا كانت هذه الدول ترسل ، الفينة بعد الفينة ، اساطيلها الحربية ، تخطر مدينة الجزائر ، وابسلا من المدافع ، يضطر معها الجزائريون للدخول بمفاوضات جديدة ، مع العلم ان الفرنسيين كانوا يتمتعون ، على الغالب ، بوضع افضل من سائر الدول الاخرى .

المغرب الأقصى في اطراف العالم الاسلامي الغربي ، تمزله عن باقي المغرب المستقل :
العالم الاسلامي ، سلسلة جبال الاطلس الشاهقة العلو ، فيتضرس من البحر المتوسط الى السودان
هو ايضاً ، على اقدار ، بحوادث العالم الاسلامي في البحر الابيض المتوسط . وقد تعرض المغرب على الاخص لهذه التدابير والاجراءات التي اتخذها المسيحيون في هذه البلاد والتقدم الذي حققوه فيها .

فند ان عمل البربر ، بين القرنين الثالث والثامن ، على تأهيل الجبل في اقطار افريقيا الشمالية واقاموا ، عبر الصحراء ، علاقات تجارية لهم ، ربطت ما بين المغرب والسودان ، اصبح سعر الذهب الافريقي ، في المغرب ، رخيصاً بينما سعر الفضة فيه كان مرتفعاً ، بحيث اصبحت النسبة بمعدل ٩ - ١ ، واصبح بالتالي التبادل به ميسوراً بمعدل الفضة الاوروبي الذي كان يستخرج بكثرة من مناجمه الغنية في القسم الجنوبي الشرقي من المانيا وبوهيميا وهنغاريا والتيرول ، حيث كان سعر الفضة رخيصاً وسعر الذهب مرتفعاً بنسبة ١١ - ١ واكثر . وكان الذهب يصل من جبال الغنيه ومن باموك وغنفران وفوتا جالون ومن مقاطعات سيراليون وآشنتي وموسني . ومن القرن الحادي عشر الى الثالث عشر ، تركزت حركة الاتجار بالذهب ، في قلب الامبراطورية السهلية والسنغالية التي كانت عاصمتها غانا ، وهي مدينة اسلامية كبيرة قام فيها ١٢ مسجداً وزخرت بعدد طيب من الائمة والفقهاء والادباء ، وكان يؤمها عدد كبير من التجار العرب والبربر . انهارت امبراطورية غانا في مطلع القرن الثالث عشر ، وحلت محلها امبراطورية زنجية ، قوامها قبائل الماندنغ ، ازدهرت في القرن الخامس عشر . كانت عاصمتها مدينة مالي . كان ملوك مالي او منديانسا مسلمين . ومن مالي كانت القوافل تخرج محملة بالذهب باتجاه تمبوكتو ، وكوكبا والقاهرة ، او باتجاه تمبوكتو واودان المغرب ، ووهران وتونس . وكان المغرب الاقصى الحد الابعد الذي تنتهي عنده الطرق الصحراوية . ومنذ

القرن الثالث عشر كان التجار من جنوى والبندقية يأتون الى لاراش وأرزلا وصافي بحثاً عن ذهب السودان . وقد دفعت اسباب كثيرة البرتغاليين للسيطرة على مرافئ المغرب الاقصى الواقعة على الساحل الغربي ، منها الرغبة في السيطرة على منافذ الطرق الصحراوية وابعاد كل منافس او مزاحم لهم عليها . وفي سبيل السيطرة على ذهب السودان والتصرف به بحرية ، اقام البرتغاليون لهم حاميات قوية في الربو ده أورو ، عام ١٤٤٢ ، واحتلوا جزر أرغوين ، عام ١٤٤٤ . ومنذ سنة ١٤٥٠ حتى اواخر القرن السادس عشر راحت عمارات من سفن الكرافيل البرتغالية يتراوح حجم الواحدة منها بين ٥٠ - ٦٠ برميلا تتغلغل داخل الانهر الساحلية ، في الغنيه يقايضون مع سكان البلاد ، الملح وسبائك النحاس الاصفر وطسوت الحلاقيين والدسوت النحاسية والاقمشة الناعمة والحراير مقابل مسحوق الذهب . واكبر مراكز لحركة المقايضات التجارية هذه ، قامت في اسواق كنتور على نهر النغمي ، على بعد ٧٠٠ كلم من البحر ، فنشطت الحركة فيه من سنة ١٤٥٦ الى ١٥٨٦ ، وفي مدينة جورج ده لامنا ، منذ سنة ١٤٧١ الى ان استولى عليها الهولنديون ، عام ١٦٣٧ وقد ألف ذهب المينا احتكاراً خاصاً بملك البرتغاليين . وفي كل شهر ، كانت سفينة تغادر مدينة سانت جورج هذه الى لشبونة . وبلغت كمية الذهب التي خرجت من مدينة ، لامينا ، بين ١٥٠٠ - ١٥٢١ نحواً من ٤١٠٠ كيلوغرام في السنة الواحدة . وبلغت تجارة البرتغاليين بالذهب أوجها بين ١٥٣٩ - ١٥٤٩ . وحاول البرتغاليون ، في راس ده غيه ، حصر السكر الوارد من مقاطعة السوس ، منعاً لكل مزاحم للسكر الذي كانت تنتجه الجزر الخالدات وجزر الاسور ، كما احتكروا القطن والنيلة الذي يستورد من بلاد السوس ومنعوا وصول الذهب الى مملكة مراكش التي اخذت تعاني شديداً من أزمة اقتصادية . وهكذا حالت الكرافيل دون الجمل في نقل الذهب .

وقد ضعفت تجارة البرتغاليين بالذهب خلال الازمة التي اشتدت بين ١٥٤٥ - ١٥٥٢ لاسباب عديدة ، منها : اشتداد القرصنة وحركة التهريب التي قام بها الاوروبيون على سواحل افريقيا الغربية ، وفي خليج الغنيه ، ومعظمهم من الاسبان منذ سنة ١٥٤٧ ثم الانكليز منذ ١٥٥٥ ، ثم الفرنسيين والهولنديين الذين كان لهم عام ١٦٠٥ ، عشرون سفينة تعمل في خليج الغنيه وحده . ومنذ سنة ١٥٥٠ ، كان استثمار ذهب لامينا عملية خاسرة .

من ام الاسباب التي ادت الى تفشيل العملية ، ردة الفعل الاسلامية . فقد انتقل مركز الاتجار بالذهب شمالاً نحو السهل ، بعد ان سقط اتحاد مالي نهائياً بعد حامية سنراي في غاو ، في مطلع القرن السادس عشر ، وقد حلت تمبوكتو وجنّة محل مالي كمستودع وكسوق يلتقي فيه التجار القادمون من المغرب الاقصى ، ومن يفسدون من بلاد الذهب . وقد سيطرت امبراطورية أكيا الاسلامية الواسعة الاطراف التي قامت في غاو ، على مناطق الذهب والملح ، كما منها مقاطعة هاروسا وعايير ، مع ملاحات توتيك ومناجم النحاس في أكدا ، كما

وقعت تحت اشرافها الطرق التي تربط الصحراء الكبرى بالسودان. وهكذا ارتد ذهب السودان من شواطئ الاطلسي نحو بلدان البحر الابيض المتوسط . ان ظهور هذه الامبراطورية وازدهارها لم يكن غريباً عن استئناف سك العملة الذهبية ، في مصر بعد عام ١٥١٦ ، وبعد وصول الدولة السعدية ، الى الحكم في المغرب . وهكذا تأثر الجمل لنفسه من الكرافيل التي زاحته من قبل .

شعر الناس عميقاً بالتأخر الذي لحق الاسلام في المغرب الذي كان ينبض بشعور ديني قوي للغاية . وقامت في طول البلاد وعرضها زوايا كانت ، في الوقت ذاته تكميا ومدارس وملاجيء ينصرف فيها المتصوفة وشيوخهم ، للشطحات الروحية ، كما كان فيها عدد من الاولياء المرابطين ، تحدر بعضهم من الشرفاء ابي من سلالة الرسول العربي ، يتمتعون بحبة الناس وتقديرهم بما فيهم من بركة . وقد شعر هذا الفريق من الناس اكثر من غيره بهذا التأخر بمنسى بها الاسلام في المغرب وكان نفوذهم كبيراً على جمهور المؤمنين ، كما كان شيوخ الزوايا يعطون كلمة السر الى اتباعهم .

وهذا الحقد يمحيش في صدور المتصوفة ضد المسيحيين لم يلبث ان تحول ضد دولة الوطاسين التي عجزت عن وضع حد لتعديت المسيحيين على البلاد كما عجزت عن تهدئة خواطر الشعب ، واعادة الثقة الى نفسه عن طريق فريق العلماء ورجال الدين . وقام الشيوخ يساندون كل الحركات الانتفاضية والمحاولات الثورية التي قام بها الشعب ضد هذه الحكومة كما ان هذه الدعوة لقيت تأييد قبائل البربر في المقاطعات الجبلية .

لعب الجنوب الدور الرئيسي في هذه اليقظة الدينية اذ انطلقت القبائل منه تعلن الحرب والجهاد المقدس ، بقيادة بني سعد في السوس ، الذين كانوا يدعون انهم من سلالة النبي العربي ، وراحوا يحاربون البرتغاليين . واستطاعوا بواسطة الذهب الذي تلقوه من السودان ، منذ سنة ١٥٠٩ ان يجهزوا انفسهم بما يحتاجون اليه من المدافع والبنادق والعتاد الحربي . فاعلنت منطقة سوس استقلالها ، منذ سنة ١٥٠٩ وعكنت عام ١٥٣٧ ، من الاستيلاء على مدينة طفيلة التي كانت المركز الذي يمر منه الذهب القادم من تمبوكتو . ثم اخذ بنو سعد يستولون على المراكز الحربية التي كانت بيد البرتغاليين ، على سيف المحيط الاطلسي ، الواحد بعد الآخر . فاحتلوا رأس غيه ، عام ١٥٤١ ، وصافي وازمور ، عام ١٥٤٢ ، والقصر الصغير وأرزلا ، عام ١٥٤٩ - ١٥٥٠ . وعجز البرتغاليون اذ ذلك عن رد هجمات قراصنة لاراش وصالح ضد الموحدين من تعدياتهم . ومنذ ذلك الحين بدأت سلسلة لا تنتهي من انكسارات تصيب البرتغاليين فخسروا كل قواعدهم على « محيطات الجنوب » . وهكذا لم تلبث الحكومة الشريفة ان اصبحت دولة بحرية وخطراً دائماً ومنافساً قوياً . وهكذا اخذ ذهب السودان وسكر السوس يشعن رأساً من المغرب الى انكلترا وفرنسا . وفي سنة ١٥٥٣ ، انتهى امر الدولة الوطاسية تاركة المجال للدولة السعدية .

بلغت هذه الدولة الأوج من العزة والسؤدد في عهد السلطان احمد المنصور عند ما تمكن من دحر البرتغاليين شر اندحار في معركة القصر الكبير الدامية ، عام ١٥٧٨ . واخذ في الحال ينظم البلاد تنظيماً بقي معمولاً به حتى القرن العشرين . وتمكن من السيطرة على حلف تألف من القبائل الكبرى ، بواسطة جهاز جديد هو « المخزن » الذي كان يضم بلاط السلطان والوزراء وكبار الموظفين ، والحكام الاداريين ، كما انضم الى هذا الحلف القبائل الحربية بعد ان آمن ولاءها عن طريق اعفاؤها من الضرائب واقطاعها الاراضي الكثيرة وغير ذلك من الامتيازات والمنافع ، بينما كانت الضرائب تجبى من القبائل المتحالفة الضاربة في بلاد المخزن . اما هذا القسم من المغرب الذي لم يخضع لهم فقد عرف : « ببلاد السبية » .

نمى المنصور علاقاته مع الاوروبيين . فاستقدم للعمل في البلاط الشريفي صناعاً اوروبيين ومنتولين يهوداً وتجاراً مسيحيين وأدخل في جيشه عدداً كبيراً من الاسبان المارقين عن دينهم وقد ادخلت الدول الأوروبية في حسابها ما للدولة الشريفة من قوة وشأن واقامت معها تمثيلاً دبلوماسياً . ووضع السلطان ، بالاتفاق مع الانكليز ، مشروعاً لاحتلال اسبانيا .

ونقل السلطان عاصمة ملكه الى مدينة مراكش ، في الجنوب . بحيث يستطيع مراقبة البدو والحركات التي يقومون بها في حلهم وترحالهم . وحدثته نفسه باحتلال السودان « بلاد الذهب » وتأسيس امبراطورية واسعة الأرجاء تجمع بين اطرافها المترامية ، المسالك والمجازات والمعابر التي كانت تخترق الصحراء الكبرى والتي كانت تسلكها القوافل حاملة ذهب السودان ، كما كانت تهيم على ملاحات الصحراء . وفي سنة ١٥٧٠ ، غادرت فرقة عسكرية مراكش ، قوامها ٤٠٠٠ جندي معظمهم من الاسبان مرقوا عن دينهم ولغتهم الرسمية الاسبانية ، برئاسة الباشا جودير الذي كان هو الآخر ممن تنكروا لدينهم المسيحي . وبعد ان اجتازت الفرقة ، الصحراء ، تمكنت بواسطة طابور حملة البنادق من ان تهزم جيش سنهراي ، في مدينة تونديتي ، بتاريخ اول اذار ١٥٩١ ، وفي ٢٥ نيسان ، تمكن الجيش المراكشي من الاستيلاء على تمبوكتو ، فوضع بذلك حداً للامبراطورية سنهراي . ومنذ سنة ١٦١٢ ، انقطع السلطان عن تعيين الباشوات حكام تمبوكتو . وقد ألفت فرقة الجيش من بين قادتها وضباطها نوعاً من الارستوقراطية العسكرية وراح الاسبان يتزوجون زنجيات . وورث الخلايون من آباؤهم الاسبان حدة الذكاء وحب التسلط والروح الحربية التي عرف بها الاسبان . وعمدوا فيما بعد الى انتخاب الباشا حاكماً عليهم . وقامت منافسة شديدة بين هذه الفرق التي رغبت كل واحدة منها في ان يكون الباشا منها ، فاندلعت بينهم حرب اهلية حامية الوطيس ، كما ان المنازعات والمنازعات الدامية ، التي نشبت ، أدت الى خراب التجارة السودانية والقضاء على فريق العلماء والادباء في البلاد ، والضرائب الفادحة التي فرضت على الاهلين ، والمجاعات التي فتكت بالناس . وتأخر السودان امام ردة فعل زنجية ، كل ذلك جاء نذيراً بمواجهة الإسلام أزمة تقهر في أرجاء البحر المتوسط .

واضطر المنصور ان يواجه طيلة حُكْم الطويل مقاومة عنيفة من رجال الزوايا الذين كانوا ينتقدونه على اقامة علاقات له مع الاوروبيين . وعرفت البلاد ، بعد وفاته ، عام ١٦٠٣ ، منافسات عاقلة عنيفة نجم عنها أزمة بلغ من حدتها وشدها ما حمل العفراني على وصفها بانها « تشيب الرضع لها » . وقد عاد الامر بالقائده للزوايا ولقبائل البربر . وبعد سنة ١٦٢٧ ، اصبح زمام الامر في البلاد بيد شيوخ الزوايا ورجال الرُّبُط . وقامت في مدينة صالح ، عام ١٦١٠ ، جمهورية تألفت من قراصنة عرب الاسبان وقراصنة الانكليز ، ولم تلبث هذه الجمهورية ان أعلنت استقلالها التام عن السلطان ، عام ١٦٢٧ . وقامت بالجهاد ضد المسيحيين ، وسيطرت على مضيق جبل طارق وتحكمت بطرق المواصلات مع اميركا الجنوبية والهند الشرقية ، وعجلت في انهيار الامبراطورية البرتغالية كما أثارَت المصاعب في وجه الاسبان . الا أن اضطرارها للافراج عن الاسرى ، وحاجتها الماسة للأسلحة ارغمتها على ابرام معاهدات مع الدول الكبرى المسيحية . وانتهت حرب الجهاد هذه باعمال قرصنة عادية . وهكذا اصبحت مدينة صالح لمدة قرن تقريباً ، ام مركز للنشاط التجاري في المغرب .

زالت الدولة الشريفة السعوية من الوجود عام ١٦٥٤ بعد ان مات قتلاً ثمانية من سلاطينها من اصل ١١ ، وراحت القبائل الرحل وقبائل القوافل ورجال الزوايا في الجنوب الذين أصبحوا أكثر تطلباً ، يتنازعون السلطه ويتقاسمون اطراف البلاد . واستطاع شرفاء الطفيلان ان يتغلبوا على شرفاء السوس ، وهكذا اطلت على البلاد دولة جديدة هي الدولة العلوية . وفي سنة ١٦٧٢ ، تولى زمام الحكم في البلاد السلطان مولاي اسماعيل الذي عرف بنشاطه وغلبان الدم في عروقه ، ففطرت يده دماً من هذه الدماء الحمية ، لكثرة ما سكب من الدماء ، والذي نجب ٧٠٠ ولد . وجعل قوام سلطنته تنمية العلاقات مع السودان وتشجيع التجارة مع الصحراء بعد ان نفخ فيها روحاً جديداً . فن السودان ، ومن تمبوكتو ، ومن قبائل الصحراء جمع جيشاً لجباً تألف من ١٥٠،٠٠٠ ، ففرض سيطرته على البلاد . وقد عين في المراكز الحساسة تسعين من الباشوات . ومن السودان وصلت الى طفيلان مساحيق الذهب والنيلة ، والعاج وريش النعام والتمور التي كانت مواداً صالحة للمقايضات التجارية مع المنتوجات الاوروبية . ولما كان السلطان مطبوعاً على التقوى ، فقد امر بمتابعة الجهاد المقدس بكل همة ونشاط .

فانزع من بين يدي الاسبان : المامورا ، (١٦٦١) ، ولاراش (١٦٨٩) ، وارزلا (١٦٩١) ، ولم يبق بين ايدي الاوروبيين ، على المحيط الاطلسي سوى مركز مازغان احتفظ به البرتغاليون ، ومراكز ميللا وسبتا ، بيد الاسبان ، على ساحل البحر المتوسط . وقد ادرك السلطان بدوره ضرورة المحافظة على الحركة التجارية ، ولا سيما على حرية المقايضات والمبادلات مع المسيحيين ، وقد نفر سكان مدينة صالح وفريق القراصنة فيها لاستيلائه على المراكز الاوروبية . وترك لليهود وللمسيحيين احتكار الاعمال التجارية في صالح وتطوان ، وصافي واغادير . وتمكنت فرنسا من احتلال اول مركز لها في المغرب ، عام ١٦٨١ ، وسولت له النفس عقد

معاهدة تجارية مع فرنسا ضد اسبانيا. واقترح ان يتزوج من الاميرة كونتي ابنة الملك لويس الرابع عشر . الا ان الاتحاد الذي تم بين فرنسا واسبانيا ، ورفض السلطان اعتناق المسيحية ، ادى الى فشل المفاوضات ، وشجع اللاجئون من بروستانت ، مقاطعة اللانغدوق على الاتجار مع الانكليز والهولنديين ، وفي اواخر عهد الملك لويس الرابع عشر ، تمكن الانكليز من احتلال المرتبة الاولى في التجارة مع الدولة الشريفة .

وهكذا تمكن المغرب الاقصى من المحافظة على الوضع العام الذي كان عليه الاسلام تجاه الحضارة المسيحية ، في هذه النقطة بالذات الواقعة الى الشمال الغربي من القارة الافريقية . واذ كانت هذه الناحية في شبه عزلة عن العالم عاثة على مشاعرها الدينية ، فقد كانت اكثر من الجزائر وتونس ، بنأى عن السلطنة العثمانية . ان عجز الاتراك العثمانيين عن الوصول بالاسلام الى وحدة متماسكة ضد اوربا المسيحية ، ساعد كثيراً على انقاذ المسيحية وصيانتها .

امبراطورية الفرس

اذا ما كانت لبلاد فارس منزلة مرموقة في الشرق الاسلامي ، فقد كانت للمذهب الديني الخاص الذي ارتضته وسارت عليه ، سبباً من الضعف الذي رسف فيه الاسلام . قوام هذه البلاد الشاسعة صعيد مرتفع تقاسمته السباسب والصعاري ، فقد شطرت العالم الاسلامي الى شطرين متميزين ، كما ان وقرع بلاد فارس بين بحر قزوين في الشمال والخليج الفارسي في الجنوب جعل منها معبراً مجتازه الطرقات التي ربطت بين اوربا غرباً وبين الشرق الاقصى والهند شرقاً . ان لمضيق كمرؤ في هراة من الشهرة والاهمية ، ما لمضيق الدردنيل بين اوربا وآسيا ، وكانت تجتاز ايران بطولها طريق تمر على محاذات مدينة مشهد وطهران عبر تبريز وديار بكر وحلب ، ثم تنثني قليلاً الى الشمال لتمر في ارضروم وطرابزون ، فكانت بذلك من هذه الشرايين الهامة التي سلكتها الانسان عبر الاجيال والمدنيات ، هذا اذا ما ضربنا صفحاً عن الخليج الفارسي .

ألف الفرس ، في قلب العالم الاسلامي ، كتلة ، تباينت من حيث مذهبها الملعب الشيعي الديني الخاص ، عن مجموعة الشعوب الاسلامية ، اذ كان أهلها على مذهب الامامية بينما أخذ العالم الاسلامي بالسنة . فقد كان الشيعة من اتباع علي بن ابي طالب ، ابن عمي النبي ، وصهره على ابنته فاطمة الزهراء ، يطالبون بحقه الاول في الخلافة ، بعد ان أقصي عنها ظلماً وعدواناً . فهم يقولون ان النبي اوصى بخلافته له ، ولذا اعتبروا علياً والائمة الاثني عشر من ذريته الورثة الحقيقيين للخلافة من بعده ، ولتأبئة رسالته بتوصية خاصة منه ، وفقاً لتدبير الهي منذ آدم عبر الانبياء . وقد قام بعد علي اثنا عشر اماماً تولوا الامر بعده ، لم يمُت

آخرهم انما اختفى عن الانظار ليعود للظهور من جديد على رأس امته ، فيملأ الارض عدلاً وسلاماً .

ليس من يجهل النتائج الخطيرة التي تترتب على هذا التباين في العقيدة بين السنة والشيعة والذين حصروا كل شيء في عثرة الرسول واهل بيته وابوا التسليم بان تذهب الخلافة الى فريق من صحابة النبي فيستأثروا بها من دون اصحاب الحق ، فيؤلفون في القرن الثامن خلافة هي الخلافة الاموية وجعلوا من دمشق عاصمة لها . فابوا التسليم بمبدأ انتخاب الخليفة على اساس من الشورى اذ ان الخلافة ، في نظرهم ، هي فيض الهي ينتقل بالوراثة الى الامام . والائمة ، في نظر الشيعة ، معصومون عن الخطأ وعن كل زلل . وهكذا صح لنا القول ان فرقة الشيعة اساسها السلطة ، بينما السنة الشورى والاجماع . العقل ، في نظر الشيعة ، عاجز في كل ما يتعلق بقضايا الايمان . فالهم في الامر هو الوحي النازل على الائمة . فالامام غير المنظور يتكلم بلسان الله ، فعلى كل شيعي ان يسلم بهذا الكلام الموحى به على لسان الامام . وقد قامت بينهم فرقة عُرفت بمغالاتها وترفضها بحيث ان اعضاءها تجنبوا لمس الكفار والاختلاط بهم .

عرف الفرس بروحهم الوطنية فزعوا ان ملك الملوك وهو لقب ملكهم ، الدعوة الفارسية له السلطة على كل الشعوب . يحفظون منذ صباهم كتاب الملوك ، او الشاهنامه ، للفردوسي ، هذا الكتاب الذي له من الشأن لدى الفرس ، ما للاباذة والاوزية عند اليونان ، حتى ان الاميين بينهم راحوا يعتقدون ان شعبهم هو اقدم شعوب العالم وانه فوق شعوب الارض طراً ، واسماها على الاطلاق . وهم شديدو التعلق بأديهم واعرافهم التقليدية . فالشاعر الفارسي حافظ الذي لمع اسمه في القرن الرابع عشر ، والشاعر سعدي الذي كان معاصراً للملك القديس لويس التاسع في فرنسا ، سارت اشعارها على لسان الادباء والرواة ، وحادي العيس وساري السبل في القرنين السادس عشر والسابع عشر . فقد كانت لدولة الفرس شخصية مفردة . واللغة الفارسية كانت لغة الشعر والأدب في كل العالم الاسلامي ، كما كانت التركية لغة رجال الحرب والادارة ، والعربية لغة الدين والعلوم . فالفارسية هي اللغة المستعملة في بلاط السلطان وبلاط المقل ، وفي عدد من الدول الاسلامية الاخرى في الهند . وكانت الآثار الشعرية الفارسية تنقل الى اللغات الاخرى وتشرح وتفسر ويحتذي الناس حذوها . كل هذه الامور وما اليها من شؤون ومفارقات جعلت الاثراك العثمانيين يتحولون بانظارهم عن متابعة الجهاد ضد الكفار في الغرب . وقام بين الشيعة والسنة حروب دينية دامية ، اذ شره الاثراك للتحكم بالطرق التجارية التي تمر ببلاد فارس ، كما ان الشهور القومي المتأجج في صدور الشيعة حتم ان يكون الشاه رجل حرب كبير يشمر عن ساعديه للغزو والفتح .

شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر طلوع الدولة الصفوية الدولة الصفوية والبدو في الحكم واجادها كما سجلنا زوالها . نرى من خلال تاريخ بلاد فارس ان الاسرة الملكية التي تقوم بالامر لا تستمر في الحكم أكثر من قرنين . أسس هذه الدولة الشاه

اسماعيل (١٤٩٩ - ١٥٢٤) . فقد كان تركياً بابيه ويونانياً بامه ، ينحدر من اسرة تنتسب الى الامام السابع وهي اسرة كسرت بالقداسة والشهادة . فقد كان ، في الاساس شيخاً لاحدى القبائل البدوية الرحل المتنقلة على حدود هيران . فجمع يوماً حوله عصابة من رجاله استولى بهم على مدينة باكو وشاخا ، ولم يلبث ان انضم اليه كثيرون ، واستطاع ان يهزم بسهولة آخر ملوك الدولة التيمورية ، وتم له من الانتصارات الباهرة ما جعله يوحد بين القبائل ، فنودي به شاه ، وقاد رجاله من غزو الى آخر وانقض من الجبال على سهول العراق الفنية ، وفتح بغداد واستولى على الموصل وديار بكر :

كان هذا المسلك النهج التقليدي الذي نهجه الحكم في العجم ، اذ ما يكاد الفساد يدب في الاسرة الملكية وينفس افرادها في الموبقات حتى يقوم زعيم قبيلة من القبائل البدوية الضاربة بين هذه المقاطعات الجبلية التي تتقاطعها الوديان الظليلة على حدود البلاد ، ويجمع من بين هؤلاء الاقوام العاملين في رعاية السائمة ، كتائب من الشبان المقتولي العضلات ، يفيضون صحة ورفاه ، تمودوا شطف العيش واخشوشنت اجسامهم ، وتردده القبائل المتجاورة التي كان قومه يتجرون معها ، بالنصح والمؤازرة والعتاد . وما ان يأنس من نفسه القوة حتى يهاجم ، لاسباب واهية واعذار شتى ، كالتمدي على المياه ، او نهب بعض الماشية ، او الحاق بعض الاضرار البسيطة ، القبيلة المجاورة له التي يتولى امرها شيخ مسن او فتى غر تحت الوصاية ، ويخضعها لسلطانه ، ثم يعمل على كسب الانصار له بين رجالها بما يقدق عليهم من عوارفه وما يوزع فيهم من هدايا واعطيات ويرحب بقدم متطوعين من قبائل اخرى رغبوا العمل تحت ادارته ، حتى اذا ما اشدت منه الساعد عمل في اخضاع القبائل الواحدة تلو الاخرى . فاذا ما اعترض سيره الصاعد وقام في طريقه حلف ما لجأ للحرب فيصطف الحصان وجهاً لوجه ويأخذ الفريقان بالمباهلة يستعرضون قواهم دون سكب الدماء ، حتى اذا ما انطلق فجأة عيار ناري دب الذعر في الصفوف واخذ العدو في الفرار . وقد يحدث ان يفر الحصان كل من جهته . بعد ان يدب فيها الخوف ، حتى اذا ما عاد فريق منهم واستملك روعه وعادت اليه رباطة جأشه ، مسك بزمام الامر ، قبل الآخر وفاز بالنصر . ففي عاصمة كل ما فيها يتداعي للخراب ، لا جند فيها ولا حمايات تدفع عنها عوادي الزمن ، وفي بلاط ينص بالخصيان والنساء ويفيض غنى وثناء ، تقع العين فيه على شيخ كليل او على ولد منهوك القوى ، ينتزع عنه التاج ويستأثر دونه بالسلطة .

ويرتسخ ملكه بالمزيد من الانتصار والازلام عن طريق المصاهرة والزواج من بنات او شقيقات شيوخ القبائل التي غلبت على امرها ، والشبان الشجعان الانخراط في جيشه ، من بين القبائل التي قدمت له خضوعها . اما اساس قوته ومحور سلطانه فيرتكز بالدرجة الاولى على رجال قبيلته والقبائل التي ارتبطت معها بوشائج القربى والنسب . ومن بين افراد هذه القبائل يختار مساعديه في الادارة ، والمديرين لأملاكه وافراد حرسه ، ويجري فيهم العطاء بسخاء استثناء لهم ، ويعد اليهم بتربية ابنه الذي يقضي طفولته الاولى وحدثته بين البدو . وكانت

قبائل قزلباخ التركية السبع تنظر الى الشاه اسماعيل وخلفائه نظرها الى احد اولياء الله .

ويبقى الشاه في حياته البدوية على طباع البدو وعوائدهم يظمن كلما ظنوا ، فيصرف فصل الشتاء في سهول دجلة ، والصيف بين غابات مقاطعات بحر قزوين . اما فصلا الربيع والخريف فيصرفها في الوديان الخضراء الظليلة الواقعة بين الجبال . وعندما يظمن الشاه وينتقل من مكان الى آخر ، ينقل معه مضاربه وما عنده من فرس ورياش واثاث ، وما يملكه من الطنافس والسجاجيد وما عنده من آنية ذهبية وذخائر ، والمواسير وطسوت الرصاص الكبيرة اللازمة لرسم حدائقه كل مساء . ويعمل في نقل هذه الامتعة اكثر من سبعة آلاف رجل فيسير في يومه مرحلة من ٨ - ١٢ كيلومتراً . وكانت الخيم والمضارب تنصب كل مساء لتؤلف مدينة يقوم في القلب منها خيمة الشاه او سرادقه ، وهي خيمة طولها ٢٠ متراً بعرض ١٢ متراً وعلو ١٠ امتار ، تعتمد على خمسة ركائز كبيرة تنقاطها الستائر والسجد الفنية الموشاة بالذهب والفضة ، يتدلى من على جوانبها الديباج . ويستعمل في تركيز الطنافس في اماكنها رزات من الذهب الخالص . وكانوا يحرصون على تحويل مجرى الينابيع والترع بحيث تمر امام خيمة الشاه ، تحف بها الزهور والرياحين على انواعها . وعلى مسافة قليلة منها ، كانت تقوم مضارب الحرير والديوان والحرس ، ورجال البلاط ، والحمامات .

وقد حرص الشاه على ان ينشئه على مسافات معينة ، محددة بعضها من بعض ، اماكن للزهة والتسري مع الحدائق الغناء . وكثيراً ما تبني على طريق القوافل عاصمة جديدة له مع قصر منيف وقلعة حصينة ، مع غابات واسواق ، يمد لها الحدائق الغناء توفر له متمة حياة البداوة ، بحيث يسمر ليلاً مفترشاً خائلاً الحدائق السندسية مع سحره وندمائه .

فالحكم والادارة ، في نظر الشاه واتباعه ، كما هو في الشرق عامة ، وسيلة لتأمين المنافع الخاصة ، وليس قط خدمة عامة في سبيل الدولة مزرعة الظافر المجتمع . على من يتقدم ، من الشاه او من رجال الحكم والادارة يستغل فيها المغلوبين على امرهم لديه ، بطلب ما ، ان يرفق طلبه بما يشفع به ويضمن الاستجابة له باسرع ما يمكن . فالدولة إقطاع للشاه يستغله على هواه . فهي متاعه او ملكه منذ ان آتاه الله نصرأ مبيناً .

ولكي ينمتي الشاه موارده من المكس ورسوم الدخولية ويؤمن لنفسه موارد طيبة ، يذخر منها لليوم المصيب ، رأى ان يشجع التجارة والوقوف الى جانب التجار . ولذا سهر على تأمين المواصلات ويسر السير عليها بتوفير الماء للسابلة والقوافل الضاربة في طول البلاد وعرضها ، وذلك بالإكثار من الينابيع والآبار ، والسبل وأماكن الراحة والاستجمام ، وان يبني الجسور والمعابر والمجازات . كذلك كان عليه ان يؤمن البريد وان يحول دون تعديات البدو ، ويظهر الاسواق من الطفيليين والحطنة الذين يفسونها ، ويفرغ التجار الاجانب للقدوم الى البلاد . وكانديازم جباية رسوم المكس لعماله بينما أقطع معظم رسوم الدخولية شيوخ القبائل الذين كانوا

يسهرون على أمن المارة وراحتهم. فهو دوماً بحاجة للمال من التجار بإبخس الاسعار ، ويكافيه رعاياه على امانتهم . فقد اوجب القرآن الكريم على المسلم ان يعثر ماله . والمعروف عن سكان المدن انهم لم يكونوا ليرضوا ان يعثروا الا عن ايراداتهم من الملحقات او على الرسوم التي يجيئونها من القرى ، وهي رسوم يفوض الشاه اليهم جبايتها عندما يكون بحاجة ماسة للمال . اما البدر فلم يكونوا ليدفعوا رسماً عن مراعيهم . فكل الضرائب وكل النفقات الخاصة بحياة البلاط وأود الجيش كانت تقع على كواهل اهل الحضرة او على الفلاحين الذين كان يترتب عليهم ان يقوموا بأود جيش لجب من الموظفين وما اليهم من الاتباع . الا ان الشاه لم يكن ليرضى باعتصار الفلاح اكثر من طاقتة . فالبلاد لم تكن لتفتقر للاراضي الزراعية ، بل للسيد العاملة اذ ان الاراضي الجيدة كانت تتوفر تقريباً في كل مكان ، وكانت تدور كل اربع سنوات . وتشيد بيت لم يكن ليتطلب اكثر من ٨ - ١٠ عوارض قوية من خشب الجور ولا لاكثر من ٨ ايام بناء . وتآلف اثاث المنزل على الاجمال ، من سجادتين او ثلاث سجاجدات ، ومن اربعة الى خمسة صناديق وبعض الآنية الخزفية والجرار . فاذا ما برهن متمهد جباية الضرائب والاعشار عن جشع ، وابى ابن المدينة ان يدفع ما يتوجب على الارض المقطوعة له من ضرائب ورسوم ، فيما كان اسهل على المزارع ، الذي ما زال يذكر انه كان للأمس العابر من اهل البدو ، الا ان يضع في عبه ما اقتصده من مال ، ويجعل حمارته وزوجته ما خف حمله وغلائنه ، وسار على بركة الرحمن لا يلوي على شيء ، وهو واثق بأن ارض الله واسعة ترحب به انى حل واينما نزل . وهكذا فمفادرة الفلاحين لقرام كانت تخفف عنهم جباية الرسوم وتجنّبهم ما يتعرضون له من ابتزاز واعتصار بفيض ، تقوم به هذه الطبقة او هذه الفئة المقيمة غير المنتجة على نطاق واسع .

ولكي يرضى اتباعه ويقوم بما يتوجب عليه كولي وكمدافع عن الدين ورجاله وكزعيم يوزع عوارفه بسخاء ، كان على الشاه ان ينهض للحرب . وهذا ما تفرغ له تماماً الشاه اسماعيل وابنه الشاه تاماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦) ، وقد اضطروا ان ينهضوا بالحرب على ثلاث جبهات : ضد الاتراك العثمانيين من جهة الغرب ، وضد اوزبك التركستان ، في الشرق ، وضد البرتغاليين في الجنوب ، مع العلم ان الاتراك والبرتغاليين كلوا يتميزون بما لديهم من مدفعية وحمة البنادق . فاذا ما تمكن من استرجاع مقاطعة خراسان من حوزة الاوزبك في الشرق (١٥١٠) والتقدم باتجاه بخارى ، فانه لم يستطع البقاء في اواسط آسيا كما ان خليفته على العرش امتنع عليه وضع حد لتعديات الاوزبك على خراسان المتعددة . اما في الغرب فاستمرت غزوات الترك سجالاً . وفي الجنوب استطاع البرتغالي البوركرك ان يستولي على جزيرة ارموز الصغيرة في مداخل الخليج الفارسي ، وشيد عليها قلعة حصينة (١٥١٥) فتمكن بذلك من السيطرة على الحركة التجارية في الخليج المذكور .

الاسرة الصفوية في الارج .
 الشاه عباس الكبير وفتحاته المظفرة
 بعد حقبة من الحروب الاهلية بين قبائل كزالباك حيث اخذ
 كل فريق يؤازر المطالب بالعرش ، استطاع حفيد الشاه
 ثامسب ، الشاه عباس الاول الكبير ، ان يستأثر بالحكم
 وان ينهض به الى الأوج (١٥٨٧ - ١٦٢٩) . شب الشاه عباس بين قبائل كزالباك فتشرب روح
 البداوة وتخلق بالشجاعة والنشاط ، لا يبالي بالتعب . فقد كان شاباً مفتول العضل ، كسيف
 الشوارب يتم نظره الحاد عن عقل ثاقب وفكر صائب ، ان دل على شيء فعلى الحزم والعزم
 وصدق القصد في كل ما يقرر . تغلب على الاوزبك في هراة (١٥٩٧) وبذلك وضع حداً نهائياً
 لغزواتهم السنوية ولاستباحتهم دورياً لخراسان . ولكي يضع حدود هذه المقاطعة في امان
 اجلى الوف الاكراد عن بلادهم في كردستان مع ما لهم من الذراري والقطمان ، واسكنهم
 القسم الشمالي من خراسان حيث عهد اليهم بحراسة الحدود . وقاد ، بين ١٦٠٢ - ١٦٢٧ ، عدة
 حملات موفقة ضد الاتراك الهمانيين ، فانتزع من بين ايديهم تبريز وأروان وشروان وقرص ،
 وفتح أذربيجان وخوزستان ، ودخل بغداد والموصل وديار بكر وخفص الجزيرة التي كان عليه
 دفعها للسلطان الى ١٠٠ حمل من الحرير .

ولعل الشاه عباس الاول الكبير هو اول من ادرك ، بالمحسوس ، انه يستحيل عليه النهوض
 بالحرب على عدة جبهات. فقد قبل ان يمقد ، عام ١٥٩٠ ، مع الاتراك صلحاً خاسراً بحيث
 يستطيع ان يتفرغ لحرب الاوزبك . وبعد ان كسرم شر كسرة ارتد لحرابة الاتراك .

تعوية الروح الاستبدادية
 عرف ان يفيد الى اقصى حد ، من الانظمة والقوانين المعمول بها في
 البلاد ، ليقوي من سلطته ، وليزيد من واردات الخزينة وليضاعف
 من منعة الجيش . كانت الملكية الفارسية ملكية مطلقة . فالشاه هو سيد البلاد المطلق ، في
 الزمنيات والروحيات ، المتصرف بحياة الناس وباموال رعاياه ، كما يشاء . كل ما يأمر به يجب
 تنفيذه في الحال حتى ولو كان مثلاً ، فاقدأ لوعيه . فهو فوق القوانين الطبيعية والوضعية . فاذا
 ما اصدر امره لابن ، كان على الابن ان يمثل للامر الصادر ، حتى ولو امره بقتل ابيه . فعلى
 الفرس ان يطيعوه في كل شيء الا فيما يخالف احكام الشريعة او امر بشرب المسكر . كذلك
 يمتد الفرس ان من طبيعة الملوك ان يتصفوا بالمنف والظلم . من اقوالهم المأثورة : « كمن ملكاه
 وهم يمينون : كمن ظالماً ، ولا بأس من ان تحكم بخلاف العدل . كان احدم اذا ما اشتكى امام
 القضاة من ظلم وقع عليه ، قال : « جرى معي ما يحريه الملوك » .

وهذا الطغيان المستبد انما يتبع من مصدرين رئيسيين ، فبلاد فارس فاز بها غالباً اي اخذها
 بالفتح ، ولذا كانت حكومته حكومة عسكرية ، مستبدة ، (تافرنيه) ومن جهة ثانية فالشاه
 هو نائب النبي المرزي وخليفته ، له فضائل خارقة الطبيعة ، والقدرة على شفاء المرضى . وهو
 بذلك سيد العالم وملك الملوك . وقد استطاع الشاه عباس الكبير ان يشد على هذه الصفة

بكونه حامى الدين وحامى دمار الشيعة . ولذا شيد في مدينة مشهد ، في خراسان ، مسجداً كبيراً احتفظ فيه بذخيرة من ذخائر المسلمين ، هي قَدَمُ الناقة التي كانت تحمل النبي . وكان في كل سنة يتجه للتبرك بزيارة مشهد مع رجال حاشيته حيث كانت تجرى خوارق مدهشة . وقد اعتاد الفرس ان يحجوا الى مشهد بدلاً من الحج الى مكة المكرمة . وكان للشيعة بحجهم الذي يختلف عن حج السنة . وقد هدف من وراء هذا الحج الى امر اقتصادي هام هو الحؤول دون خروج الذهب من البلاد . وقد اعتاد ان يحج الى النجف وان يقوم بتنظيف وغسل قبر جده الامام علي .

’عرف الشاه عباس بجزده الشديد تجاه قبائل كزالبك عماد اسرته المالكة والتي كانت تتخذ من الاقليات وسيلة لتقوية نفوذها ، بعد ان نالت من الامتيازات ما شجع قبائل غيرها على العصيان والتمرد . فراح يحمر العرش والاسرة من تمويله على هذه القبائل وحمايتها باصطناعه قبيلة جديدة باسم انصار الشاه ، ضمت بضعة آلاف من الرجال انتقام من بين كل القبائل ، تطوعوا للعمل في الجيش وعملوا في خدمة العرش بكل ولاء ، وعرفت هذه القبيلة ان تقيم لها علاقات ودية مع القبائل الفارسية الاخرى ، وهكذا اكتسبت الاسرة دعامة اكبر فازدادت قومية في اعين رعاياها .

كذلك اخذ يخفض من افراد قبائل الكزالبك في الجيش ، فانزل عددهم من ٦٠ ألفاً الى ٣٠ ألفاً . واستعاض عن الفرق التي رفضت الخدمة في الجيش ، الا تحت قيادة خاناتها المعروفين بولاهم لسلطان الاتراك ، بكتائب من المرتزقة ، بينها ١٠٠٠٠ فارس ، و ١٢٠٠٠٠ من المشاة ، كان هو يمين ، ضباطهم ويصرفهم من الخدمة عندما يشاء . وكانت نواة الجيش فرقة الغلمان ، وهي فرقة تألقت من الارقاء وابناء الارقاء . يؤتى بهم من كل القبائل ولا سيما من سكان الكرج . ومن بين رجال هذه الفرقة اتخذ الشاه معظم حكام الولايات وموظفي البلاط . وهكذا نرى هنا كما في السلطنة العثمانية كيف ان الدولة هي الجيش .

تلبست الحكومة مظهر حكومة منزلية فكبار الموظفين في البلاط او العاملين في خدمة الشاه الخاصة هم اعضاء في مجلس الملك الخاص . يأتي في المقام الاول ، عظمة الدولة وهو بمثابة رئيس الوزراء . ويلي مرتبة الصدر ، وهو المرجع الاكبر ، فهو بمثابة الوزير الاول لشؤون الدين ، وبامكانه ان يصبح رئيس الوزراء او عظمة الدولة ، وهو مرجع القضاة ، ويدبر الاوقاف والمساجد لما فيه كماله رجال الدين وطلاب العلم . ثم يأتي الناظر ، الذي يتولى النظر في كل ما يتصل باسبيلات الشاه والثياب والاوزان المنزلية ، ثم رئيس الخدم ، وهو ابدأ من الخصيان البيض ، يبقى على مقربة من سيده ويقوم بكتابة سره الخاص . وهناك موظف يعمل كأمين سر

الدولة ، فيطلع الشاه على ما يرد على الديوان من اوراق وظلمات . وهناك ناظر المالية او محاسب بيت المال يشرف على مالية الشاه ويضبط اعمال الجباية ، كما ان ناظر العدل يشرف على القضاء الديني والزمني على السواء ، ويقضي في امور خانات القبائل وكبار رجال الدولة . وكان العمل في مجلس الملك يقتضي له عدد كبير من الكتبة ، ولذا ترتب على الشاه ان يؤمن أود ما بين ٤٠٠ - ٥٠٠ من الارقاء الفتيان ، كان يجري تدريبهم على الكتابة والقراءة . فاذا ما اقترب احدهم ذنباً او هفا هفوة اذبه الشاه وارسله للعمل في احد دواوينه الكثيرة في الولايات .

تقسم الدولة الى ولايات ، يتولى الحكم واعمال الادارة فيها حاكم يتمهد حاجات أود البلاط اسبوعاً كاملاً ، ويلزم جباية الضرائب ورسوم المكس ، ويرسل الاموال المحصلة ، كل سنة مع الهدايا السنوية ، الى الشاه ، مرفقاً بما يفرض عليه تقديمه من الهدين ، بين خيالة ومشاة يجري انتقاؤهم بكل دقة ، وبذلك يقوم على الوجه الاكمل بما عهد به اليه الشاه من سلطات ، يساعده في تدبير امور الولايات موظفون من مختلف المراتب والدرجات ، وتقسم كل ولاية الى عدد من الاقضية ، يقوم على ادارة كل قضاء ، مأمور يرجع في الامور الدقيقة الى الوالي ، رئيسه المباشر يجري تعيينه او رفته من قبل الشاه . اما في الريف فكانت تقوم اقطاعات خاصة برجال البلاط وضباطه المعروفين بولايتهم للشاه ، وهي اقطاعات يتمتع اصحابها بريعتها مدى الحياة ، كما كان يوجد اقطاعات معينة يتخلى الشاه عن ايرادها ، بما فيه ضريبة الخراج ، كلياً او جزئياً ، لصاحب الاقطاع .

ويقوم في كل مدينة قاضيات يجري تعيينها وعزلها من قبل الشاه تمود امورها للمفتي ، يتولى احدهما النظر في الامور الجزائية ، كما ينظر في جنح السرقات والمشاجرات وجرائم القتل والامور الخلة بالآداب ، يساعده في اعماله هذه ضابط شرطة وبعض النبائين . وهناك قاض خاص كانت مهمته الدفاع عن مصالح الشعب والنظر في تعديات الحكام ومجازاتهم صلاحياتهم باقتزاز اموال الرعية . وهناك محتسب مهمته تحديد الاسعار للمواد الغذائية . فن من التجار تجاوز هذه الاسعار ، تعرض للجزاء وللجلد معاً . وكان يقوم على الطرقات ، ولا سيما عند مركز الماء ، مأمور حراسة للنظر في هويات الناس وجوازات المسافرين . اما السرقة فكان عقابها شديداً اذ كان السارق يربط الى ذيل الحصان او الجمل ويجر على قارعة الطريق ، عاري البطون ، بحيث يموت جوعاً ، او انه يعرض مصلوباً على خشبة فوق ظهر حصان ، بعد ان تفرس قضبان الشمع في اطرافه . واذا لم يتم القبض على السارق ، كان على الحاكم ان يعرض على التاجر الحسارة التي لحقت به . اما القتل ، فكثيراً ما كانوا يستهدفون القتل ، عملاً بشريعة ، السن بالسن والعين بالعين . فقد اتفق ان قتل احد غلمان الحاكم ، فتى من نبلاء الفرس ، فما كان من الشاه الا ان اسلم القاتل الى اسيرة المقدور به ، بحيث راحت ارملة وامه وشقيقته يقمن كل واحدة منهن بطمعة في قلبه ، يشربن دمه ، ليشفين غليلهن منه .

وهناك عدد كبير من الاثمة والشيوخ ينصرف للعلم والدرس ، بحيث كان طلاب العلم يتلقون

دروسهم على حساب الاوقاف . وكانت اسعار الكتب على الاجمال ، عالية . ومع ذلك فمعظم الصناع والمهال كانوا لا يجمعون عن شرائها لشدة اقبالهم على العلم وحباً في المطالعة ولتهذيب اولادهم وتثقيفهم . وكان يقوم في الحمي الواحد بضعة مدارس ابتدائية ، مع ان العدد الكبير من طلاب الملم كان يؤلف عائلة لانهم كانوا يمتصون خيرات البلاد .

دان الشاه عباس بانتصاراته الحربية لهذه العلاقات الوطيدة التي اقتباس الفنون الاوروبية ،
اقامها مع الاوروبيين . ولما كان البرتغاليون قد قطعوا طريق
أرموز ، في الخليج الفارسي ، منذ عام ١٥٦١ ، استطاعت الشركة
الانكليزية ، في موسكو ، ان توفد احد ممثليها المدعو جنكنسن لينشئ لها علاقات مع بلاد
فارس عبر روسيا ، التي كانت بسطت سيطرتها على حوض نهر الفولغا . وقد نجح جنكنسن
في محاولته هذه ، ودخل الانكليز الى بلاد فارس عن طريق مدينة استراكهان وبحر قزوين
وباكو وشيروان . الا ان الفوضى المستحكة حلقاتها في البلاد ، والاختطار التي كان يتعرض
لها عملاء الشركة الانكليزية ، من قبل القراصنة ، في بحر قزوين ، ارغمتها على قطع علاقاتها ،
عام ١٥٨١ ، بعد ست رحلات قامت بها ، في ذلك الحين .

وفي عهد الشاه عباس ، دخل نيبلان انكليزيان مغامران بلاد فارس ، هما انطوني
وروبرت تشرلي ، وبصحبتهما ٢٦ مرافقاً ، بينهم ماهر بصب المدافع ، وعملوا جميعاً في خدمة
الشاه ، سنة ١٥٩٨ . وقد لقنوا الفرس شيئاً من اصول النظام واسبابه والاعتصام بالانضباط
كما لقنوم بعض الفنون الاوروبية ، واسسوا بعض الفرق المدفعية وبعض الطواير ، وجهزوا
الجيش بـ ٥٠٠ مدفع . وسلحوا بالبنادق ٦٠،٠٠٠ جنسدي . وقد اشهر روبرت تشرلي خلال
الحملة التي قام بها الشاه ضد الاتراك . وبفضل هؤلاء الاوروبيين ، والعتاد الحربي الذي جهز
الجيش به ، استطاع الشاه ان يلحق هزيمة نكراء بالاتراك السنين .

ورغبة منه في مضاعمة وارداته ، راح الشاه يحتكر تجارة الحرير ، ورغب في انماء صادراته
عن طريق الخليج الفارسي ، تفادياً منه للرسوم الباهظة التي فرضها الاتراك على مرور السلع في
بلادهم . ولذا اضطر الشاه لمحاربة البرتغاليين . فافسد الى اوروبا ، السير روبرت تشرلي الذي
مر ببولونيا والمانيا وروما وانكلترا واسبانيا دون ان يتمكن من الحصول على شيء رسمي .
الا ان الانكليز المقيمين في صور (الهند) كانوا يجهدون صعوبة في تصريف اجواخهم في
السلطنة العثمانية . وقد وصل الى مسامع الوكيل الانكليزي العام بان بضاعته ستلاقي رواجاً
في ايران ، حيث يشتد البرد والصقيع طيلة خمسة اشهر في السنة ، وبان في امكانه شراء الحرير
من البلاد ، ٥٠٪ ارخص من سعره في حلب . ولذا راح يفاوض روبرت تشرلي في الامر .
وبواسطة هذا الاخير اصدر الشاه ، عام ١٦٠٤ ، امراً للحاكم ان يبذل للسفن البريطانية ، كل
مساعدة ممكنة . وهكذا قامت علاقات تجارية بين الطرفين عن طريق مرفأ جسك . وفي ٢٨

كانون الاول ، حاول البرتغاليون ، اعتراض الاسطول الانكليزي في صورات . فما كان من السفن الانكليزية ، الا ان حطمت السفن البرتغالية المساوية لها بالعدد . وبواسطة هذا التعاون الوثيق الذي تم بين الجيش الفارسي والاسطول الانكليزي ، سقطت قاعدة أرموز بيد الفرس عام ١٦٢٢ ، وعلى الاثر ، أسس الانكليز ومن بعدهم الهولنديون ، معامل لهم في ارموز ، وراح الشاه عباس يقدق انعاماته بسخاء على التجار المسيحيين ، وأمن لهم ممارسة واجباتهم الدينية ، وعمل على تحسين طرق المواصلات ، وبني الكباري والجسور والخانات ، واقام في غيلان ومازندران خانات من المروج السندسية الخضراء ، كما انشأ طريقاً عريضة اجتازت الولايات المحيطة ببحر قزوين من الشرق الى الغرب ، واقام في ضواحي زلفا واصفهان بعض الجاليات الارمنية ، وعهد اليها القيام بتجارة الحرير الذي اخذوا بتصديره الى اوروبا . وبالمثل راحت الاجواخ تقدر على المعجم من هولندا وانكلترا وغيرها من الديباج وبلور البندقية والساعات .

راح الشاه عباس ، كغيره من ملوك المعجم ، يبني له عاصمة في اصفهان
نهضة الفن الوطني :
اصفهان واروربا
الواقعة على طريق القوافل الضاربة بين الخليج الفارسي وطهران ، والتي كانت تتقاطع مع الطرق السلطاني الذي يصل الصين باوروبا مع بحر قزوين . وشيد له فيها قصرأ منيفاً جميلاً كما زينها بالقصور والمساجد والحدائق . وقد غطى جدران المسجد بالفسيفساء والمينا والنقوش البديعة ، بحيث كانت قبة المسجد وجدرانه تتلألأ بالانوار الساطعة عندما تنعكس عليها اشعة الشمس . فيخيل للرائي ، كأنه في بحر من اللازورد المتلوج . وقام الى جانب قصر الشاه ، سوق ضخمة غصت بالصناع والصاغة وباعة الحلي والمجوهرات بحيث اخذ يقصدها كبار التجار من الهند والصين واروربا ، كما احتشد على مقربة منها في الضواحي الوف من رجال القبائل يسكنون الاكواخ من التراب والقش .

ولم تعتم ان اصبحت اصفهان قلب الحركة الفنية في البلاد . واشتهرت على الاخص بصناعة القاشاني الشبيه بالقاشاني الصيني . وعمل الهولنديون على تنفيقه وبيعه في اقطار اوروبا كأنه الخزف الصيني الاصل . كذلك نشطت فيها صناعة السجاد على انواعه واشكاله ، بعضها نم عن ذوق الشيعة ، يشيع البهجة في قلب الرائي لما تقع عليه العين من الرسوم الجميلة ، وصور الحيوانات والنباتات والاشجار والمشجرات ، بينما نرى ، من جهة اخرى نوعاً من السجاد العاري من كل حلي ، تبدو فيه رسوم هندسية وبعض الالوان الزاهية . كذلك اخذوا ينسجون انواعاً جميلة جداً من الديباج الموشى بالقصب واسلاك الحرير الذهبية والفضة ، كما فرشت الجدران بالرسوم الجميلة من صنائع الفنانين الاوروبيين ، الذين جيء بهم من ميلانو والبندقية ومقاطعات الفلاندر والمانيا ، او جاءت تقليداً حرفياً لهذه الصور والرسوم التي اهداها للشاه عباس ، ملوك اوروبا وامراؤها ، وبرزت عليها صور فرسان اوروبيين بسر اويلهم وقباعتهم وعائمهم وجزماهم ، كما برزت فيها نساء اوروبيات ، متخففات بأرديتهن الناعمة

المكشوفة ، بينهم لويس الثالث عشر ، الى جانبه ايرانيون ، واجناس من الكرج ، وجنويون وصينيون وصينييات ، بحيث كنا نرى مظاهر كل الفنون تتفاعل بعضها مع بعض . وعرف الايرانيون ان يخرجوا من كل هذا بمزيج خاص ، واطلعوا منه فناً قومياً تميز بهذه الدقة في الصناعة وهذه التعابير الدقيقة التي تنسجم ببساطتها مع الروح السمحاء في المجموع . كل ذلك في نشابك وتلاحم وانسجام وتناغ من الوحدة والهدوء . فاذا بنا امام فن آسيوي بمقاييسه ومزدوجاته ، واوروبي بدقته وتناسقه وتناسب خطوطه ، هو قبل كل شيء ، فن ايراني صميم .

المخطاط الدولة الصفوية ما كاد الشاه يتواري عن الانظار والاذهان ، حتى اخذ الانحلال طريقه الى قلب الاسرة الصفوية المالكة . فقد كان من شدة

غلوه في الحذر والتحسب ان أمر بان تشمل عيون ابنائه الاربعة ، كما اصدر اوامره بان يبقى امراء الاسرة المالكة قابعين في قصورهم مع الحصيان في عشرة موصولة مع النساء ، بدلا من ان يتدربوا على اعمال الحرب والمقارعة . وكان هؤلاء الامراء يقضون لياليهم في السمر يعاقرون الخمر حتى يتعتهم السكر . وكانوا في صحبة النساء وعشرتهم ، منذ حداثتهم حتى يغشاهم الغثيان فيسعون وراء الغلمان يستسلمون للذائمه . وهكذا توالى على العرش اقزام من الملوك هم الشاه صافي (١٦٢٩ - ١٦٤٢) ، وعباس الشابي (١٦٤٢ - ١٦٦٧) وسليمان (١٦٦٧ - ١٦٩٤) ، والشاه سلطان حسين . واصبحت الوظائف العامة تشرى وتباع كالمتاع ، يتوارثها الابن عن ابيه . وساءت مرتبات الضباط ، بعد ان تولى امور بيت المال مجلس المحاسبة ، اذ راح يوزع مرتباتهم أنحما او اقساطا يفرضها على القرى بحيث كان الضابط يرى نفسه مضطراً لان يرشو اعضاء المجلس المذكور ليتاح له قبض مرتبه من صندوق واحد معين ، والا باع حوالته بخسارة كبيرة لبعض التجار . وراح الحكام ومتعهدو جباية الضرائب يختلسون معظم ما يجوبون من ضرائب ورسوم ، بحيث لم يكن ليصل الى بيت المال ، اكثر من ثلث المبلغ العائد له . وهكذا تخلخلت وحدة الجيش واصيبت أطره بالانحلال ، وراح الاتراك ، بقيادة السلطان مراد الرابع يحتلون ، من جديد ، بغداد ، والعراق (١٦٣٨) ، كما اخذت قبائل الاوزيك تغزو ، من جديد ، خراسان ، الا انهم كانوا ، هم ايضا ، في طريق التفسخ والانحلال . واستطاع إمام عمان ان ينتزع مسقط من ايدي البرتغاليين (١٦٥١) ، وراح يكثُر من غزواته لمراقىء ايران . على الخليج الفارسي .

كان الاوروبيون يتنافسون ، فيما بينهم ، على الاتجار مع بلاد فارس . قالى الاسباب العديدة التي كانت تدعو الشاه لمعاملتهم بالحسن والترحيب بهم ، هنالك سبب هام جسدأ في نظره ، وهو الحصول على المدافع الاوروبية ، ليصد الطامعين في خيرات البلاد ، واذا كان الأنكليز منصرفين لحروبهم الداخلية ، منذ عام ١٦٤٥ ، استطاع الهولنديون ان يفرضوا سيطرتهم على الحركة التجارية مع بلاد فارس ، بعد ان نالوا امتيازاً من الشاه ، بشراء الحرير من كل مكان وتصديره للخارج بدون رسم عليه . وعندما شرع لويس الرابع عشر يطبق

سياسته التجارية ، أصبحت المنافسة الفرنسية تكون مزاحماً يحسب له الف حساب في هذا المضمار . وفي سنة ١٦٦٤ ، أوفدت الشركة الفرنسية للهند ، موفدين من قبلها الى اصفهان ، ومعهما نيبلان هما : قائد ملك اوروبا العظيم وسفيره . وقد توصل السفير الى ان يحصل لحساب الشركة الفرنسية على فرمان يعفيها من رسوم المكس ، مقابل مبلغ ٣٠٤٠٠٠ ليرة يتبرع بها الملك لويس للشاه ، كما نال الملك تصريحاً من الشاه يجعله حامياً للمسيحيين الارمن والكلدان والسيريان (١٦٨٣) ، وتمنى الشاه قدوم عمارة فرنسية للحد من إمام مسقط ، وقدم مقابل ذلك حصنين من حصون مسقط ، ومرقاً يقع على مقربة من بندر عباس ، والاعفاءات من رسوم المكس (١٦٨٩) . الا ان الحروب التي نشبت بمناسبة خلافة اسبانيا وضمت حداً لكل هذه العلائق المشجعة . وفي سنة ١٧٠٨ ، عقد ملك فرنسا وشاه ايران معاهدة تجارية حالت الحرب دون تنفيذها . ووصل مدينة مرسيليا ، عام ١٧١٥ ، محمد بك السفير الفارسي الذي وقع معاهدة تجارية جديدة وميثاق صداقة ، في ١٣ / ٨ / ١٧١٥ مع سحر امبراطور فرنسا الممتاز لويس الرابع عشر ، الملك السيد المطلق ، لفرنسا وللمالك والمقاطعات ومدن باريس ونورمنديا وبريتانيا ، والاكويتين وغسكونيا والبواتو وسانتونج ، وغير ذلك ، من المدن والممالك . وفي هذا الوقت بالذات كانت تتبها امور واحداث هامة تستهدف بلاد فارس بالذات . ففي الوقت الذي راح فيه الشاه سلطان حسين المشهور بورعه بكل الى الخنصيان ورجال الدين المراكز المهمة في الدولة ، هذه المراكز التي يجب ان يحتلها رجال السيف اذ سفيرين روسيين يفدان على اصفهان ، عام ١٧٠٨ ، و ١٧١٥ ، وراح الروس يتهاون للهجوم والانقضاض على البلاد ، كما راح الافغانيون من جهتهم يعلنون الثورة ، وهم سنون صادقون لعقيدتهم ، الذين لم يصدقوا يوماً ولاهم ، في هذه الجبال الوعرة المسالك التي كانوا ينزلون بينها . وكان هذا من شأنه ان يحمل الفوضى والاضطراب الى بلاد فارس .

هنالك بلدان اسلامية اخرى تتبع قارات اخرى سيجري ،
بين رفض الاسلام لاوروبا
وعدم استغنائها عنها
درسها بالدقة والتفصيل اللازمين ، عندما يحين درس هذه الاقطار .
غير ان السلطنة العثمانية والدولة الفارسية يؤلفان مثلين على ما
لهاتين الدولتين من اشعاع على الاسلام وما يخفيانه ، في الداخل ، من ضعف يحد من طاقتها
على الاشعاع والتوسع . فالانقسامات الدينية ، وتنظيم الاسرة المسلمة والدولة الاسلامية ،
والنقص الفاضح في العلوم التي لا تنبع من صميم القرآن ، والقول بالقدرية ، تركت مع ذلك
للاسلام ما يكفي من القوة للوقوف بوجه اوروبا وللانسياح منها والاستبطار في بعض نواحيها
الى حد ما . انما شكاً في داخله من اعراض او هنته فأقعدته ، وحالت بالتالي دون استباحته
العالم المسيحي . وكان القدر الذي قسم للمدنية الاسلامية ، التي بقيت في طورها اللاهوتي ،
قد قدر لها ان تعرض عن المدنية الاوروبية ، مدنية الكفار الهالكين في النار ، هؤلاء الكفار
الذين يشركون مع الله شريكاً ، كما اسقط في يده لعمل شيء ضد هذه المدنية البغيضة ،
بواسطة هذه الذرائع والادوات ذاتها التي استنبطها العقل الاوروبي « الواقعي » .

obeikandi.com

الفصل الثاني

العالم الهندي، الاسلام وأوروبا

الدول الاسلامية
كان المسلمون في اواخر القرن الخامس عشر ، باعتبارهم جيشاً فاتحاً مرابطاً في الاقطار المفتوحة ، يسيرون عالم الهند الحسف والمهانة ويستثمرونه أبشع استثمار ، وكانت الهند ، اذ ذاك منقسمة الى عدة ممالك يتولى الامر فيها زعماء مسلمون تدعمهم جيوش قوية . وقد قام في « سهول الهند الفانجية » بضعة منها ، اهمها مملكة افغانستان ، في لاهور ، ومملكة البنغال . وقام في قلب البلاد ، على صعيد الدكن المرتفع ، بضعة ممالك بينها مملكة الحنشد ، واحمد نجار وغولكوند وبدجاور وبيدار . وقام الى الجنوب ، امبراطورية هندية هي مملكة فيجانيفار التي كانت ترسف في القوضى ، والتي اعتراما الانحلال بعد عام ١٥٦٥ ، وانقسمت على نفسها الى عدة امارات يتولى الامر فيها حكام هم الناباك ، تحت سلطة الامبراطور الاسمية . وهذه الدول الاسلامية ، انما كانت بالاساس جيوشاً غريبة استوطنت البلاد ، من اصل بدوي او نصف بدوي ، هبطت ، اساساً من جبال افغانستان او من فيافي التركستان وتناقلت وطأتها على الهنود المسلمين الذين تراوح عددهم في هذه المنطقة الشمالية الغربية . بين بضعة ملايين ، وهو عدد لا يتقص بشيء عن عدد الهنود التابعين للديانة الهندوكية .

المسلمون الفاتحون ونظام الطبقات
كان الفاتحون بالنسبة للهنود بنسبة الورقة الى البحر . فالمدينة الهندية لم يدخل عليها من جراه وجودهم اي تطور ، لما من هذه الكتلة الضخمة من السكان الذين تجاوز عددهم مائة مليون ، منهم تقريباً ٣٠ مليون في الدكن وامبراطورية فيجانيفار ، و ٦٠ مليوناً تقريباً في الشمال ، ما يصونها ويحافظ عليها . وكان لهذه الكتلة البشرية ، من عقيدتها الدينية ، ومن النظام الطبقي الذي سارت عليه منذ اجيال ، ما يحول دون الحاق اي تأثير عليها . تشتق كلمة « طبقة Caste من كلمة برتغالية Caste » التي تعني عرفاً او سلالة . واول استعمال لهذه الكلمة بالمعنى الهندي الضيق ، يعود لسنة ١٥٦٣ . فقد كتب غارسياده اورفا قائلاً : « ما من احد يعمل في مهنة تختلف عن مهنة ابيه

وكل من هم من « طبقة » الاسكافيين يعملون في الاسكافة . وقد اعلن مجمع غوا المقدس ، عام ١٥٦٧ ، ان اقوام الهند ينقسمون الى « طبقات » متميزة الواحدة عن الاخرى ، وتبين فيها بينها منزلة وكرامة وتتنظر جميعها الى المسيحيين كن هم في أحط درجات المجتمع البشري ، ينظرون اليهم نظرة ملؤها الاستهجان ويمزون اليهم الحرافات والاساطير (بالنظر الى عاداتهم المميزة) بحيث يأبى ابي شخص من الطبقات العليا الاخرى ان يحالسهم او ان يقاسمهم المأكل والمشرب . وهكذا ألقت الطبقة فئة من فئات المجتمع ، مطبقة على نفسها ، معزولة عن غيرها من الطبقات ، تعيش على اعرافها وعاداتها الموروثة ، لها انظمتها الخاصة ومجالها الاجتماعي الخاص ، ومهنتها وعصبيتها . وهذه الفئات البشرية والمجتمعات التي تؤلفها تختلف اصلاً وقصلاً . ويلاحظ احد المؤرخين ان جدول الطبقات الخاص باحصاء ولاية مدراس ، عام ١٩١١ ، يعطي فكرة عن تقسيم الانكليز انفسهم ، الى أسر نورماندية الاصل والى كهنة ونبلاء ، ووضعيين وتجار حديد ، وبقوليين وشيوعيين واسكتلانديين ، وهذه الطبقات كانت الواحدة منها معزولة تماماً عن الاخرى ، كما كانت جميعها تمزق نفسها عن الفاتحين والغزاة المسلمين ، وتتفادى الاختلاط بهم ، وذلك سيراً منها مع تقاليد الموروثة ، وتجنباً للتدنس او التنجس ، اذ كان يترتب على المزارع ، وهو من طبقة البولايان *Poulayan* او طبقة المنبوذين ، ان يقف من محذو البراهمان ، على بعد ٩٦ خطوة ، لا يخاطبه الا عن مثل هذه المسافة او هذا البعد ، خشية ان يلحق به الدنس اذ وقف منه على ٩٥ خطوة . واضطر الغزاة لمراعاة هذه الاعراف والعوائد اذ ان مسها او تمديدها من شأنه ان يسبب هيجاناً عاماً ، وربما ثورة عارمة بين الهنود الذين كانوا يتبرمون باحتلال الغريب لبلادهم ، وطرق الاجنبي لها ، شريطة ان تكون حياتهم الخاصة ، وهي الحياة التي لها قيمتها في نظرهم تبقى مصونة محترمة . ونظام الطبقات هذا أتاح لحضارات كثيرة ان تعيش جنباً لجنب مع غيرها من الحضارات الغربية التي سيطرت في الهند ، وانقذ المدينة الهندية وحفظها سليمة مصونة بالرغم من توالي الفاتحين وتعاقب احتلال الاوروبيين .

١ - السلاطة المغولية الاولى

قامت في الهند ، في مطلع القرن السادس عشر ، دولة مغولية جديدة ، بايسر سارت في تطورها الصاعد على النهج الذي اتبعته الدولة الصفوية ، مدفوعة الى هذا المسلك ، بالاسباب ذاتها . محمد بابر (١٤٨٣ - ١٥٣٠) من عائلة تيمورلنك ، لجهة ابيه ، ومن اسرة جنكيزخان لجهة امه ، وولي الحكم خلفاً لابيه سلطان علي ، على فرغانة ، في التركستان ، عام ١٤٩٤ . فبعد ان خلعه الاوزبك ، عمل على جمع فريق من المغامرين وشذاذ الآفاق حوله واحتل بهم مدينة كابول ، وحاول بعد ان عقد حلفاً مع بلاد فارس ان يفتح فرغانة من جديد . وقد جبر عليه تحالفه مع الشيعة نقمة المتعصبين من السنة ، ثم لم يلبث ان انثنى عن فكرته هذه ، بعد ان دخل مدينة سمرقند واضطر لمغادرتها مرتين ثم اتجه نحو الهند

منجذباً إليها بعد الذي سمعه من اخبار الذهب والفضة وثوافر الصناعات الماهرين . ولذا اخذ بمهاجمة مملكة دلهي الافغانية ، ثم لاهور ، وكسر الافغان شر كسرة في معركة بانيبوت (١٥٢٦) فاستولى معها على دلهي واكرا ونودي به امبراطوراً على هندستان ، في مسجد دلهي ، وذلك يوم ٢٧ نيسان ١٥٢٦ .

الا ان بابر كان اعجز من ان يحقق حلمه هذا . فلم يقم من يقف بوجه المغول مع ان جيشه لم يكن ليتجاوز عدده الـ ٢٥،٠٠٠ جندي ، تجاه الـ ١٠٠،٠٠٠ . الا ان نظام التعبئة الذي سار عليه ، والمدفعية الشديدة الاثر التي استعملها ، وكلاهما من اصل تركي ، امنه له الفوز على الفرسان الافغان والراجبوت . فجعل في مقدمة جيشه وطلبعته مئات من المركبات والعربات شدها بعضاً الى بعض ، ونصب بينها مدفعية التي أوكل امرها الى طويجية اتراك ، فحصدت العدو حصداً ، بعد ان أسقط في يده امام هذه الجبهة المتراصة على هذا الشكل . ونصب فرقة الخيالة ، الى جناحي جيشه ، فاخذت تطر العدو سحابة من النشاب ، ليقوم بعد ذلك بهجوم جانبي يضع حداً لكل مقاومة .

حمل هذا الامبراطور احتقاراً عميقاً للهند . فقد جاء الهند لمعدم وجود شيء آخر احسن منه ، الى حيث لا مقاومة ولا من يقف بوجهه . الا ان مزاجه البدوي كان يجعله دوماً نحو الجبال والتفكير بارضها العاصية . فقد وجد الهنود لا كفاءة لهم ، ولا اساليب ولا طرق لهم معينة ، ولا خيول عندهم ولا كلاب أصيلة ، ولا بطيخ ممطر ، ولا عنب ولا خبز طيب ، ولا ماء قراح ، ولا ماء جار في حدائقهم ورياضهم . فلم يكن في الهند على الاجمال ولا لدى الهنود شيء طيب يذكر . فقد ازدراهم من حيث هو مسلم واخضعهم لضرائب خاصة كالجزية كما فرض رسوماً على مزاراتهم واماكن الحج عندهم . فن الطبيعي ، والحالة هذه ، ان يحمل له الهنود كل حقد واحتقار ، اذ قيل : وكا تراني يا جميل اراك . فلا عجب ان يتفادى الهنود المغول ، ويتجنبونهم ، وان يجولوا الفلاحون عن قراهم ، وسكان المدن عن مدنهم . فاملت الارض وبارت الغلال بعد ان اجديت المزارع ، وانتشرت في طول البلاد وعرضها عصافيات تقطع الطرق وتعرض للسابة . ولذا كان عليه ان يجعل من امبراطوريته امبراطورية بالفعل لا بالكلام .

هذه المهمة كانت من حظ السلطان اكبر ان ينهض بها وان

يحققها على الوجه الاكمل . (١٥٤٢ - ١٦٠٥) . صار اليه الامر بعد ان توفي ابوه السلطان هومايون ، ابن السلطان بابر ،

مشكلة تكيف المغول

مع الهند : السلطان اكبر

الذي عرف بالشجاعة والاقدام . تولى اكبر الحكم عام ١٥٥٦ ، بعد ان بدا العوبة بيد امه ومرضه ووزرائه . الا انه لم يبدأ بالحكم الفعلي الا سنة ١٥٦٢ ، عندما صرع بضربة من جماع يده رئيس وزرائه . فقد صرف حادثه يلهو بالقنص والصيد . اوتي من القوة البدنية وقوة

الاحتمال ، ومن النشاط والشجاعة الشيء الكثير بحيث أصبح مفزعة الشرق كله . فقد شابه الاسكندر المقدوني من وجوه عدة . فقد كان يروض ، وهو ابن ١٤ سنة ، اشد الفيلة شراسة ، تمردت احدى القرى ضده فاسرع مهاجماً على ظهر فيله ، ولم يبال بالنبال المنهالة عليه وتكسر على درعه ، ثم اندفع بفيله فوق الحواجز ، ودخل البلدة وامر رجاله باحراقها . هاجم مرة وهو في الجبال نمرة وصرعها بضربة نجله من سيفه البتار . فقد وجدت الهند في هذا الشاب فتأهلاً وسيداً .

كان رومة ، عريض المنكبين ، أعقف الساقين ، تقدح عيناه اللوزيتان النار والشر ، له شاربان خفيفان وصوت جهوري ، حنطي اللون ، وكان من المهابة والوقار بحيث تدرك من اول اللحظة انك امام ملك . فقد كان وقوراً رصيناً . اتصف بالطيبة واللطف . على الاجال ، يمتلك زمام امره ويخفي سريره . اما اذا ما استشاط غيظاً وحمي غضبه انزل الرعب في القلوب . وبالرغم مما اوتي من قوة بدنية ، فقد كان دائماً قلق البال ، لا يرتاح ولا يسلو اضطراب الخاطر الا اذا اخذ بعض المسكرات او اخذ شمة من الأفيون .

كان امياً يجمل الكتابة والقراءة ، مع الملاحظة ان زعماء المنود كانوا دائماً يرددون بان الكتابة ليست بامر خليق بالفاتحين . فقد استمع الى قصص وحكايات كثيرة ، وأوتي ذاكرة هائلة . يحفظ جيداً اسماء شعراء الاسلام ومؤرخيهم ، كما كان وافقاً على تعاليم الانجيل والمعائد الرئيسية في الديانة المسيحية ، ومبادئ الهندوكية واليانية والزرادشتية . وكان يناقش ويجادل بمعرفة ، في هذا كله ، بدقة واستبانة . عرف بذكاه فطري واسع وبمنطقه السليم . نظر الى الامور من فوق ، من عل ، كما عرف الكثير من الاشياء بتفاصيلها . ملك من الجيل الثالث . ومع ذلك لا تزال تجيش فيه روح البداوة . فقد ادرك جيداً ما فات بابر وابنه هومايون تفهمه . تمت له نظرة شاملة وفكرة عالية عن السياسة والدولة . فقد ادرك على الوجه الصحيح الظروف التي تمت فيها الغلبة للمغول وساعدت على ترسيخ دولتهم .

منه جداً ان يكون جيشه دوماً على احسن ما يكون تدريباً وعدة ، وكفاية وفعالية لينهض على الوجه الاتم بالحروب التي تحتم عليه مواجهتها . وقد أدرك جيداً فلسفة التكتيك الحربي الفائلة : اذا لم تبادر للهجوم ، استهدفت له وتمرضت له بأسرع مما تظن . حارب طوال حياته المدينة مستجيباً لداعي الجهاد المقدس ، من اقصى الهند الى اقاصها ، فدوخ غوجرات (١٥٧٢) ، وصورات (١٥٧٣) ومملكة الافغان في البنغال (١٥٧٤) ومملكة اوريسا (١٥٩٢) ، وغزا سلطنة احمد نجار ثم انكفاً على اعقابه ليخمد ثورة الراجبوت و ثورة البنغال وبيهار (١٥٨٠) والثورة التي قام بها التيموريون ، كما رد التهجيات والتمديدات التي تعرضت لها من قبل الازبيك ، واعاد فتح كابل (١٥٨٥) وضم الى ممتلكاته كشمير التي اصبحت روضته الغناء (١٥٨٦) فقد تم له اكليل الفاتحين ومجد الغزاة المظفرين ، واشتهر بتوزيع اسلاب الحرب بين جنوده .

الدولة هي معتمدة الجيش المغربي . استقلال المنتجين

اختار اكبر من بين ضباط جيشه عماله علي الايالات والموظفين الذين كان بحاجة اليهم لشؤون الادارة ، معظمهم اغراب عن الهند اجانب من المرق . الابيض . فقد كان يزديري اولاد هؤلاء البيض الذين يسعون وراء تغيير لون بشرتهم . او تتبدل طبائعهم فيسترسلون للبطالة كالمهندوس . ولكي تنفتح امام الموظف الابواب على مصراعها للنجاح والترقي ، كان يستحسن فيه ان ينحدر اصله من جبال افغانستان او من سباسب ايران ، او من بقاع التركستان او من مغوليا . ان ٧٠٪ من عماله وموظفي الادارة هم من هذه الاسر التي جاءت الهند في عهد ابيه السلطان هومايون او اثر تبوئه هو نفسه العرش وآلت اليه مقاليد السلطة . فقد كان بينهم ١٥٪ من مسلمي الهند ، و ١٥٪ من الهنود غير المسلمين ، لا يصل بينهم للراتب العليسا سوى النزر النزر .

فبالنظر لوضع البلاد الاقتصادي ، كان المسلك الوظيفي هو الذي له قيمته ، ولا سيما الوظيفة في البلاط الملكي او في الادارة العامة التي هي تعبير عن الجيش ، هذا الجيش الذي هو عماد الدولة وفيه قيامها . وقد مثل الجيش بهذه المقادير التي كان يستهلكها من غلال الارض وانتاج البلاد ، المنصر الاكبر في مرافق الدولة الاقتصادية ، كما ان الطبقات العقيمة كانت تستهلك جانبا كبيرا من محاصيل البلاد ، في الوقت الذي لم تكن لتموض على المنتج بأي شيء . وهؤلاء الطفيليون كانوا من الكثرة بحيث كان يتمرد حصرهم وعدمهم . ضم الجيش في مختلف قطعاته وألويته ، في جميع انحاء الهند اكثر من مليون جندي . فقد ألقت قطعاته حلقات متسلسلة بينهم امراء الدم من الاسرة المالكة الذين كانوا على رأس وحدات تتألف من ١٠،٠٠٠ خيال او فارس . ويليه مرتبة على التتابع ، رؤساء الوحدات من ٥٠٠٠ و ٣٠٠٠ و ٢٥٠٠ و ١٠٠٠ و ٥٠٠ و ٤٠٠ و ٥٠ و ١٠ وكان ممن المتوجب على هؤلاء الضباط ان يجندوا الجنود ويحضروا لهم الخيل ويجهزوهم بما يلزم من عدة وعتاد ، مقابل مرتبات تدفع لهم . ومن بين هؤلاء الضباط كان السلطان اكبر يختار عماله والموظفين الكفاة للمراكز الادارية البارزة فاذا ما عين مباشرة موظفين مدنيين كان عليه ان يعين مرتباتهم وان يوليهم مسؤوليات المنسبدار .

كان السلطان اكبر يتولى الحكم بنفسه دون مساعدة رئيس وزراء ، يعاونه اربعة وزراء وبعض الضباط العاملين في البلاط ، وقسم البلاط ورئيس الطهاة . ومن مجموع هؤلاء كان يتألف مجلس الملك الخاص ، الذي كان يقدم النصح والمشورة للملك الذي يحتفظ لنفسه باتخاذ القرار اللازم في نهاية الامر ، وليس من يحد من ارادته او يقف بوجهه ، لا قانون ولا دستور ، يقضي في يومه بالامور العارضة له ، ويستقبل في ديوانه الملكي في جلسات عامة كل ملتس او مطالب بحق مهضوم ، او منظم من ظلامه واقمة عليه ، فيجزم السلطان نفسه بالقضايا المختلف عليها . وكان كتبة السر يحرصون على قراراته هذه . اما الادارة فكانت متمسبة للغاية بحيث يجري

تسجيل كل قضية بما يلزم من الايضاحات والبيانات اللازمة . كل هذه المعاملات كان يقتضي لها جيش لجب من الموظفين والكتبة ليس لهم محل او ذكر بين مراتب الجيش وصفوفه . ولضبط غلال الارض والمحاصيل ، كان لابد من عدد محترم من المحاسبين والكتبة ، ومثل هذا العدد واكثر ، لجباية الرسوم ، ومثلهم لمتولي شؤون المال والتحصيلدارات ، وغيرهم من المحاسبين والمفتشين لضبط القيود والاشراف على عمليات الجرد ، وكان الوف من الكتبة يسجلون كل يوم بيومه مجموع واردات الدولة ومدانجيل الضرائب ومصروفات الملك كما يسجلون البارز من حوادث البلاد وماجرياتها اليومية ، ويضبطون اسماء الاجانب الذين يدخلون البلاد ، مع بيان اسماء البلدان التي قدموا منها والغرض من زيارتهم .

كان للسلطان اطباؤه وفنانوه وشعراؤه ، وكان يعيل في حرمه اكثر من ٥٠٠٠ امرأة لكل واحدة منهن شقتها الخاصة وخادمتها ، يقوم على حراسة هذه الجحافل من النساء حراس نساء وخصيان وعدد لا يحصى من المبيد الارقاء .

وكان السلطان يستهلك كل يوم مقادير هائلة من انتاج رعاياه ، يؤتى له بماء نهر الغانج ابنا حل ، وكان العدائون يحملون الثلج اللازم للتبريد ، من الجبال كما يحملون الفاكهة والثمار الشبهة من كشمير وكابول وسمرقند . وكان في خدمة كل فيل من فيلته من ٤ - ٧ اشخاص . وقد اخذ السلطان على نفقته الخاصة اعالة الألوفا من المسايين والمصارعين والصيادين المعنين بامور البيزرة . وقد حلاله ان يشيد الصروح والقصور والاضاريج الكبيرة والمساجد الجميلة ، والمدن كمدينة فاثور سيكاي التي شيدها بين ١٥٧٠ - ١٥٨٠ ، بمناسبة مولد ابيه وولي عهده . وكان يعين في كل ولاية او صوبا حاكما او منسبدار . وتقسم الولاية نفسها الى عدد من الاقضية او سركاسن على رأس كل قضاء منسبداران احدهما قائد للجيش والآخر ناظر لبيت المال . وقامت في المدن والمرافىء البحرية ، ادارات مستقلة يعهد بها الى محتسب او كاتوال يكلف بالسهر على امور الأمن ، ومعاقبة المجرمين وتحديد الاسعار ، ومراقبة المكاييل والموازين وملاحقة الكسالى والزاهمهم على العمل ، والسهر على تنفيذ التعليمات الصادرة عن السلطان . وكان يساعد الموظف القائم على شؤون الادارة ، مئات الكتبة والخدمة ، فحملة المشاعل ، وحملة الأسرة ، واهل الطرب والموسيقين ، والارقاء والخدم من كل نوع ولون . وكان الموظفون الملكيون يمارسون كل السلطات التي يعهد بها اليهم ، فكانوا يتفاوضون رواتبهم عن وظائفهم من عوائد جاجير ، وهو عبارة عن قرية او عدة قرى ، يتولى ادارتها ويستغلها كملك خاص ومن ريعها يؤمن مرتبه . وكان في كل ولاية محاسب عام يؤمن النفقات الادارية العامة ويرسل بالفائض من واردات الضرائب والرسوم للامبراطور . اما الجمارك او ادارة المكس فكانت تخضع لنظام خاص من التازيم .

واخيراً قام في كل مكان زامندارات نبلاء يتولون ادارة اراض واسعة ويمارسون فيها كل انواع السلطة لقاء عوائد معينة ، يدفعونها للامبراطور ، الذي كان يوسع ان يسترد هذه

الاراضي المقتطعة . وكثيراً ما كان يترك هذه الاراضي لاصحابها يستغلونها كما يشاؤون لتنتقل منهم الى ذريتهم .

وهكذا نجد أنى وقعت منا العين ، عدداً كبيراً من الناس استهلاك الانتاج واستحالة الادخار لا يقومون باي نشاط منتج ، وان نشطوا فلا يعطي نشاطهم اي انتاج . فالنبلاء ، موظفو الادارة والزمندار ، كل هؤلاء ومن لف لفهم ، عاشوا في بذخ اسطوري ، التفت حولهم حاشية طويلة من الطفيليين ولم يكونوا ليعطوا البلاد شيئاً يذكر ، لا من باب المنافع العامة كالطرق والجسور والقناطر المائية ، وسبل المياه والاقنية الخاصة بالري ، ولا ما يؤول الى تنشيط الحركة التجارية او يضمن سلامتها . فقد كان من المستحيل ، في مثل هذه الاوضاع جمع رؤوس اموال ، كما كان من المستحيل على اصحاب الثروات ، ان وجدوا ، ان يستثمروا اموالهم . فلم يكن احد من النبلاء ليجرؤ على التظاهر انه يدخر او يقتصد من مرتبه او يجمع ثروة ، والا تعرض للمصادرة . وعند وفاة احد النبلاء ، كان الامبراطور يصادر ممتلكاته ، وبذلك تضطر كل اسرة ان تعاود سيرتها من جديد . وعلى مثل هذا قس ايضاً التجار الاغنياء . وكان كل تاجر من طغمة التجار عرضة للبلص والاعتصار عن طريق سلفات اجبارية لا تسد ابدأ لاصحابها ، كما كان يفرض عليه رسم معين اذا ما اشتبهوا بتوفيره مبلغاً من العملة السائلة . اما الفنانون فكان النبلاء يرغمونهم بالقوة ، واحياناً تحت طائلة الجلد ، للعمل في خدمتهم بالهجان ، وان دفعوا فنصف المبلغ المتفق عليه . ولذا كان من المحال عليهم ان يقتصدوا بشيء من دخلهم او ان يجمعوا رأس مال يستثمرونه بالتي هي احسن ، بشراء امتمعة او بعض الخانات وكثيراً ما بلغ من شدة فقرهم ما اضطروا معه للاستدانة لشراء الغزل الذي لا بد منه في صناعة الحياكة والنسيج ، او النول اللازم لفزله . وهكذا فقد امتنع كل صاحب صنعة او معمل عن ان يقتصد بشيء . فكل ثروة او رأس مال هي من حق النبلاء او من حق كبار التجار . وبذلك امتنع كل تقدم او تطور واصبح امره من المحال .

فالوظفون لم يكن لهم من هم سوى جباية الرسوم المفروضة على الفلاحين ، والمفروضة على المئات من اصحاب الحرف والمهن ، والرسوم المتوجبة على اجتياز الانهر والترع وغير ذلك من رسوم المرور على الطرقات ، او الرسوم المفروضة على المبيعات او على المواليد . كل شيء كان عرضة لدفع رسم عنه . وكثيراً ما كانوا يجبون من الرسوم تأميناً لمصالحهم الخاصة ، اربعة اضعاف ما يرسمه او يعينه الامبراطور ، بعد ان تعذر القيام باية مراقبة او تفتيش . فاذا ما رغب التجار والصناع ان يعاملوا بالعدل والنصف ، ترتب عليهم ان يميزوا الهدايا الثمينة .

ولذا رأت التجارة نفسها مقيدة من كل جانب ، كما انها كانت دوما مهددة لفقدان السلام والطمأنينة . ولذا أجبر التجار على السفر قوافل تتألف القافلة الواحدة من ٥٠٠ شخص واكثر تحت حماية قوية من الجنود المدججين بالسلاح .

وكانت نفقات السفر تزيد من اسعار الحاجيات ، بحيث ان ثمن صنف من هذه الاصناف يصبح في غير متناول العادي من الناس ، بعد ان كانت هذه المواد تقطع في تنقلها من ٢٠٠ - ٢٥٠ كيلو متر ، وهذه المسافة هي المجال التجاري لمدينة لها بعض الشأن . والتجارة البعيدة المدى لم تكن ممكنة الا لهذه الاصناف او المواد التي تتحمل طبيعتها ، مجالاً اوسع من الارياح ، وهي مواد قليلة ، على الاجمال ، نادرة ، لا تنقل الا بمقادير قليلة .

اما الصناعة فكانت يدوية ، يعمل اصحاب المهن والحرف ، بناء على طلب او توصية بسيطه كلي ، وبكسل ، على اجهزة وادوات فقيره ، فلم يكن ليتوفر لهم من الخامات بحيث يلتجئون او يصنعون مسبقاً هذه الاصناف الموصى عليها ، مع العلم انهم لم يكونوا يتناولون من الغذاء في اكثر الاحيان ، ما فيه الكفاية ، يعملون بتمهل كلي وببلادة ، وينقطعون عن العمل حالما يتوفر لهم ما يسد رمقهم .

اما الاقتصاد فكان يعمل على الزراعة التي هدفت قبل كل شيء لتلبية حاجات المحيط المحلي .

كتب على الفلاح الهندي ان يؤمن أود الطفيليين ، في الجيش والدولة . فكلن يحرث ارضه بمحراث من الخشب يحمره جاموس ضامر خاري البطن . يكدن من صدره ويتعرض للاختناق وهو يحمر المحراث : وكثيراً ما استعمل في عداد ما اتخذ من عدة وعتاد : المول والمجرفة والريش ، وكلها متخذة من الخشب ، اذ ان ثمن نصف كيلو من الحديد كان يساوي ثمن ١٠ ليرات من القمح (ما يعادل ثلاث ليرات عام ١٩١٤) ولم يكن لدى المزارع سوى القليل من وسائل تسميد الارض ، كما ان نظام السقاية كان سيئاً في الشمال الغربي من البلاد ، ناهيك عن انه لم يكن مطمئناً الى بقائه في استنثار ارضه ، اذ كثيراً ما كان الموظف ينزعها منه لينقله الى مزرعة اخرى او يستبدله بمزارع آخر يكون اوسع حيلة واغوى طاقة على استرضائه ، او انه ينتزع منه الارض ليستقلها هو بنفسه وليس ما يحفره قط للتوسع في اعماله الزراعية ، او ليستمري في صيانة ما لديه من احواض الماء والبرك ، كما ان الضرائب المفروضة عليه كان معدلها يزيد على ما كان مترتباً عليه منها عام ١٩١٤ ، وتجاوز قيمتها ثمن نصف غلته . اما تغذيته فكانت سيئة اذ لم يكن ليتناول سوى وجبة واحدة في المساء تتألف من بعض الارز وبعض البقول مع قليل من الزبدة ويقضي نهاره في مضغ بعض الحبوب المجففة لهاء للعدة . واقتصر لبسه على منزر من القطن يستر عورته ، ويسكن زريبة من الطين لا مدخنة لها ولا نافذة ، سقفها من القش . واقتصرت امتعته المنزلية على بعض مرطبين الفخار وبعض الشراشف القطنية ، وليرد عنه لسع البرد القارص ليلا كان يستعمل رجيع البقر المجفف وقوداً امام باب داره . فاذا ما أجذبت الارض جاء ذلك نذيراً له بالموت جوعاً . فايئها مررت في الحقول او على مفارق الطرق ، وقمت منك الدين على جثث الموتى تقترش عرض الطرقات ، او اناساً هائمين على وجوههم وقد غارت عيونهم في مآقيها ، وشجبت

شفاهم وعلاها الزبد . وكادت نواتي عظامهم تشق أديم جلده ، وقد ترهل بطنه كالجيب الفارغ ، وهو يعوي من الجوع ، والنساء يبمن اولادهن او يبمن انفسهن ليرسفن في الرق الى الابد . وكانت أمر بكاملها تضع حداً لبؤسها بالسم لتسريع بما تعاني من سغب وتضور ، كما لم يكن من النادر قط ان تأكل نساء اولادهن . وكثيراً ما وقعت الانظار على قوم جالسين على مقربة من نار مشبوبة يستصلون حتى شواط ايديهم وارجلهم ، كما يبيع اللحم البشري في الاسواق .

حاول الملطان اكبر ان يزيد من وارداته المالية بادخال السلطان اكبر واصلاح ضريبة الاملاك بعض التحسينات على هذا الوضع المؤسف . وقد استبدل ، عندما توفرت له الامكانيات ، المزارع والجاير ، بمبلغ من المال ، كما استبدل المزارع والتابع بموظف فقد ادخل نظاماً جديداً من الضرائب على السكان القاطنين السهل الشالية ، الممتدة من مالغان الى بهار ، او في اجزاء عديدة من مقاطعة راجبوتانا وماكوا وغوميرات فلم يستبق ، مبدئياً ، سوى ضريبة الارض ، كما عمد الى تحديد مساحة الارض المزروعة . كذلك عمل على تخمين معدل الغلة التي تعطىها قطعة ارض معينة من الذرة والقمح والنبيلة والقطن . وفرض على المزارع دفع ضريبة كل سنة حدد قيمتها ، يتفق معدلها مع مساحة أرضه . وهكذا راحت الدولة والمزارعون يعتمدون مبدأ التخمين . اتخذ السلطان اكبر معدلاً له غلة سنة متوسطة ، وفرض على المزارع تقديم ثلث الغلة . وراحوا يقدرون النفقات المترتب على المزارع تحملها او تخفيضها ، كالجزار والغذاء ، بمعدل نصف الغلة او المحصول . وقد ابقى سدس الغلة لادخال تحسينات على نظام حياة الفلاح كضمان له اذا لم يأت حساب البيدر على حساب الحقل . ولم يخطر للسلطان اكبر ان يدخل اي تغيير او تعديل على الوضع السياسي والاجتماعي ، هذا الوضع المرتبط الى حد بعيد ، بالوضع الاقتصادي في البلاد . فبعد ان كان يصفي الى المظالم التي ترفع اليه وينظر فيها ، كانت يتخذ أقصى المعقوبات ضد العابثين بمسؤولياتهم من هؤلاء الموظفين . ولم ينج من مراقبته الشديدة سوى عملائه العاملين في اطراف الامبراطورية البعيدة .

وجود الفلاح ووصفه امر لم يكن ليفهم على الوجه الصحيح لولا الدين ، ولولا هذا الادب الرمزي المكتوب باللغة العامية ، هذا الادب الذي كان يحلو للفلاح ان يردد منه ، بشيء من التأثر والشعور العميق ، مقاطع تفعل فيه فعل الراح في النفس .

ادرك اكبر ضرورة التقرب من الهندوس ، وضرورة نفخ روح قومية في الدولة . فقد تزوج ، عام ١٥٦٢ ، من اميرة هندية هي ابنة الراجا عمير ، معبراً بذلك عن رغبته الشديدة بان يكون باديشاه المسلمين والهندوس على السواء . وامر عام ١٥٦٣ ، بإلغاء كل الرسوم المفروضة على اماكن الحج الهندوكية ، كما ألغى ، عام ١٥٦٤ ، الجزية ، هذه الضريبة التي تصم من تصيبه من الهندوس

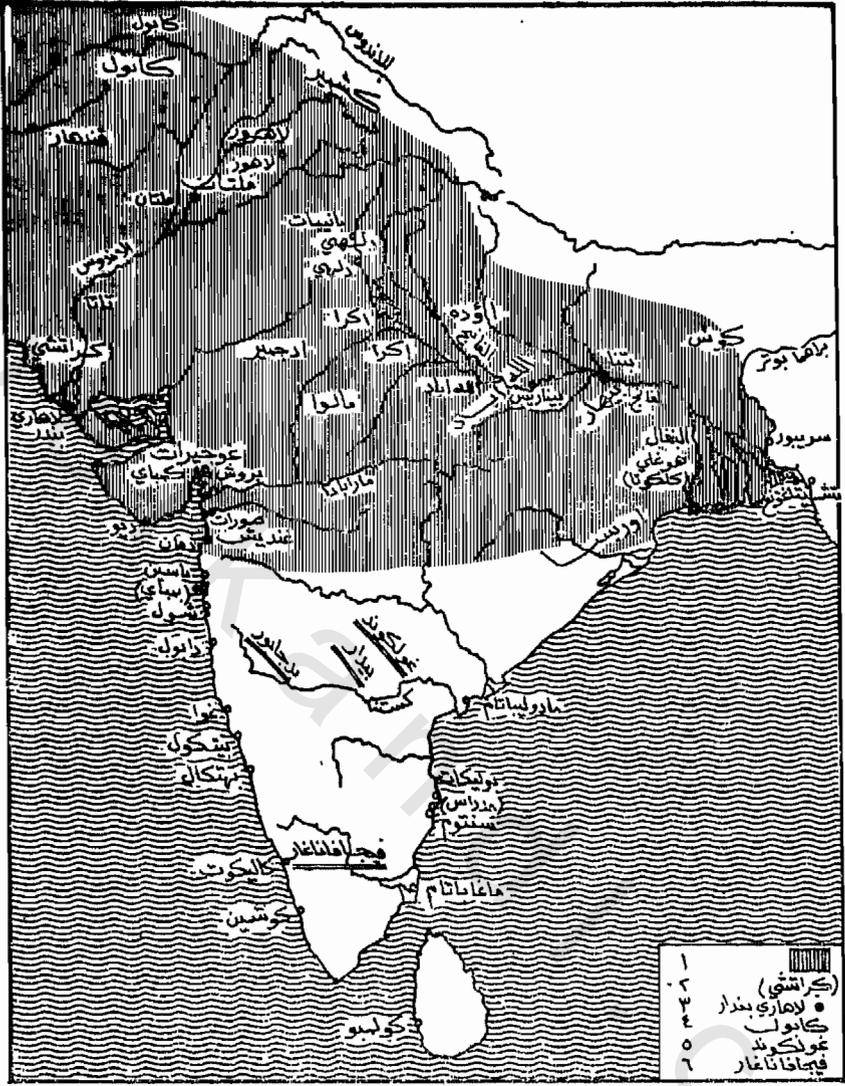
السلطان اكبر يعمل
على ايقاظ الهندوكية وبعثها

برصمة التأخر الديني ، كما ترك للهندوس ملء الحرية الدينية ، وشجع لإحياء عادات الهندوس واعرافهم ، كما سعى الى احياء اساليب تفكيرهم . حاول كذلك ان يوسع من نطاق معلوماته حول آداب الهند القديمة ، فأمر بنقل الآداب السنسكريتية الى الفارسية . ولما كان الفكر الهندي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأمور الدينية ، فقد شهدت الهند نهضة جديدة في آدابها القومية . فاخذ الكاتب والاديب البراهمني الكبير تولوداس ، يعيد من جديد بين ١٥٧٤ - ١٦١٤ ، كتابة الملحمة الهندية المشهورة « رامايانا » (بحيرة مآتي رامانا) ، هذا الاله المتجسد ، المخلص ، الذي كانت زوجته إيدا ، المثل الاسمي لكل أنثى . فراما اله انساني ، يحب الناس كما يحب اولاده فتجسد ولبس طبيعة البشر ليجعل نفسه اكثر إدراكاً لديهم . ففي كتابه هذا تقرب الديانة الهندوكية كثيراً من الديانة المسيحية بحيث يكفي في مقاطع كثيرة ان تستبدل اسم رامانا باسم يسوع ، كما ان عدداً كبيراً من صلواتهم الطويلة لا يستتلف احد من المسيحيين من وجودها في كتب الصلوات المعتمدة لديهم . واستقر في يقين الهندوس ان قراءة هذه الصلوات وتلاوة هذه الااشيد الروحية من شأنها ان تطهر النفس من أدران الخطيئة كمن يستحم في مياه بحيرة مقدسة « فهذه الانشودة هي في نظر هندوس الشمال ، اكثر من التوراة لدى المسيحيين العاديين في انكلترا » . وهكذا شهدت البلاد إحياء للهندوكية .

عاش الشاه أكبر حتى عام ١٥٧٤ كسلم سني ، مخلص ، ثم اخذت
 محاربة صبر الشرب
 أكبر و « التوحيد الالهي »
 فتلب عليه روح تشككية مع بقاء الشعور الديني قوياً في قرارة
 نفسه ، فلم يكن ينقطع دقيقة عن ذكر اسم الله ، وقضى حياته
 يعبد الله بالروح . الا ان مآشاهد في مملكته من كثرة الطوائف والملل والنحل ، ألقاه وآله كثيراً
 ولذا لم يكن واثقاً من نفسه اين تقوم الحقيقة . فخيّل اليه يوماً انه يستطيع ان يحل هذه المشاكل
 التي تعترضه ، أو ليست « الملكية نوراً مصدره الله » . واعتقد أكبر في سويداء قلبه انه شعاع
 الله وفيض منه . فأمر عام ١٥٧٥ ، بإنشاء « بيت العبادة » ، وهو منتدى للمناقشات والمجادلات
 الدينية الطويلة النفس ، تم بعضها تحت اشرافه مباشرة ، ولاسيما ما دار منها حول القضايا الخاصة
 بالالوهية .

ومنذ سنة ١٥٧٨ قبل ان يشارك في هذه المناقشات الدينية الهندوس والمسيحيون . فطلب
 من البرتغاليين في مدينة غوا ان يوفدوا اليه مرسلين مسيحيين ، فجاء ثلاثة مرسلين يسوعيين .
 فاستمع السلطان أكبر الى مجادلاتهم وخرج بما يقرب من اليقين بان المسيحية هي افضل ديانات
 العالم . الا ان الاستثنائية او التفردية المسيحية ، وسر الثالوث الالافس ، ووجوب رذل تعدد
 الزوجات ، كل ذلك احدث فيه صدمة قوية .

ولذا مال ، اكثر فاكثر ، الى انشاء ديانة عامة ، تضم احسن ما يوجد من العقائد في الاديان
 الاخرى ، يفرغ فيها كل الملل والنحل الموجوده في امبراطوريته . وفي اواخر حزيران ١٥٧٩ ،



الشكل ١٩ - الهند عند وفات أكبر

- | | |
|-----------------------------------|--|
| ١ - امبراطورية المغول في عهد أكبر | ٤ - المقاطعات التي ضمت الى امبراطورية المغول |
| ٢ - الموانئ الجديدة | ٥ - الدول الاسلامية المستقلة |
| ٣ - موانئ لم يعد لها وجود | ٦ - الدول الهندية المستقلة |

ترأس الصلاة محل الامام في مسجد فائبرور سيكري الكبير . وبعد ان فرغ من الصلاة قال : « الله اكبر » معلناً بذلك انه مشارك للطبيعة الالهية ، وفي عام ١٥٧٩ ، اعلن عصمته امام الناس ، وطالب جميع العلماء والامة جمعا ان يأقوا بهديه ورأيه . فمن لم يمثل له ، فقد امواله

ومقتنياته واستوجب الهلاك الابدي. فالامبراطور هو نائب الله على الارض، وينبوع النعم. وهكذا فرض اكبر توحيداً الهياً مع شيء من الحلولية . اوصى بعبادة الشمس و باحترام النار ، واقتبس عدداً كبيراً من المراسم والعبادات الدينية الهندوكية واليانية والزرادشتية او المجوسية ، و اعلن عام ١٥٧٨ ، انه كما لا يمكن للانسان ان يكون له اكثر من اله كذلك يجب الا يكون له اكثر من امرأة . ومن الجائز احتمال الظن انه طلق كل النساء التي كن في عصمته . كذلك ترك حرية العمل والتصرف لكل الاديان ، و اصدر عام ١٥٩٣ فرماناً بذلك . فالديانة التي تادي بها اكبر انما هي نظام ديني ، امبراطوري اكثر منه عقيدة محددة . واستقدم الشاه اكبر نفسه مرسلين كاثوليك من غوا عام ١٥٩٠ و ١٥٩٤ ، مع الملاحظة هنا انه كان يتودد للبرتغاليين للحصول منهم على مدافع . وراح من جهة ثانية في اضطهاد المسلمين . فالاولاد الذين حملوا اسم محمد اجبروا على تغيير اسمائهم ، وحظر على المرأة الهندية الزواج من مسلم ، و امر ببيع بعض الشيوخ عبيداً و ارقاء . وراح رجال البلاط و الموظفين يعتقدون نظامه ، ان لم يكن رغبة منهم فرهة ، و حمل كثيرون منهم صورة الامبراطور وكانوا يتبادلون التحية بكلمة . « الله اكبر » . وقد تكاثرت اتباع العقيدة الجديدة في اماكن كثيرة الا ان هذا المذهب او الطريقة الايمانانية الجديدة توارت عن الانظار و زالت من الوجود بعد وفاة السلطان اكبر ، ولم يبق من محاولته الدينية هذه التي حاول معها افراغ كل شعوب سلطنته في طائفة واحدة ، شيء يذكر .

قامت امبراطورية السلطان اكبر على اساس من التسامح والتفاهم مع الهندوس ، و نظام ضرائبي اصاب الاملاك كان قريباً من نظام المحاصة النسبية ، وهو نظام شابه كثيراً النظام الذي عمل به الانكليز ، فيما بعد عند احتلالهم للهند ، و غرس الروح الوظيفية

المخطاط الدولة المغولية ؛
التنكك الاداري و تقهر
العامل الهندوسي

في الخدمات العامة ، و النزعة الى تأسيس دولة عصرية . الا ان خلفاءه جهانجير (١٥٦٩ - ١٦٢٧) و شاه جهان اي « ملك العالم » (١٦٥٩ - ١٧٠٧) لم يفهموا شيئاً من هذه السياسة التي اختطها السلطان اكبر ، و اخذوا بتفكيك كل شيء . فقد كان جهانجير يكرع كل مساء عشرين كاساً من العرق القوي بحيث ان رائحته كانت تجمل السفير الانكليزي يعطس . اما شاه جهان الذي عرف في حدائته بالرصانة و الشجاعة في الحرب ، فقد انغمس في الملذات ، اثر وفاة زوجته المفضلة ، عام ١٦٣١ . اما السلطان اورنكزيب . فقد كان تقياً ، و رعباً ، قانتاً من كثرة الصوم ، لطيف المعاشرة ، ولكن لم يعرف ان يكتسب ثقة الناس لعلهم انه لم يكن ليحب احداً ، لميله الفطري الديني : الى الحلم ، اذ كثيراً ما كان يصفح عن الضباط الذين يعصون او امر السلطان فيعفو عنهم . وقد اهل هؤلاء السلاطين اهلاناً تاماً العادة التي سار عليها اكبر ، اذ كان يستقبل كل يوم اصحاب المظالم و يقضي لهم او عليهم بالسرعة المطلوبة . و قد جهلوا تماماً ما كانت عليه ممتلكاتهم الواسعة من اوضاع ، فاهملوا امر مراقبتها عن كتب تاريخين شؤون مراقبتها لعلهم ، و عادوا الى احياء عادة مكافأة موظفيهم بتوزيع اقطاعات (جاجير) عليهم ،

كما عادوا الى نظام تلميم جباية الرسوم والضرائب ، وصرخوا النظر عن الطريقة التي سار عليها أكبر بتخمين المساحات المزروعة والمحاصيل السنوية ، وتركوا عملهم يستبدلون ضريبة الاملاك بضريبة توزيعية ، فيعاملون كل قرية مستقلة بدلاً من النظر في وضع كل مزارع على حدة ، كما غضوا النظر عن تصرف المزارعين الاكثر بسطة ونفوداً ، في اعتصار الآخرين وتحميلهم فوق طاقتهم . ولم يلبثوا ، بدافع الحاجة للعملة ، ان يبيعوا وظائف الدولة بالزاد تاركين لمن رست عليهم عملية الزيادة ، الحزبة التامة باستعمال الوسائل التي تؤهلهم لاسترداد المبالغ الباهظة التي دفعوها . وقد اخذ الحكام شيئاً فشيئاً ، في توريث مناصبهم لاولادهم ، كما نزعوا ، اكثر فاكثر ، للتصرف في ولاياتهم كأنها ممتلكات خاصة بهم . واخذ هؤلاء الحكام يشعرون اكثر فاكثر ، بجاحتهم للمال ، كما اشتدت فيهم النفرة من وظائفهم واستشرى استهتارهم بالمسؤولية . ففي هذا القسم الواقع في منطقة الدائرة الانقلابية ، في الهند ، اخذت دولة المغول بالانحطاط وراح المغول ، يترسلون وراء البذخ والسكر وفساد الاخلاق ، بما فت كثيراً في عضدهم . فقد قطع باب سباحة ، كل الانهر التي اعترضت سيره ، خلال الثلاثين سنة من حرابه الدامية بينها كان النبلاء الذين كانوا بمعية السلطان اورنكزيب يرتدون انعم الملابس وافخرها ، ولا ينتقلون من مكان لى آخر الا محمولين على محفّة . واخذت الضرائب ترمق كاهل الفلاح وتبظه . فاذا قدرنا ان معدل ما كانت يدفعه الفلاح هو ١٠٠ في عهد أكبر ، فقد ارتفع هذا المعدل الى ١٢٥ عند ارتقاء شاه جهان العرش ، كما ارتفع الى ١٦٦ عام ١٦٤٧ ، ثم الى ١٧٥ في عهد اورنكزيب ، قبل ١٦٦٨ ليبلغ سنة ١٧٠٠ ما نسبته ٢٧٨ . وقد زادت نسبة الضريبة الجديدة على نصف قيمة الغلة او المحصول ، فلم يبق للمزارع النصف اللازم لتأمين البذار وأود المعيشة . ففي السنوات الجيدة اضطر العلاح ان يقطع من الكمية المخصصة لغذائه ، ففقد بالتالي القدرة على العمل . اما في السنوات التي كانت مواسمها سيئة ، فلم يكن لديه ما يطمئن معه لمستقبله او يرد عنه غائلة المجاعة ، فيركبه الهم والقلق والحيرة . وتلبية لمطالب الخزينة ، كثيراً ما كان الفلاح يضطر لبيع محصوله بسرعة وبسعر متدن . ورخص اسعار الحاجيات في المدن ، انما كان يتم على حساب المزارع والفلاح . فالفلاح الرازح تحت وطأة الضرائب والدين ، تعطلت لديه كل امكانية لشراء حاجته من الحيوانات اللازمة لاعمال مزرعته او للتوسع بهذه الاعمال ، او ليقوم بزراعات تعطيه مردوداً اكبر كالتبنة مثلاً . ويشهد الطبيب الفرنسي رنبيه كيف ان الفلاحين كانوا هجرون الريف ويهبطون المدينة بحثاً عن مورد لهم او عمل في المسكرات .

ومع انحطاط الزراعة انحطت بالطبع ، الصناعة هي ايضاً ، اذ ان تكاثر الجماعات وتقادم الأزمات كان يقضي على الصناعات واصحاب الحرف ويقدم . فالعاملون منهم بالحياسة في كورومنديل ، ماتوا جوعاً ، عام ١٦١٦ . وقد أقفرت مقاطعة رديوتانا وجلا عنها اهلها عام ١٦٤٧ . ولعل افتك واروع الجماعات طراً ، هذه الجماعة التي استهدفت لها الهند عام ١٦٣٠

و ١٦٥٠ . ففي تموز ١٦٣٠ ، مات القسم الأكبر من عمال النسيج الذين يعملون في قصر المنسوجات في مازوليباتام . كذلك في سنة ١٦٣٤ ، مع ان الوضع الزراعي كان قد تحسن كثيراً . كانت التجارة مشلولة تماماً لغلاء اسعار الاقمشة القطنية ، اذ لم يكن تم بعد تعليم الارلاد صناعة النسيج . وفي سنة ١٦٣٩ ، كانت المنسوجات القطنية في غوجارات أقل جودة مما كانت عليه ، عام ١٦٢٩ ، بعد ان توارى من المهنة ، العمال الماهرون ولم يكن قام في البلاد من حل محلهم بعد . وفي سنة ١٦٥٣ ، لم تكن الدكن استردت بعد ، المهارة التي عُرفت بها قبل المجاعة الكبرى . وهكذا نرى كيف ان الهند اخذت تفتقر .

اضطهاد المسلمين السنيين ومن جهة اخرى ، راحت الدولة المغولية تعزل نفسها عن الهندوس . فمع ان جهانجير قد عهد بالوظائف الكبيرة في البلاد الى نبلاء الهندوس ، فقد اخذ شاه جهان يبرهن ، أكثر من مرة عن تعصب ديني ، بينا السلطان اورنكزيب الذي عرف بشدة تقواه والذي كان مدة عضواً في فرقة الفقراء ، فقراء الهند ، وكان يحسن القرآن عن ظهر قلبه ، وقد نسخه مرتين عملاً بالآية الكريمة التي توصي بان يعرف كل مسلم مهنة ، راح ينسج القبعات كما راح يصلي الهندوس اضطهاداً لا هوادة فيه . فقد اصدر اوامره الى كل حكام الولايات بان يهدموا كل مدارس الكفار وهياكلهم ، وان يمنعوا تماماً ، كل مظهر من مظاهر عبادة الاصنام . وهكذا جرى هدم هيكل فكنو في بيناريس ، وحملت اصنام الشعب الى اكرار ودمت مع التراب تحت درجات المسجد ليدوس عليها المسلمون في دخولهم اليه وخروجهم منه . وفي سنة ١٦٧٥ ، اعاد أورنكزيب العمل بالجزية ، فتجمهر الشعب حول قصر الامبراطور ، في دلهي ساخطاً غاضباً بوجه اللعنات للامبراطور . وقام الهندوس بردة معاكسة تبلورت في هذه الثورة اللاهبة التي قام بها المهرات والسيخ .

وعلا بما فيه من روح التعصب الديني واستجابة منه لمتطلبات الحكم ، أعلن أورنكزيب الحرب على ملك الدكن الذي كان على المذهب الشيعي ، والذي بقي ٢٣ سنة دون ان يتجه لشمال الهند . وفي الوقت ذاته ، قام بصرف من خدمته الفرس الشيعة الذين ألفوا نواة جيش أكبر فكانوا دوماً اكفا العناصر الفنية في مجلس اركان الحرب ، كما كان على وشك الاصطدام بالمهرات .

ألفت المهرات فرعاً من فروع قبائل الغات الغربيين ، ردة الفعل الهندوكية : المهرات انقطعوا للاعمال الزراعية بين غوا وغودافيري ، فقد كانوا على الاجمال ، ربة ، اشداء ، نزعوا للفروسية وللاعبا الحفيفة ، وكثيراً ما ادخلهم ملوك بدجاپور المسلمون في خدمتهم انتفاعاً بمهارتهم وشجاعتهم ، فقال زعمائهم مراتب عالية ونفوذاً كبيراً . وقد راح واحد من ابناء هؤلاء الموظفين هو سيجاني عام (١٦٢٧ - ١٦٨٠) الذي عرف عنه عصبية للهند وغيرته الدينية ، يبعث فيهم روحاً قومية وشعوراً حاراً بالوطنية .

وعندما تبدى له ان حصون الغات أهل امرها وضعفت حامياتها ، أخذ يهاجمها ويستولي عليها الواحد تلو الآخر ، كما راح يدافع عن الهندوس ضد تمديدات المسلمين وشرع سلسلة لا تنقطع من اعمال السلب والنهب والمبث ، واسعة المدى ، يهاجم القوافل والركبان عام (١٦٤٨) . ومنذ ذلك الحين ، اخذ يتوافد عليه كثيرون من متطوعة الهند ، قدموا من جميع اطراف البلاد ، بعد ان اصبحت المحاولة المهراتية ، في روحها واهدافها ، محاولة وطنية وقومية ، وتجربة حربية عسكرية ، على نطاق واسع ، فألف منهم جيشاً قوياً يستثمر ما وقع تحت امرته من البلاد ، على غرار الحكام المسلمين ، ويقف منهم على طرفي نقيض . وكان زعماء المهرات من الفئة الاخيرة بين طبقات الهند *Sindhas* ، يقومون على خدمة الطبقات العليا . هل كان المهرات ، ياترى ، يعلقون فعلاً ، أهمية كبرى على نظام الطبقات في البلاد ؟ والحركة الوطنية التي نهضوا بها ، أكانت ترمي بالفعل الى تحرير الهند والهند من النظام الطبقي الذي رسفت فيه الهند منذ مئات السنين ؟ ومهما يكن ، فقد قامت فرقة الحياالة الخفيفة الحركة لدى المهرات ، بسلسلة من الغزوات بقصد السلب والنهب ، اوغلت معها بعيداً في ممالك بدجاپور وغوكوند ، كما اوغلت عميقاً في الاراضي الخاضعة للمغول . وغزا سيجاني مدينة صورات ونهبها ، عام ١٦٦٤ ، كما غزا الخندش ، عام ١٦٧١ ، وراح يفرض على كل ناحية تطوؤها سنايك خيله ، الربع من ايراداتها ، شرطاً منه ليجعل السكان في مأمن من غائلة السلب والنهب . فاذا ما رفض القوم قام المهرات بسلب كل شيء . وهكذا وقعت هذه المقاطعة فريسة لعملية اعتصار على نطاق واسع . واستمرت مملكتنا غولكوند وبدجاپور على دفع الرعب المترقب عليها دفعه للمهرات ، الى ما بعد وفاة سيجاني . وتمتع المهرات بشعبية واسعة بين الهندون فنظروا اليهم كأبطال وطنيين ، يذودون دونهم ضد الغزاة المسلمين ويلقون منهم كل أزر وأيد ، وخدمة ومعونة ، يمدونهم بما يلزم من ميرة وذخيرة وعدة وعتاد ، ويتسمون لهم ، عيوناً وارصاداً ، اخبار الاعداء ، وحركاتهم وسكناتهم .

باءت بالفشل كل المحاولات التي قام بها قواد اورنكزيب ضد ملوك الدكن وضد المهرات ، وتابع هؤلاء غزواتهم وحرورهم التي كانت تؤمن لهم الموارد التي هم بحاجة اليها ، وتضمن لهم نيل الاستقلال بمنأى عن الامبراطور . الا ان سوء الظن الذي دب بينهم جعلهم يوزعون القيادة بين قائدين متنافسين كما راحوا يبدلون كثيراً من القواد . وقد استلم اورنكزيب نفسه قيادة جيشه سنة ١٦٨١ ، من احمد نجار ، وله من العمر ٦٣ سنة ، وبقي يحاربهم ٢٦ سنة . وهكذا اخضع لحكمه كل الدكن حتى الحكام المحليين المستبدين الذين حلوا محل امبراطورية الفيجاينفار ، والقائمين الى الجنوب من ترشينبولي . ولم يربح من وراء هذا المجهود الحربي الطويل سوى اراض المجردت من كل خيراتها لكثرة ما تعرضت له من الغزو والسلب ، واصيب بالحنية امام المهرات . فلم يعد له ما كان لا يائه من فرسان راجبوت المعروفين بخفصة حركاتهم وسرعة مناوراتهم ، بعد ان اخرجهم فاخرجهم واعلنوا العصيان والثورة لفرائبه . اما جيشه

فكان لجبا للفاية اذ كانت مضاربه تضم خمسة ملايين من الاملين تحت تصرفهم ٢٥٠ سوقاً، يتارها ٦٠،٠٠٠ فارس واكثر من ١٠٠،٠٠٠ من البيادي ، وكان الضباط ضمافاً ، ظرفاء في مظهرهم ، سروجهم مريجة للفاية ومزركشة ، كأنهم يعملون في استعراض عام ، ينزلون الخيام الفخمة ، اما الجنود فكانوا مخنثين ، يرفعون اصواتهم بالتندمر ، اذا لم تكن خيامهم على مثل نجيمهم في اكرا من البذخ . بينما لم يكن المهرات ليحتاجوا حتى يمحووا حياة طيبة ، الا لفظيرة من خبز الذرة وبعض البصل . وكيف العمل ضد هؤلاء الفرسان الذين لم يكن من سبيل لالقاء القبض عليهم ، والذين عرفوا ان يتجنبوا خوض معارك كبيرة ، فعملوا فئات صغيرة ، مشتتة ، ينقضون فجأة على الوحدات المنفردة او الممزولة ، ويوجهون الضربات القاصمة الى جناحي الجيش يطلقون النار على الحشود الضخمة ثم يتوارون ، ، ويزرعون الملح والفرع اينما حلوا ، يقطعون المزروعات بحيث تضطر فرق العدو للتوقف عن الحرب ، لحاجتها الشديدة الى المؤن والعتاد والعلف اللازم لحيلهم . وهل من حل غير احتلال حصون الغات ؟ كانت هذه الحصون وافرة المدد يستमित حمايتها في سبيل الدفاع عنها . وكان الوقت الذي يفصل بين فصلين من الامطار الموسمية ضيقاً للفاية وقد شاخ اورنكزيب وتقوت ظهره وابيضت لحيته واصبح وكأنه سجين في ممسكته . وكان سكان الدكن من الهنود عونا للمهرات ، ولذا اضطر الامبراطور للتقهقر والانكضاء حتى مدينة احمد نجار التي انطلق منها هجومه ، قبل ذلك بر ٢٦ سنة .

في هذه الاثناء ، ظهرت في الشمال الغربي من الهند ، قوة جديدة كان ردة الفعل الهندية : الشيخ لها شأن في تاريخ تطور البلاد ، نشأت عن اسلوب جديد في تفسير الهندوكية وشرحها ، تجلت في طائفة السيخ التي كانت قذى في عين امبراطورية المغول في الهند وشجى في حلقهم ، وحملت للمسلمين بغضاً أزرق . فقد بمث من سباتها الطويل نزع الهندوكية القديمة الى التوحيد . فالريخ فيدا ، الكتاب الاول من كتب الهند الاربعة المقدسة الذي يضم نواة الفلسفة البراهمانية ، كثيراً ما اعلن وجود اله ، هو سيد المخلوقات ، والكائن الاعلى ، اللامتنامي ، الذي تبقى الالهة حياله خداماً له تستمد منه الوجود . غير ان البراهمان جعلوا من الله روح العالم ممتزجاً بالمادة ، لا فردية له مميزة . وقد راح عدد كبير من الهندوس ، ولا سيما بين الجنود ، يمتقدون وثيقاً ان روح العالم كانت تتجسد وتلبس جسد انسان وتبدو عن طريق بعض الاجسام في مظهر خاص يتلبسه الله هو : « المايا » والوم ، يمكن الاقتراب منه او الدنو اليه بواسطة الصلاة . وهكذا رأينا عدداً كبيراً من الهندوس يعبدون الله بشكل فكنتو الذي يمثل روح العالم متجلياً في العناية الربانية او الالهية . ففي القرن الخامس عشر ونحت تأثير الاسلام مباشرة ، قام مجددون هندوس ، امثال راماناند في مدينة بيناريس ، وغوراغ ، في البنغال ، وكبير احد تلاميذ راماناند ومن اتباعه الجميين ، وفالاتب ، احد البراهمان الذين هاجوا بعنف تعدد الالهة ووذلوا عبادة الاصنام ، وطالبوا بان يتحرر الناس من نفوذ الكهان

ونادوا بالطهارة والنقاوة الداخلية ، والعبادة بالروح ، كما نادوا عالياً ان الايمان يظهر النفس من ادائها وينقيها ، وطالبوا بالغاء نظام الطبقات ، كما اعلنوا ان التقوى لا تتعارض قط مع واجبات الانسان العادية .

كان لتعليم المصلحين : كبير وغوراغ تأثير بين على المجدد والمصلح الديني
 ناناك والقول
 بديانة انسانية عامة
 ناناك (١٤٦٩ - ١٥٣٩) الذي رأى النور على مقربة من لاهور ، في اسرة
 تنسب الى اسرة طبقة المحاربين (Kshatriyas) هذه الطبقة الاجتماعية
 التي تأتي ، في الهند ، دون البراهمان والكهنة ، وكان يتجر بالخنطة وينصرف لقراءة القرآن
 والشاستراس . وقد علم ان الانبياء العرب وانبياء الهندوس هم مرسلون من الله لارشاد البشرية
 الى الهدى والصراط المستقيم ، وواجب عبادة الله الابدي ، الكلي القدرة ، الكائن منذ الازل ،
 قبل كل شيء ، وبارئ العالم ووارثه ، الكلي الحضور ، الموجود في كل مكان وزمان ، موجود
 مع العالم ، متسام فوقه ، ومتميز عنه . فانه هو محب للعالم ولا سباً للخطاة واللبائس ، لا يلتقي
 بالله الا الذين ينظر اليهم بعطف وحنان . فالانسان عاجز ، لا يستطيع شيئاً بذاته ، كذلك قال
 بالقدرة واعداد المختارين منذ الازل . ولكن هذه النعمة - نعمة اعداد المختارين للخلاص -
 يعطيها الله وينميها في الانسان على نسبة ما يسير الانسان بوحى قواه العقلية و ارادته . فانه يحمل
 الخلاص في متناول كل البشر من اي نوع او جنس كانوا ، كالخطاة والنساء والمنبوذين ، دونما
 تمييز او نظر الى طبقاتهم التي لا تحسب شيئاً امامه . فهو يجعل هذا الخلاص في متناول رب
 الاسرة والفلاحين والمحاربين والنسالك ايضاً . اذ ان المهم ، في نظر الله ، هو العبادة بالحق والروح
 هو الايمان والحب والامتثال للشرعية الالهية ، وعمل الخير والبر . اما الطقوس والصيام ومراسم
 الحج ، وتلاوة المسبحة ، والزهد والتكشف ، فأشياء واعمال لا قيمة لها ولا شأن .

وعمل بناموس « كراما » ، وهو الناموس او القاعدة التي بوجبه لا بد للانسان ان ينال ثمرة
 جهوده واتعابه ، فمن أتى اعمال البر والتقوى على رجاء المثوبة والمكافأة ، خضعت نفسه ،
 بالضرورة للتمص وتناسخ الارواح ، على ان يلد من جديد في ظروف افضل تساعد ، اكثر
 فأكثر على التطور الادبي والروحي . اما من يكون اتى اعماله البارة تقية ، لمجد الله ووجهه
 الكريم ، فلا تخضع نفسه للتمص ، فيبلغ السعادة ويدخل النرفانا - السعادة ، ينعم بها بصحبة
 ناناك ، ولا يذوب مع الكائن او الوجود المطلق ، بل يتحد اتحاداً كاملاً مع الخالق ، فيزول منه
 الضمير الفردي ليدوب في ضمير الله .

وهكذا نرى ان ناناك لم يبلغ الهندوكية . فقد احتفظ منها بما فيها من تعاليم سامية ، ولا
 سباً بمقيدتها للاساسية « لا مايا » ، هذه التجليات المختلفة في مظاهرها ، لله ، ممثلة في براهمان ،
 وفكنو ، وشيفا ، وغيرها ، وفي التمص Karma والسعادة Nirvana . ولكن بإبرازه
 وحدانية الله وشخصانيته ، وبإفاضته على علاقات الانسان بالله هذه الروحانية ، فكان به يلغيا

بالفعل ويبطلها . وعندما ألقى حدود الطبقات المباحة ، بإعلانه المساواة العامة بين من يعبدون الله بالحق والروح ، مها كانت لبوسهم ، قام بثورة جذرية يمكن للهند معها ان تخرج منقاة ، مطهرة ، متجددة ، متخففة من هذه الطقوس الجامدة التي تُرزحها وتقعدها الى الحضيض . واذ ذاك فقط تأخذ بالتطور والتناء .

علم تاناك انه لا بد للمريد او التلميذ ان يسترشد بـ : *Gourou* ، اي بقديس تنظيم السيخ او معلم مرشد يحمل في نفسه روح الله ، اعلن عنه واوحى باسمه ، المرشد السابق . ومن خلفاء تاناك في دعوته هذه والنهوض برسالته من بعده : امارادار الذي توفي عام ١٥٧٤ وهو من تلمذ عليه أكبر ، والذي راح يشدد على خواء حياة التأمل ، وحال دون استعالة السيخ الى فرقة جديدة من هذه الفرق الهندوكية المنتسكة ، العديدة في الهند . وقام بتنظيم السيخ المرشد والمعلم أرجون ، المتوفي عام ١٦٠٦ ، فجعل من مدينة أمرتزار محور الديانة الجديدة والقبة التي يتجه اليها حجاج السيخ ، فتمت وتطورت واصبحت من مدن الهند الكبرى . واخذ يجمع افكار تاناك باعتباره التجسد الاول لله ، كما اخذ يجمع ما كتبه اسلافه بهذا الشأن ، والف من هذا كله ما يعرف بـ « الكتاب » ورتب الشريعة الدينية والادبية ، وانشأ لها مراكز ونوادي لاستقبال الاتباع والمريدين ، في جميع المدن والولايات ، وقرر وجوب عقد اجتماع عام كل سنة . ومنذ ذلك الحين أَلَفَ السيخ العمل بهذا النظام ، وانشأوا لهم شكلاً حكومياً .

السيخ ضد المسلمين - خالصة الله
اخذ المسلمون باضطهاد السيخ في عهد السلطان جاه نجير . واذ ذاك نهض المرشد هارغوبند ، ابن ارجون مهاجم ضابط السلطنة المغولية في البنجاب حتى وفاته (١٦٤٥) ، وكتب له النصر في معارك كثيرة ، فأخذ الناس يقدسونه . وازداد اضطهادهم شدة واحتراماً في عهد اورنكزيب ، واصبح المرشد غوبند - سنخ ، حفيد المرشد هارغوبند ، العدو اللدود للمسلمين في الهند . وقد سولت له نفسه ان يوحل من الهندوس المغلوبين على امرهم شعباً جديداً ، متجدداً ، ينهض للعلى ويشرب بنواظره نحو المجد . وشرع هذا المرشد منذ عام ١٦٧٥ ، بمحشد المريدين حوله والاتباع . ومع ان جيشه كان ليمياً من الحشود جيء بهم من مختلف الطبقات الاجتماعية ، فقد جعل منهم الايمان الشديد الذي نبض في عروقهم ، جنوداً شداء جديرين بكل تقدير وإكبار . فانشأ لهم ، قبل كل شيء : معمودية السيف او الدم . فمن منهم تطلع به اصبحوا أسوداً *Singhs* ، اما الباقون فقد ألفوا فرقة *Sohidjaris* ، اي فرقة هؤلاء الذين يعيشون ببسر ، اي التجار ورجال الصناعة . اما حفلة معمودية السيف ، فقد قامت بوضع سيف ذي حدين في الماء وتحريكه بشدة ، وترداد اسم تاناك وتلاوة الاناشيد ، ثم يجري سكب الماء المقدسة براحة اليد ثم ترش الماء على رأس المعتمد وعينيه ، فيمضي هاتفاً هتاف جنود السيخ في الحرب : يا امه الله ! الظفر لله . وراح غوبند سنخ يطلب من أمراء الهند (الراجا) الساكنين في المناطق الجبلية ان يمتدوا ليجموا

انفسهم من الاتراك (المسلمين) . فكانوا يمينونه : « باستطاعة التركي (المسلم) ان يأكل شاة بكاملها ، فكيف يمكننا نحن الذين نقتات بالإرزاق نجابه من لهم مثل هذه القوة . » وكان غوبند سنغ يجيبهم : « المعمودية تجعل من السيخ المتعمد مساوياً للمسلم في قوته ، ولم يلبث ان أخذ عدد كبير من المنبوذين يعتمدون ويأكلون اللحوم ، بعد ان تخففوا من مراسم الدين وطقوسه واصبحوا جنوداً اشداء .

كان على السيخ ان يرخي شعره وان يقتني مشطاً وسيفاً ويلبس سروالاً مقشراً وسواراً من الفولاذ . كذلك كان على السيخ ان يبرهنوا عن ولائهم الشديد نحو رؤسائهم ، والا يديروا ظهورهم للعدو ، وان يؤمنوا بان كل الناس سواء هم . عليهم ان يستحموا بعد نهوضهم باكراً عند الفجر ، وان يتلوا اناشيد المرشدين ، وان يتأملوا في الخالق كما كان عليهم ان يردلوا جانباً خرافات الهندوس : كمراسم الحج ، وقتل الاولاد ، وحرق الارامل على محرقة بعد وفاة ازواجهن . والزموا انفسهم بأكل اللحم على شرط ان يكون الناحر او الذابح احد رجال السيخ ، على ان يقوم بنحر الذبيحة بحجة واحدة ، كما عليهم ان يمتنعوا عن التدخين وتعاطي الخمر وانواع المسكرات . اما الميزة الكبرى التي يجب ان يتحلى بها السيخ فهي التقوى والشعائر الدينية تغذيها تلاوة الأناشيد الروحية وترداد اسم الله بجرارة وتوق ، والانصراف الى التأمل ، وغير ذلك من اعمال البر والتقوى ، اذ « بدون هذه الاعمال التقوية لا يمكن للمرء ان يخلص » . وكان اعتقادهم بانهم مختارون ومدعوون للخلاص يدفع فيهم الحماسة في الحرب ، حتى ان المظهر الخارجي للمنبوذيين تغير : فظهروا بمظهر اكثر رجولة من قبل ، وصاروا ينظرون الى الانسان في عينيه .

حاول غوبند سنغ ، منذ ١٦٩٥ ، ان ينشئ مملكة للسيخ بين نهر الجوما والسلتج ، ونهض لحرب اورنكزيب حتى الرمق الاخير . فقد نفخ في المغلوبين على امرهم روحاً جديداً ، طلقوا معه الجمود الذي عرف عنهم من قبل ، كما عرف ان يبعث فيهم الشعور بالكرامة الانسانية في نشدان روح الحرية . وعندما توفي اورنكزيب ، نهضت الجمعة الواقعة في الرابع من اذار ١٧٠٧ ، وله من العمر ٨٩ سنة ، قضى منها ٥٠ سنة ملكاً على الهند ، كانت الامة الهندوكية أفاقته من سباتها العميق . وهذه الهندوكية التي عاد اليها وعيها ويقظتها ، انتصبت بكل ما لها من شخصية ، ضد الاسلام ، متمردة على هذا الاستعمار البغيض الذي وقعت فريسة له من قبل الامبراطوية المغولية .

٢ - العالم الهندي واوروبا

كان هم البرتغاليين الاول نشر الانجيل والمسيحية في ارجاء آسيا ومنافسة المسلمين وانتزاع السيطرة منهم على اسواق البلاد التجارية ، بحيث لم يكن ليهمهم كثيراً احتلال الهند او بعض

موانئها الا بالقدر الذي يخدم مصالحهم التجارية. واغراضهم المادية . فقد خيل اليهم ان احتلالهم لبعض المرافئ والموانئ الهامة على ساحل الهند الغربي ، من شأنه ان يساعدهم كثير على تحقيق ما يرمون اليه من اهداف اقتصادية . ولذا تألفت امبراطورتهم من سلسلة متصلة الحلقات من هذه المرافئ والموانئ ومن الجزر المتناثرة في عرض البحار مما يقع على طريق اساطيلهم التجارية التي تشق عباب اليم من البرتغال حتى مشارف الشرق الاقصى ، في افريقيا وآسيا . فمالك الهند القارية او البرية لم تكن لتستطيع الوقوف بوجه الاساطيل البرتغالية ، كما ان حصونها وقلاعها كانت اعجز من ان تصمد لضرب المدفعية الاوروبية . وهكذا تم اقتسام صامت لعالم الهند : اذ راح البر الهندي للمغول والهندوس والبحر والشواطئ البحرية للاوروبيين .

عندما بلغ فاسكوده غاما ، مدينة كوشين ، عام ١٤٩٨ ،
كانت الحركة التجارية في المحيط الهندي تقوم على اساس
قوي من النظام والتنظيم . والاوروبيون الذين اضطلموا ،
على التوالي ، بالنشاط التجاري في هذا المحيط ، الى سنة ١٧١٥ ، حثوا محل التجار ، والبحارة الذين
سيطروا على الحركة التجارية في هذه البحار ، في القرن الخامس عشر ، ثم اخذوا يستبدلون بعضهم
البعض دون ان يدخلوا اي تغيير ملحوظ او اي تطور محسوس . كانت الحركة التجارية بيد
المسلمين من عرب و فرس الذين كانوا يملكون ويديرون معظم السفن العاملة في تلك البحار ،
ويؤمنون الجانب الاكبر من هذه الحركة للتجارية الناشطة في المحيط الهندي بين افريقيا غرباً
وآسيا شرقاً . وتلامه في هذا المجال الصابئة *Pursis* في غوجارات ، والشطي في كورمانديل ،
ثم الصينيون واليابانيون . وكانت التجارة تتم على مرحلتين ، او ترتكز على محطتين رئيسيتين :
سواحل الملابار ، في الهند ، حيث كانت مدينة كاليكوت تؤلف المرفأ الرئيسي ، وهو ميناء
واقع في اماره زامورين . اما الثانية فكانت مالقا . كانت مالقا وسلطنتها من هذه الانشاءات
التي اوجدها المسلمون ، كما كانت نقطة الالتقاء للحركة التجارية بين المحيط الهندي وبحار
الصين ، وكانت هذه المدينة النقطة التي يلتقي عندها التجار العرب والفرس والصابئة والشطي
والصينيون واليابانيون الذين قلما تجاوزت سفنهم مضيق مالقا ، باستثناء بعض قوارب صغيرة
بلغت عرضاً واطفاقاً ، سواحل كورومانديل . وفي هذه النقطة بالذات كان يقع التبادل التجاري
بين محاصيل الصين والسيام وجزر التوابل وجزر الصوند مع البضائع والسلع والمحاصيل من
انتاج الهند والجزيرة العربية وافريقيا واوروبا . وكانت محاصيل الشرق الاقصى تجمع فيها بعد
في مدينة كاليكوت والمرافئ الواقعة على مقربة منها . يضاف اليها الفلفل من مقاطعة الملابار ،
والمحاصيل الهندية الاخرى . كالفرقة والحجارة الكريمة من سيلان ، والنييلة من غوجارات
والمسوجات القطنية والجسوت من البنغال وغوجارات والبنجاب ، والافيون والعقاقير ، ثم
يجري شحن كل هذه السلع عبر البحر الاحمر والخليج الفارسي والاقطار الاسلامية الواقعة حول

حوض البحر المتوسط الشرقي واوروبا ، مقابل الذهب ، ولا سيما الفضة ، وخيل المعجم ، وحياد الجزيرة العربية التي اشدت عليها الطلب عند الجيوش المتحاربة ، والحري الحام والآلء من بلاد فارس ، والبين والمطور من العربية ، والنحاس والقصدير ، والزئبق والرصاص ، والزئبق والحرائر ، والخمّل والديباج ، من اوروبا ، وهي فصل عن طريق البلدان الاسلامية ، والعاج والعنبر والمرجان والمبيد من افريقيا ، وكلها مواد واضناف لسد حاجات الجيوش والبلاطات الملكية .

ولكي ينشئ التجار لهم مركزاً تجارياً او وكالة تجارية في مرفأ ما كان عليهم ان يحصلوا بذلك على رخصة من سلطات البلاد التي كانت تجيز لهم انشاء مراكز تجارية تضم ابناء الجالية الاوروبيين ، مع الاعتراف لهم بممارسة قوانينهم الخاصة وعاداتهم ، ويتولى رئيس من ابناء هذه القوميات ، كل بحسب جنسها ، امور الرعية . ويتمتع هذا المركز الذي كثيراً ما يكون مرفأ ، بإعفاءات ملكية باعتباره ارضا اجنبية لا تخضع لادارة الدولة . ولما كان هذا الاعفاء قابل للالغاء والنسخ من قبل ملك البلاد ، وجب على الوكالة التجارية ان تحتاط للامر بتوفير نقطة ارتكاز لها ، وقأمين شيء من التفوق البحري بحيث يؤلف تهديداً لممتلكات الملك البرية ، وفرض الحصار على المرافئ والموانئ الواقعة تحت اشرافه ، والحؤول دون وصول السفن الى مرافئه ، وحمل الملك على المفاوضة بشل حركة الجمارك ، بالتالي تخفيض مداخيل الدولة و وارداتها من المكس ، ومنع وصول الاسلحة لديه وغير ذلك . والا اضطر التجار للانتقال من المرفأ الى الحصن بحيث يكونون بأمن . ولذلك كان عليهم ان يوسعوا سيطرتهم على النواحي المجاورة للقاعدة التي يحتلونها ، وقأمين سيادتهم على السكان القاطنين فيها ولا سيما السلطة التشريعية والسلطة التي تفرض الرسوم او تجبئها . ففي الهند وفي شبه جزيرة مالقا ، كان التجار المسلمون لا يزالون بعد عند مرحلة الوكالة التجارية ، اذ ان نظام التضامن الذي عملوا به وساروا عليه ، كان يتيح لهم قفل المرافئ الخاضعة للملك المتمرد دون اضطرارهم لحمل السلاح . اما في المرافئ الواقعة على سواحل افريقيا الشرقية التي لا تزال على البرية ، فقد بلغ التجار فيها مرحلة الحصن .

لم يكن يسمح ببقاء السفن طويلاً في موانئ آسيا الموسمية خشية ان يفتك السوم بها ، وتجنباً لاسترسال البحارة في الفسق والقصف في هذه الاقطار الحارة . كذلك وجب الاستغناء ، ما امكن ، عن الوسطاء تفادياً للتكاليف الباهظة . ولذا اسس التجار لهم محلياً ، وكلاء او ممثلين اقاموا في هذه المرافئ او في بعض الجزر ، كلفو شراء التوابل مباشرة من منتجها في زمن القطاف ، يحتفظون بها في مستودعاتهم ريثما تصل السفن المعدة لشحنها ونقلها . وعلى مثل هذا سارت المعاملات المتعلقة بتوسيق هذه المحاصيل . وكانت الاريح الموسمية هي التي تتحكم بنظام المواصلات وسير السفن . كانت هذه الاريح الموسمية تبدأ ، على سواحل الملابار ، في اوائل حزيران مما يجعل من الصعب جداً على السفن مغادرة موانئها لمعاكسة الاريح لها ، كما كان يستحيل على اي سفينة القدوم للمرفأ لثلا تتعرض للعطل او للتعطيم . ولذا كانت المرافئ

تقفل في اواخر ايار الى اوائل ايلول. ولهذا الاسباب حرصت السفن على ان تُوقَّت قدومها في الوقت الذي تهب فيه الارياح من الشمال ، وقبل ان يتحول اتجاهها . فالرياح الشمالية كانت ملائمة لمغادرة السفن موانئها واقلاعها . وكان لا بد من الاقلاع باكراً بحيث تتجاوز سيلان الى الشرق ، وتبلغ الموزمبيق ، في الجنوب قبل ان تكون الرياح الموسمية تحولت من جديد الى الجنوب الغربي . فالرحلة البحرية نحو الجنوب كانت تتم بين ايلول و كانون الثاني . اما في البحر الاحمر ، فترتب على السفن ان تغادره للهند في آذار ، وكان نيسان احسن شهور السنة لاجتياز مضيق باب المندب .

كانت حركة السفن تبلغ اشدها ، في مرفأَي مخا وجدة ، في شهري ايار وحزيران . وكانت السفن تلتجئ، وهي في سبيل عودتها ، الى نقطة ما تقع الى الشمال من جزيرة سوكو تورا . اما اذا اتفق وكانت الرياح الموسمية في الجنوب لا تزال على شدتها ، فالسفن لا تصل الى الهند الا في ايلول . اما في جهة مالقا ، فالوقت المناسب للاسفار البحرية هو الفترة الواقعة بين ايلول ونيسان . فالسفينة التي تفاجئها الرياح الموسمية كان عليها ان تتوقف مدة طويلة ، وبذلك تُفوت عليها فرصة طيبة للكسب والربح . والسفن التي كابت تنقل الحجاج بحراً الى مكة من مالقا ونواحيها ، تراوح حجمها بين ٢٠٠ - ١٠٠٠ برميل ، بينما لم تكن سفن الشحن لتتسع ل ١٣٠ - ٣٠٠ برميل ، بينما تراوح حجم السفن الصغيرة التي تسيّر والساحل بين ٣٠ - ٤٠ برميلا .

وقد تم لهؤلاء التجار الآسيويين من مسلمين وصابئة وشطي وصينييين ، خبرة واسعة لاطلاع دقيق على قانون العرض والطلب ، يحسنون على خير وجه ، المعاملات الخاصة بعقد الصفقات التجارية والاحتكارات ، كما يحسنون الافادة من السياسة والعملاء ، واعمال الصرافة والمضاربات ، ويؤمنون على معاملاتهم بسندات مالية . فلم يكونوا ليجهلوا ما يتعرضون له من وبضاعتهن من مخاطر ، وما يتهدد مشجواتهم من أزمات وافلاسات . وكثيراً ما عولوا على التحاويل والسفائح المالية في معاملاتهم التجارية . فاذا ما اراد تاجر ، مثلاً ان يشتري بضائع بقصد تصديرها لصورات ، استطاع ان يجد حاجته من المال في اكرا ، وذلك باعطائه تحويلاً على صورات تستحق بعد شهرين ، مع حسم واحد في المائة . وكان باستطاعته ان يحصل من صورات على المبالغ التي كان بحاجة اليها لشراء البضائع ، مثلاً ، من ارموز ولكن بعد حسم ١٢ - ١٦ ٪ لقاء المخاطر والمهالك التي تتعرض لها البضاعة من اخطار البحر والقرصان . وهكذا كان يلحق الفائدة نفسها نوع من التأمين . ومبالغ من هذا النوع كان بالامكان تأمينها لمن يرغب في شراء بضائع له من جزر الفيليبين . وكان يقوم على الساحل اسواق ضخمة ، موحدة ، قبل غوجارات ملابار ، وصورات ماسوليباتام لسهولة النقل البحري . اما الهند ، فكانت منقسمة في الداخل الى اسواق فردية ، ضيقة المجال . فللحصول على بضاعة ليست في

السوق ، كان يقتضي له سنتين . وتقطع البضاعة في انتقالها ١٨٥ كيلومتراً ، مما يزيد في كلفتها وبالتالي في ثمنها .

لم يدخل البرتغاليون ابي تقيير يذكر على الاوضاع السياسية التي
الامبراطورية البرتغالية :
استعرضنا لها في آسيا . فقد احتكروا تجارة بعض الاصناف وبعض
احتكار تجاري
السلع وحاولوا استغلال التجار المسلمين في ما يتعلق بالاصناف

الاخري ، دون ان يحاولوا اقصاءهم او تنفيرهم من المجالات التي سيطروا عليها . فقد كان لهم
من تفوق مدفيمتهم ومن الطريقة الوحشية التي يصتفون معها بسرعة ، السفن الاسلامية المنافسة
لهم ، بعد ان يثقلوا ببهارتها ويشنعوا بهم ، ما جعل اسمهم بعبءاً او مفزعة في تلك الارحاء .
فقد فرضوا قوانين صارمة ، وحظروا ، تحمت طائفة الإغراق على كل سفينة غير برتغالية ،
الاتجار بين الهند وسواحل انريقيا الشرقية ، او بين الهند والصين واليابان . وفي هذا السبيل ،
احتلوا بعض القواعد البحرية منها ، في الدرجة الاولى ، مراكز توزيع السلع التجارية .
فاحتلوا على سواحل ملابار : كوشين وغوا التي جعلوها عاصمة امبراطوريتهم البحرية المترامية
الاطراف ، كما احتلوا عام ١٥١٠ ، مرفأ باسين على مقربة من مدينة بمباي ، حيث اقاموا دار
صناعة لبناء السفن ، واخيراً مالقا التي استولى عليها البوكرك ، عام ١٥١١ . كذلك
سيطروا على بعض الثغور التي تستقطب النشاط التجاري والاقتصادي في المنطقة ، يتخذون
منها مراكز لمراقبة الحركة التجارية . واحتلوا أرموز على يد البوكرك ايضاً ، عام ١٥١٥ ،
ثم مدن ريو ودامان عند مداخل الخليج الفارسي . وسيطروا على الخط التجاري ، عبر صوروات
ومنها عبر الهند ، الى اكرا ودلهي . وقد عجزوا عن الاحتفاظ بمدن ، الا انهم استطاعوا
قطع المواصلات البحرية عند اطراف مضيق باب المندب ، ونشروا الحصون والقلاع على
السواحل التي يمكن لهم الاستفادة من الاتجار معها . حلوا محل العرب على سواحل افريقيا الشرقية
في صوفالا والموزمبيق التي كانت مركزاً لتجديد اساطيلهم وعماراتهم التجارية ، باستبدالها
بالسفن القادمة من اوروبا ، ومبسا ولوليانه وموغا دو كسو ، وسيطروا ، في ارخبيل المولوسك
على جزر التوابل والافاويه ، واقاموا فيها قلاعاً صغيرة ، اهمها الحصن الذي شيده في جزيرة
امبوان (١٥١١) كما اقاموا حصناً لهم ، هو الثاني اهمية بين حصونهم الرئيسية ، في جزيرة
تيمور للسيطرة على خشب الصندل الابيض ، واكتفوا بقواعد تجارية ثانوية اقاموها عند مصب
نهر القانج ، في هوغلي ، بالقرب من كلكوتا ، وتشيتاغونغ على سواحل مقاطعة كورومانديل ،
وفي سان توما وبنغاناام ، وفي الصين ، ماكاو (١٥٢١) وفي اليابان . وقد تمكن البرتغاليون
من انشاء قواعد لهم ، بينهم من تعهد بدفع جزية سنوية نقداً ، وهو وضع سلطان ارمور ، بينما
تعهد البعض الاخر بتقديم محاصيل عينية ، وهو وضع عدد كبير من صفار الامراء في
جزر المولوسك وجزر لاكديف فيجهزون التجار البرتغاليين باصناف كثيرة . اما من كان من
هؤلاء الاتباع يتصرف بمراقىء تنشط فيها الحركة التجارية او يملك اسطولاً حربياً يخشى

جانبه ، فراح البرتغاليون يعاملونه بأقصى الشدة . فقد تعهد حاكم زامورين كاليكوت ، عام ١٥٠٩ الا يحتفظ بأسطول حربي ، كما ، تعهد عام ١٥١٥ الا يستقبل في موانئه اعداءه او خصوصاً للبرتغاليين ، او منافسين لهم ، وان يعفيهم من كل رسم وضريبة ، وان يقاسمهم نصف ايراد المكس المفروض على غير المسيحيين . كذلك تعهد لهم ، عام ١٥٤٠ ، ان يمتنع عن الاتجار مع السواحل العربية وان يحظر على رعاياه التوجه اليها ، وان يحتفظ لحساب البرتغاليين بكل غلته من الفلفل والزنجبيل . وعقد البرتغاليون مع غودجارات ، عام ١٥٣٤ ، معاهدة حظرت عليها تبناء سفن تجارية . فقد قنع البرتغاليون واكتفوا بما تم لهم من السيطرة والسيادة في المجال التجاري ، تاركين لرجارات الهند ولسلاطين الدول الاسلامية الصغيرة الذين ارتبطوا معهم بالولاء والتابعة ، الحرية التامة بإدارة اماراتهم وممالكهم كإيشاؤون ، ولم يظهروا بمظهر السادة المطلقي السلطة الا في ممتلكاتهم الخاصة : في غوا وكوشين ومالقا وغيرها . فقد كان لهم نائب ملك مركزه غوا ، كما كان لهم فيها محكمة عدل عليا ومطرائية ، بينما تولى الامر في المراكز الاخرى حكام برتبة قبطان . وكانت ذهنية المجتمع ، اذ ذاك ، ذهنية من يقول بالرق ويطالب بتطبيقه على نطاق واسع والنهوض به اسوة بما كان عليه الوضع في البرازيل ، وهكذا امتدت رقعة الامبراطورية البرتغالية من ٧٠٠٠ - ٨٠٠٠ كيلومتر من رأس الرجاء الصالح الى الخليج الفارسي ، كما امتدت ١١ الف كيلومتر من سواحل افريقيا الشرقية الى جزر المولوسك . وقد وجدت الامبراطوريات الغازية ، مصلحة لها في مثل هذا الوضع اذ لم يلحق بها اي تغيير او تبديل يذكر . فقد قبل السلطان اكبر ، مثلاً بطلب الترخيص له وبدفع الرسوم المتوجبة للسفن المدة لنقل الحجاج من صور الى مكة . اما التجار المسلمون ، فقد ألفوا الحصول على ترخيص لهم بمتابعة نشاطهم التجاري وراح عدد كبير منهم يقوم باعمال التهريب وينقطع لعمال القرصنة في البحار .

فالامبراطورية البرتغالية كانت في عرف اصحابها ، عملية تجارية واسعة النطاق تابعة للتاج . فالملك هو اكبر تاجر او مساهم في هذه الامبراطورية ، ويحتكر لنفسه تجارة التوابل والمواد الصبغية والمواد الطبية ، بينما تبقى حرة ، تجارة الصمغ والراتنجات والمطور والحجارة الكريمة . فقد انشأ ملك البرتغال على مقربة من قصره « وكالة » خاصة عرفت بوكالة الهند التي كانت في الوقت ذاته مركزاً لإدارة هذه الامبراطورية ومستودعاً كبيراً قام تجاه ارضه لشبونة . وقد تمهدت *La Casa da India* بيع كل المحاصيل المستوردة من الهند ، وكانت تصرف فيها كيفما تشاء فتحدد منها ثمن المبيع ، كما انها تفرض رسوماً على المبيعات وتحدد للتسوقين مهلة لتفتيح البضائع المشتراة والكميات المعروضة للبيع تفادياً لهبوط الاسعار . وبالمقابل كانت وكالة الهند تشتري ، في انقرس ، النحاس والمدافع ، والاسلحة والقلاع والاقشة والحضروات اللازمة لتجهيز الاساطيل البرتغالية في الهند وغوينيا .

وبين هذه القوافل التي تتجرع مع الهند الشرقية ، الملك سفنه ومشحوناته الخاصة . واذ

كان يفتقر لرؤوس اموال يستثمرها في هذه التجارة ، فقد كان يمنح اجازات ترخيص ترخص الاتجار مع الهند لهذه الجمعيات التجارية التي تتألف من تجار ايطاليين وألمان ، امثال شركة ويلر التي فتحت لها فرعاً في لشبونة ، عام ١٥٠٣ ، وفوجر وهوشستر وماركيوني وافيتاتي ، وغيرها . ومثل هذه الرخص والاجازات ، اعطاها الملك للنواجد او متعهدي تجهيز السفن التجارية من البرتغاليين ، ولاميرالية البحر ، وقباطنة السفن . كذلك ترك الحرية لقباطنة السفن والبحارة والحكام وقادة الحصون وللجنود ان ينقلوا معهم ، ذهاباً واياباً من الهند ، ما شاؤوا من محاصيل البلاد ، على ان يدفعوا للملك ٢٥٪ من ثمن مبيع البضاعة .

فلا عجب والحالة هذه ان تكون الارباح العائدة اليه واهية وافرة . فقد بلغ معدّلها ، حتى في حالات فقدان السفن وتلفها ، ٢٠٠٪ وقد ارتفعت الواردات العامة في عهد الملك جان الثالث ، عام ١٥٣٦ ، من ٢٠٠،٠٠٠ كروزيديوس ، الى ٦٥٠،٠٠٠ بفضل الاتجار مع البلدان المحيطة بالهند . فقد كانت طريق رأس الرجاء الصالح اكثر مردوداً من طريق البحر الاخر حيث كان يقتضي اعمالاً كثيرة لتفريغ الوستق واعادة شحنه في مرافئ عدن وجدة وقصير على النيل ، والقاهرة . وهكذا وجد الاقتصاد البرتغالي نفسه في « دوامة الدولة » .

اما المشكلة الكبرى فقد تمثلت بشراء التوابل من الهند التي لم تكن بحاجة الالعدد يسير من البضائع الاوروبية . فالملوك والامراء الهنود آثروا ، بالاحرى ، الذهب ليحتفظوا به ودائع في صناديقهم ، بينما فضل الهنود نقداً من الفضة ، والنحاس لحاجتهم اليه في معاملاتهم اليومية . فلم تكن الهند من البلدان المنتجة للمعادن الثمينة ، انما هي جزء من هذه المنطقة ذات الاقتصاد النقدي الواحد التي تتألف من اوروبا وافريقيا الشمالية والسلطنة العثمانية وبلاد فارس . فالهند تمتص عملات هذه الاقطار من غوازي البندقية الى « دوقا » المانيا وبولونيا وهنغاريا ، وجنبيات انكلترا وسلطانيات مصر . كل هذه العملات وما اليها كانت ترد عن طريق القاهرة وعدن مع سيراغ الفارسية . ولعل اكثر العملات رواجاً اذ ذاك ، هي السبيكة الفارسية ، وهي عبارة عن قطعة من الفضة بشكل ريشة الأوز ، اسطوانية الشكل من اطرافها ، مسطحة في الوسط ، مطوية على نفسها شقتين متوازيتين ، عليها كتابة فارسية ، وزنها ٥ غرامات ونصف الغرام . وكانت تسك في مدينة تقع على مسافة قريبة من الخليج الفارسي . ويقدر الثقات ان اوروبا كانت تصدر كل سنة ، نحو بلدان الشرق ، ما زنته ١٧٥ كيلوغراماً من الذهب ، ونحواً من ٢٠،٥٠٠ كيلو من الفضة . وقد بلغ انتاج مناجم الفضة ، في اوروبا الوسطى ، بين ١٥٢٦ - ١٥٣٥ الذرورة ، اذ سجل ٨٤،٠٠٠ كيلوغرام من الفضة في السنة الوحيدة . وكان جانب كبير من المعادن الثمينة المرسله الى آسيا الصغرى او الى مصر يصل الهند حيث كان يتوزع بين الملوك والسلاطين والامراء والعامة ، اذ كانت الهند تفتقر كلياً للمعادن الثمينة وللنقد ، في اواخر القرن الخامس عشر . فقد توقف سك العملة الثمينة في هندستان ، منذ اواسط القرن الرابع عشر ، ونقصت كمياته كثيراً في غوجارات وفي الدكن . وكان للهنود ، الى جانب عملة

النحاس عملة من الحديد ، القطعة منها بشكل هلال صغير او سلات صغيرة . كذلك استعملوا طريقة مقايضة البضائع بعد تخمين اثمانها بالعملة الدارجة ، ثم تجري عملية المقايضة .

لم تكن البرتغال لتفتقر بالمعنى الحصري ، للمعادن الثمينة لكي ينهض نشاطه التجاري في الهند . فكان بإمكانه ان يعتمد على الذهب الافريقي ، اي المصدر من بلاد آشتي وموتسي عن طريق مرفأ سان جورج المينا ، وعلى ذهب الغينه . فيوفر له ١٥٠٠ ، و ١٥٢٠ كيلو بالإضافة الى ٧٠٠ كيلو غرام من المعادن الثمينة ، في السنة الواحدة وفي ١٥١٩ ، كان سكان البندقية يلقبون ملك البرتغال ، لدى زيارته لمدينتهم : « ملك الذهب » وكان قسم من هذا الذهب يتفق في أنفوس لشراء الفضة والنحاس والقمح والمدافع ، كما يذهب منه قسم الى صقلية ، ثمناً لقمحها ، وليلانو ثمناً للأسلحة ، وللانديلس ثمناً لعناده حربي مختلف محتاجه حصون البرتغال وقلاعه في المغرب الأقصى . فلم يكن لديه ما يفيض على حاجته .

ولذا قررت حكومة البرتغال ان تشحن كمية قليلة ، من المعادن الثمينة الى الهند عن طريق الرأس . فقد بلغ ما شحنه منها ، بين ١٥٠٤ - ١٥٥١ ، ما يتراوح بين ٣٠٤٠٠٠ و ٨٠٤٠٠٠ كروزيديو في السنة الواحدة ، اقل مما كان يدره مرفأ المينا من الذهب ، على الملك . وقد شكلت شحنات المعادن الثمينة ، في اول الامر ، اي حوالي ١٥٠٦ ، نحواً من ٧٥ ٪ من قيمة الشحن . بينما هبط هذا المعدل بين ١٥٢٢ - ١٥٥٧ الى ١٢ - ٢٣ ٪ . وكانت هذه المشحونات تضم ، فيما تضمه ، الزنجفر والزئبق والمرجان والرصاص ، ولا سيما النحاس المستورد من بلدان اوروبا الوسطى بعد ان يجري تسويقه في مدينة أنفوس ، وغلبت قيمة المعادن الثمينة . فقد شحن ، بين ١٥٤٠ - ١٥٥٥ من ٥٥٠٠ الى ٧٥٠٠ قنطار في السنة الواحدة . وقد سُكّت كمية من هذا النحاس تبلغ ١٥٠٠ قنطار ، نقداً هندياً من نوع بازارو كوس ، وما تبقى فقد بيع ، وزناً بوزن ، بهاراً . والى هذا فقد استعمل البرتغاليون منذ السنين الاولى من القرن السادس عشر ، معادلة منهم لرصيدهم مع الهدد ، كتب الاعتراف والسفتجة بدلا من شحن نقد سائل اليها ، مما يوازي ٤٠ ٪ من مجموع هذه المبالغ . وهكذا فلم نر ان الاقتصاد البرتغالي خسر كثيراً من كمية المعادن الثمينة التي توفرت له .

وعرف البرتغاليون ان يفيدوا من وضع الهند والبلاد المحيطة بها التي لم تنهض اقتصادياتها على نقد معين والمعروفة بانتاجها العظيم للمعادن الثمينة ولا سيما للذهب . ففي افريقيا الشرقية نجد مدينة ممباسا التي اقام فيها البرتغاليون احتكاً ملكياً للذهب بعد ان اقصوا منها المسلمين . فقد كان يصل كل سنة ، من الهند سفينة مشحونة بالانسجة القطنية ، مصدره من خليج كمباي ومزالج ومغالتي يرغب اصحابها من قبائل البشتو مقايضتها بالذهب . ففي سنة ١٥٨٥ ، تم شحن ٥٧٣ كيلو غراماً من الذهب ، كما تم سنة ١٦١٠ شحن ٨٠٠ كيلو غرام من افريقيا الى غوجارات والى فيجايانا غار ، تلبية لحاجات المزارات والمعابد الوثنية . وكان الذهب يجمع في جاوا وصومطرة وبورنيو وماكسار وريو - كيو ومن كل هذه الجزر المتناثرة في البحر

حتى مشارف اليابان ، ويحمل من ثم الى مالقا . وعلى هذا النحو قس يو - تام في بورما واللاوس والبيغو في كمبوديا . وكانت كل موانئ الهند الصينية تشحن الذهب الى مالقا فيحمله البرتغاليون الى الهند بمعدل طنين في السنة . كذلك كان البرتغاليون يستوردون من مرفأ أرموز عملة فارسية السكة من نوع *Lerins* ويقايضون بها في مدينة كوشين ، الفلفل والبهارات ، بربح ٢٠ - ٢٥ في المائة ، كما كانوا يستفيدون من المضاربة بهذه العملة صعوداً وهبوطاً ، بربح يتراوح بين ٣ - ٢٢٪ حسب المواسم .

وقد بعث البرتغاليون عن طريق هذه العملات والمعادن الثمينة ينزلونها للاسواق بنشاط في مرافق الهند الاقتصادية كالتجارة والصناعة ، ولا سيما في مقاطعات غوجارات وهندستان فاستأنفت الهند سك العملة منذ اواسط القرن السادس عشر . كذلك عمل البرتغاليون في تطوير امبراطوريتهم في الهند الشرقية بحيث تكفي نفسها بنفسها تحت ادارة حاكم الهند العام الفونسو ده صوصه (١٥٤٢١ - ١٥٤٥) ، كما استطاعت هذه الامبراطورية البرتغالية في الهند ان تؤمن بمواردها الخاصة كل نفقاتها العامة ، وان تؤمن مشترياتها من التوابل بما تحققه من الارباح من تجارتها : « في الهند ومع الهند » ، دون ان تضطر لطلب اية مساعدة مالية مسن البرتغال . ومما هو اكثر من ذلك ، ان التجار والموظفين البرتغاليين الذين اثروا من تجارتهم في الهند ومع الهند ، استطاعوا ان يحموا معهم لدى عودتهم الى بلدهم الام ، مقادير كبيرة من المعادن الثمينة .

وقد بدت هذه الامبراطورية مزعزعة الدعائم ، بين ١٥٤٥ - ١٥٥٢ ، من جراء هذه الازمة الاقتصادية التي كادت تمتد الى اطراف العالم . بدت اعراض هذه الازمة ، واضحة في انفرنس ، ولندن ولشبونة والبرازيل وارموز ومالقا ومكاو . فقد بلغ معدل السفن البرتغالية التي آتمت انفرنس ، من ١٥٣٦ - ١٥٤٤ ، ما يتراوح عدده بين ٢٢ - ٢٣ سفينة في السنة ، وبين ١٥٥٤ - ١٥٦٠ ، نحواً من ١٤ سفينة . وهبط دخل الجمرک في ارموز ٢٥٪ بينما بلغ معدل هذا الهبوط في مرفأ مالقا ٥٠٪ . اما اسباب هذا الهبوط فيمكن ردها الى ازمة الذهب ووصول مقادير كبيرة من الفضة الاسبانية المستخرجة من مناجم بوتوزي في البيرو ، عن طريق اشيلية ، الذي طرد ، تدريجياً ، الفضة المستخرجة من مناجم اوروبا الوسطى : من بوهيميا والتيرول وسيليزيا والشاكس والهارتز ، فكان ذلك سبب انهيار هذه المناجم ، بعد عام ١٥٥٠ ، وزاحم الذهب البرتغالي . هنالك سبب آخر نجده في ردة الفعل يقوم بها الاسلام ضد البرتغاليين . استأنف الاتراك العثمانيون هجومهم ضد مدينة ديو ، عام ١٥٤٦ . فالحقوا بالبرتغاليين اضراراً كبيرة وكبدوم نفقات باهظة ، كذلك سبق ونوهنا بالهجوم الذي قام به المراكشيون في المغرب الاقصى .

لنجم عن هذه الاحداث تغييرات اساسية في النظام الاقتصادي للامبراطورية البرتغالية . فقرر الملك ، في اواخر عام ١٥٤٨ ، إقفال الوكالة او المفوضية التي كان انشأها في انفرنس ، كما كف منذ عام ١٥٧٠ ، عن استثمار طريق رأس الرجاء الصالح استثماراً مباشراً ، فاعتمد ، اكثر فاكثر ،

اسلوب الاجازات والترخيص وعقد اتفاقات خاصة مع شركات خاصة . والاحتكار الملكي الوحيد الذي بقي قائماً هو احتكار النحاس .

والتغيير الثاني المهم الذي عرفه النظام الاقتصادي ، تمثل في هذا النجاح العظيم تصيبه الفضة الاسبانية والريال الاسباني ، الذي اخذ يفزوا اقطار المحيط الهندي ، وبلغ بلدان الشرق الاقصى بين ١٥٥٤ - ١٥٦٩ ، عن طريق الرأس اولا ، ثم عن طريق اسكلة الشرق الادنى ، ثم بعد سنة ١٥٧١ ، من المكسيك ، عن طريق ما سمي بـ « باخرة مانيللا » التي لاقت نجاحاً منقطع النظير . واقبل المسلمون الهندوس يشتركون الريال الاسباني ، باي ثمن كان ، باليرة الذهب . وحوالي ١٥٨٣ ، راحوا يحملون التعامل بالبضائع والسلع ، لينقطعوا للتجار بالعملة والنقد السائل . ودرج استعمال الريال في جميع اطراف الهند ، بين ١٥٨٠ - ١٥٩٠ ، ولم يكن هذا النجاح بأقل منه في الصين ، حيث اخذت المضاربات بالريال ، تبلغ ٢٠ - ٢٢ ٪ . فاسبانيا هي التي تملك هذه الفضة وتسك هذه العملات على اختلافها ، ولذا لجأ البرتغاليون للتهرب متخذين من جزر الازور قاعدة لهم للحصول على حاجتهم من الريال بالتجار . في الهند ومع الهند ، وفي عام ١٥٨٠ ، بانضمامها الى اسبانيا . كذلك راح البرتغاليون يبحثون عن الفضة في اليابان .

واخيراً ، سجلت طريق رأس الرجاء الصالح بعض الهبوط في نشاط الحركة التجارية ، وهو هبوط يمكن رده لعدة عوامل ، منها ان مسلمي صومطرا اخذوا يستنبتون نوعاً من اغراس الفلفل ، احسن انتاجاً ، وارفع قيمة من فلفل مليزيا . وراحوا يوردونه الى القاهرة ودمشق مباشرة ، على خط مستقيم يمتد من أوشم الى عدن . وهكذا عاد النشاط الى الحركة التجارية في كل من البحر الاحمر والخليج الفارسي . كذلك اخذت البندقية بعد ان يسر لديها الحصول على الريال الاسباني ، اكثر مما توفر للبرتغاليين ، عن طريق جنوى ومرافقها اوروبا الشمالية ، تستأنف الاتجار بالتوابل مع طرابلس الشام وبيروت . وقبل وصول البرتغاليين الى الهند ، كانت البندقية تستورد الافوايه من الاسكندرية بمعدل ١٠٠٧٦٠ قنطاراً في السنة . وقد استوردت في الحقبة الواقعة بين ١٥٦٠ - ١٥٦٤ ، من هذه التوابل ، ما معدله ١١٧٠٠ قنطار في السنة ، اذ ان استهلاك اوروبا من التوابل ارتفع من ١٧٦٠٠ قنطار ، عام ١٥٠٠ ، الى ٢٧٤٠٠ قنطار في السنة .

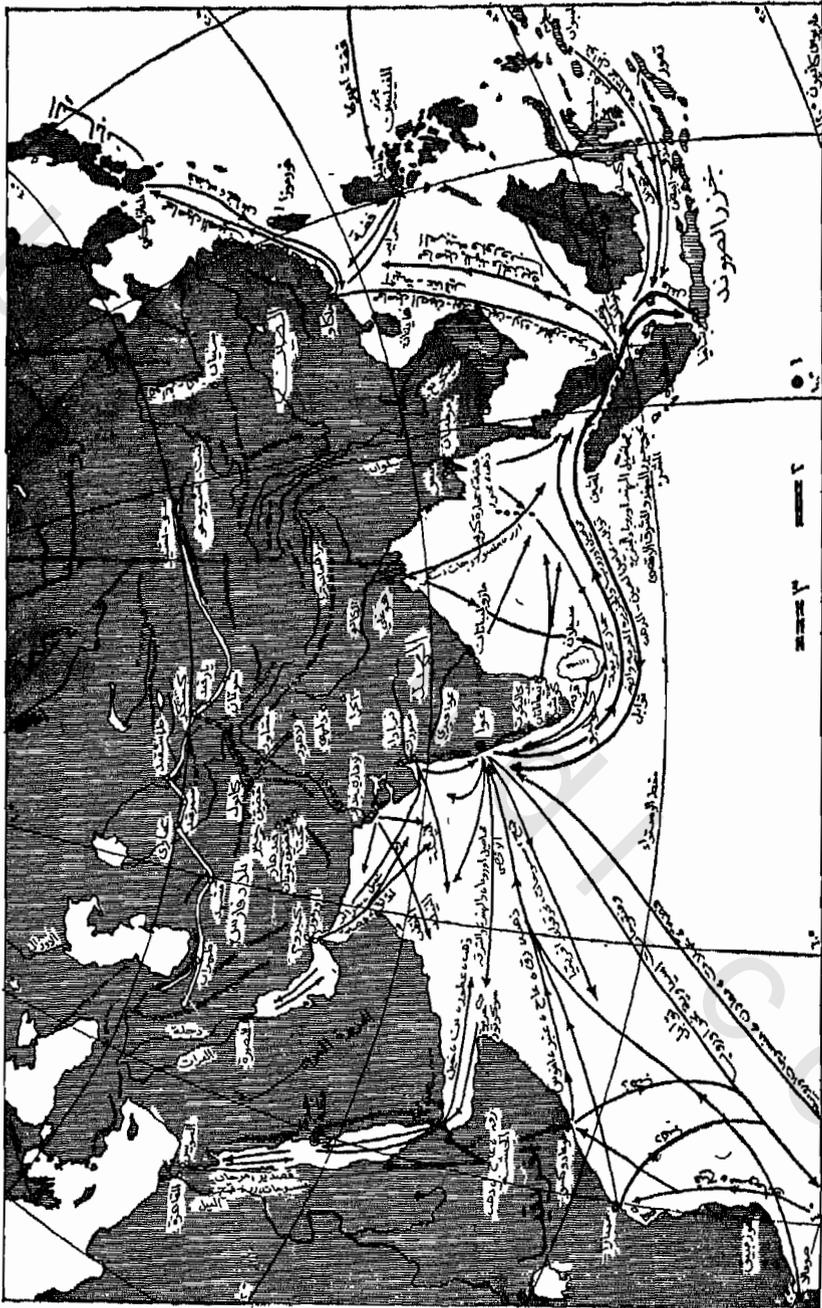
اشتدت ، من جهة ثانية ، المنافسة التجارية ، بين الفرنسيين والانكليز . فقد ركز السلطان أكبر ، امبراطوريته على دعائم قوية ، وشجع الرجوع الى الطرق البرية ودعا الى اعتمادها في نقل التوابل باتجاه الصين او بلاد فارس ، وتحول قسم كبير من محصول التوابل ، في الملابار الى آسيا الوسطى . ولهذا الاسباب ، ارتفع سعر هذه الاصناف عند البرتغاليين .

وهكذا اخذ البرتغاليون بصادفون في تجارتهم عدداً أكبر من المزارعين ، اكثر استعداداً

وجرأة وعدة . ولذا خفت بعض الشيء حركة نقل التوابل عن طريق رأس الرجاء الصالح . فقد بلغ معدل ما مر ، عبر هذه الطريق ، بين ١٥٦٠ - ١٥٧٠ ، من ٣٠ - ٣٥ ألف قنطار من الافاويه في السنة ، بينما نرى هذا المعدل يهبط ، الى ما يتراوح بين ٢٥ - ٣٠ ألف قنطار في السنة ، في هذه الفترة ، الممتدة من ١٥٧٥ - ١٥٩٥ . الا ان هذا النقص ، امكن تعويضه ، عن طريق ارتفاع معدل الارباح من التجارة مع الهند ، وهي ارباح ، بلغت في الربع الاول من القرن السادس عشر ، ثلاثة او اربعة اضعاف ما كانت عليه في الربع الثاني من القرن المذكور . فهناك ارتفاع في القيمة العامة او المطلقة . وهكذا كان تأخر الحركة التجارية في البرتغال تأخر نسبياً .

اصبح هذا التأخر شيئاً واضحاً لا يمكن تجاهله ، بعد عام ١٥٩٥ ، عقب دخول الهولنديين حلقة التجارة في الشرق الأقصى . فلم يعد البرتغاليون يستوردون الا عن طريق رأس الرجاء الصالح ما مقداره ١٥٠٠٠٠ قنطار في السنة ، من التوابل ، ثم هبطت هذه الكمية الى ٧٠٠٠ قنطار . ففي مطلع القرن السابع عشر ، اصبح استيراد التوابل عن طريق اسكلمة الشرق الادنى أقل كلفة وبالتالي ارخص من كلفته عن طريق الرأس . والتجارة مع اقطار الهند الشرقية لم يعد لها المكان البارز في الاقتصاد البرتغالي . ولكن ما لنا وللحديث عن هبوط الحركة الاقتصادية في البرتغال ، اذ ان البرازيل سيلعب ، في القرن السابع عشر ، الدور الرئيسي في هذا الاقتصاد . ففي عام ١٦٢٧ ، بلغ دخل الرسوم المدفوعة على السكر اكثر من نصف واردات الجمارك في لشبونة ، وهكذا انتقل البرتغال من منطقة « البهارات » الى منطقة « السكر » . وبعد سنة ١٦٤٠ ، اي بعد ان تحرر من التبعية الاسبانية ، اصبح اقوى بكثير مما كان عليه في منتصف القرن السادس عشر ، اذ اصبح يسيطر ، في المحيط الاطلسي ، على امبراطورية دونها الامبراطورية التي تمت له في المحيط الهندي .

حل الهولنديون ، اثناء القرن السابع عشر ، كدولة رئيسية في المحيط الهندي . عمل البرتغاليين فيه . ففي سنة ١٥٩٤ قرر الملك فيليب الثاني ، اقفال مرفأ لشبونة في وجه الهولنديين والانكليز ، وهو قرار لم يجر تنفيذه دوماً ، على الوجه المرغوب فيه ، بحيث كانت بعض سفن هاتين الدولتين تقع في قبضة الاسبانيين فتصادر منها البضائع التي تنقلها . وقد خشيت الدولتان المذكورتان معاً ، سد المسالك البحرية في وجه سفنهما ، وهو خطر من شأنه ان يلحق التشويش والاضطراب في الاقتصاد الهولندي ، فراحت تسعيان لاقامة علاقات تجارية لها مباشرة مع اقطار المحيط الهندي . وفي سنة ١٥٩٥ ، قفل راجعاً الى هولندا احد الهولنديين ، هو فان لشوتن بعد ان اقام في غوا خمس سنوات ، جمع خلالها كثيراً من المعلومات الدقيقة ، كما عاد اليها من لشبونة مواطن هولندي آخر هو كورناليس هوفمان ، بعد ان قام بمهمة سرية فيها جمع خلالها ، هو الآخر ، كثيراً من المعلومات . وفي ٢٣ حزيران ١٥٩٦ رحلت اربع سفن هولندية الى بنتام ، احدى السلطنات



الشكل ٢١ - ام التيارات التجارية في الامبراطورية البريطانية

الاسلامية ، الواقعة الى الشمال الغربي من جزيرة جاوا .

كانت الاوضاع السياسية السائدة اذ ذاك ، في مصلحة الهولنديين ومؤاقتهم لهم جداً ، بعد ان اقتصر سيطرة البرتغاليين على بضع قلاع وعدد من الحصون ، كما انهم كانوا في حروب موصولة مع اصحاب السلطنات الاسلامية الذين كانوا يتجرون بالتوابل هم ايضا ، وكانوا على اتم اعتماد للتعامل مع غير البرتغاليين من التجار . ومن جهة ثانية ، لم يكن هنالك من ممالك وطنية تستطيع الوقوف في وجه الهولنديين وتحدد من تقدمهم وتغلغلهم ، اذ ان معظم هذه الممالك كانت سلطنات بحرية يحاول بعضها بسط سيطرتهم على بعض المسالك والمعابر المائية ، مثل مضيق أشين ، الى الشمال من صومطرة ، وهي نقطة رسو اضطرارية لكل هذه القوافل البحرية العائدة من الغرب ، ترغب في الايفال شرقاً عبر مضيق مالقا وجوهور (مالقا) الى الشرق من صومطرة او الى الغرب من بورنيو ، وبنتام الى الغرب من جاوا ، او الى الجنوب الشرقي من صومطرة ، وماكسار الى الشرق من بورنيو ، وجزيرة بيبا ، الطريق المركزية في الانسولند ، وترنات (الى الجنوب من جزر الفيليبين ، سيراف وامبوان وسولور ، وبالاختصار جزر التوابل) ؛ وتيدور (الى الشرق من ترنات مع الجزر المجاورة ، والشمال الغربي من جزيرة الفينيه الجديدة) . كل هذه السلطنات انهكتها الحروب المستمرة بعضها مع البعض ، وضد البرتغاليين من جهة اخرى . ففي جزيرة جاوا ، راح احد السلاطين السوسونام هو سلطان ماتارام ، بانهاك قوى كل السلطنات الصغيرة الواقعة في داخل البلاد ، الى الشمال التي كانت بإمكان سقنها ان تؤلف سداً في وجه الهولنديين . فهو لم يكن ليحسب حساباً الا للجيوش الغربية .

ومنذ عام ١٥٩٨ ، اسس الهولنديون لهم ، مراكز تجارية في جزر : بندا وترنات ، وأشين وجاهور وبنتام وبتاني (الساحل الشمالي من شبه جزيرة ماليزيا) . فقد جلبوا معهم خرداً وزروداً ومصنوعات زجاجية ومنسوجات مخملية والعباب خشبية من صنع نورمبرغ ، وكلها سلع واصناف لاقت عند سكان الهند الشرقية رواجاً عظيماً . وحلوا معهم في طريق عودتهم الفلفل وكبش القرنفل وجوز الطيب . واخذت الشركات الهولندية في مزاحمة بعضها البعض ، مما ادى الى ارتفاع سعر الافاويه في الجزر المنتجة لها ، واخذ السلاطين يرفعون الاسعار شهراً بعد شهر . وقد اوشكت اسواق امستردام تصاب بالتخمة . اذ ذاك رأى حاكم هولندا العام ، هو اولدن بارندفلت ان يتدارك الامر فاصدر عام ١٦٠٢ ، امراً بانشاء الشركة الهولندية لجزر الهند الشرقية .

ودخل الهولنديون في منافسة حادة مع البرتغاليين واستطاعت الشركة الهولندية ان تستولي على حصونهم تباعاً الواحد بعد الآخر ، فاحتلت سفنبا : امبوان وتيدور ، وجددوا ، عام ١٦٠٠ ، المعاهدة التي سبقوا وعقدوها مع سلطنة امبوان التي نصت على قبول حمايتهم للسلطنة ،

واقامة استحكامات فيها وحق احتكار تجارة التوابل . وبهذه المناسبة ، وضع الكاتب الهولندي المشهور ، الفقيه هوغو غروتوس كتابه المشهور *De Jure praedae* الذي لخصه ونشره موجزاً عام ١٦٠٩ بعنوان : « *Le mare Liberum* - او حرية البحار » . ان حرية البحار وحرية التجارة هي من حقوق الانسان الطبيعية التي لا يمكن لاية قوة نسخها او حرمان الآخرين منها وهكذا كان هذا الكتاب نواة للحق الدولي . وبموجب هذا القانون لاحق للبرتغاليين قط حرمان الهولنديين من الاجتار مع جزر الافاويه . وقد اصبح هذا الكتاب ، فيما بعد من اصول الحق الدولي الحديث . ونحن مدينون لظهوره ، ولو بصورة جزئية ، لهذه العلاقات التي شدت بين الاوروبيين والدول الاخرى الواقعة وراه البحار .

وفي عام ١٦٠٠ ، رأت الشركة الهندية الشرقية الانكليزية النور ، برأسمال يوازي ثمن رأس مال الشركة الهولندية . وسار الانكليز ، في كل مكان على خطى الهولنديين . فبعد ان رستخ هؤلاء أسس التجارة الاوروبية في الاماكن التي اقاموا فيها ، راح الانكليز ينشئون لهم مراكز قريبة من مراكز الهولنديين ، الامر الذي ادى الى التنافس والتصادم والاقتتال بين الفريقين ، مما حمل الحكومتين على الدخول في مفاوضات ، سنة ١٦١٣ و ١٦١٥ و ١٦١٩ . وقد تشبث الهولنديون بمحقم فرض احتكارات ، واحتج الانكليز بدورهم متسائلين : وحرية التجارة ؟ ، فاجاب الهولنديون ان مبدأ حرية التجارة يقوم حيث لا معاهدات ولا عقود تحد من نطاق النشاطات التجارية . اما وقد وقمت معاهدات ووضعت موثيقي ، فقد زال كل اساس وبطل كل حق لهذه الحرية ، لا سيما وان الاتفاقات والمعاهدات هي من صميم الحق الدولي العام . والحال فقد كنا (الهولنديون) السابقين لمعد مثل هذه المعاهدات والاتفاقات مع سلطنات امبوان وترنات وبننام ، ولذا لاحق لسكان البلاد الاصليين ان يخالفوا تمهداتهم ، بعد الانكليز بهذه التوابل ، كما انه ليس من حقكم (الانكليز) قط ان تحملوم على نقض هذه الموثيقي ، او تفروم بلحس توقيعاتهم . ومع هذا وذاك ، فقد تكبدنا مصارفات باهظة ، وشغلنا رؤوس اموال ضخمة ، فمن الحيف والظلم معاً ، والحالة هذه ، الانقيد من هذه التضحيات ، كما يجب .

وبعد مفاوضات طويلة توصل اولدن باررنفلدت وجاك الاول ملك انكلترا الى تأليف شركة جديدة بدمج الشركتين معاً . غير ان المستعمرين الهولنديين رفضوا قبول هذه التسوية وحطموا العمارة الانكليزية شر تحطيم عام ١٦١٩ ، كما ان محكمة العدل الهولندية في امبوان حكمت بالاعدام على ثمانية انكليز ، ونفذت بهم حكم الاعدام ، بعد ان اتهموا بمعارلة الاستيلاء على الحصن الهولندي ، بمساعدة بعض المرتزقة من اليابانيين . وهذا الحادث بالذات يعرف في التاريخ بر « مذبحه امبوان » .

اخذت الامبراطورية الاستعمارية الهولندية تنمو وتتطور وفقاً للافكار والمبادئ التي قال بها وطبقها الحاكم العام كوين من عام ١٦١٨ - ١٦٢٣ ، كما عمل بهذه المبادئ من جديد

بين ١٦٢٧ - ١٦٢٩ . اوحى اولى هذه المبادئ بفرض التجارة الهولندية بالقوة ولو ادى الامر الى فرض السيطرة السياسية . وقد رأى ، من جهة اخرى ، ان الامبراطورية البرتغالية تلاشت وانهارت لانها كانت تجارية محضة . ثم ان تجارة الافاويه والتوابل ، بين اوربا وآسيا ، لا يمكن ان تؤلف ، لوحدها ، تجارة رابحة . ولتأمين ربح عادل يترتب على الهولنديين الا يكونوا تجاراً فحسب بل منتجين للتوابل والافاويه بانفسهم . يتوجب عليهم والحالة هذه ، ان ينشئوا لهم مزدروعات واسعة وان يرعوها عن كتب بواسطة ما يتم لهم من عميد أرقاء . فاذا ما بيع انتاجهم من التوابل في اوربا استطاعوا ان يؤمنوا لهم ربحاً كافياً . فالتجارة الوحيدة المرعبة بالفعل هي التي تقوم على مبدأ : « الاتجار مع الهند وفي الهند » ، اي الاتجار مع بلدان آسيا وضمن هذه البلدان بالذات . فعلى الهولنديين ان يقوموا هم بانفسهم بالقسم الاوفى من هذا النشاط التجاري الممتد نطقه من بلاد فارس الى اليابان ، عليهم ان يتسوقوا بانفسهم الحرير من بلاد فارس ، والقطن من الهند ، والزنجفر من سيلان ، والقيشاني من الصين ، والنحاس من اليابان ، وخشب الصندال من تيمور ، والتوابل من جزر الملوك ، وجمع كل المواد والسلع في بتافيا ومنها تشحن على السفن المحملة قوابل الى اوربا ، والأهم من كل هذا ، تنظيم مقايضة هذه البضائع وتسهيل تبادلها عن طريق انشاء امبراطورية استعمارية ، تجارية ضخمة مركزها بتافيا . فبدلاً من تركيز ازدهار هذه الامبراطورية على محور الاتجار بين اوربا وآسيا ، رأى كوين ان يرتكز هذا المحور على التجارة الآسيوية ، تكون التجارة بين اوربا وآسيا فرعاً منه لا غير .

اتفق ظهور هذه الافكار والنظريات مع ظهور نقص كبير في كمية الفضة التي كان الاوروبيون يمسس الحاجة اليها لتغطية ثمن مشترياتهم في آسيا ، بعد ان انهار الانتاج الاميركي من الفضة ، وتمكن الهولنديون من الحصول على المعادن القابلة لسك العملة او من الحصول على العملة نفسها من البلدان الآسيوية ، وهذا ما يفسر لنا الجهود التي بذلها الهولنديون للاحتفاظ بالتجارة مع اليابان وللسيطرة على انتاج مناجم الفضة والنحاس في اليابان ، ولهاجمة السفن المحملة فضة ، القادمة من المكسيك باتجاه الفلبين ، وللحصول ، بواسطة المنسوجات القطنية الهندية ، على انتاج الذهب في سومطرة وبورنيو ، وبواسطة حرير البنغال الخام ، على ذهب الصين والهند الصينية ، وبواسطة عدد كبير من منتجات الهند المتنوعة ، على النقود المسكوكة في البنديقية وغيرها من العملات الأوروبية القوية من مخا على ساحل البحر الاحمر . وكان كوين والتجار الهولنديون في كل هذه الامور ، باستثناء سياسة اعتماد المزدروعات ، ينحون نحو البرتغاليين .

وقد رفض مدير الشركة الاخذ بنظريات كوين وتبني اقتراحاته هذه ، وجل ما تموه هو تأمين استتباب السلام عن طريق عقد معاهدات تجارية مع الامراء المحليين وبعض الموانئ المركزية ، وبناء حصن واحد من هذه الحصون المركزية التي كلوا يشيدونها في النقاط الاستراتيجية ، الا ان طبيعة الاشياء ادت بالهولنديين الى الاخذ بنظريات كوين وتطبيقها .

في سنة ١٦٢٧ ، احتل الهولنديون عنوة ، مرفأ جاكرتا وفرضوا عليه سيطرتهم وسيادتهم التامة ، وبنوا فيه حصناً منيعاً ، واقاموا حوله مدينة هولندية الطابع والمظهر ، واطلقوا عليها اسم بتافيا ، وهو اسم هولندا قديماً . كذلك تمكنوا من فرض سيطرتهم على امارتين غارقتين في الديون . وراح الهولنديون يشترون المواسم بالمواعدة ، فيقدمون سلفات مالية مهمة ، نقداً او عيناً . وكثيراً ما اتفق ان انفق المستلفون المبالغ التي استلفوها وباعوا محاصيلهم ومواسمهم مرة ثانية لشار جديد . وفي سبيل تأمين الاموال التي سلفوها ، راح الهولنديون يطلبون من حكام المقاطعات التنازل لهم عن بعض سلطاتهم . وهكذا فتحوا عام ١٦٢٣ ، بقوة السلاح ، جزر بندا ، وجزيرة أمبوان وجزر اللولسك ، مقابل معاش تقاعدي دفعوه لسلطان ترنات . وهكذا اصبحوا اسياد الجزر . وسيطروا على المضائق والمابر التي لا بد من اجتيازها او المرور بها في التجول بين هذه الاقطار ، وكلها مراكز ومقاطعات انتزعوها من البرتغاليين عنوة وعدواناً : سيلان التي احتلوا عاصمتها كولبو عام ١٦٣٦ ، ونيفايتام على ساحل ملابار (١٦٤٢) ومالقا ، عام ١٦٤١ ، وكوشين ، عام ١٦٦٢ . وفي سنة ١٦٥٢ ، اسسوا مدينة الكاب التي كانت نقطة رئيسية لرسو السفن ، اذ انهم مفاداة منهم للاصطدام بالبرتغاليين بعد اجتيارهم لرأس الرجاء الصالح ، تركوا سفنهم تسير مع التيار والارياح التي تهب غرباً ، حتى تبلغ مشارف استراليا ، ثم تتجه رأساً نحو الشمال . وباستثناء امبراطوريتهم الواسعة الارجاء هذه ، نالوا من شاه ايران ومن المغول الكبير في الهند ، ومن امبراطور الصين ومن الشوغون في اليابان ، الترخيص لهم بإنشاء بعض وكالات تجارية تناثرت حباتها من اصفهان غرباً ، الى ناغازاكي في اليابان ، شرقاً .

بدا للحاكم الهولندي العام متسويكر ، بين ١٦٥٣-١٦٧٨ ان الولايات الاندونيسية اخذت قنهار وقنهورى ، من جراء هذه الحروب التي مزقتها ببدأ ، وانه لا يمكن للهولنديين ان يحتفظوا باحتكاراتهم التجارية ما لم يضمنوا حداً لهذه القوضى ، وذلك بفرض سيطرتهم السياسية . ولذا راحت الشركة ترغم السلاطين المحليين على الاعتراف بالولاء لها والتسليم ببناء حصن هولندي ضمن سلطنتهم ، وان يعترفوا للهولنديين بحق فرض احتكارات تجارية ، على هذا النحو سارت الامور في ماكسار ، سنة ١٦٦٨ ، وفي أشين ، وماثارام سنة ١٦٧٩ ، وفي بادانغ ، عام ١٦٨٤ . وهكذا فرضت الشركة الهولندية سيطرتها على كل انحاء اندونيسيا من جنوبي الفيليبين حتى سواحل الهند .

أسس الهولنديون في بتافيا مجتمعاً مسيحياً لا عنصرياً . فقد تزوجوا من نساء آسيويات ، نلن بعد تصيرهن ، جميع حقوق المواطنة الهولندية ، كما ان الخلاسين الذين ولدوا من هذا الزواج ، تمتعوا بدورهم ، بجميع حقوق الهولنديين ، وهؤلاء المستعمرون الذين تزوجوا من نساء وطنيات ، بقوا ، في اكثر الاحيان في البلاد ، فنشأ مع مرور الزمن ، جالية هولندية تراوح عدد افرادها بين ٥٠٠٠ و ١٠،٠٠٠ هولندي او من هولندي وزوجة آسيوية . وهذا المجتمع الهولندي كان

بطالب بنظام الرق والاسترقاق شأنه في ذلك ، شأن المجتمع البرتغالي الذي قام في البرازيل ، من وجوه عدة ، مع الفارق الوحيد ، وهو ان معظم الارقاء كانوا هنوداً ، وان معظم رؤساء الورش والاعمال الذين يعملون لحساب الشركة او يقومون باعمال الربا ، كانوا يدايون على العمل طويلاً واقلامهم بأيديهم ، من الساعة السادسة صباحاً حتى السادسة مساءً ، مع انقطاع صغير عن العمل لمدة نصف ساعة للترويقة ، وانقطاع اطول مدته ساعتان ، للطور .

برهن الهولنديون ، تجاراً ، عن روح سمحاء ، وعن تربية مدنية ، عالية تجاه الآسيويين الذين لم يخضعوا لحكمهم ، ولا سبياً للتجار بينهم . فقد عاملوا الصينيين بينهم معاملة طيبة ، سواءً كانوا تجاراً او صناعاً او مزارعين ، واجازوا لهم تعيين رئيس لهكتهم الخاصة برتبة قبطان ، يقضي بينهم وفقاً للقانون الصيني ، كما اعفوم من الخدمة العسكرية .

ولم يسمح ، مبدئياً ، لاية ديانة غير الكلفينية ، ممارسة عقائدها . وكان الصينيون والمسلمون يمارسون بالفعل ، مراسم طقوسهم الدينية ، على مقربة من بتافيا ، مما دفع القساوسة البروتستانت للتذمر بان شريعة موسى كثيراً ما كانت تنتهك ، فيجيبهم ، متسويكراً على ذلك قائلاً : ان قوانين الجمهوريات اليهودية القديمة لم يعد لها اي اثر او فعل في الاراضي الخاضعة للشركة الهولندية في الهند الشرقية . وبذلك تنتهي الشكوى وترفع القضية بعد ان حلت المشكلة على هذا النحو .

اقام الهولنديون سلطتهم وركزوا سلطانهم على اساس من المذابح والتفني والابعاد ، اتسمت بالبربرية والوحشية ، فأفقروا الجزر واخضعوا للرق الاحياء الباقين متذرعين بالدين الذي رزحوا تحته . وكانوا يشترون بالوعدة الغلال ويقدمون لاصحابها المواد الغذائية ، اذ ان جزر التوابل لم تكن تنتج ما فيه الكفاية ، يقدمونها باسعار عالية بحيث ان السكان الوطنيين لم يكن في مقدورهم تسديد اثمان هذه المواد فيرزحوا تحت وطأتها ، فيضطرم الهولنديون للتخلي لهم عن زرع المحاصيل التجارية كالفلفل وكبش القرنفل ، ويستبدلونها بزروع غذائية كالارز والصاغو ، محتفظين بزراعة التوابل لمزارعهم الخاصة . ففي جزر بندا وحدها التي كانت تعد ٣٨٤٥ نسمة عام ١٦٥٦ ، احصوا ٥٦٠ وطنياً من ابناء البلاط بقوا قيد الحياة ، و٥٣٩ هولندياً ، و ١٩١٢ من ارقاء الهنود يعملون في الزراعة ، و ٨٤٣ من الاغراب الاحرار ، بين تجار واصحاب حرف .

لم يتمم القساوسة الهولنديون بحمل السكان الآسيويين على اعتناق الكلفينية ، فراح هؤلاء نكابة بالغامحين وتشفياً منهم ، يقبلون على اعتناق الاسلام . فاندونيسيا التي اتصفت حضارتها بالطابع الهندي ، اقبلت على الاسلام ، منذ القرن الخامس عشر . والظاهر انه تم ادخال الاسلام الى هذه المنطقة على يد تجار مسلمين قدموا من غوجارات ، فعملوا على نشر الاسلام في ام هذه المناطق الساحلية من جزر السوند ، واعتنق امراء اندونيسيون الاسلام طمعاً منهم أحياناً بيد كريمة

بعض التجار الأترياء . ولم يكن الهولنديون يصادفون ، عندما قدموا الى اندونيسيا ، مسلمين الا في بطانات الامراء وفي بعض المناطق الساحلية . اما في داخل الجزر فمعظم السكان كانت على الهندوكية ، بوجه عام ، الى الشرق من جزيرة جاوا حيث كانت منتشرة ، على الاخص ، عبادة شيفا . وبقيت جزيرة بالي برمتها ، مدة طويلة ، مركزاً قوياً للهندوكية ، ووقفت حائلاً دون انتشار الاسلام هنالك . مع ذلك هنالك مناطق عديدة في الداخل ، لم تعرف الهندوكية ، بل كان اهلها على الوثنية او قالوا بالاحيائية الحيوانية .

وقد اولى الهولنديون ، من حيث لا يشعرون ، وبالرغم عنهم احياناً ، دفعاً جديداً لنشر الاسلام في طول البلاد وعرضها . فقد وقع عام ١٦٤٠ ، نشاط ملحوظ في نشر الاسلام والدعوة له ، من قبل بعض الدعاة النشيطين ، فاخذ الاسلام يتغلغل عمودياً بين الطبقات الشعبية ، ولا يزال الى يومنا هذا . وحاول السلاطين الداخلون في منازعات مع الهولنديين ان يستغلوا مواسم الحج الى المدن المقدسة الاسلامية ، رأساً من جزر الملايو الى البحر الاحمر ، منذ القرن السابع عشر ، ليطلبوا العون والمناصرة من السلاطين العربيه او من سلطان الاتراك . كذلك شجعوا مواطنيهم ، لدى رجوعهم ، على ان يصطحبوا ، وهم في طريق عودتهم ، مسلمين ذوي شأن وشيخاً يعملون أئمة بينهم . ففي عام ١٦٣٩ ، راح احد هؤلاء الشيوخ يلقب سوسونام مترام ، بلقب سلطان واعترف له الى جانب السلطة الزمنية بالسلطة الروحية ، واذ ذاك باشر السلطان الجديد ، أغونغ ، جهاداً مقدساً ضد اتباع شيفا وعباده في بالي . وجرى مثل هذا في بنتام واشين . وهكذا شد انتشار الاسلام من ازر الوعاه الوطنيين وقوى من سلطانهم ، كما حملهم على اعلان الجهاد ضد الهندوكيين وضد الكفار عامة وضد الاوروبيين . فبعد سقوط مترام عام ١٦٩٧ ، وبنتام عام ١٦٨٤ ، قام سكان الملايو بحروب دينية ضد الكفار . وراح القرصان المسلمون يعيشون فساداً في بحر جاوا كما امتلأت الادغال بحرب العصابات مع المسلمين . والجهود الاخيرة ، في هذا المجال ، قام ببذلها المدعو ابن اسكندر الذي ادعى النبوة وزعم انه من ولد الاسكندر الكبير كما قام بمثل هذه الجهود الشيخ يوسف الذي درس في مكة ونظر اليه الكثيرون نظراً الى ولي من اولياء الاسلام في البلاد . ومن حسن الصدق والاتفاقات ، ان الصوفي الكبير ، والسلطان المثنائي وسلطان المغول كانوا مشغولين اذ ذاك عن هذه الحيركات ، بامور اخرى . كما لم يكونوا فيما بينهم على اتفاق . فلو عرف المسلمون ان يوجدوا صفوفهم لكانوا قضا على الاوروبيين وازالوا كل نفوذ لهم في المحيط الهندي .

في بالي ، اي في قلب هذه الجزيرة بقي السكان على الهندوكية ، اما في الاماكن الاخرى فقد عرف الاندونيسيون ، بتمسكهم بالاسلام وبمعصيتهم الدينية . غير ان الاسلام الذي حل محل الهندوكية في النفوس لم يستطع ان يقضي عليها ولو اضطر بالتالي لمصانعتها . فالاسلام الاندونيسي كان في نظر المسلم العربي او المسلم من شمالي افريقيا اكثر الشيع والمثلل الاسلامية مرطقة وخروجاً على الشريعة . ففي نظر المسلم الاندونيسي ، يخلط الله بالبراهمان ، فيترتب على المسلم كما يترتب على الصوفي

الهندوسي ، ان يفقد ، عن طريق التأمل ، كل فردية وان يذوب في ذات الله ، لكي يصبح «الموجة التي لا تؤلف البحر ومع ذلك فهي ليست شيئاً يختلف عن البحر . . النقطة التي يتجلى فيها ملء الكائن الكلي » . فهذا نوع من الحلولية الرمزية . ومن صلب الهندوكية ضرورة ذوبان الفرد في شخص الله بينما الاسلام القديم الارثوذكسي العقيدة يشدد كثيراً ويميز بين النفس البشرية وبين الله . وهذا التعبير الهندوسي للاسلام لم يتمثل في هذه الكتب الصوفية الكبرى فحسب بل انتشر ايضاً بين كل طبقات المجتمع الاندونيسي عن طريق كررايس تعليمية او بواسطة رسوم هندسية تجسم او تلخص مبادئ هذه الرمزية الحلولية حتى بين الاميين .

كان من النتائج التي ترتبت على هذا الوضع ، النجاح الذي عرفته الجماعات الصوفية او الرمزية كجمعية «شتادياس» وعدم المبالاة بالطقوس الدينية ومراسم العبادة ، والوضوء التقليدي والصلوات المألوفة والصدقة والصوم . ففريضة الحج الى مكة المكرمة يكلف بها شخص بالنيابة . انهم يأكلون لحم الخنزير بالرغم من نواهي القرآن الكريم . فالاندونيسيون لا يتورعون قط عن ارتداء الملابس الحريرية والحلي الذهبية ، وينصرفون لتعاطي العاب الحظ والقفار والربا ، المهتم في نظرهم ، الصلاة الروحية بحيث يتم الاتحاد الرمزي مع الخالق .

فبدلاً من الثانية او الأولياء التسمية المتفق على تكريمهم ، اصبح عدد الأولياء الآن لا يحصى بعد ان البست معبودات الهندوكيين لبوساً اسلامياً يحيون باحتفالات حافلة ، مشاهد من حياتهم توضح بالاساطير والحرفات الهندوكية . وهكذا عاشت في قلب بلاد اسلامية وفي اوساط اسلامية حميمة واستمرت حية نابضة ، اعراف الهندوكيين وتقاليدهم الدينية . وهكذا بقي الاندونيسيون محتفظين باعرافهم وتقاليدهم المتوارثة يحيون فيها اساطير الجبال والانهر والمغاور والبحيرات ، وحكايات هذه الارواح حارسة القرى وارواح الموتى التي كانوا يتناقلون اخبارها خلفاً عن سلف ويحيونها قبل دخولهم الاسلام . واستمر كثيرون بينهم على العرول بتناسخ الارواح ولقدصها فراحوا يقدسون بعض الاطعمة الغذائية او يحرمون استعمالها او تعاطيها حتى في هذه القرى التي اسلمت برمتها ، كما استمروا في تحريم الانصاب وتماثيل البوذيين والهندوكيين ينضحونها ببعض الزيوت والشحوم الخاصة ويسرقون على اقدامها بحامس البخور ويقدمون لها القرابين من الازاهير والأرز .

وهذه الاعراف والتقاليد والعادات التي تختلط بعبادات قبائل الشامز ، في اندونيسيا ، واعراف الفيليين وفورموزا وتقاليد من مدغشكر بقيت مرعية الجانب معمولاً بها في كل مكان . فالقانون الاسلامي لا يعترف بالتبني . وبقيت اعراف الاندونيسيين تعترف ليس فقط بالتبني بل ايضاً تعترف لابن المتبني بالحقوق ذاتها التي يتمتع بها الابن الشرعي . فالشرع الاسلامي لا يبيح التسري لرب الاسرة الا مع امائه ، ولا يبيح له الزوج من احداهن . وأباحت الاعراف المعمول بها في جوار التسري مع المحصنات والزواج الموقت باحدى الدراري بعد حلها ،

الى ان تضع ولدها الشرعي ثم تطلق بعد عملية الوضع. فالمسلم الذي يمكن ان يتخذله شرعاً اربع نساء ، كما نصت الآية ، يستطيع ، وفقاً للتقاليد المرعية ان يطلق احداهن ليتزوج من احدى سراريه العالقة منه ، ثم يعود الى زوجته الاولى . والشرع الاسلامي الذي ينظر الى المرأة نظرة دون الرجل في ما يتعلق بالميراث لا يمنحها الحقوق التي يمنحها للرجل في الموارث . فالتقاليد الاندونيسية المعمول بها في فرائض الارث لا تفرق بين حقوق الرجل وحقوق المرأة في هذا الصدد .

وهكذا فنحن امام صفة او شكل خاص من الاسلام في اندونيسيا بحيث يمكننا التساؤل عما اذا كان اعتناق القوم للإسلام ، في هذه البلاد يجب رده ، الى حد بعيد ، للشعور بالظهور بمظهر السيادة والتسامي والمباهاة الذي يبعثه الاسلام في صاحبه ، امام الغريب او الاجنبي ، اكثر منه الى الشعور بمطلب ديني ، تحقيقاً منه لما شرع الانبياء او سوتغوا بوجوب تحقيقه ، او عملاً بمطلب الجهاد المقدس .

هل من ضرورة ، بعد هذا ، للتحدث عن الاستعمار الانكليزي او الفرنسي في هذا الكتاب بعد الذي ذكرنا عن الاستعمار الهولندي ؟ فمهما كان من شأن هذا الاستعمار ، ومهما كان له من اهمية في حد ذاته ، فليس من مبرر ولا بموجب قطع ان نعرض للكلام عنه هنا ، اذ اننا سنجد ولا شك ، الملامح والصفات النوعية الاساسية التي طبعت وصبغت منهاهج الاستعمارين البرتغالي والهولندي .

اوربوا والتجارة الآسيوية
أثر الأوروبيون على التجارة في آسيا تأثيراً كبيراً بما ادخلوا على الاقتصاد الهندي من معادن ثمينة وعملات مختلفة ازدادت رواجاً بصورة مطردة خلال القرن السادس عشر. ويقدر العالم الاقتصادي الانكليزي *De Mun* بليونين دوقةً ونصف المليون قيمة المبالغ التي كُتب الأوروبيون يصدرونها ، كل سنة الى الشرق ، وهي مبالغ زادت ثلاثة اضعاف منذ مطلع القرن السادس عشر ، ووصل قسم كبير من هذه العملات الى الهند . فقد احدثوا بعض التيارات التجارية ، ولا سيما الهولنديون منهم الذين روجوا بعض الاصناف بادخالهم لها في الهند وجزر الصونند كالحديد والفولاذ والاكياس والجلود والملح والقرميد ، ولا سيما الارز وبعض البقول وتجارة الرق ، اذ تراوح عدد الارقاء الذين كانوا يأخذونهم في السنة من ٥٠٠ - ١٠٠٠ رقيق ، معظمهم من الهنود الذين وقعوا فريسة الجوع ، في البنغال وسواحل الملابار . وقد مثلت هذه التجارة من حيث حجمها شيئاً زهيداً . فقد بلغت تجارة الهند الخارجية ، بعد السلطان اكبر ، وفقاً لتقديرات البعض ، بين ٢٤٠٠٠ - ٣٦٠٠٠٠ طن في السنة ، بينما بلغ معدل هذه التجارة ، في السنة ، بين ١٩١١ - ١٩١٤ ، نحواً من ٦٤٧٥٠٠٠٠ طن . والذي يبدو لنا ان الهولنديين والانكليز والفرنسيين تقاسموا ، فيما بينهم ، في القرن السابع عشر ، التجارة التي كان يقوم بها البرتغاليون دون ان يسجل المجموع زيادة مسا

تذكر . قد يكون حدث بعض الزيادة ، بعد سنة ١٦٦٠ ، عقب ان اخذ البنغال بتصدير الحرير وبعد ان نشطت صناعة المسلمين في اوروبا ، ويعد ان اشتد الطلب على ملح البارود لتلبية حاجة الحرب التي قام بها لويس الرابع عشر . ففي ايلول ١٧٠١ ، لم تكن الشركة الانكليزية للهند تملك سوى ١٤ سفينة في آسيا : واحدة في غنا و ٣ في كنتون ، وواحدة في أرموس ، وثلاثة على سواحل كورمانديل ، وسفینتان في صورت ، وسفینتان في البنغال ، وواحدة في بورنيو وواحدة في لمبو . وبلغت قيمة شحنة من البضائع الانكليزية ٧٥،٠٠٠ ليرة استرلينية بينما بلغت قيمة البضائع الاجنبية المشحونة ، مع الفضة ٤٣٨،٠٠٠ ليرة انكليزية ، وهو لعمرى مبلغ زهيد .

والتجارة « في الهند ومع الهند » كانت تدر من الارباح على هذه الشركات اكثر مما تدره منها الحركة التجارية بين آسيا واوروبا. فلنأخذ مثلاً على ذلك ، الشركة الهولندية للهند الشرقية . كان الهولنديون يحشدون ، في مدينة بتافيا ، كل البضائع التي يجمعونها من هذه البلدان الواقعة بين بلاد فارس واليابان ليتمكنوا من القيام بتدقيق حساباتهم العامة . وكانت الشركة تستقدم كل سنة ، الى بتافيا ، دفاتر حساباتها في كل المراكز والوكالات التجارية التابعة لها لتقوم بعملية تدقيق المحاسبة العامة . وبعد ان تعد الشركة تقريراً عاماً عن اعمالها ونشاطها يقع في عدة اجزاء ، يجري ارساله ، سنة فسنة ، الى اوروبا ، على متن سفينة خاصة عرفت بـ « سفينة الشاي والدفاتر » . والحال فقد ثبت الآن ان هذا التقرير كان مزوراً ، بينما امرار المحاسبة الصحيحة تبقى خفية لا يطلع عليها الا الراسخون في العلم . ويبدو ان الارباح كانت بالفعل زهيدة جداً خلال سنين عديدة . ولهذا قرر مدير الشركة ان يوزعوا على المساهمين ، مرضاة لهم ، حصصاً وهمية ، بمعدل ١٠ ٪ . ولكي يقوموا بهذه العملية اقترضوا سراً ، في السنوات الثلاثين الاولى من تأسيس الشركة ، ١٠ ملايين جلدري في هولندا . وهكذا استطاعوا ان يحتفظوا ، في خزائهم وصناديقهم في الشرق ، بمبالغ طائلة من النقد يستخدمونه في اغراضهم السياسية . وعندما ازاحوا بعد سنة ١٦٣٠ ، من طريقهم الانكليز والبرتغاليين ، بقوة السلاح ، اخذت تجارتهم من الهند ومع الهند ، تدر عليهم بالفعل ارباحاً طيبة . فقد سجلت اعمالهم التجارية ١٠١ مليون جلدري ، بين ١٦١٣ - ١٦٥٤ ، بلغت نفقاتهم ٧٦ مليون جلدري ، وبذلك حققوا ربحاً قدره ٢٥ مليون جلدري . ومن اصل هذه الملايين الخمسة والعشرين ، ارسلت الشركة الى اوروبا ٩،٧٠٠،٠٠٠ واحتفظ بالباقي في الهند كمبرغ سائل يستثمر في النشاطات التجارية بين البلدان الآسيوية .

وهكذا يبدو لنا ان الارباح التي عادت على الوطن الام كانت جد متواضعة خلافاً لما ردهه البعض . فالغنى الذي رفلت به البلاد الواطية ، في القرن السابع عشر ، لم يأت من تجارتها مع آسيا ، بل يجب رده بالاحرى الى الدور الذي لعبه الهولنديون كعملاء او وسطاء تجاريين بين اوروبا واميركا . ومثل هذا القول يمكن اطلاقه على باقي الدول الاوروبية باستثناء البرتغال في مطلع القرن السادس عشر . فالحركة التجارية بين اوروبا وآسيا لم تكن ذات تأثير بالغ في

الاقتصاد الاوروبي، والمبالغ التي جمدتها هذه الحركة كانت اقل من المبالغ المستثمرة في تجارة الخنطة في داخل الدول الاوروبية وبين هذه الدول ، بالرغم من انها محاصيل ثقيلة الوزن ، فالحركة التجارية القائمة على مبدأ « مع اوروبا وفي اوروبا » في الدرجة الاولى ، والتجارة بين اوروبا واميركا ، في الدرجة الثانية ، هي التي أغنت اوروبا .

والراجح هو ان « تجارة الهند مع الهند » عادت بالاكتر ، بالنفع على الآسيويين انفسهم . من الصعب ان نعرف الى اي مدى بلغ النقد وحافز المعادن الثمينة المستوردة في تأثيرها على الصناعة والتجارة ، والمدى الذي بلغه هذا التأثير ، في تغيير وضع العامل والمزارع في الهند . لا شك ان كبار التجار من هنود وسكان الملايو وعجم افادوا كثيراً من المنافسة الحادة التي قامت بين الدول الاوروبية ، رفعوا معها من اسعارهم وعرفوا كيف يثروا بما عرف عنهم من مقدرة ومهارة دونها « مقدرة الشياطين » . ففي مدينة صوراء ، رئيس برجبي بوراه ، بين ١٦٦٩ - ١٦٦٥ ، ادارة اتحاد تجاري كان يوسعه ان يشتري وسق سفينة او اكثر كاملة وقد كان لهذا الاتحاد وكالات فرعية في احد آباد واكرا وكولكوند وجاوا وكمبروم استمرت على نشاطها حتى عام ١٦٤٩ . وهؤلاء الاقوام من صيارفة وتجار من ملوك الهند وحكام الولايات الذين كانوا يفرضون رسوماً جركية وينشئون احتكارات على هذا الصنف او ذلك ، كانوا بالفعل ، اول من استفاد من نشاط الاوروبيين في تجارتهم مع آسيا .

جاء البرتغاليون الهند لينشروا فيها الدين المسيحي . فقد وجدوا
الامبراطورية
البرتغالية وكالة تبشير بالانجيل
فيها طائفة من النصارى بلغ عدد اتباعها نحواً من ١٥٠ الف من
النساطرة اعتنقوا هذا المذهب على يد كهنة سريان ، وتوزعوا في
المدن والقرى المتناثرة على سواحل الملابار وكورمانديل . وكان بطريك الكلدان ، في بابل يمدم
بالاساقفة ، ولكي يستطيعوا البقاء في خضم البحر الهندوسي كان عليهم ان يؤلفوا هم انفسهم ،
طيقة خاصة انطوت على نفسها لا تستطيع انتشاراً ولا توسعاً . والبراءات البابوية التي اصدرها
البابا اسكندر السادس بعنوان *Inter Coetera* بتاريخ ٤ ايار ١٤٩٣ ، والبابا جول الثاني
بعنوان *Ex quo* بتاريخ ٢٤ كانون الثاني ١٥٠٦ ، اعترفت للبرتغاليين بحق الولاية على المحيط
الهندي وعلى بحار الصين ، وخولتهم حق انشاء مطرانيات واسقفيات ، وتعيين اساقفة
والاحتفاظ بحق التبشير بالانجيل في الشرف . ولم يكن لاحد من رجال الاكليريوس ان يأتي
هذه الديار والمناطق التي تهب فيها الرياح الموسمية الا بأذن خاص من ملك البرتغال ، وبعد ان
يعرج على لشبونة وغوا . وبعد فترة من التردد انشئ في غوا مركز لرئيس اساقفة امتدت
ولايتته من لشبونة الى اليابان ، كما انشئ فيها كاتدرائية ودير للرهبان الفرنسيكان ، ومعهد
اكليريكي كبير يأخذ على عاتقه إعداد الكهنة لعمل الكرازة والتبشير بين الهندوس . وليس
من ينكر ان البرتغاليين قاموا بجهود جبارة في هذا المجال . فقد سمحوا باليهود الى الاقطار
الآسيوية لعدد كبير من المرسلين من كل الدول الاوروبية ، وبذلوا لهم كل عون وحماية

ومساعدة ، من اسبان وايطاليين وفلمنكيين . فقد عدوا في غوا وضواحيها اكثر من ٣٠٠,٠٠٠ مسيحي بين الهنود . وكان في غو ١٠٠ خياط يعملون في اعداد القمصان الجديدة للمعمدين الجدد . وعدت مدينة امبوان وحدها ، سنة ١٦٠٤ ، نحواً من ١٦,٠٠٠ نصراني ، وهو عدد ضئيل بالطبع اذا ما قيس بهذه الجماهير من سكان البلاد الوطنيين ، اقاموا ، على الغالب ، في ممتلكات البرتغاليين ، وكانوا بالاكثر من الطبقة المتوسطة الحال .

اساء البرتغاليون تفسير الآية القائلة : « دعوهم بدخولن » ، فراسوا يستمعون الشدة في حمل الوثنيين على اعتناق المسيحية . ومن جهة ثانية ، كان عدد الكهنة قليلاً ، ومع ذلك فكانوا يؤمنون ارتدادات بالجملة ، اذ كانوا يحشدون بضع آلاف من الوطنيين ويعلمونهم بضع كلمات ، مما يجب عليهم اعتقاده من قضايا الايمان . فمن رضي منهم ان يكونوا مسيحيين جرى تصديرهم في الحال . وكان بينهم بالطبع مسيحيون لا يعرفون قط ما يجب عليهم حفظه من الايمان الجديد ولا يعرفون صلاة : « انا » ، ولا « السلام عليك يا مريم » ، ولا قانون الايمان . فليس من غريب قط ان يتخلوا بسرعة عن ايمانهم الجديد ليعودوا الى وثنتهم الاولى او يرقوا الى الاسلام . وقد شجع البرتغاليون الزواج بين مواطنيهم والهندوس وكانو يدفعون نحواً من ١٨,٠٠٠ غرش لكل اسرة جديدة ويلقموها ارضاً . وهكذا اقبلت نساء كثيرات من بين الطبقات الدنيا على اعتناق المسيحية ، وتزوجن من برتغاليين . الا ان الطبقات العليا اردت كثيراً بالمسيحية واغضت من جانب المسيحيين . وكثيراً ما سخط البرتغاليون بين عمليات التبشير وحملة تصدير الناس بطابع البرتغالية ، اذ كثيراً ما طلب المرسلون البرتغاليون من الموعظين الجدد ان يتخلوا عن نظامهم الطبقي وان يرتدوا الزمي البرتغالي والتخاطب باللغة البرتغالية واكل اللحوم . واسلوب الارشاد المتبع والدعوة الى اعتناق الدين المسيحي لم يكن : « هل تحب ان تصير مسيحياً » بل « هل ترغب الدخول في طبقة البرتغاليين » ؟ ومن اياها انكره للديانة المسيحية التي كانت ديانة المستعمرين من البرتغاليين العاشقين بنظام الطوائف والمدربين لها ، واكله لحوم الثيران ، هذا الحيوان المقدس عند الهنود .

فامام هذا الفشل الذريع تصاب به عملية التبشير بالمسيحية ، راح الملك يوحنا الثالث يطلب من اغناطيوس ده لوبولا ، كهنة ومبشرين يسوعيين . وفي ايار ١٥٤٢ ، وصل الى عوا حاملاً لقب سفير بابوي ، فرنسوا كسافييه .

القدس فرنسوا كسافييه
قام الآباء اليسوعيون بمجهود كبير للتبشير بالانجيل ونشر المسيحية .
فرنسوا كسافييه الذي اعلنت قداسة فيما بعد ، كان اول من وضع في التربة ، الرسائل الاولى . فقد كان كريم الطلعة ، قريباً للقلب ، وقور المشية ، ثابت الخطى وثبدها ، صريحاً الى آخر حدود الصراحة ، شديد الحماسة والانديفاع ، تنفذ عبارته الى القلب لئلا بما تحمله من عاطفة نابضة وايمان حي وشعور متدفق . فليس من عجب ان يسدده الجميع

وان يكنوا له محبة خالصة . فقد كان فارساً ، ولذا كانت مقرراته تؤخذ بسرعة وتنفذ بحزم ، يلحظ بشدة جميع الانطباعات الجديدة ويقبل بجرأة ، على المشروعات التي لا تخلو من الخطر والمغامرة ، يبدو عليه القلق وقلة الاضطراب احياناً . فلم يبدل شيئاً من المبادئ الاساسية كالارتدادات بالجملة واستعمال الضغط والقوة . وطلب من نائب الملك استعمال السلاح ضد العصاة من امراء الهند وتمنى عليه لو يشكل جيشاً يهاجم مكة ويقلم اظافر الاسلام فيخفف من شأنه . والتجاح الذي اصابه يجب رده بالدرجة الاولى ، لصفاته الشخصية ولقرره وقواضيه ولحبهته الصادقة وللمعجزات التي صنعها . حرص كل الحرص على ان يوفر للمسلمين ، تربة احسن بقيت مع ذلك ، دون المرتجى ، من التربة التي عمل فيها اوائل المسلمين . فقد كان رجاؤه الاكبر وتعموله الاول على نعمة العماد . قام في اواخر عام ١٥٤٢ ، بزيارة لقبائل برفاير ومنها هذا الفريق من الغطاسين العاملين في صيد اللآلئ ، الى الشرق من رأس كومورين ، والذين وقعوا ، من عهد قريب ، تحت حماية البرتغاليين ، كان بينهم عدة الوف اصطبغوا بالعماد المسيحي . وراح فرنسوا كسافيه يطوف بين القرى والساكن بصحبة بعض المترجمين ، ثم يأخذ يجمع الرجال والأولاد معاً على قرع الاجراس ، ثم يتلوا عليهم : « اباة » و « السلام » و « أوامن » ووصايا الله العشر . فمن آمن منهم ، امر بتمييدهم للحل . وكان يمهّد الى بعض وجوه القوم بينهم ليعلموهم اهم قضايا الايمان ويفسروها لهم ويقوموا امامهم بالصلوات المتتادة . وكثيراً ما حمل معه ، في طريقه عودته شباناً ليعدهم للكهنوت فينشئ بذلك اكليروساً وطنياً ويستأنف مسيرته الى ابعد . وفي ١٥٤٤ ، توفى الى تنصير بضعة آلاف من صيادي السمك على سواحل ترافنكور . ومنها واصل سعيه ورسالته التبشيرية الى ان وصل مالقا (١٥٤٥) وامبوان وترنات في جزر الملوسك ، واخيراً بلغ اليابان سنة ١٥٤٩ ، وتوفي عند مداخل الصين في ٢ كانون الاول ١٥٥٢ ، في جزيرة سنبا الصغيرة على مرية من غوا .

بعد وفاة فرنسوا كسافيه ، اشرف على عملية نشر الرسالة
توجيهات الاب فالغنياني والتبشير بالمسيحية والانجيل ، الاب فالغنياني ، احد ابناة الاسر
الشريفة في نابولي ، بعد ان تمين زائراً على اديار الرهينة ، في الشرق الاقصى ، فوصل غوا ،
في ٦ ايلول ١٥٧٤ وبرفته ٤١ راهباً يسوعياً ، فعمل على اتحاد المسيحيين وفقاً لارشاداته
وتوجيهاته . فقد قدم المطران النسطوري ابراهيم إنعامال ، بالقرب من كوشين ، خضوعه للبابا
وسمح للآباء اليسوعيين بالاقامة عنده . واستطاع فالغنياني ان يبني في فايبكوتا معهداً صغيراً
يُمنى باعداد كهنة من ابناة البلاد ، بعد اعدادهم الاعداد الكافي يؤهلهم للقيام بعملية الرسالة
في الهند . ثم طبع التعليم المسيحي الطبعة الملابارية . وفي مجمع ديامبور الاقليمي الذي عقد
عام ١٥٩٧ ، اعلن الكهنة النسطوريون اعتناقهم للايمان الكاثوليكي . وقبلوا العمل تحت ولاية
اسقف يسوعي .

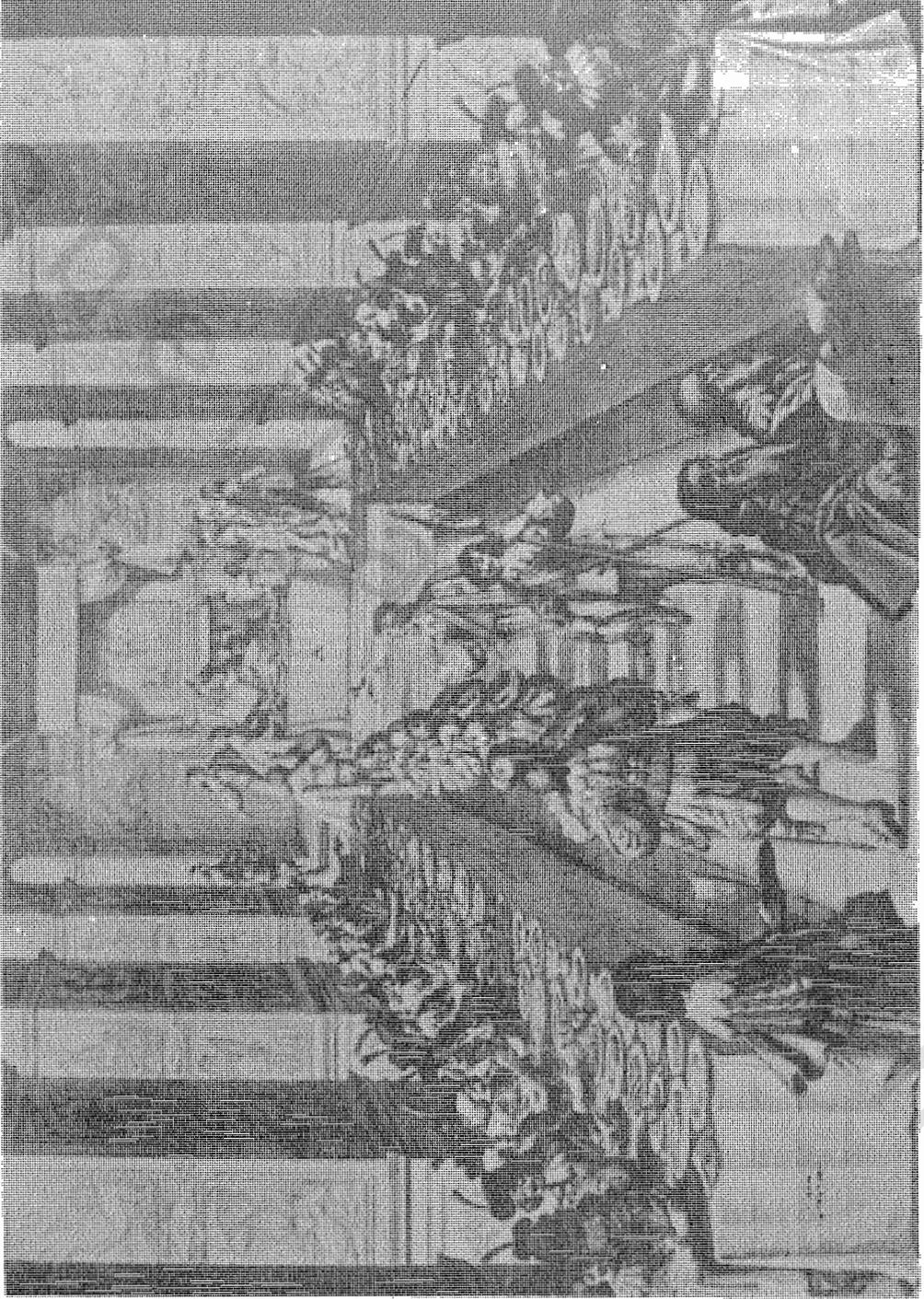
فبدلاً من الانصراف لتبشير الطبقات الدنيا و « المنبوذين » امثال صيادي السمك ، راح

المرسلون يتوجهون من الملوك والاسياد وعلية القوم ، نفاذاً منهم الى قلب الهند ، فقد أرسلت بعض الرسائل الى السلطان اكبر ، عام ١٥٨٠ ، و١٥٩١ ، ولا سيما الرسالة التي وفدت عليه عام ١٥٩٤ . بقي السلطان اكبر لا يلين ، انما اصدر عام ١٦٠٠ ، امرأ يميز للمرسلين التبشير بالانجيل ، كاترك لرعاياه الحرية باهتناق المسيحية . وفي سنة ١٦٠٢ ، اسست اول كنيسة مسيحية في اكرا . وبعد اكرا ، رخص بعض الامراء اليسوعيين بانشاء رسائل تبشيرية ، في اماراتهم . وفي سنة ١٦١٠ ، كان تجت تصرف اليسوعيين ، معاهد ووكالات في معظم المدن الساحلية حيث كنا نوجد اكثر من ١٦٩ كنيسة . وبلغ عدد المسيحيين ، خارج غوا ٢٧٠،٠٠٠ . كل هذه الجهود ادت مع ذلك ، الى فشل جديد ، في هذا المجال ..

روربت نوبلي وطفوس ملابار المرسلين ، انظار كاهن يسوعي من نبلاء روما ، هو روربت ده لفت هذا الوضع المؤسف ، والفشل الذي انتهت اليه جهود نوبلي المولود عام ١٥٧٧ ، الذي قدم ، عام ١٦٠٦ ، الى الهند الجنوبية ، الى مادوره . فقد فكر ، مدفوعاً الى ذلك بمثل الاب ماتيورثسي في الصين ، بان المسيحيين لم يبرهنوا عن ايمانهم الرطيد به وعن ثقتهم ولم يستجيبوا لجهوده الرامية للاتحاد مع الله ، بعد ان ضللتهم التعابير الحلولية والاصطلاحات الهندوكية التي تنزى بالكفر والالحاد والقول بتمدد الآلهة ، وانه من المناسب لذلك ، استخدام تعاليم الهندوكية نفسها بعد ان تستخلص منها ما يتفق والمقائيق الدينية المسيحية ، وبعبارة اخرى رأى ان المطلوب ليس فقط الباس الهندوكية ثوباً مسيحياً فضفاضاً وجعلها نسخة مشوهة عن الحضارة المسيحية او اضافة روح المسيحية على المجتمع الهندي والنظم الهندوكية ، كما هي بمد التاليف بين الطبقات . المهم ، قبل كل شيء اسئلة الطبقات العليا واكتساب عطفها وثقتها ، اي البراهمان والكهنة ، والباقي يتبع من نفسه او من تلقاء ذاته .

كان في مدينة مادوره اكثر من ١٠٠٠ طالب براهماني . فتقدم نوبلي منهم باعتباره راجا رومانيا يرغب في العيش في التقى والصلاة ودرس الشريعة الالهية . ولذا راح يمتدح شاراك *Kshatriyas* او النبلاء المحاربين وهي علامة البراهمان ، كما حمل ال *Koudoumi* او خصلة الشعر المتدلية من الرأس ، وهي تختلف حسبكم وضفراً وانجهاها باختلاف الطبقات ، وارقدى بزة صفراء ، وهي تميز السانياسي الذين كانوا يتجردون من كل شيء ، ويعرضون عن كل شيء .

واقام وحده في كوخ من الحشائش والاعشاب واخذ يفتات بالبقول ويشرب الماء القراح فاطماً سحابة نهاره في التأمل . واذ ذاك وجاءه البراهمان يزورونه في خلوته ، بمد ان سعمرم بنصاعة لفته وهي التامول ، وبالنصوص الكثيرة المستمدة من شيرة كتابهم ، ومن قصائدهم الوطنية التي كان يستشهد بها في مجال التحدث اليهم . فقد كان يعرف معرفة تامة كتب الفييدا



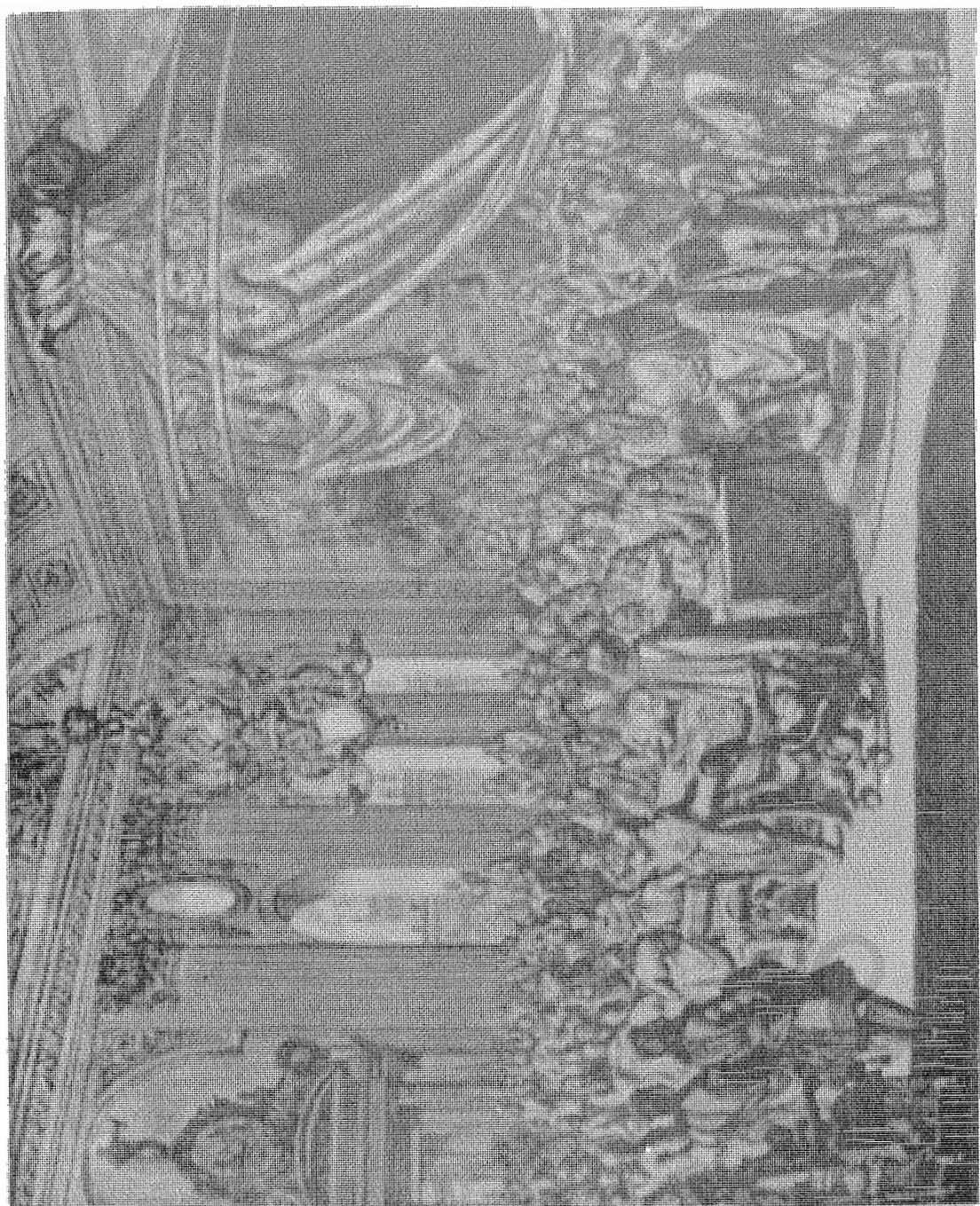
٢٣- تنظيم المادة التي أعدت لاجلانه لحضرة الفرسان بعد تأسيسهم ، في فونتينبور ، في الرابع عشر من أيار من السنة ١٧٣٣ .

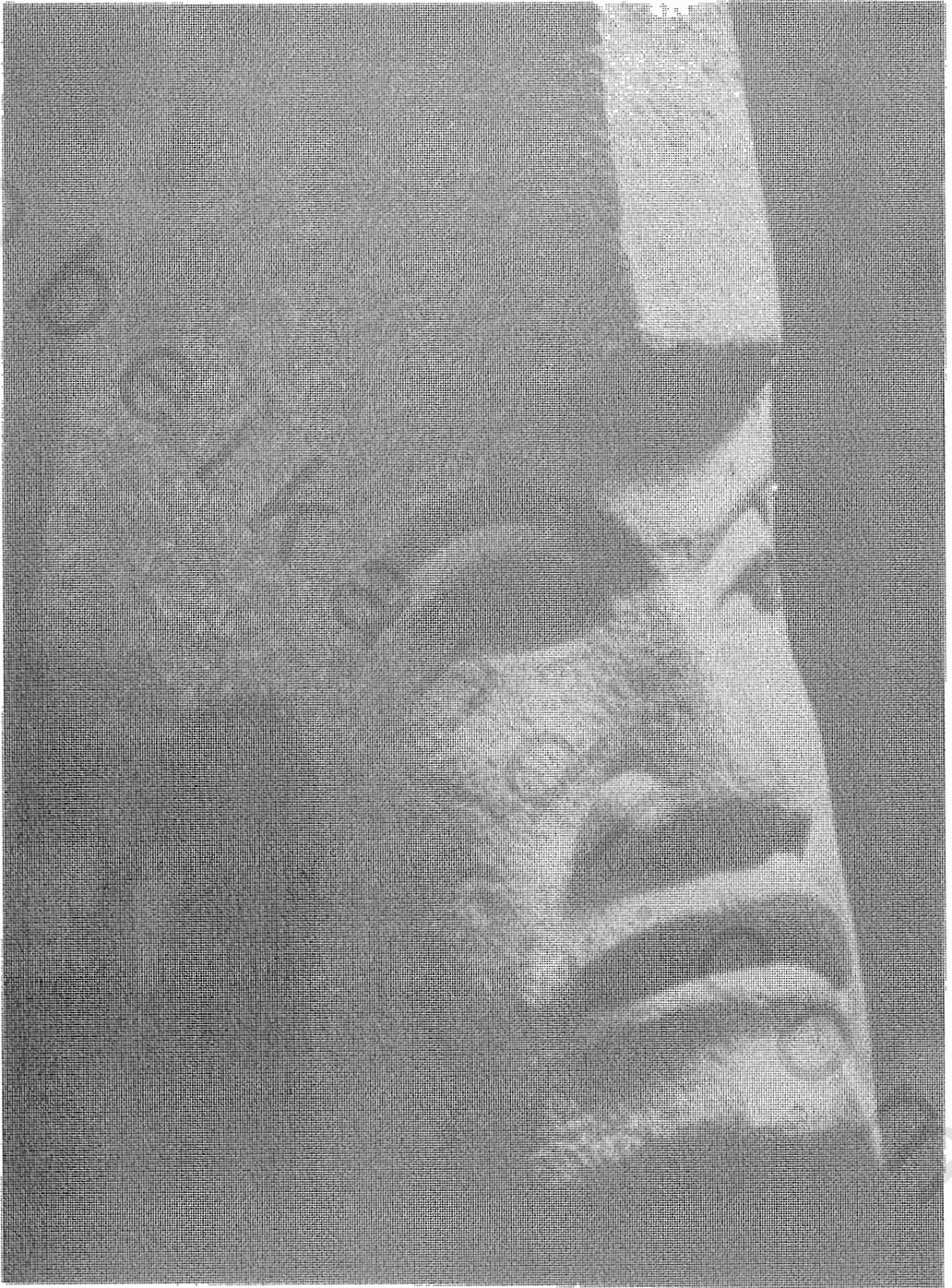






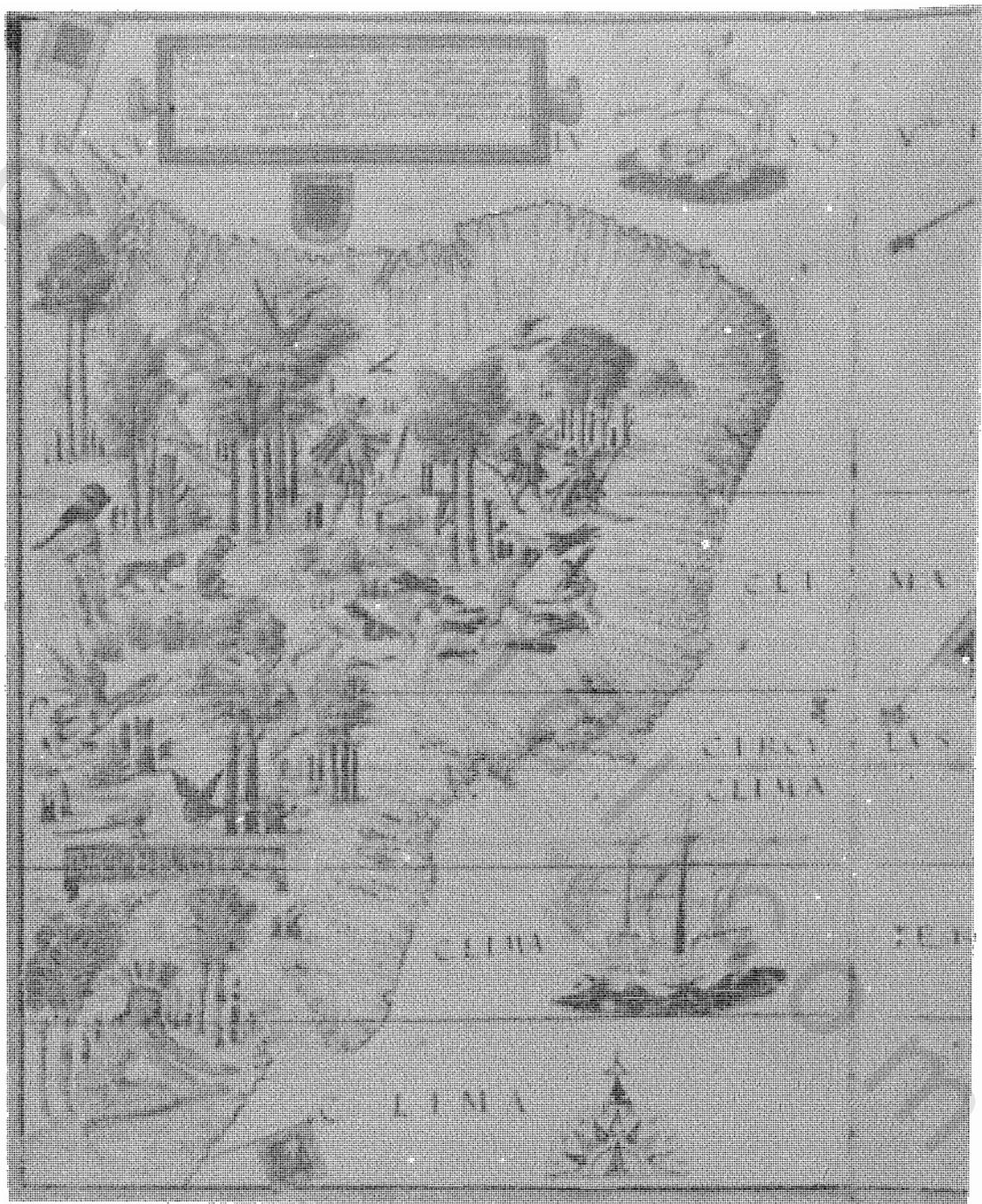
٣٧ - عائلة فلاحين في داخل منزل







تمثال الملك رمسيس الثاني في معبد الكرنك، القاهرة، مصر.



٤١ - البرازيل في السنة ١٥٩٩

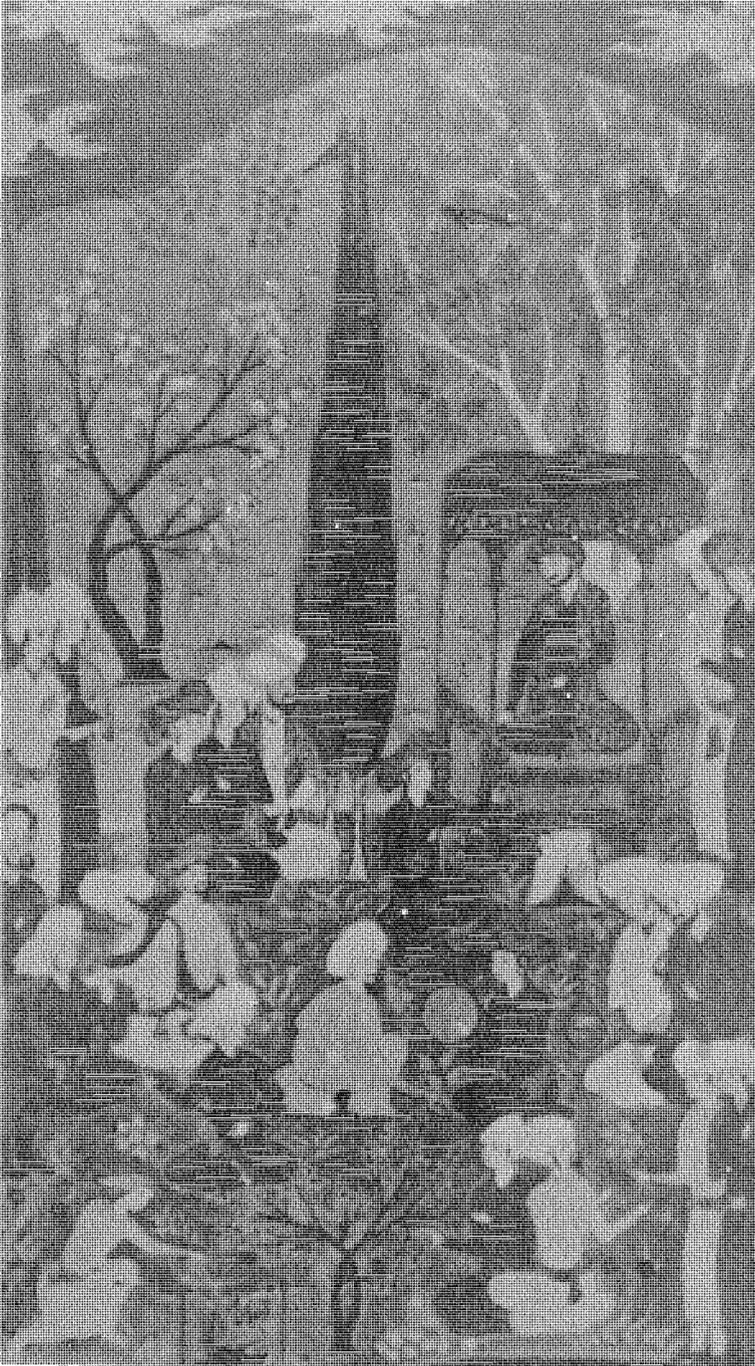


١٤- صورة من حديقة الدالة الملكية التي رسمت على رداء في سنة ١٩٠٤م في مصر بموسم الأوبرا



١٣. زئوج استعدادهم اسبابو نيركا في مطاحن المسكر





٤٥ - عيد ملكي في حديقة فارسية







اذ كان سبق له ودرس اللغة السنسكريتية وكشف لهم عما في كتبهم المقدسة من شواهد وأدلة على المسيحية وصحتها . اعترف البراهمان به كواحد منهم وقبلوه رسمياً في مصافهم ، وهو امر يكاد لا يصدق ، اذ ان المرء يولد هندوسياً حسب الهندوكية المستقيمة الرأي ، ولا يصير المرء هندوكياً ، اي ان اي غريب يتمذهب بالهندوكية يبقى دوماً *mlechcha* ، ويحظر عليه درس الكتب المقدسة . وقد ألف نوبلي بلغة التابول كتباً فيها الدليل على ان المسيحية هي تمة الهندوكية . كذلك وضع اثاشيد تقارب مبنائها ومعناها من الاثاشيد التي تتغنى بأله الهند ، بحيث كان يتوجب على المدقق ان يتعمق النظر ليتبين الفرق بينها . وقد احترم جداً مبدأ الطبقات . وكان يعمد البراهمان ويتركهم يحملون شاراتهم المميزة لطبقتهم الخاصة ، ويقومون بمراسم طقوسهم التي احب ان يرى فيها ليس مظهراً من مظاهر الصنمية بل مراسم اجتماعية ، وسياسية . ومن جهة اخرى ، كان نوبلي هذا البراهمان الذي يغار جداً على نقائه وطهارته ، يناول المسيحيين من طبقة ادنى ، القربان الاقدس برأس عصا صغيرة او يضع القربان امام عتبة بابهم .

استمر نوبلي على رسالته هذه حتى سنة ١٦٥٦ ، وحرص اخوته المرسلون العاملون معه في جنوبي الهند على تبني طريقته هذه وانتهاج نهجه . وهكذا رأينا يسوعيين براهمان بينهم دون جوان ده بريتو ، وكونستان بشي كارأينا رهبان يسوعيين من ضمن طبقة المنبوذين ، امثال عمانوئيل لويس وغيره . فالبراهمان اليسوعيون كانوا يحملون على محفات ، ولا يؤدون التحية لآخوانهم من الآباء اليسوعيين في طبقة المنبوذين ، نصف المرأة ، يخفي عورتهم مئزر حول حقوهم . وقد جاءت النتائج حرة بالملاحظة . ففي سنة ١٦٧٦ ، احصوا في مادوره ومقاطعة كراتيك وميسور ، ٢٥٠٠٠٠ هندي مسيحي كاثوليكي ، بينما كان صرف احد الآباء اليسوعيين ، قبل قدوم نوبلي ١٤ سنة في مادوره ، دون ان يسجل اي ارتداد للمسيحية . والجد الذي قام به نوبلي وجد صداه الطيب واثره الجميل باصطباغ الهندوكية في مادوره بصباغ وحدة الالهية والثنائية بعد ان تطورت فيها الى هذا الحد تحت تأثير النساطرة والمسلمين في هذه المنطقة .

أثارت هذه الاشياء المستجدة او المستحدثة في مناهج الرسالة المسيحية بين الهندوكيين هواجس رئيس اساقفة غوا واقلقت تفكيره . ولذا استدعى اليه الاب روبرت نوبلي للمثول امام محكمته . فحضر بزبي براهمان بما اثار دهشة الجميع ورفع المطران القضية للكرسي الرسولي ، فصدر البابا غريغوريوس الخامس عشر امره للمطران بالتوقف عن ملاحقة نوبلي وعدم مضايقته ، وسمح له باستعمال « الطقوس الملابارية » بصورة مؤقتة ، اشفاقاً على الضعف البشري (٣١ كانون الثاني ١٦٢٣) . اما الفرنسيون ، فقد رأوا من جهتهم ، في هذه الطقوس شيئاً مخالفاً للمحبة المسيحية ، اذ ان المسيح قد حرر المسيحيين من التقيد بمراسم التطهير الخارجية التي تؤلف مخالفة لمبادئ الاله الحقيقي ، بمد ان اختلطت اختلاطاً بالطقوس الوثنية يصعب التفريق

بينها . وهكذا عادوا من جديد لبحث : « الطقوس الملائكية » . فصدر عام ١٦٤٥ ، و ١٦٤٩ قرارات بابوية بشجب هذه الطقوس ، كما شجبت الطقوس الصينية . ولم يتقيد الآباء اليسوعيون بنطق هذه القرارات بدعوى ان البابا اتخذ قراره هذا في نطاق الاسباب المرجحة التي تبنت له . فالرأي المبني على المرجح لا ينفي ان يكون عكسه ، له ايضاً ما يجعله مرجحاً . وهكذا فلم يحدث ما يزعج الارساليات او يشوش عليها العمل . الا ان الآباء الكبوشيين شكوا اليسوعيين عام ١٧٠٤ ، بانهم يتساهلون مع خرافات خطيرة . ففي طريقه الى الصين ، توقف المطران تورنوف الذي كان ممثلاً للبابا في مدينة بونديشري ، واصدر في ٢٣ ايار ١٧٠٤ ، حكماً مطلقاً ضد الطقوس الملائكية وسياسة مراعاة اليسوعيين لنظام الطبقات في الهند . ثم اصدر الديوان المقدس (١٧٠٦) كما اصدر البابا إفليمس الحادي عشر عام (١٧١٢) براءة ارغم فيها اليسوعيين على الطاعة . غير ان القضية لم تنته نهائياً الا ببراءة من البابا بندكتوس الرابع عشر ، صدرت عام ١٧٤٥ .

مهما تكن النتائج التي تمت على يد نوبلي وتلاميذه ، فما عسى قيمة الهندوكية من الوجهة الدينية وفشل عملية التبشير بالانجيل ان تكون لبضع مئات الألوف من الهنود المتنصرين من قيمة بالنسبة لهؤلاء الهندوس الذين يعدون مائة مليون . ولعل الصعوبة الكبرى والعقبة الكأداء التي اعترضت رسالة المبشرين بالانجيل هي في هذا الشبه الكبير بين المسيحية والهندوكية . فالمرء الذي يكفر ذاته كاملاً لله بحيث اصبح *Ishtha deva* والذي جعل من الله مسرته وسعادته ليتخلص ويتطهر من ادران الـ *karma* ، واصبح في منجى من سلسلة التقمصات المتصلة الحلقات ، وتم اتحاده بالله الى الابد ، مثل هذا الانسان لم يعد ليشرم بحاجة للمسيح . فكيف لا يشعر من اعماق قلبه بالرضى والارتياح هذا الانسان الذي تم له مثل هذا الحنان ومثل هذا الحب الالهي ، والذي كان يصرخ مترنماً في القرن السابع عشر ، في هيكل فكندو بالعناية الالهية قائلاً :

« ليس في الكون مكان ما ولو كان بقدر حبة خردل ، لا يتلوه بالله . فعظمة الله فوق كل بحث وابعد من ان تدرك . فكيف تستطيع عقولنا ان تتسع لهذا الخالق الذي يشرق بنوره على الشمس والقمر ؟ » .

« هذا هو الهنا ، هو الروح من ارواحنا . كل شيء فينا او من حولنا يحدث باسمه ويذيع مجده . الله اله الرحمة والحنان والعطف ، اله الذي يشبع رغائبنا ، اله الذي يجمعنا ويخبر علينا » . هذا اله اله المحبة ، لا سبيل اليه الا بالمحبة وفي المحبة . فهو يسمر بكثير فوق ادراكنا وافكارنا ، وفوق كل كلمة وتمبير بشري . فليس له من قياس غير قياس الحب والادراك » .

واي ايمان يمكن لهذه الألوف من القرويين ومن الحجاج ان يشعروا بحاجتهم اليه ، هؤلاء الذين تعمروهم بالهتاف فينشدون غيباً هذه الاناشيد والترانيم التي وضعها تاكا - راماء عام ١٦٠٠ احد تجار الجبوب ، في بوتنا ، في مقاطعة المهرات .

« الشمس رحمتك ، باكياً ، منتحباً كمن ضل سبيله وناه عن الطريق . فسرت متكئاً على عكازي ، من باب الى باب الى ان اعياني السير ، فلم اجد احداً يؤاسيني او يجبر نفسي الكسيرة ، لم اجد احداً يتقنني من اوصاب هذه الحياة الفانية ... مات ابني وعيناه مسمرتان عليك ، يا رجائي وهكذا فعل جدي وجدته من قبل ... فطفولتي وحدائتي ورجولتي طاودتني ودفعتني فاذا بي امامك . اما انت ، فانت القيوم الى الابد ، انت الذي لا تبدلك الايام ولا تحملك الدهور ، انت انت مها امتد الزمن . ليس من يقف او من يمر على الوقوف امامك ... كيف السبيل اليك والتعرف عليك ؟ يا اخي ! تعرف عليه بالفكر ، بالتأمل من اعماق روحك . سرفي اثره كما يسير الصياد الماهر في اثر طريدته » .

وهكذا فشلت اوروبا كما فشل الاسلام ، من قبل في تبديل عالم الهند .

obeikandi.com

الفصل الثالث

العالم الصيني وأوروبا

١ - الصين واليابان

الصين

انكماش الصين وانطوائها على نفسها
يمثل القرنان السادس عشر والسابع عشر ، عصر المخطاط
دولة منغ ، واستبدالها ، عام ١٦٤٤ ، بدولة جديدة ،
بربرية من منشوريا ، هي ذلوة تسنغ . عاشت الصين ، هذه الحقبة ، منطوية على نفسها . فالثورة
التي آتت عام ١٣٨٦ الى طرد الدولة المغولية : يوان وحلول دولة منغ محلها ، كانت اشبه ما تكون
بردة فعل انعكاسية قام بها الصينيون ضد البرابرة . فقد حملت هذه اليقظة الوطنية معها نتائج
طيبة لم تلبث ان ظهرت بوضوح . فقد اعرب الصينيون عن رغبتهم بالعودة الى ماضيهم السابق ،
الى تقاليدهم المرعية ، بعد ان علمتهم الايام ان يكونوا حذرين جداً ، يقظين من العالم الخارجي .
وعندما التقت هذه النزعة مع الرهن الذي تمكن من جسم اباطرة الصين الذين استسلموا لحياة
الدعة والرفاه في بلاط عامر بالذات ، والاستكانة الى الحريم ، حصلت الردة الصينية . ففي
سنة ١٤٣١ ، قامت آخر حملة صينية استهدفت شواطئ الجزيرة العربية ومضيق ارموز ،
وراحوا لآخر مرة ، يطالبون ملوك جاوا وصومطرة وسيلان والملابار ، بدفع الجزية .
والقرارات التي صدرت عام ١٤٤٣ و١٤٤٩ و١٤٥٢ ، حظرت على الصينيين مغادرة المياه الصينية .
وفي سنة ١٤٥٩ ظهرت السفن الصينية ، لآخر مرة ، في مياه كوشين . وفي سنة ١٤٥٣ ، توقف
الصينيون ، لآخر مرة ، عن الاهتمام بشؤون المغول . ومنذ ذلك الحين ، انكفأوا على انفسهم
وانطوا على ذواتهم ، فقبعوا داخل سورهم ينصرفون للتأمل والتجريد .

تكاثر السكان بالرغم من رغبتهم بالمحافظة على عدم الاتيان باي حركة ، نشهد وقوع تغييرات مهمة في انظمتهم الاقتصادية والاجتماعية، وهي تغييرات اقل بروزاً للمين من الاحداث السياسية والدسائس التي عمرها البلاط الامبراطوري . فقد اخذ عدد السكان بالازدياد والارتفاع . وبلغ عند سكان الصين ، عام ١٥٠٢ ، نحواً من ٥٣،٢٨٠،٠٠٠ نسمة ، فارتفع هذا العدد ، عام ١٥٧٨ ، الى ٦٠،٠٠٠،٠٠٠ ، ليتجاوز ، عام ١٦٦٢ ، مائة مليون . فقد بلغ من اكتظاظ البلاد بالاولاد ما حمل بعض الاوروبيين على التندر متسائلين ، ما اذا كانت الصينيات يلدن كل شهر او يضمن خمسة توائم دفعة واحدة ، وفي هذا دليل على ان نسبة المواليد لدى الصينيين كانت تفوق نسبتهم لدى الاوروبيين ، بحيث بلغت ٦٠ في الألف . مع العلم ان نسبة الوفيات بين الاولاد لم تكن لتقل عن ٥٠ ٪ في السنة ، ومهما يكن ، فقد أثار هذا النمو مشكلة الغذاء . هل ان توطين نباتات غذائية جديدة كان الباعث الاول على ازدياد عدد السكان ، ام انه جاء نتيجة لها ؟ فقد دخلت زراعة الذرة الصفراء عام ١٥٥٠ الى مكة على يد مغاربة من عرب الاندلس ، ومنها دخلت الصين على يد حجاج صينيين . وللحال اخذ الصينيون بزراعتها على نطاق واسع . وفي آخر عهد دولة المنغ كانت زراعة الذرة تسير على قدم المساواة مع زراعة الذرة البيضاء (الدخن) والقمح ، كذلك ظهرت زراعة البطاطا الحلوة عام ١٥٩٠ ، بعد ان دخلت زراعتها الفلبين مع الاسبان ، ومنها امتدت الى الصين على يد تجار صينيين من فو - كيان . وقد حلت زراعتها في اواخر القرن السابع عشر في كل مكان واستعملت لها على الاخص التربة الرملية . كذلك انتشرت زراعة المحص بانواعه والبازلا ، وهي مادة لها اهميتها ، ليس لما فيها من مادة ازوتية متممة للحيوب فحسب ، بل ايضاً لاستعمالها سحماً ازوتياً لاختصاب التربة الفقيرة .

عرف الصينيون ان يفيدوا ، الى اقصى حد من موقعهم الجغرافي الممتاز الممتد بين درجة ٢٠ - ٤٠ من خط العرض الشمالي ، وما يوفره لها هذا الموقع المؤاتي من فصول زراعية تمتد طويلاً ، وامطار غزيرة ، في الصيف ، اي في هذه الفترة من السنة التي تكثر المحاصيل والفلال الزراعية التي تتطلب من ٣٠٠ - ٦٠٠ طن من المياه لكل طن من الفلال حتى تبلغ حد النضج . وبفضل مقادير هائلة من الاسمدة والمخصبات الزراعية كطمي القنوات وروث الحيوانات ، وجميع الناس المزوج بالتراب الجفف الناعم ليذر على وجه التربة ، والدمال الاخضر المستمد من المواد العضوية في الغابات والأحراج ، يفرشونه على التربة بعسده اختباره ، استطاعوا ان يحصلوا على عدة مواسم في السنة ؛ من الحقل الواحد في اثر الآخر ، او تقريباً في الوقت ذاته : اغراس على سطور متوازية ، وغلال صالحة للحصاد بينها غلة قريبة القطاف ، وأخرى آخذة بالنمو والنضج . وقد تمكنوا من الحصول على موسمين من الارز ، من الحقل الواحد ، في السنة ، في مقاطعة تشي - كيانغ ، بعد موسم القمح او الشعير او الذرة او الكولزا او الفاصولياء ، وموسم أرز وقطن ، في مقاطعة تشان - تونغ ، وموسم قمح او شعير في الربيع ، وآخر من الذرة الصفراء او البيضاء او بطاطس حلوة او حمص في الصيف ، بقطع النظر عن مواسم فرعية

اخرى كالمفوف والبصل والفجل ، ومع ذلك فلم تكن هذه المحاصيل والغلال الزراعية لتفي بحاجة السكان الغذائية بعد هذا الارتفاع في عدد السكان . ومن جهة ثانية ، هبطت مساحة الارض الزراعية من جراء الاضطرابات والحروب القائمة ، من ٧٠١٣٠٧٩٦ كنغ (٤٢٠٨٢٠٧٧٦ هكتاراً) ، سنة ١٥٧٨ ، الى ٥٠٣١١٠٣٥٨ كنغ (٣١٠٨٦٨٠١٤٨ هكتاراً) سنة ١٦٦٠ . اما المعدل العام بالنسبة للسكان فكان طبيعياً عام ١٥٧٨ ، اذ كان يقتضي ٧٠ *nieau* (٤٠٨٠ هكتار) لتأمين أود امرة . اما في سنة ١٦٦٠ ، فقد كانت مساحة الارض الزراعية لا تفي بحاجة الاهلين الغذائية . ولذا كانت البلاد تتعرض ، دورياً ، لتفشي المجاعة وللكتير من الازمات والهزات السياسية والاجتماعية . وهكذا نرى ان الاوضاع التي صارت ليها امور التغذية والاعاشة ساءت جداً في عهد دولة المنغ .

ازدهار البورجوازية
نلاحظ ظهور طبقة كبيرة من البورجوازية ، تألف معظمها من التجار ورجال المال والاعمال ، دون ان تتبين بوضوح الحوافز التي بعثت على ذلك : فهل يجب رد هذه الظاهرة ، يا ترى ، الى هذا النشاط الملحوظ الذي رافق زراعة القطن والتجارة به منذ ان راح ملوك دولة المنغ يكرهون الفلاحين للانصراف الى زراعة القطن ، بمد النجاح الذي حققته هذه الزراعة منذ اواخر القرن الخامس عشر ؟ ام يجب رد ذلك الى ازدياد النشاط في حركة التصدير الى الاقطار المجاورة ، كالصليبيين واليابان وجزر الصوند الواقعة وسطاً ، بين الصين واوروبا ، او ان نمو البورجوازية جاء نتيجة لقدم الاوروبيين الى الشرق الاقصى ؟ ومهما يكن من الامر ، فالبورجوازية الجديدة اخذت توجه ابناءها نحو الامتحانات الرسمية ، منافسة بذلك اولاد الاقطاعيين بعد ان كانت وقفاً عليهم وحدهم دون سواهم . فقد سبق لملوك المنغ ان نظموا مناهج الدروس وضبطوا طريقة الاخذ بالامتحانات . فقد كان الولد يعطى ، وهو في السادسة من عمره ، دروساً تمهيدية في تاريخ الادب ومجاريه الكبرى عبر تاريخ البلاد ، ثم يقضي من ٤ - ٥ سنوات في تعلم القراءة والكتابة والمنهيات الادبية ، نثراً وشعراً عن ظهر قلبه ، فيتدرب على الخط والانشاء ونظم الشعر وقرض القصائد . واذ ذاك يتقدم للامتحان الرسمي ، فيقضي المرشحون يوماً وليلة في محل منزله ، يعالجون موضوعين يعينان لهم وينظمون قصيدة في موضوع مقترح عليهم . اما معدل النجاح فكان بنسبة ١٪ . اما الناجحون بالامتحان فكانوا يعفون من دفع الضرائب ومن العقوبات الجسدية ، ويصبح في مقدورهم ان يتقدموا ، عندما يبلغون السن القانونية التي تخولهم العمل في دوائر الحكومة ، لطلب وظيفة في خدمة الدولة ، في دائرة من الدوائر المحلية . اما من رغب بينهم بمتابعة تحصيلهم ، كان بإمكانهم ان يقضوا ثلاث سنوات في احدى الاكاديميات الاقليمية . واذ ذاك ، يصبح في مقدورهم ، التقدم للامتحانات الثاني ، فيقضون ثلاث دورات تستمر الواحدة ثلاثة ايام . في الاولى ، يطلب اليهم معالجة ثلاثة مواضيع ادبية وان ينظموا نهاي قصائد ، وفي الثانية ، يعالجون خمسة مواضيع تتعلق بالادب الاتباعي ومشاهير رجاله ، وفي الثالثة يعالجون كتابة خمسة مواضيع تتعلق بامور الحكم وفن

الادارة ، مع تأييد آرائهم بالحجج والشواهد التاريخية الدامغة . فمن منهم كان يطمح للمراكز والوظائف العليا ، كان بإمكانه ان يدرس ثلاث سنوات اخرى ، ثم يتقدم لامتحانات نهائية تجري في القصر الامبراطوري نفسه ، في بكين ، حيث يطلب اليه معالجة موضوع يتعلق بقضية سياسية اجتماعية ، او بمشكلة وطنية كالري والزراعة ، والاستعمار والنقد ، والجيش والتربية . فمن يرغب في خدمة الجيش الامبراطوري اجتاز امتحاناً اكثر تبسيطاً واقل تعقيداً اذ كان يطلب منه معرفة اهم المصادر والمراجع التي تتعلق بفنون الحرب ، والرمي بالقوس ، ورفع الاثقال والاحمال الباهظة ، واستعمال السيوف الكبيرة . اما الموظفون الذين كانوا في خدمة الدولة عام ١٤٦٩ ، فقد بلغ عددهم نحو ١٠٠،٠٠٠ موظف مدني ، و ٨٠،٠٠٠ ضابط في الجيش .

كانت تكاليف الدرس والامتحانات عالية باهظة . ففي عام ١٥٤٧ ، كان يترتب على من يتقدم للامتحان النهائي ، دفع ٦٠٠ taels من الفضة ، كما كان عليه ان يبقى فترة طويلة لينتظر دوره في التعيين . ولم يكن المرشح لوظيفة يؤمن تعيينه الا بعد ان يتكبد مبالغ طائلة تذهب هدايا سنوية يتوجب عليه تقديمها للخصيان او لمن بيدهم الحل والربط . اما المرتبات فكانت جد ضئيلة ، كما ان الموظفين الذين طلوعوا من الطبقات البورجوازية كانوا يحاولون جردهم لاسترداد ما دفعوه تسديداً منهم لديونهم . وكانت الرشوة ضاربة اطرافها بين الموظفين ، وقؤلف عورة من العورات التي شانت عهد دولة المنغ . وكانت المبالغ المقتطعة من ايراد الطبقة المنتجة ، باهظة للغاية .

بعد هذا ، هل يمكن لنا ان نرد المميزات التي اصطبغ بها الادب والفن ، في عهد المنغ ، طلوع الطبقة البورجوازية ؟ فالرواية والرواية الاجتماعية ، هي التي طبعت الانتاج الادبي ، اذ ذلك ، بينما اخذ الشعر بالانحطاط والتدهور . فالكاتب الصيني ونغ - تاو - كوين ، ترك لنا عام ١٥٥٠ ، صورة للانحطاط الذي كانت عليه الادرة ، اذ ذلك ، وذلك في كتابه : « على شواطئ النهر » ، كما اننا نرى الكاتب الصيني دون - تشانغ - إن ، يسخر في كتابه الموسوم : « الحج الى الغرب » من الطبقات وهزأ بهذه الملل والنحل الدينية . ومن جهة اخرى ، نرى تدهور في البلاد فن الرواية التي تعالج البطولة وفن المسرحية . هل يجوز بعد هذا ، ان رد الهبوط او الانحدار في النوع او الكيف ، وضعف النشاط الخلاق ، والميل للتقليد والمحاكاة ، وما هو فارغ اجوف ، الى حركة التصدير الناشطة التي تناولت مصنوعات القيشاني والماج والحلي ، الى بلدان كوريا واليابان والفيليبين واندونيسيا ، او الى هذه الغزعة القديمة للتقليد والاعراف ؟ هل يجب ان نرد الى التطور العظيم الذي تم للطبقة البورجوازية ، او لتقليد الاوروبيين ، هذا الاهتمام الشديد الذي يبديه المثقفون ورجال الفكر ، نحو الدرس وتحصيل المعارف العملية والتطبيقية ، في النصف الاول من القرن السابع عشر ، وفي خضم هذه الاضطرابات ، عندما استطاع الرحالة الجغرافي الكبير هاو - هانغ - تسو (١٥٨٥ ١٦٤٣) الكشف عن منابع

نهر البانغتسي الاصلية - وعندما تمكن من وضع الحد بين نهري سالوين والميكونغ ، كما استطاع رسامون فنانون مهرة ، وضع خريطة دقيقة للصين ، او عندما امكن نشر بعض موسوعات عام ١٦٠٩ و ١٦٢٨ و ١٦٣٧ ، ولا سيما الموسوعة المعروفة بينها بعنوان : *Tien kung k'ainru* التي وضعها سونغ - ينغ - هسنگ ، وهي عبارة عن معجم للحرف والمهن والصنائع ، وعندما استطاع ماينغ - تسو ، عام ١٦١٥ اختصار الايجدية الصينية وتخفيض عدد علاماتها او حروفها من ٥٤٤ حرفاً الى ٢١٤ ؟

ولد وانغ - يانغ - منغ في ٢١ تشرين الاول ١٤٧٢ ، على مقربة من مدينة نغ - بو ، من اعمال ولاية تشاي - كيانغ . فقد كان ابناً لاحد كبار ممثلي الثقافة في الصين ، عمل وزيراً وقوى وزارة الداخلية . اجتاز هذا الصبي بنجاح كل الامتحانات المفروضة ودخل موظفاً في الادارة . تاق وهو حدث ، للكمال الخلقى والادبي ، ولذا راح يدرس البوذية والطاوية ، وعزف عن العالم وزهد ، وراح يسكن في غار . ولم يلبث ان وجد حياة الرهبان البوذيين والطاويين النسكية مخالفة للطبيعة البشرية ، متعارضة ، تماماً مع واجبات الانسان الاجتماعية . فعاد من جديد الى الكونفوشية ، حوالي ١٥٠٢ - ١٥٠٤ ، وعين رئيس قلم في المحكمة الحربية بيكين . غير انه لم يجد في الكونفوشية سوى الجمود والصقيع وخساسة المادة . فالتعلم الرسمي الذي اعتمده دولة المنغ وكرسته الامتحانات الرسمية ، لم يكن سوى التفسير المادي او الوضعي للكونفوشية ، كما خرج من يد تشو - هي (١١٣٠ - ١٢٠٠) ، في عهد دولة السونغ ، فأبت دولة المنغ العودة اليه ، لان ظهوره سبق ظهور ال *Yuans* ففي تعاليم تشو - هي انت وو - كي الكائن بالقوة صدر عن تاي - كي الطاهر ، النقي ، الابدي ، الارلي ، السرمدي ، المطلق الوجود ، والكلبي الحضور ، السامي الفضائل ، الكلبي الحكمة . فحكمة الحكماء وفضيلة الاولياء مما من بعض فيض حكمته وفضيلته الساميتين . ولكن هذا الاله تاي - كي ، ليس قط باله شخصي او فردي ، فهو ليس بعناية الهية ، فهو اصل او مبدأ ، يكون وحدة مع المادة ، فهو يوجه المادة عن طريق لي ويوليا ما هي عليه من نواميس طبيعية وما لها من قاعدة تسيير بموجبها . يبحث لي النشاط في كي (المادة) ويوليا نسمة شبيهة بكنته غازية ، هوائية الشكل ، هذا الجوهر اللطيف للغاية . وبالتفاعل المتبادل بين هذين العنصرين : ين ، عنصر التركيز ، ويانغ ، عنصر الامتداد ، يتم خلق كل الكائنات . فالعناصر التي لا يمكن مسها او لمسها في كي ، تتكامل عماء الذي يستحيل بدوره كوناً ، محوره الثابت في الارض التي لا تتحرك ، يضم مع الارض السهوات والشموس والنجوم والبشر . وبعد ان يبلغ الكون تمامه وكاله يتفتت وينحل ليعود من جديد عماء ثم يستحيل الى كي . وهذان العنصران : كي ولي ، اللذان لا يتفصم الواحد منها عن الآخر ليعودان الى تاي - كي وهذا يعود بدوره الى وو - كي وهكذا يعيد الوجود دورته الى ما لا نهاية له . فنحن امام كوسمولوجيا خالدة ، ابدية تطورية ، خاضعة دوماً لتناموس

التكرار الابدي .

للانسان روحان : احدهما شعورية ، مادية ، حساسة ، تعود عند الموت الى الارض . اما الثانية ، فهي الروح العاملة ، المدركة تترج عند الموت بالهبول اللطيفة التي تتألف منها السماء . فليس من خلود فردي . فالحكيم يموت كلياً . هو يجد في هذه الحياة سعادته اذا ما عرف ان يستجيب للناموس الادبي . ولذا ترتب عليه الاتصال بالكائنات والتلاقي معها « ليطور معارفه وينمي افكاره » ، « ويقوم قلبه » ، « ولا يروض جسده » . وعلى مثال الانسان وشاكلته ، يجب ان يسود الانسجام والتناغم المجتمعي والعالم . فالعالم الاصفر هو صورة مصغرة للعالم الاكبر . فالتكامل الذاتي يولد الادارة الرشيدة في الاسرة ، في الدولة ، في الكون كله ، وهو الذي يخلق الدقة والانضباط بين فصول السنة ، ويؤمن للارض الغلال الطيبة والمحاصيل الوفيرة ، ويولي الانهر والسواقي ما هي عليه من نظام وحكمة . وقد عنى تشو - هي بعبارة « ادراك الكائنات » ، « النظر ملياً في كائنات هذا الوجود » ، والتبصر فيها بانعام نظر ودقة بصر ، وبعبارة اخرى ، الوصول الى معرفة ، عميقة صحيحة ، قبل « تنقية افكارنا وتحليصها مما يشوبها » ، قبل القيام باي مجهود ادبي ، لان الحقيقة الادبية التي يجب ان تكون قاعدة السلوك هي خارجة عنا . علينا ان نتبين الحقائق الادبية ، في المجرد ، قبل كل شيء ، ثم نأخذ بتطبيقها وممارستها في انفسنا . وهذه المعرفة الكاملة ، المعرفة لا يمكن ان تتوفر فينا او تتم لنا الا بدرس كتب الكمال والاطلاع على كل ما جاء به الاقدمون من شروح وابحاث .

يبدو لنا ان فلسفة تشو - هي كانت فلسفة ارسوقراطية . فهو يوجه كلامه وتعاليمه للمستنيرين اي المثقفين ، وبكلمة كمال ، انما قصد الكمال الذي لا بد منه لمن يضطلعون بمسؤولية الامور العامة . وهي فلسفة مرزحة 'مقعدة' ، تسبب الشلل لمن يتقبلها ، طالما تلزمه بالتعويل على كتب الاقدمين كما كانت ، من جهة اخرى ، مشبطة للعزم . ان اشتراط المعرفة الكاملة لبلوغ الكمال الادبي وادراكه ، عملية مربكة ، معجزة ، اذ يجعل هذا الكمال صعب التناول ، لا يدرك ولا يبلغ اليه . ولذا أعرض المفكرون عن هذه الفلسفة ورغبوا عنها وزهدوا بها وهزئوا من كل من يحاول الاخذ بها ووضعها موضع التحيز ، وراحوا يستسلمون لغرائز النفس البشرية . ويأخذ وانغ - يانغ - منغ بتصويرهم لنا قائلا : « مجموعة محفوظاتهم الكتابية تجعلهم يتيهون كبراً ، ووفرة معلوماتهم ومعارفهم تزيدهم سوءاً وشرأ ، وكثرة ما يحملون من فوائد تحملهم على الثرثرة ، وجمال الاسلوب الذي تم لهم يذهب في تزويق اكاذيبهم وتزهراتهم » .

وجه وانغ - يانغ - منغ ، عام ١٥٠٦ ، بعض انتقادات الامبراطور او - تسونغ بما حمل ليو - كين ، احد خصيان الملك ومن اقرب الناس اليه ، على الحكم عليه بالجلد ٤٠ جلدة وامر بزجه في غياهب السجن سنة كاملة ، ثم ارسله مأموراً في شعبة بريد في لونغ - تشانغ من اعمال

ولاية كوي - تشايو ، وهي ولاية تسرح فيها قبائل مياؤس نصف المتمدنين . وهناك اضطراب وانغ ان يبنى له بنفسه كوخاً من الآجر ، وان يزرع بنفسه بعض البقول . وقد جاءه الهاتف ، في



الشكل ٢٢ - الصين في عهد المنغ والتسنغ

اتحدى الليالي وافاض عليه من انواره وتعاليمه . أعيد وانغ الى البلاط بعد ان اصدر الامبراطور حكمه على ليو - كين بالاعدام واستأنف عمله في وظيفته كالمعتاد . تمكن عام ١٥١٩ من ان يخدم فتنة قام بها احد الامراء في مقاطعة كيانغ - سي ، استهدف بعدها للدسائس والمؤامرات

وسوء المعاملة ، كما تعرض لسيل من الاهانات والافتراءات الذميمة بحيث اصبحت حياته :سوأ بكثير مما كانت في سونغ - تشانغ . واذ ذاك توصل للكشف عن محور فلسفته الا وهو الادراك العقلي او الاكتناه *Liang tche* ، وذلك سنة ١٥٢١ ، ومات سنة ١٥٢٩ . فلم يترك لنا كتباً ، انما سلك نهجاً روحياً تجلّى بوضوح في رسائله الكثيرة واحاديثه . وقد ظهرت الاولى مطبوعة ، عام ١٥١٨ ، كما ظهرت طبعة كاملة لآثاره ، سنة ١٥٧٢ .

وهكذا نرى ان وانغ - يانغ - منغ ليس فيلسوفاً بالمعنى الحضري - يبحث في ما وراء الطبيعة والوجود ، انما هو رجل عملي ، استمد فلسفته من تجاربه الشخصية ومن تصرفه .

فهو يقف من الادبيات موقفاً مضاداً لتشو - هي ، ويرد كل شيء الى الاكتناه الشخصي . فالقاعدة او *Norme* هي في قلب كل منا « فالقلب هو القانون الساوي الذي لا ينقصه شيء » . ففي نظره كما في نظر باسكال ، القلب هو الانا باعتباره شخصاً مفكراً ، هو الفرد . فالقانون او القاعدة هو شيء متميز عن الكائن الخارجي ، فهو ملازم لعملية التفكير نفسه . « فادراك الكائنات » لا يقوم في رصد كائنات هذا الوجود ، بل يتمثل بمعمل شخصي شعوري الصميم . ان « انهاء المرء لمعلوماته الشخصية » لا يتم بدرس العالم او الكتب القديمة ، بل بالوصول الى المعرفة الادبية عن طريق احكام ادبية . فالقلب هو الحكم في ما لعلمنا او لشعورنا الداخلي من قيمة ادبية . فهو دليلنا الى ما هو واجبنا في الوقت الحاضر . فالعمليات الخمس التي تمثلها تشو - هي متتابعة ، اعتبرها وانغ واقعة معاً في وقت واحد . فهو عمل واحد ، وحيد يجري تحت مظاهر مختلفة .

فالانسان لا تتم له الحقيقة الادبية بواسطة العقل ، بل بمعمل اكتناهي ادبي هو الـ *Liang - tche* ، غير المتحيز ، الذي لا دليل عليه ، بل يشعر به ، ويمكن لكل واحد منا مشاهدته فينا . في كل انسان مثل هذا الاكتناه الادبي ، هذه المعرفة الفطرية (*Inné*) غير المكتسبة ، هي معرفة الخير والشر ، الحق والباطل ، هذه الحاسة تدرك الامور دون اعمال الفكر او الروية وتتصرف دونما حاجة ، للتعلم . هذا الاكتناه الادبي يصدر عن طبيعتنا ، فهو مباشر ، معصوم كالطبيعة نفسها بالضرورة ، عند كل الناس . فهو لدى السارق والقاتل ، ولو بشكل مستتر ، ولا يمكن لوجه من وجوه المعرفة ان يحل محله او ان يقوم مقامه . يجب ان تكون ثقتنا بهذا الاكتناه الداخلي لا حد لها ، كما علينا العمل باحكامه مهما كانت وكيفية كانت . فهذا الاكتناه الذي تم لي هو ذاته في من بلغوا الكمال . فاذا ما أجهدت النفس جيداً لاتين هذا الاكتناه الذي حصل لي ، فلامح الكاملين لم تعد فيهم بل في . فالأكتناه هذا الـ *Liang - tche* لا يتمثل بفعل او بمصدر الأكتناه فحسب ، بل ايضاً في مبدأ الأكتناه بالذات ،

هو القلب ، هو القاعدة السارية ، السماء بالذات مبدأ الكمال الذي يجب ان نحققه في ذواتنا ، هو اكتناه الجنس البشري ، هو اكتناه الكون . فالمعرفة هي ادراك ، هي فهم طبيعة العمل الادبي ، هو التصرف وفقاً للاكتناه الادبي . لنعرف ، يجب ان نتعرف ، ان نختبر . وليستطيع المرء التأكيد بان لفلان البر النبوي وبانه تم له العرف الاخوي ، يترتب عليه ان يكون مارس التقوى البنوية ، وخبر الفرق الاخوي ... لا يكفيه ان يردد عن ظهر قلبه بعض كلمات او عبارات حول التقوى البنوية ، او حول الفرق الاخوي . كذلك ان معرفة الألم تتطلب ان يكون المرء تألم ومر بالألم .

ولكي يحصل لنا الاكتناه الادبي، يجب كبح رغائبنا والتغلب على كبرياتنا . يجب ان تتحلى بالتواضع ، « هذا الاستعداد الداخلي الذي يميلنا دوماً على استعداد للاعتراف بخطايانا » . من الضروري للمرء ان يعتكف على ذاته ، وينطوي على نفسه ، وان يطرح جانباً الافكار الباطلة وان يكبح فيه جماح الهيلة ، وان يتفادى تشتت الفكر والانتباه ، يجب ان يتم له تهيؤ خاص لصنع الخير واتيان البر، وان نسمى جهداً للكشف في دواخلنا عن الحقائق التي جاءت على ذكرها وتكلمت عنها كتب الاقدمين . ان فحص الضمير ومجالدة النفس والكفاح الروحي ، امور يجب الا ننقطع عنها ابداً . يجب على المرء ان يحاول الكشف عما في نفسه من حب الذات والجشع فيبحثها من الاساس ، باسرع ما يمكن . علينا ان نتمرس بهذه العملية ونحن نقوم بواجباتنا العادية اليومية ، اذ ان كل عمل هو فرصة مؤاتية لتحقيق الاكتناه الادبي في داخلنا . هذا هو الضروري ، اللازم . وهكذا لا لزوم بمد ، للعزلة ، ولا لجمع المعارف من الكتب ، ولا للاهتمام باقوال الناس وآراء الغير .

قام وانغ - يانغ - منغ بعملية تحرير ، التحرر من كتب الاقدمين ، التحرر من تعاليد القدامى واعرافهم المتوارثة ، التحرر من نظريات الدولة وآراء السلطة ، التحرر من التسلسل الاجتماعي وتراپطه الاقطاعي . باستطاعة كل امرء ان يحقق الكمال ، مهما كان شأنه او وضعه او الدروس التي تمت له ، لان الكمال لا يتوقف على كمية المعارف ، بل على العزم بالجهر بالحقيقة وبالسر ، هذا الشعور الذي يتوفر لكل واحد منا، وهذه الفلسفة التي قال بها وانغ - يانغ - منغ وعلم ، كان باستطاعتها ان تصبح لدى كل شخص في هذه الصين المتمسكة تمسكاً اعمى بتقاليد الاقدمين ، نقطة انطلاق نحو التقدم والتطور الذي لا حد له ، اذ بتحريرها الحكم الشخصي في الانسان ، تحرير للشخصية البشرية .

تكاثر عدد تلاميذ وانغ - يانغ منغ ومريديه ، وبلغ بعض منهم شأواً بعيداً بما تم له من شهرة واسعة وذكر بعيد ، فاصبحوا بدورهم معلمين ومصالحين ولهم تلاميذهم ومريدهم . وانتشرت تعاليمه في الصين حتى سنة ١٦٣٠ ، الا ان تلاميذه لم يلبثوا ان اصطدموا بخصيان الامبراطور وبما لهم من سلطة وسلطان . وهكذا بقيت تعاليم تشو - هي الاساس او المحور

الذي قامت عليه الامتحانات . وهكذا كتب لفلسفة وانغ - يانغ - منغ ان تبقى الى جانب الحياة ، في الظل .

ان بروز البورجوازية في الصين وتجليها على هذا النحو اضفى طغيان الخصيان وصولتهم على النهج السياسي خلال دولة المنغ ، مزيداً من الشدة والعنف . فقد كانت هذه الدولة ، في القرن السادس عشر ، في إبان انحطاطها . فلجناح الحريم في البلاط الامبراطوري تأثيره البارز في هذا المجال ، اذ كثيراً ما آل الامر ، في البلاد ، الى اباطرة ، جهلة ، متخشين ، عاجزين ، فعمدة لا قدرة لهم على شيء ، يقضون حياتهم منكفئين في زوايا البلاط بين الخصيان والنساء ، يتربصون بهذه المشاكل الكبرى التي تقض مضاجعهم ، ممثلة بهذه المناقسات الحادة ، الشائكة بين زوجات الامبراطور ، اذ كان قانون الإرث حقاً ، كما رأينا عند المسلمين ، مبها مطاطاً ، غير واضح البتة . فكان الامبراطور يختار خليفته ووريثه الشرعي من بين اولاده العديدين الذين انجبتهم له زوجات عديدات وسراثر اكثر عدداً ، فنجم عن هذه السياسة صراع هائل بين نساء الحريم ، اذ تحاول كل واحدة منهن ان تجعل من ابنها الوريث العتيد ، وبين الخصيان الذين راحوا يتحيزون ، هم ايضاً ، لهذه او لتلك من هاته النسوة ، وفقاً لميلهم لهذا المرشح او لذاك . وكثيراً ما قضت مصلحتهم توحيد كلمتهم ، فتتفق مشاربهم على معاضدة من من ابنا الامبراطور يكون العُوبة بين ايديهم ، يوجهونه الوجهة التي تلائمهم .

فالنظام الامبراطوري كان نظاماً استبدادياً : فلم يكن للقانون ، في الصين ، ما له في اوروبا من قيمة وحرمة ، اوروبا وريثة القانون الرماني وحاضته . فكل من من الصينيين اضطلع بمسؤولية او سلطة سياسية ، كان اقل اكتراثاً بالقانون واحتراماً له منه بالاخلاقيات والمصلحة العامة . ومثل هذه الذهنية كانت تتسع اكثر للتقدير الشخصي ، للكيف والاعتباط ، وبالتالي للاستبداد . فلكي يلعب الصيني دوراً بارزاً في البلاد يكفيه ان يلقى أذنًا صاغية لدى الامبراطور . هذه هي القاعدة الذهبية ومفتاح السر . اما من جانب الحريم ونساء الامبراطور ، فمن كان اكثر اتصالاً بالامبراطور ، مكنته حظوته ان يقابله متى اراد وفي الوقت الذي يريد ، كان هو صاحب النفوذ الاكبر والمسيطر الفعلي . فمن يتمتع بمثل هذه القدرة اكثر من الخصيان ؟ ولذا رأى عدد كبير من رجال الفكر وحلة الثقافة من ابنا الطبقة الوسطى ان خير ما يفتح امامهم باب الترقى والتقدم السريع في الوظيفة هو ان يتخذوا برضاهم ، طوعاً واختياراً من الخصاء سبيلاً لهم للعيش في البلاط . وبفضل ما كان لهم من ثقافة وعلم استطاعوا ان يلعبوا بالفعل ، دوراً بارزاً في ادارة الامبراطورية التي راحت فعلاً ، فريسة الخصيان بعد ان وقعت تحت سيطرتهم .

فما يكاد الواحد منهم يرقى الى الوظائف المهمة او المراكز المفتاحية ، حتى ينصرف لتأمين

المنافع له ولاعضاء اسرته واقاربه . فيؤلبون حولهم الزبائن والانصار ، ويوزعون المنافع والوظائف على خاصتهم ، وبذلك تتوفر لهم ، في البلاط وخارجهم ، من القوة وبعُد النفوذ ، ما يجعل الامبراطور نفسه يوجس شراً منهم ويخشى جانبهم . فالنفوذ العظيم الذي تم للخصيان جاء يخدم ، في المدى البعيد ، الطبقة البورجوازية ويعمل على تطويرها وتقويتها في البلاد . ولذا اخذ امراء العائلة المالكة وكبار رجال الدولة يسيجون حول مصالحهم ونفوذهم بالاكثر من الانصار يتخذونهم من بين المثقفين من ابناء الطبقة الوسطى ، فيحملونهم على العمل في خدمة الدولة . وهكذا راحت الدولة فريسة الصراع بين الخصيان وبين طبقات المثقفين ، والامبراطور من الوسط ، فمعظمهم تخرج بفلسفة لوانغ - يانغ - منغ ويعملون بتعاليمه مناهضة منهم للخصيان المستأثرين بالسلطة والمحسوبين من انصار تشو - هي المدافع عن التقاليد القومية ، وعن السلطة الشرعية .

ما زاد في خطر هذا الصراع هو ان امراء الدم او امراء
 الازمة الاجتماعية والسياسية
 ازدهار البوذية والبطاوية
 العائلة المالكة وكبار رجال الدولة والخصيان كان تحت
 تصرفهم قوى خاصة بهم باعتبارهم اسياد الارض ومالكها .
 وقد حاولت دولة المنغ تقوية مركزها وترسيخ هيبتها بتوزيع الاقطاعات على ذوي القربى
 والانصار . فقد اقطعهم اراضي شاسعة اعفوها من الضرائب والسخرة ، وهي سياسة استمروا
 على الاخذ بها بالرغم من مساوئها طيلة القرن السادس عشر . وهؤلاء الاقطاعيون الذين كانوا
 اسياداً في اقطاعاتهم يتولى ادارتها باسمهم وكيل عام ، كانوا ، هم انفسهم ، يقومون بامور القضاء
 ويضبطون سير الامن ، يعمل تحت اشرافهم وتوجيهاتهم حكام ونظار حسبوا عليهم ، ألفوا
 على مر الزمن ، خطراً على العرش .

وقد راح الفلاحون بالطبع فريسة هذا الوضع . كانت تكاليف الدولة بارتفاع مستمر . هنالك الوف من الفتيات يعملن في البلاط وينفقن الملايين على الاسيذاج والزنجفر ، كما كانت مرتبات عالية تدفع لاعضاء الاسرة المالكة وكبار الموظفين ، عدا عن مبالغ طائلة تذهب هدرأ بين الائتلاف والاختلاسات ، ومبالغ طائلة تهدر على الاعمال والاشغال ، وعلى الجيش الذي بلغت نفقاته ٢٠ مليون تايل *tuels* ، مع العلم ان الموازنة العامة لم تكن عند اعتلاء هذه الدولة العرش سوى مليوني *taels* لا غير ، كما ان الجيش يستهلك اكثر من نصف واردات الضرائب بين ١٦٢٥ - ١٦٥٠ ، عدا عن رسوم احتكار الملح الذي نفر منه الشعب في الصين نفور الفرنسيين من ضريبة الملح *gabelle* في فرنسا . وقد اخذ الخصيان والموظفون يغالون في مطالب واشباع رغائب لا حد لها ؛ واخذوا يفرضون رسوماً من عندهم ويطالبون باكراميات عالية . وما زاد في احراج الفلاحين توزيع الاملاك الشاسعة واقطاعات وأخاذات تعرضوا معها للطرد من الاراضي التي كانوا يستغلونها ، فيرزحون تحت الديون مما يضطرم لترك مزارعهم والعيث فساداً في البلاد بعد ان يؤلفوا من بينهم عصابات تسلب المارة ، او ينقطعوا لاعمال

المقرضة . وهكذا مع ازدياد عدد السكان واتساع الاقطاعات ازداد ، في البلاد ، قطاع الطرق وشذاذ الآفاق والخارجون على القانون .

قد يكون بالامكان رد هذا الوضع الى انتشار نفوذ البوذية والطاوية في الصين ، بعد ان امتدت تعاليمهما الى الطبقات الشعبية ، بحيث ان الحصيان رأوا انفسهم مدفوعين ، نوعاً ، الى تخصيص مبالغ طائلة لتشييد معابد بوذية ورفع هياكل في المزارات واماكن الحج الرئيسية . من الثابت ان الجماهير الشعبية كانت تلوذ بالبوذية لما كانت تجد فيها من سلوى وسلوان بعد ان قالت بعقيدة الـ *amidisme* . فالبوذية البدائية (الاولى) كانت لأدريّة (*agnostique*) . فهي مجرد اصول تقنية توصل انسان بشري للكشف عنها ، هو بوذا تشاكياموني ، ليكون بمنجاة من آلام هذه الفانية وعذاباتها ولينفادي هذه الحلقات من سلسلة التناسخ والتقمص . فلکسي نتجنب الألم علينا ان نتجاهل الاهواء والرغبات ، وان نتمسك بالحياة حتى نبلغ فناء الشخصية فينا بالدخول الى هذه الطوبى *nirvana* (السعادة) وهي تعاليم صعبة التحقيق لهؤلاء الناس العطاش الى هذه المعزيات الحسية . وهكذا فتعاليم ماهيانا التي امتدت من البنغال الى التبت لتتوغل في الصين واليابان ، رأت في بوذا الها ، هو الحكمة الابدية ، كلي الحضور وكلي القدرة ، يتضاعف ويتكاثر الى ما لا حد له في الزمان والمكان اذ يخلق على شاكلته ومثاله بوذات *Bouddhas* ، وبوذات المستقبل *Bodhisattvas* او *Bouddhas à venir* . وعندما تتم لاحد الاتباع مشاهدة احد البوذات مشاهدة رمزية ، تستحيل هذه الرؤيا الى *Dhyani-bouddha* اي الى شخصية جديدة هي « اميدا » اي كلمة بوذا المتجسد ، اله الرحمة ، اله المحبة ، مخلص العالم ومنقذ البشر الذي يغطي باستحقاقاته اللامتناهية ، كل خاطيء يضرع اليه تائباً مستغفراً ، فيبره بنعمته ، وينقذه من هذه التقمصات المتتالية ، ويجود عليه بالسعادة ناعماً الى جنبه ، بالسعادة السهاوية . وقد لاقى الاعتقاد اميدا ، رواجاً عظيماً في الصين ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، في صورة الانثى التي تسربلها ، هي : كلون - إن ، الحكيمة ، الرؤوم ، التي طالما صوروها بصورة ام باسطة ذراعيها وعليها طفلها ، لهذه النسوة اللواتي يرغبن في ان يجود الله عليهن بمولود .

اما اتباع الديانة الطاوية ، فقد عملوا على نشر كتبهم المقدسة ، في هذه الفترة الممتدة بين ١٥٢٢ - ١٥٦٦ ، حتى ان الامبراطور تشي - تسونغ اخذهم تحت جناحه ووضعهم تحت حمايته ، مدفوعاً على ذلك بعامل الجشع والطمع اكثر منة تذوقاً لهذه التعاليم التي علم بها لاو - تسي (٥٧٠ - ٤٩٠ ق . م) فالطاو هو القيوم ، الكائن بذاته ، الابدی ، اللامتناهي ، الكلي الحضور الذي لا يقع تحت الحواس . فهو يفيض من براءته *Tei* التي تتخذ في تفاعلها شكلين متناوبين هما : ين ويانغ ، وتبدع كل الكائنات المحسوسة التي هي امتداد للطاو . فالطاو هو في كل شيء ، وكل شيء فيه . فالحكيم هو الذي يحاول ان يتفادي كل ما يتعرض له الانسان من آلام وعذابات ، ويخضع له من تبدل وتحول ، وهذه السلاسل من صروف

أوصروف متصلة الحلقات التي تتألف من *yang* و *yin* ليعود إلى حالته الأولى ، إلى البساطة الأولى ، إلى الفناء . فهو يقتل فيه كل فكرة ، ويفقده كل معنى أو صورة للعالم الخارجي حتى فكرة وجوده بالذات ليدوب في الطاو . لا ، لم يكن هذا السمي السامي نحو الكائن المطلق هو الذي كان يجذب إليه معظم اتباع الديانة الطاوية ، حتى والامبراطور نفسه . ولما كان كل شيء هو واحد في الأصل وبمئاته البعض في الطاو ، فقد نظر الناس إلى كهنة الطاوية نظراً إلى جماعة تم لهم الكشف عن حجر الفلاسفة الذي له القدرة على تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن كريمة أي إلى ذهب وفضة ، ونسبوا إليهم اكتشاف أكسير الخلود . ما أشده من أغراء لشعب تتلاطمه الاضطرابات الاجتماعية والسياسية ، الذي يمثله الإله الرئيسي تساي - تشن ، إله الفن والثراء ، الذي قامت له الهياكل في كل مكان ، لشعب كان ينشر خزفياته الصينية وتعاويذه ومطرزاته وتمنياته لحياة مديدة ، إذ إن صلاة التبرك تفعل من نفسها !

مثل الشطر الثاني من عصر المنغ حقبة اشتدت فيها تفكك الامبراطورية وانحلالها
 في القرن السابع عشر : المنشو : الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية .
 استطاعت قبائل التتار التي لا تزال على بداوتها ، غزو مقاطعتي تشانسي وتشنسي فاطلت على ابواب بكين ، عام ١٥٥٠ ، بينما كان القراصنة اليابانيون يعيشون فساداً على شواطئ تشا - كيا - نغ وفو - كيان وكوانغ - تونغ ، وبلغوا نانكين عام ١٥٥٥ ، ونزلوا ، بين ١٥٥١ - ١٥٧٠ عند مصب نهر اليانغ - تسي .

امعنت الامبراطورية في الانحلال ، في مطلع القرن السابع عشر ، بعد ان استحالت المنافسات بين الحصينات ورجال الفكر ، إلى حوادث دامية ، بعد الذي استهدف له الفريق الأخير من فطائع وقظاظات الحصي واي - تونغ - كيان . فآلفوا من بينهم منظمة أو حزب خاص للدفاع عن انفسهم تحت ستار أكاديمية ، هو حزب تونغ - ين الذي قام ببنه وبين الحصينات خصومة عنيفة وعراك هائل ، وبالتالي ، ضد الحكومة التي كانوا يمثلونها . اندلعت الثورة وامتدت إلى كل مكان ، بين ١٦١٩ - ١٦٤٠ ، وقام الاقطاعيون بؤلفون جمعيات سرية لمقاومة نفوذ الحصينات وسطوتهم . وعلى هذا النحو سار الفلاحون والمزارعون فأبوا دفع الضرائب المترتبة عليهم ، وثاروا على الاخص ضد ابتزازات الموظفين وتعسفاتهم وضد المضاربات التي كان يقوم بها المضاربون البورجوازيون الذين كانوا يستغلون ما لهم عليهم من ديون لينتزعوا منهم املاكهم ومقتنياتهم . وقامت عصابات من الفلاحين عانت فساداً في الريف . ووضع قادة الجيش يدهم على مرتبات الجنود . ولكي يهدئوا من ثورتهم وهيجانهم كانوا يقومون معهم بعمليات النهب والسلب والاستباحة . فكان لزاماً على الامبراطور ان يرسل قوى يطمئن إلى ولائها ضد هؤلاء « السلاخين » (١٦٣٢) . فاذا بالحرب الاهلية بالفوضى تسود البلاد في الوقت الذي كان يتهدد حدود الصين من الشمال اعداء يتربصون بها الشر .

قام امام ابواب الصين من الشمال قبائل تنغوس البدوية وهي قبائل من المنشو اخذت في

النصف الاول من القرن السابع عشر، باسباب الحضارة الصينية. وهكذا ألفت هذه القبائل الى الدعة واخذت تنصرف للاعمال الزراعية، في هذه الممتلكات المحصنة والقرى التي يسيطرون عليها، واستطاع واحد من زعمائهم البارزين هو نورهاشو (١٥٥٩ - ١٦٢٦) ان يوحد من هذه القبائل وينشئ من مجموعها دولة. فاخذ عن دولة المنغ تنظيمهم للحدود، وقسم المنشو الى ٨ وحدات ادارية انتظمت عسكرياً تحت ألوية، ضمت الى جانب النورهاشو : المغول والكوريين، وصيني منشوريا. واستطاع ابن نورهاشو المدعو تاي - تسونغ ان يشكل، عام ١٦٣١ حكومة وان يقيم في البلاد ادارة مدنية وعسكرية، وفقاً للنموذج الصيني، وتبني نظام الامتحانات والايديولوجيا الكونفوشية في السياسة. وكان يقيم باعتباره ابن السماء، بكل ابهة وفخامة، الاحتفالات الامبراطورية، على شرف الزراعة. وقام عدة مرات بغزو تشي - لي يشد من ازره صينيون، وجاء بصحبتهم عدد بكين سنة ١٦٢٩، و١٦٣٤. توفي سنة ١٦٤٥ دون ان يُعقب، فانتخب المنشو خليفة له ابن اخيه تشوان - تشي الذي حكم تحت وصاية النبلاء، حتى عام ١٦٥١.

وفي هذه الفوضى، قام زعيم شعبي يدعى لي - تسن - تشنغ، بثورة في مقاطعة تسو - تشوان (١٦٣٧) قادته بمساعدة الفلاحين، الى بكين. واذ ذلك اضطر الامبراطور تشوانغ - لي - تي الى اعتزال الحكم والتنازل عن العرش وانهى حياته منتحراً، عام ١٩٤٤. واذ ذلك، قام الجنرال وو - سيو - كوبي المكلف بالدفاع عن الحدود يستنجد بالمنشو. فقد المحذر هو نفسه محتداً، من اسرة منشورية، وأيقن انه مها ساءت الامور تحت سيطرة المنشو، فلن يكون وضعه بأقل مما هو عليه وانه سيبقى قائداً. فاردفه المنشو بفرقة من ٧٠٠٠ محارب. ومن جهة اخرى، لم يتمكن لي من ان يجمع حوله رجال الفكر والثقافة الذين كانوا يكرهون الفلاحين، والذين لم يكونوا ينظرون شراً الى المنشو الذين كانوا من اتباع كونفوشيوس، لاغش فيهم. وبعد ان انهزم مرتين، اضطر الى اخلاء بكين ثم جرى قتله. وراح وو - سيو - كوبي، يحاول آتئذ اقناع المنشو بالانسحاب، الا انهم، على عكس ذلك، توافدوا باعداد كبيرة. واذ ذلك، نودي برتشوان - تشي امبراطوراً، فكان اول ملوك دولة تسنغ (١٦٤٤). وقام المنشو بتدوين كل الصين. وراح الذين نجوا من دولة المنغ ينتخبون لهم امبراطوراً في شخص هوانغ - كوانغ، وألوا لهم حكومة في نانكين، وبذلك استمرت المقاومة في الجنوب وقوامها مسلمو كان - سو الثائرون يقودها الامبراطور منغ - كواي - وانغ الذي اعتنق المسيحية على يد القرصان كوكسنگا، المولود من اب صيني وام يابانية والذي تمت له السيطرة على فورموزا وعلى نهر يانغ - تسي. وقد جسم المنشو التعاليم الكونفوشية المستقيمة الرأي. واذ كانوا يفوقون الصينيين قوة بما تم لهم من خيالة ومن مدفعية قوية سبكا لهم اليسوعيون في بكين، استولوا على نانكين عام (١٦٤٥)، وكنتون (١٦٥٠) واصبحوا مسيطرين بالفعل على الصين كلها. واضطر حفيد كوكسنگا ان يقدم خضوعه عام ١٦٨٣. وفي سنة ١٦٦١، توفي تشوان -

تشي بعد ان عين خليفة له على العرش ، ابنه الثالث كانغ - هي الذي حكم في بده عهده تحت وصاية مجلس وصاية تألف من بعض النبلاء حتى عام ١٦٦٧ .

نظم المنشو ، الصين على اساس عرقى بحيث أمتوا سيطرتهم التامة
سيطرة المنشو العرقية
على الصينيين المغلوبين على امرهم ، وبذلك تفادوا الذوبان والانصهار
فيهم . فحملت الالوية المنشوية الى الصين وعهد اليها بحراسة المواضع الاستراتيجية . وطلب من
المنشو ان يحافظوا على طابعمهم العسكري ، وحظر عليهم تعاطي اية مهنة غير مهنة عسكري
مزارع ، كما اشترطوا ان يكون جميع ضباطهم من العسكريين وكذلك الحكام الاداريين .
وهكذا برزوا بوضوح في مرتبة اعلى من الصينيين . وأعفى المنشو من دفع الرسوم والضرائب
والسخرة فوقعت اعباؤها كلها على الصينيين ، وفتحت امامهم ابواب الوظائف العامة ، بينما بقي
الصينيون خاضعين لنظام الامتحانات . وبدا على المنشو ازديادهم للدرس والثقافة والآداب .
وقام الى جانب كل موظف صيني ، ضابط منشو عهد اليه السهر على مصالح الفاتحين ، وكانت
اوراق الدواوين تحرر بالمنشوية والصينية . وقد روعي بشدة المحافظة على طابع جيش فاتح ،
يستثمر على هواه ، بل بدأ تم له فتحها بجد السيف . وهذا الجيش الفاتح الغازي ، شكل عرقاً
اسمى بكثير حرصوا كل الحرص على صيانة نقائه . وقد حظر بشدة على المنشو الزواج من
صينيات . وصدر عام ١٦٤٥ ، قانون ألزم الصينيين الاحتفاظ بمجديلة الشعر المتدللة من
الرأس . وهكذا « بقي المجتمعان البربري والصيني متميزين ، متباينين الواحد عن الآخر ، لا
يختلطان ولا يتأزجان ، وبقيت جماهير الفزاة الفاتحين تتجاهل كلياً حضارة لا تمها بشيء »
وزاد تباين نهج الحياة بين الجانبين شقة الخلاف بينها تباعداً ، كما باعدت بينها سماتهم الخارجية ،
ومساق التصرف عند كل فريق . فبعد الفتح بوقت طويل كان الغرباء الطارئون يميزون في بكين ،
المنشو البرابرة بشواربهم ، « اشداء بناكبهم العريضة ورقابهم الغليظة كرقاب الثيران واحناكهم
النافرة واسنانهم كاسنان أكلة اللحوم » يدفون من امامهم بازدياد كلي الصينيين المرء الخشيش .

شعرت الصين في الصميم بألم الصدمة التي نزلت بها . فبعد دخول
المنشو بكين ، راح ألوف من رجال الفكر والثقافة والموظفين
الاقطاعيين ينتحرون فيضعون حداً لحزبهم بوضعهم حداً لحياتهم :
استلام الصينيين
المنشو اداة الثورة وعدتها
فرقاً على ما آلوا اليه من مهانة وضعة شأن . وقد اخذ الصينيون يرضخون ، مع الزمن ، للقدر
الفاشم كما اخذ جماعة رجال الفكر يلوون على بعضهم البعض ويتعاطفون . ففي نظر الصينيين
يستمد الامبراطور حقوقه من الحكمة . فاذا ما حاد عن الحكمة وخرج عن جادتها ، كان ذلك
دلالة من السماء على عدم رضاها وشجبها لما يقع في البلاد ، وذلك بتأليب المصائب على
الامبرطورية وازال القصاص بالامبراطور ، بجمل الشعب على الاعراض عنه والتحول ضده .
فمن نهض محاولاً نزع التاج عن رأس الامبراطور ، ونجح في محاولته هذه ، كان ذلك ايذاناً من

الساء واعلاماً منها بانها اختارته لانفاذ البلاد فتجب طاعته والالتفاف حوله . وهذه القاعدة جرى تطبيقها على آخر امبراطور من سلالة المنغ ، كما يجب تطبيقها على اول امبراطور من اسرة تسنغ . ومن جهة اخرى فقد سبق لكونفوشيوس وقال : « من لم تكن له خدمة في الحكومة وجب عليه الا يتدخل بشؤونها ولا ان يتناول بالنقد تصرفاتها والتدابير التي تتخذها . فعلى الصيني ، ما لم يكن موظفاً ، ان يهتم بما لعائلته وبما لامور مهنته ، والا يبالي باي شيء آخر ، وهكذا ضعفت في البلاد الروح الوطنية ومفهوم الدولة ، مع ان الشعب كان يمحش بالروح القومية ويكنّ للأجنبي مقتاً عميقاً وكرهاً شديداً .

وقد عرف المنشو أن يفوزوا برضى الفلاحين بعد ان فرضوا احترامهم بفرض النظام في البلاد واعادة الامن الى نصابه ، فضبطوا مالية الدولة وقضوا على نظام الاقطاع فاكتمت كانغ - هي بالاحتفاظ بـ ٣٠٠ فتاة في بلاطه . كذلك الفى الاقطاعات ووزع الاراضي التي تألفت منها هذه الاقطاعات على اعضاء الاسرة الامبراطورية ، كما وزع بعضها على ابناه الأولية ، وبذلك اصبحت ضمن املاك الدولة . فالذين استفادوا من هذا التوزيع لم يصبوا اسياداً بل اصحاب ايراد ثابت ، فاضطر الواحد منهم ان يؤجر ارضه لمتعهد عام يؤجر من ضمنه مزارعين يأخذون باستثمار الارض برضاهم . وقد اعترف القانون ، في آخر الامر ، لهؤلاء المرابمين بحق تملك شرعي لسطح الارض ، مع بقاء حق الملكية لصاحب الارض . وهكذا رأى الفلاح نفسه مدعواً لتحسين ارضه كي يزيد من دخله .

كان من نتائج هذه السياسة واستتباب الأمن في البلاد ان ازداد عدد سكان الصين ، وهي زيادة اربت بالطبع على معدل نمو المواد الغذائية ونسبة الانتاج . فمن ١٠٠ مليون نسمة بلغ عدد سكان البلاد عام ١٦٦١ ، تحت تصرفهم ٣٥٣ ، ٥٣١١ ، ٥٤٣١١ لي من الاراضي الزراعية ، ارفع هذا العدد ، عام ١٧١٠ ، الى ١١٦ مليون نسمة يتصرفون بـ ٦٤٦٣١ ، ٦٣٢ لي . ولكي تأتي النسبة بين مساحة الارض المزروعة وعدد السكان طبيعية ، كان من اللازم ان يتوفر لهم ايضاً ١٢ مليون كنعغ . ولذا اخذت الزراعة في الصين تصطبغ بالصفات العصرية التي تتسم بها اليوم زراعة الحدائق والبستنة ، كما اخذ المطبخ الصيني يستعمل كل ما يصح استعماله او يصلح للاكل ، حتى مرببات العناكب .

ويبدو ان البورجوازية التجارية والمالية حققت هي الاخرى اغراضها ، اذ اخذ فانغ من مدينة ننج - بو ، يؤسس في عهد الامبراطور كنعغ - هي ، في بكين ، المصارف الاربعة الكبرى التي كانت لاتزال مزدهرة اعمالها ، مضطلمة بنشاطها ، في مطلع القرن العشرين . كذلك اخذت نقابات عمالية تضع منذ ذلك الحين ، قوانين خاصة بها نظمت من المهنة . فاحتكر حاك الاقمشة الحريرية ، مثلاً ، لانفسهم صنع الاقمشة ، الفاخرة ، بينما تركوا لمن يرغب نسج الحرائر العادية ، ولم يخضعوا للاحتكار ، فافسحوا بذلك مجالاً للمزيد من الكسب لألوف من الاسر القروية والفلاحين وسكان المدن ، للعمل بالحياكة في منازلهم . كذلك يبدو ان هذه الصناعة نزعت ،

منذ ذلك الحين نحو التركز . ويبدو كذلك ان صناعيين لهم نشاطهم كانوا يميلون طلباتهم لرؤساء الورش الرقيقى الحال ، وهؤلاء العمال الذين يعملون في منازلهم .

هل ادى فتح المنشو ، ياترى ، الى احداث ثورة اقتصادية واجتماعية في البلاد ؟ وهذا التبدل في النظام السياسى ، هل كان من نتائج ترجيح السيطرة نهائياً للاقتصاد النقدى ولهذه الرأسمالية التجارية على النظام الاقتصادى السىادى او انه ادى بعبارة اخرى ، الى تكريس انتصار البورجوازية الصينية على الارستوقراطية التى خفض فتح المنشو للبلاد من جانبها كثيراً .

اما المثقفون ، فقد بادر كنىخ - هسى للاعراب عن تقديره المنشو اتباع جيمون للكونفوشية التشوية . فالتفسير الذى وضعه لها تشو - هسى الذى جاء في مصلحة السلطة ، بقى التفسير المعتمد والمعمول به لدى الحكومة ، كما بقى اساساً للامتحانات الرسمية . وهكذا اخذوا يتناسون بسرعة تعاليم وانغ -يانغ -منع بحيث ان المعلم الذى اخذ دوماً بتعاليم القدامى وبالواجبات الاجتماعية ، زغب تلاميذه ، منذ ١٦٣١ ، في ان يتعلموا كل شيء من ليانغ - تشى ، فتاهوا في سفساهم وترهاتهم . حافظ المنشو على نظام الامتحانات كما اخذوا بالنظام الادارى المسلسل الذى بقى ملكاً مشمرا للادباء والمثقفين . وبعبارة اخرى ، عمل النظام الادارى لمصلحة الفاتحين . وفي سنة ١٦٥٥ ، رجعت كفة الادباء على الخصيان بشكل لا يدع مجالاً للشك ، فعظز على هؤلاء التدخل بالشؤون العامة ، تحت طائلة الموت ، مما ادى الى طرد عدد كبير من الخصيان وصرهم من المراكز التى كانوا يحتلونها . صحيح ان بعضهم استطاع الحصول على وظائف ومراكز في الدولة انها لم تعد لهم فيها الكلمة الاولى .

ومع ذلك لبث المثقفون خاضعين لتعميم تشو - هسى المرزحة والمقعدة ، كما لبثوا ، شأن من غلبوا على امرهم ، يتحرزون جداً من التفوه بشيء يسيء الى الفاتحين . وزالت منهم كل مقدرة او طاقة على الخلق والابداع . فالكونفوشية التشوية قضت تماماً على كل اثر لهذه المثالية البوذية والطاوية التى عرفت ان تلهب خيال الصينيين . فالتشوية في خدمة الفاتحين نزعتم الى ان تجعل من الصين آلة ادبية عمياء لا تفكر ولا تعمل بذاتها ، بحيث يأتى كل نشاط تقوم به وفقاً لقوالب مهيأة من قبل ، افرغتها السلطة على الشكل الذى تريد . فكانوا يلاحقون بعنف لا يعرف الشفقة كل مظهر من مظاهر الحرية الشخصية ، مما ادى الى تجميد الفكر وقهقر الفن . وشجع المنشو مدرسة بونجيفا التى كانت تحبذ « تصوير رجال الفكر » . وقد هدف هؤلاء النظريون الى القضاء على كل تمييز بين التصوير والخط : فلم يعودوا يلبهوا بالطبيعة بل راحوا يتلدون تقليداً حرفياً ، النسخ المسحوبة عن آثار اساتذة الفن القدامى ، بنصها الواحد كما جاءت في الصورة المعبرة عنها . والاساليب التى استعملها اساتذة عصر تانغ وسونغ ، جرى التعبير عنها بطرائق واساليب ظهرت في موسوعة تصويرية بعنوان : « مبادئ تصوير حديقة حجبها

حجم حبة خردل» التي تم نشرها عام ١٧٠١. وهذا الأثر الفني لم يثر الإعجاب الا بنسبة ما فيه من محاكاة لهذه الفوارق الملحوظة في رسم المخطوط في المخطوطة. وهكذا تخلوا عن هذا المدى الجمالي الشاسع للفن الصيني فنحن امام ثورة فكرية او ذهنية.

بقي شكل واحد من اشكال الفن يبعث الرضى والارتياح استانس له الفاتح البربري، يتمثل في صناعة الخزفيات، هذه الصناعة التي عرفت ان تحافظ على نقائها وعلى تقنياتها محتفظة بقيمتها العالية.

والادب نفسه اصبح وسيلة من وسائل الدعاوة واسبابها. فالقصص والمسرحيات التمثيلية راحت تمجد الفضيلة وتشجب الرذيلة بشرط ان تكون الامثلة المضروبة تعمل على خدمة الفاتح. كذلك راحوا يتغنون، بالوقت ذاته، بالبر للوالدين والطاعة لهم رمزاً لما للامبراطور من سلطة ابوية وما له عليهم من حق الاحترام والخضوع، كما راحوا يتغنون بالتفاني في سبيل الامبراطور. وحرص هانغ - هي على اعداد موسوعات عملية، منها موسوعة تقع في ٤٤ مجلداً، ومنها موسوعة في ٣٦ مجلداً تؤلف إزائية للادب الكلاسيكي القديم معجماً صينياً. وراح يظهر بمظهر الاديب الكونفوشي فاخذ يضع مؤلفات عديدة نثراً وشعراً، كما وضع: «الامر المقدس»، هو عبارة عن مجموعة من ١٦ حكمة او موعظة ادبية (١٦٧٠). اما الآثار التي لها بالفعل قيمة كبيرة فهي الآثار التي وضعت في عهد المستقلين. فقد رفض بان - سونغ - كنج ان يقضي سحابة عمره موظفاً في خدمة الدولة وان يسير وفقاً للامور المطروقة. فقد ألف، نحو عام ١٦٧٩: «حكايات مدهشة» صادف كتابه نجاحاً منقطع النظير لما في هذه الحكايات من متانة السبك وقوة التعبير، وما تحمله من الصيغ والافكار الجديدة التي تضفي على العبارة قوة لم تكن لها من قبل، بعد ان اكثرت من المحسنات اللفظية كالجهاز المرسل والكناية والتورية. وقد رفض شو - يونغ - شون (١٦١٧ - ١٦٨٩) الذي قتل المشوا اياه، قبول العمل في خدمة الدولة موظفاً، فوضع كتاباً صغيراً في الحكم نال شهرة واسعة.

فقد انهار وزال كل ما لم يستطع تفادي الضغط الرسمي. فهل نرد الى القلق المسيطر على النفوس، والحاصل من الوضع الذي صار اليه المغلوبون على امرهم، على يد اقوام من عرق ادنى، العادة التي ظهرت بين الصينيين، اذ ذاك، اي في القرن السابع عشر، عادة تماطي الافيون والاقبال على استنشاقه وشمه؟

ازداد هانغ - هي شعبية بعد ان عرف كيف يمالء ما في الروح
النشر والسيطرة
الصينية على آسيا الوسطى
الصينية من كبر. فهذا البدوي الصحراوي الذي اعتاد ان يصرف،
كل سنة، بضعة اشهر في الصحراء، ممتطياً حينا، صهوة جواده،
ومستظلاً احياء خيمته، لا يستطيع ان يتصور نفسه امبراطوراً الا ان يعترف بامبراطورية
رفاقه في البداوة. وراح، في هذا السبيل، ينهج نحو بلدان آسيا الوسطى، نهجاً استبدادياً،

إستعماريًا ، فبسط سيطرته على البدو البرابرة الذين اذقوا الصين الامرتين في اواخر عهد دولة المنغ .

حاول السو غار ان يعيدوا تأليف الامبراطورية المغولية التي نمت لجنكيزخان . الا ان الوهن الذي كان اخذ يدب في جسم المغول بعد ان ألقوا تقسيم إقطاعاتهم وما فيها من قطعان الماشية واسر العبيد العاملين في الارض ، بين ابناء السيد ، فاخذت مساحة الاقطاعات تسدق وتصفّر ، كما فشت بينهم الحروب الخربة وتكرر وقوعها مع ازدياد عدد الاسياد في البلاد .

ففي عام ١٧٩١ ، و ١٦٩٧ ، تم لهانغ - هي الانتصار مرتين على خصمه غلطان زعيم السونغار، وذلك بعد ان تم تسليح جيشه بالبندق والمدافع التي آمن اليسوعيون صبا لها . فأخذ تحت حمايته المغول الشرقيين او كلخاز . فقد قدّم امراؤهم بكل رضى وقبول ، مراسم الخضوع لامبراطور الصين الذي كان بربرياً على شاكلتهم بالركوع امامه ثلاث مرات وبالسجود امامه ٩ مرات تعبيراً له عن ولائهم وخضوعهم . وراح خانات المغول يمتنون من علاقاتهم بكبيرخانات المشو عن طريق تقديم ولائهم له . فادخلهم في خدمته ، ومد قبائلهم بالحبوب يوم تتهددم المجاعة ، كما انه وضع حداً لحروبهم الداخلية ولمنافساتهم . وهكذا توافد عليهم التجار الصينيون . وعلى الاثر توفرت عندهم الحاجيات المصنوعة ، اذ ان البندقية كانت تقايبض بخمسة رؤوس من الماشية . اما في اواخر القرن ، فقد اصبحت البندقية والدرع تبادل برأس واحد من الخيل . وجاء في إثر التجار معمرّون صينيون وقامت في مراكز معينة في طول البلاد وعرضها ، جماعات كبيرة تأخذ باسباب التحضر . واخذ بعض الكلخاز يعملون في الزراعة وفي تربية الماشية ويقومون احياناً بنشاطات مهنية ، فتناقص بالتالي عدد قطعان الماشية كما تضاءلت بينهم حركة الطغن والارتحال مع تبدل الفصول والمواسم . وهكذا شهدنا بوادر حركة تطويرية كان من بعض شأنها ان تنقل البلاد ، وئيداً ، من مجتمع إقطاعي ، بدوي ، الى مجتمع حضاري ، ورأسمالي . اما هانغ - هي فقد رغب في الابقاء ، قدر المستطاع ، على التنظيم الاقطاعي وتسخييره لاغراض عسكرية وتأديبية .

وراح هانغ - هي ، من جهة ثانية ، يقوي من نفوذه ، بين البوذيين الكثيري العدد في الصين ، وذلك عن طريق التفاهم مع رئيسهم الاعلى الدالاي لاما الذي اعترف ، بدوره بشرعية اعتلاء السلالة المنشوية أريكة الامبراطورية ، مقابل التعهد باحترام سلطته الزمنية . ففي سنة ١٧١٣ ، ساعد هانغ - هي على اقامة سلطة الدالاي لاما في لاهسا عاصمة التيبت ، فكان من اشد انصار الحكم المنشوي في الصين . وهكذا تمتع هانغ - هي بنفوذ عظيم بين البوذيين المنتشرين في هذا المجال الجغرافي الممتد من بحر قزوين الى المحيط الهادي .

وقد عاد الى الدولة الصينية في عهد السلالة المنشوية ما كان لها من سالف العز والقوة . بينما رجعت الحضارة الصينية القهقرى وازدادت كرهاً واحتقاراً للاجنبي ، من اي وقت مضى .

اليابان

عرفت اليابان ، بالرغم من اتساع الرقعة الجغرافية التي تفصلها عن انهار النظام الاقطاعي اوروبا ، والمثلة بما يعرف باوراسيا ، نظاماً اقطاعياً خاصاً اتخذ قاعدة له النظام السیادي . فقد قام في البلاد اساساً حكومة مركزية . فالامبراطور او الميكادو « ابن الشمس » الذي كان يقيم في عاصمته كيوتو ، عهد ، مكرهاً ، بالسلطة الى سادن القصر او الشوغون هذا المركز القيادي الذي احتفظت به أسرة اشيكاجا ، وكان الشوغون يتولى اعمال الادارة في الدولة بواسطة نظام اداري مسلسل من المصالح والدوائر المترابطة ، من بينها مجلس الدولة وثمانية وزراء و٦٦ ولاية او مقاطعة يتولى ادارتها حاكم يعينه الشوغون ، و٥٧٢ قضاء او ناحية يتولى الادارة فيها نقيب يُعين بناء على اقتراح حاكم الولاية ، ويتألف القضاء من قرى وداكر .

وبالفعل لم يكن الميكادو ولا الشوغون حتى ولا أكبر ممثلي السلطة المركزية مهما علت وظيفته ، بالكلمة المسموعة في البلاد . فقد كان عدد صغير من الحكام *Daimios* يحف بهم عدد من حاملي السلاح *Samourais* يمارسون السلطة الفعلية في مقاطعاتهم وإيالاتهم ، ولم يكن ليشدهم ، على ما يبدو ، الى كبار الاسباد سوى وشائج مطاطة من الولاء الهش . وقبل قامت بين هؤلاء الحكام والسادة الاشراف حروب اهلية لم ينقطع حبلها . واعتماداً منا على الرسوم والصور التي تعود الى ذلك العصر ، كان هؤلاء الحكام ومن اليهم من المجددين يشبهون الى حد بعيد ، مرتزقة الحروب *Reitres* في اوروبا بسحنتهم الخشنة ، وملاعهم القاسية والاختايد الظاهرة التي تجعد وجوههم ونجباهم ، وغير ذلك من هذه القسامات التي تم عن العنف والاهواء والشهوات .

وكان لاديار البوذيين املاك طائلة لرؤسائها ما للحكام من سلطة ومنزلة وشأن .

نظام الاقتصاد ونظام المفايضة كان على الفلاحين ان يعملوا الطبقتين العسكرية والكهنوتية . فالاقتصاد المعمول به في البلاد اقتصاد زراعي ، مطبق على نفسه ، محوره الاساسي وركيزته الكبرى زراعة الارز . فقلة الاراضي الزراعية وغزارة المياه ، عوامل تساعد على استثمار اراض صغيرة تتراوح مساحة رقعتها بين ٢ - ٣ هكتار ويقتضي لها جهد شاق من العمل اليدوي بالمعول والمجرفة والرفش ، ويستعين الفلاح ببعض الحيوانات والبقر والحيل ، وهي تادرة على الاجمال بقلة المراعي في البلاد ، فيستعملها مرة في السنة ، لشق الارض وحرثها مفردة او مكدونة . اما النقد فكان من الندورة بحيث ان بعض الفلاحين لم تكن عندهم وقعت على قطعة عملة واحدة . فالأرز كان معيار الاسعار واساس المفايضة . فالخدم والحشم والمرتزة من الجنود يتقاضون اجورهم أرزاً ، وكذلك الضرائب تدفع أرزاً . فالفلاح

في القرية يشغري سمكة من الصياد ارزاً يستخدمه لتسميد الارض واخصابها . اما المرأة في المنزل ، فكانت تقوم بامور الغزل والصباغة ، والاسرة تؤلف وحدة اقتصادية تكفي نفسها بنفسها .

والقرويون يقطنون قرى منازلها متفرقة ، ولكل قرية شخصيتها تؤلف وحدة ضرائبية ، لها الحق بمعد الاتفاقات واقتناء الاراضي والاحراج والمراعي ، سكانها مسؤولون بالتكافل والتضامن عن الضرائب المفروضة ، ويقوم بادارة القرية مختار *Nanouchi* ، يأتي بالانتخاب احياناً واحياناً بالوراثة ، يكلف بتبليغ الاوامر للاهلين ، كما يرفع غمضات الاهلين ومطالبهم للسيد ، ويمد قيوداً يسجل بموجبها ملكية الاراضي ، وغلال كل فلاح ومزارع ، كما يسجل عدد المواليد والوفيات . كذلك من مهمته الاشراف على الاشغال العامة في القرية ، ويقضي بين الناس في صفار الامور . قسمت كل قرية الى فئات ضمت كل فئة خمسة اشخاص عليهم عريف . واذ كانوا مسؤولين بالتكافل عن الضرائب ، فقد كانوا يتنافسون فيما بينهم لانتاج اكبر كمية من المحاصيل الزراعية والغلال ويجولون دون اقتسام الاراضي وتشتتها بالإرث ، يباعدون لمساعدة بعضهم البعض ، حتى اذا ما مرض احدهم او اقعده علة قاموا مكانه بمرث ارضه .

وكان وكيل السيد يقوم ، من وقت الى آخر بمساحة الاراضي ويصنفها بحسب طبيعة تربتها ونظام سقايتها ونسبة تعرضها للشمس ، وبعدها عن الاحياء المأهولة ، يخمن كل سنة ، غلة الارض بالنسبة لوحدة مساحة . فكان السيد يتقاضى 'خمسين الفة' ، عدا عن كمية صغيرة تذهب لوكيله وبعض الهدايا وتأمين أود عيشه والرسوم غير الملحوظة او الاستثنائية التي كانت تطلب منه احياناً . وكان الفلاح يحفظ موسم الارز في اكياس وينقلونه الى غنابر السيد ومستودعاته . فبعد ان يضع جانباً للموسم القادم البذار اللازم ، لا يبقى له ما يرد عنه غائلة الجوع والموت . اما غذاؤه فكان مزيحاً من بعض البقول والحشائش والجذور النباتية .

الرجوع الى نظام السلطة العامة في القرن السادس عشر
قام في اليابان ، بين اواخر القرن الخامس عشر واواخر القرن السادس عشر حقبة عرفت عندهم بعصر *Sengoku* . اي «عصر الحرب في البلاد» ، وهي حقبة اخذت الأسر النبيلة توطد سلطتها وتشدد من قبضتها السيادية على اقباعها وتوسع من نفوذها على حساب سيادات اخرى . فبين ١٤٤٧ - ١٦٠٠ ، من بين ٢٦٠ أسرة اقطاعية ، انقرض منها ٢٤٨ أسرة او فقدت كل نفوذ لها ، واخذت حوالي سنة ١٥٦١ ، ست اسر تتحكم باليابان وتتجاذب الاستئثار بالسلطة فيما بينها ، الى ان بقيت ، سنة ١٦٠٠ ، أسرة واحدة تسيطر على البلاد بأسرها . وقد تم اخضاع اليابانيين تدريجياً على يد أودا نوبوناغا وهيدايشي ، وتوكوغاوا جيمازون . وكان نوبوناغا (١٥٣٤ - ١٥٨٢) ابناً لاحد الزعماء الاقطاعيين في ولاية أواي ، فأنشأ نفسه اقطاعاً على حساب جيرانه ، وتغلب على بارونات عديدين ، ونزعت نفسه الى مرتبة الشوغونا . فاستدعاه الامبراطور واستعمله ضد الاشيكاغا . كتب له النصر عام ١٥٦٨ ، الا انه اعاد الى الاشيكاغا

منزلتهم واحترامهم وبقي كذلك حتى سنة ١٥٩٧. ولكن منذ سنة ١٥٦٨ لم يعد للاشيكاجا السلطة الفعلية في البلاد. وتابع نوبوناغا انتصاراته. وعندما وقع قتله عام ١٥٨٢، كانت تمت له السلطة العليا على نصف الزلايات اليابانية المحيطة بكيوتو العاصمة. وخلفه في السلطة قائد جيشه هيدايوشي (١٥٨٢ - ١٥٩٨)، وتابع رسالته وفتح كيوسيو واصبح بالفعل سيد اليابان. ونزولاً منه عند رغبة الحكام النبلاء، جرد حملة عسكرية تولى قيادتها وقصد بها غازياً الصين. الا انه لم يستطع ان يتجاوز كوريا (١٥٩٢ - ١٥٩٨). وقام بالامر بعده توكوغاوا اياسو (١٥٤٢ - ١٦١٦) وهو من رفاق نوبوناغا وهيدايوشي، فتغلب على البارونات التمردين ووطد نظام الحكم وأولى اليابان التنظيم الذي سارت عليه ٢٥٠ سنة تحت اشراف شوغونات توكاووا وهيداتاد ابن اياسو، الذي اصبح رسمياً شوغون منذ عام ١٦٠٥، وتولى بالفعل الشوغونا من سنة ١٦١٦ - ١٦٢٢، ثم ياميتسو (١٦٢٣ - ١٦٥١) وخلفاؤه.

وهكذا انزلت اليابان وبقيت منكفئة على نفسها في عزلة
 آل تشوغاوا يحاربون تجريد
 ثامة حتى سنة ١٨٥٤. واستطاع آل تشوغاوا ان يؤمنوا
 اليابان في القرن السابع عشر
 الاستقرار في هذا العالم المغفل، وفقاً لتعاليم الكونفوشية التي
 قال بها تشو - هي بعد ان كان راضياً عن الاوضاع القائمة ويؤيد بالتالي نظام الحكم وسيطرة
 الشوغون. وفرض نظام التسلسل في المجتمع الياباني تحت نظام دكتاتوري عسكري يتمثل
 بالشوغون. وفرض آل تشوغاوا، على اليابان النظم والقوانين السيادية التي كان يعمل بها
 ايام الحرب، هذه النظم التي كرسست سلطتهم ووطدت سيطرتهم، فقسوا النبلاء الحكام الى
 قسمين: الفودا يمثلون الحكام الذين وقفوا الى جانبهم وألقوا أنصارهم، والتوزاما، وهم القسم
 الذي يمثل المعارضة بين النبلاء والحكام ويضم الحكام الذين ابدوا مقاومة ضدهم. فقد
 احتفظ لاتباعه، اي الفودا، بالوظائف الكبرى في الحكومة، وبواسطتهم استطاع ان يرسخ
 نظام المركزية في البلاد. واخلع الحكام النبلاء لسلطة مجلس الدولة، كما عين المفوضين الاداريين
 في الاملاك السيادية الكبرى وفي حواضر البلاد الرئيسية، وعين في النقاط الاستراتيجية الحساسة
 مراقبين يرفعون الى الادارة المركزية كل شاردة وواردة. وهكذا نرى ان الشوغون لم يكونوا
 ليتدخلوا بشؤون الحكام طالما ان الامن مستتب في البلاد. ولم يتمتع ببعض الاستقلال الداخلي
 بالفعل، سوى قلة من كبار الحكام، امثال مايبدا والشهادزو والدات. ومع ذلك فقد
 عرف الشوغون ان يحكموا حولهم القيود اذ فرضوا عليهم الاقامة اجبارياً سنة بعد سنة، في
 مكشويادو، عاصمة الشوغون، وان يبقوا فيها أسرم وعيالهم باستمرار. وبالإضافة الى هذه
 الرهائن، فالنقعات الباهظة التي كان يتكبدوها هؤلاء الحكام الكبار في حلهم وترحالهم،
 ومستوى العيش الرفيع الذي ساروا عليه اضعف كثيراً طاقتهم الاقتصادية، كما اضعف فيهم كل
 رغبة بالانتفاض او الثورة. اما آل تشوغاوا فقد عملوا دوماً على توسيع نطاق املاكهم
 التاسعة. فكانوا ينتزعون من النبلاء ما لهم من املاك واقطاعات اذا ما توفوا بدون عقب

يرثهم . وعلى هذا النحو ساروا في معاملة النبلاء الذين يعترف احد ذويهم احدى الكبار . وهكذا نرى ان ٦١ اسرة فقدت املاكها السيادية في هذه الفترة الواقعة بين ١٦٠١ - ١٦٥١ .

كل فرد كان يرى نفسه مشدوداً الى طبقته . فالجنود العديدون الذين كانوا عيالا على كل حاكم في اياته ، أجبروا على حمل السلاح ، لاسوى لهم في مهنتهم سوى الادب والفنون . وفرض على التجار لباس الجندين وقبعاتهم ، كما فرض عليهم الانحناء عندما تقبض اعينهم على حاكم يمر في الشارع . اما الفلاحون فكان وضعهم وضع حيوانات الجر والبهايم . وكانت الحكومة تهدهم في تعلم القراءة والكتابة وتربي في نفوسهم مركب النقص كما يستدل على ذلك من مطلع القرارات والوامر التي كان الشوغون يصدرها ، اذ كثيراً ما تبتدىء : « لما كان الفلاحون جماعة اغبياء » ... او « لما كان الفلاحون يفتخرون كلباً للمنطق والفتنة » .. فقد ارهقهم بالضرائب ليضطرم دوماً للعمل ، وليقتل فيهم كل رغبة او ميل للانتقاص على السلطة . وكان الجباة يقطعون من مواسمهم الزراعية ثلثي غلة الارض . فقد بلغ انتاج البلاد في مطلع القرن السابع عشر ٢٨ مليون كوكوز من الارز . وبلغت حصة الشوغون توكوغاوا منها ٨ ملايين ، بينما بلغت غلة كل من مايدا وشيادوز والدادات مليون كوكوز . ولم تكن حصة اي حاكم لتقل عن ١٠٠،٠٠٠ كوكوز ، وقال الـ ١٥٠٠ نبيلاً من حزب فوداي ١٠٠،٠٠٠ كوكوز وكان الحكام يدفعون مرتبات جنودهم ارزاً ، فينال بعضهم احياناً ١٠٠،٠٠٠ كوكوز ، ومعظمهم ١٠٠ كوكوز ، وعدد قليل بينهم يصيبه من ٤٠ - ٥٠ كوكوزاً . اما فلاحو الطبقة الدنيا فكان يصيب الواحد نحواً من ٣٠ كوكوزاً . وضع الشوغون توكوغاوا الحكام من انتزاع الاراضي من ايدي الفلاحين بعد ان يكونوا استثمروها لمدة تتراوح بين ١٥ - ٢٠ سنة . وهكذا اعترف القانون على شكل ما ، للفلاح بحق التملك ، الا انه منعه من بيع ارضه .

كل العلاقات الاجتماعية والسياسية قامت على روابط الولاء والتابعة ، هذا الولاء الذي اصبح المثال الاعلى المشترك لكل الطبقات والقاعدة السلوكية الاولى التي شدد النبيل والحاكم الى اتباعه ، وبين المزارع والعامل في حقله والتاجر والمستخدم في متجره ، وبين معلم الكار والتمرن على العمل . فالمثال الفروسي الذي عرف باسم *bushido* بعد عام ١٩٠٠ ، ما لبث ان انتشر في البلاد حتى ساد العلاقات بين التجار وافراد الشعب . وهذا المثال كان غني المحتوى ، من ضمنه الدقة والاستقامة ، والاخلاص والنصح والشجاعة لتنفيذ كل ما هو عدل وخير في صالح الضعفاء والمفلولين على امرهم ، وهذا الظرف الناعم ، والادب الرهيف ، وكبح اهواء النفس والامانة في الواجب حتى الموت ، تلك كانت المناقبة التي سكان على الجنود والمحاربين ان يتحلوا بها . فعلى الجندي ان يحكم بنفسه على نفسه لئلا يفتخر او لهفوة لطخت شرفه ، وذلك عن طريق المراكيزي ، ببقربطه . فالبوذية بمطلبها المطلق وبخضوعها الهادي المستكين للقوانين في هذا العالم ، والشنتوية ينبوع الولاء للسيد ، والداعية الى تقديس الجدود ، والبر البنوي ، والكونفوشية ،

التي تعلم احترام القدامى والرؤساء ، واخيراً فلسفة وانغ - يانغ - منغ التي عرفت باسم *Omei* والتي لقيت رواجاً كبيراً في البلاد لحضها الناس على العمل ، كل هذه العوامل والعناصر جاءت تقوي من جانب المثالية الفروسية ، هذه المثالية التي راحت فلسفة تشو - هي تضمها في خدمة الدولة .

لم يستطع آل توكوغاؤوا الحؤول دون تطور المجتمع من نظام المقايضة الى الاقتصاد النقدي الياباني . فقد عمل نظامهم على انشاء اقتصاد نقدي في البلاد مع كل ما ترتب عليه من نتائج اجتماعية . فالبلط الفخم الذي قام في مدينة ييدو ، والاسفار التي كان يقوم بها الحكام بين ييدو وإيالاتهم ، وغير ذلك من العوامل ، شجعت التجار واصحاب الحرف على إنشاء مخازن ومحلات للبيع في عاصمة الشوغون ، وفي هذه المدن الواقعة على طريق الحكام . ولكي يؤمنوا مشترياتهم راح حكام المقاطعات يشجعون على استثمار مناجم المعادن الثمينة . فقد وحد اياسو النقد في البلاد وامر بسك عملة من الذهب والفضة ، واخذ بتشجيع التجار واصحاب الحرف والمهن . كذلك عمل الحكام على التعامل ، اكثر فاكثراً ، بالمعادن الثمينة ، بفرضهم رسوماً تدفع نقداً وعيناً بالفضة ، عن محاصيل الارض غير الارز ، كالشاي واللاك والقطن والتبغ وهي مواد جرى ادخالها الى البلاد في مطلع القرن السابع عشر . كذلك فرضوا رسوماً تجبى نقداً فضة ، على اصحاب البضائع وعلى احجار المطاحن ، وبدلاً عن الخدمة العسكرية ، وغير ذلك . وحاول الحكام والنبلاء ، في آخر المطاف بيع ما لديهم من غلال الارز ، وحذا حذوهم المسكربون العاملون في خدمتهم . واستدانوا على غلالهم وهكذا اصبحت السندات التي يوقعونها لامر ، موضوع تحويل تجاري وتغيير .

وهكذا طلعت في البلاد طبقة جديدة من التجار اخذت تنمو عدداً وتزداد ثروة وثراء ، لا سيما ولم يكن اصحابها ، في بدء الامر ، يخضعون لاي ضريبة او رسم كان ، باعتبار ان غلال الارض وحدها تؤلف مورداً : وهكذا بقيت مدن كثيرة مثل ييدو وأوزاكا وكيوتو ونارا ونواسي وغيرها معفاة من الضرائب . واخذ التجار وارباب المهن يؤلفون من بينهم نقابات ، وحصلوا بالشراء من الشوغون ومن كبار الموظفين الاداريين امتيازات حددت من الانتاج ، وعدد المستكثبين والمساعدين وارباب الحرف ، وابقوا الاسعار على مستوى ممكن ، واقاموا احتكارات . وفي بورصة اوزاكا ، اتفق التجار على شراء الارز بانخفاض الاسعار في كل المناء اليابان . وقد سدوا افواه المسؤولين في الحكومة بالهدايا والأعطيات التي كانوا يدفعونها لهم . وعندما كان الشعب يأخذ بالتذمر والتأقف من هذه التجاوزات كانت الحكومة تمعد الى فرض بعض الضرائب والرسوم ، وتفرض تحديد الاسعار والاعلان عنها ، وتصادر المستودعات وتحرم الاحتكارات ، لمدة ثم تعود الامور عودتها الى الماضي من جديد .

في الصين واليابان

بقيت الصين مغلقة في وجه البرابرة طيلة عهد دولة المنغ ودولة تسنغ . فقد رضي البرتغاليون الصينيون ان يفتحوا على طول حدودهم ، بعض الثغور والنوافذ ، كدينتي كنتون وسو - تشيو ، تطل منها وفادات السفراء حاملين الهدايا والحجاج الى الامبراطور ابن الشمس . ومثل هذا التأكيد ، زعم فيه الكثير من نسج الخيال . فالاجانب كانوا يلتفون حول سفير مزعوم فيؤلفون جماعة من التجار يستغلون بعض الاعفاءات الدبلوماسية . والهدايا المزعومة لم تمكن بالفعل سوى بضائع وسلع يقايضون بها بضائع غالية الثمن . ولم يكن مثل هذا الوضع يخاف على موظفي الحكومة ، يدركونه جيداً ، اذ المهم عندهم المحافظة قدر المستطاع على سيادة « امبراطورية الوسط » الشاملة *Empire du Milieu* ، كما كانوا يلقبون الصين ، اذ ذلك . اما فتح الصين امام الاجانب على نطاق واسع ، فامر لم يكن وارداً قط في حساب الصينيين ، اذ لم يكن هؤلاء الاجانب الاغراب خليقين باقتباس حضارة الصين ، قطب العالم المتمددين التي لم تر شيئاً عند البرابرة حرياً باقتباسهم .

ففي الوقت الذي وصل فيه البرتغاليون وجدوا امامهم مكاناً ينفذون منه الى هذا المجال التجاري الممتد بين الصين واليابان وماليزيا والهند الصينية . ففي عهد الامبراطور يونغ - لو (١٤٠٣ - ١٤٢٤) من ملوك دولة المنغ ، بلغت الاساطيل الصينية الخليج الفارسي وشواطئ الصومال . وبعد وفاته حظر اباطرة المنغ ، على رعاياهم ، الاتجار مع الخارج ، والهجرة الى الخارج تحت طائلة الموت ، فرموا ، من وراء هذه التدابير الى تفشيل اعمال القرصنة ، التي كانت تقوم بها عصابات وو - كو ، تألفت معظمها من مجندين يابانيين قدموا من جزيرة كيو - سيو ، فراحوا يفاكرون على متن سفن مسطحة الظهر ، قلاعها من الحصر ولها مجاذيف جانبية ، تهاجم مصبات الانهر في الصين . وكثيراً ما استكملوا عدتهم من مساعدين لهم من الملايو والفيلبين . وقد عجزت ميليشيا اواي وسفن خفر السواحل الصينية ، عن رد تمديات هؤلاء القرصنة . ولم تكن حكومة الصين لتتوقع اي تعاون او مساعدة من حكومة الظل القائمة في اليابان . وفي سنة ١٥٥٩ تقدمت عصابات وو - كو واصبحت على مقربة من نانكين . وهكذا تمرقت الاعمال التجارية واضطرب حبلها دون ان تتوقف او تنقطع . وكان حكام المقاطعات في اليابان يطعمون جداً في الحصول على حرير الصين وعلى ذهب الصين لشدة الطلب عليها في اليابان . اما الصينيون ، فالاتجار مع الخارج ، لم يمثل سوى جزء ضئيل من نشاطهم التجاري ، وهذه المهارات الصينية الماخرة عباب البحار لم تكن سوى كعبة مهمة اذا ما قيست بهذه

الاساطيل التي كانت تقوم بهذه الحركة التجارية على ساحل البلاد الشرقي ، والتي كانت تؤمن الملاحة النهرية . غير ان البلاد والموظفين كانوا دوماً يسعون للحصول على الافويه والتوابل من ماليزيا ، وعلى غير ذلك من المحاصيل النادرة عندهم ، وعلى هذه الاصناف التي قامت عليها حياة البنخ ، كما ان الصين ، بلاد الذهب الفضلى ، كانت بحاجة كلية لكمية من الفضة المسكوكة نهوضاً باقتصادياتها .

وهكذا استمرت الحركة التجارية فيها تعتمد بالاكثر على الوسائل التالية : السفارات والترخيص والتهريب . فقد رخص الدول التابعة للصين او التي تدور في فلكها ، ان ترسل كل سنة لبكين ، وفادة لتقديم ولائها وخضوعها للامبراطور ، مع الخراج المترقب عليها . وكان السفير يعطى بدووه إجازات ورخصاً توزعها حكومته على تجارها في البلاد . وبهذه الاجازات يستطيعون الدخول الى الصين بعد الخضوع لمعملية تفتيش او مراقبة من قبل احدى المراكز الثلاثة المهمة للتفتيش تتألف منها مكاتب مراقبة السفن البحرية ، المعنية كل منها بمراقبة التجارة مع اليابان ، في مرفأ ننج - بو ومع جزر ريو - كيو في مرفأ تسنغ - شيو ، وفي مرفأ كنتون للسفن المتجرة مع « اقطار الجنوب » ، اي مع الفيليبين وجزر السوند والسيام وكمبوديا . وكان التجار الاجانب يرسون بسفنهم في مصاب الانهر او في الجزر القريبة منها ، ويحشدون بضائعهم في غنابر او مستودعات خفيفة . اذ ذاك فقط يسمح لهم بدخول البلاد والتجول في القرى المجاورة للمرفأ دون الدخول للمدينة نفسها . وكان هؤلاء التجار يدبرون شؤونهم الخاصة داخلياً وفقاً لقوانين بلادهم واعرافها التقليدية ، الا انهم لم يكونوا يتعاملون الا بواسطة اتحادات التجار الصينيين التي كانت تتولى تحديد الاسعار .

وكان الموظفون الصينيون *Mundurins* المخلصون من حكام ونواب الملك يعطون رخصاً باسعار عالية ، لبعض التجار الصينيين للتجار مع الخارج .

اما عمليات التهريب فكان يؤمنها او يقوم بها اصحاب السفن ومالكوها عن طريق قراصنة الوو - كو وعصاباتهم البحرية ، او عن طريق تجار جزر ريو - كيو او عن طريق الغور او الليكيوس ، عدا البرتغاليين ، الذين كانوا يحاولون على مسؤولياتهم ، خرق الحصار المفروض . وقد كان الغور ، في القرن الخامس عشر اهم العملاء في الاتجار مع الصين واليابان

و « اقطار بجمار الجنوب » . الا ان شأنهم هبط كثيراً في القرن السادس عشر .

وعندما تم لألبو كرك ، الاستيلاء ، عام ١٥١١ ، على مالقا ، امر بان تماد الى التجار الصينيين والسفن التي كان يحتجزها عنده سلطان المدينة ، كما سمح لهؤلاء التجار ان يتموا بحرية تامة ، عملية تسويقهم . وعاد الصينيون الى بلادهم وكلهم ثناء عاطر وألسنة مدح تلهج باريجية ال *Folanguis* ، كما كان يسمون البرتغاليين . وقد بلغ البرتغاليين ان التجار الصينيين يحققون من الاتجار بالفلفل ارباحاً تبلغ اربعة اضعاف ثمنه بعد نقله الى كنتون ، كما جاء من يؤكد لهم انهم

يستطيعون ان يؤمنوا من الارباح على البضائع والسلع الاخرى من ٢٠ - ٣٠ في المائة . وعلا
بالاوامر . والتعليقات التي تلقاها حاكم مالقا ، قدم جورج الفاريس ، عام ١٥١٤ ، الى مصب نهر
سي - كيانغ حيث تقع مدينة كنتون ، وباع بارباح طائلة ما كانت سفنه تشحن من بضائع
مختلفة . واذ ذلك ، ارسل الملك مانويل - ملك البرتغال ، الى امبراطور الصين ، يطلب اليه
اعطائه ترخيصاً لاقامة وكالة تمثيل تجارية (*Factorie*) على ارض صينية . واضطر السفير
البرتغالي ، توما بيريس الذي وصل كنتون عام ١٥١٧ ، ان ينتظر ، في هذه المدينة ، رد
الامبراطور بالسماح له بالتوجه الى بكين . وحمل البرتغاليون معهم كمية من الفلفل يبيعونه
غالياً . وسمح لهم الموظفون الصينيون ان يبنوا لهم مقراً في جزيرة توان - من ، وهي أسكلة
كان التجار القادمون من مالقا يتوقفون عندها .

الا ان سيمون ده اندراد ، وهو جندي جلف بدون تهذيب ، تصرف عام ١٥١٩ وكأنه في
ارض تخضع لسيادة البرتغال ، فامر ببناء حصن جهزه بمدافع قصيرة لقذف القنابل ، ونصب
مشنقة شق عليها احد الهرمين ، كما ضرب موظفاً صينياً طلب اليه دفع الرسوم المترتبة على
الاجانب . وعندما وصل بيريس الى بكين ، عام ١٥٢٠ ، اتضح للصينيين بشيء من الدهشة
والاستهجان ، ان اوراق اعتماده لا تنص قط على تقديم الولاء والاحترام ، ولا تأتي على ذكر دفع
الخراج ، وهي عبارات والفاظ استعملتها ، الدبلوماسية الصينية ، اذ ذلك ، بل جل ما تطلبه ،
عقد معاهدة تجارية على قدم المساواة ، مع اعطائهم امتيازاً بانشاء وكالة تجارية لهم . ان قوماً
لا آداب لهم ولا احترام عندم للرامس المرعية ، لا يمكن ان يكونوا اناساً ذوي اخلاق ، بل
انما هم جواسيس وقراصنة وغزاة ، و « اجانب ابالسة » . فاصدر البلاط الامبراطوري امراً
حظر على البرتغاليين ان يطأوا ارض الصين . وقد هاجم الصينيون اسطول دياغو كالفو
الذي تألف من ثلاث سفن كبيرة وثمانية مراكب ، فاضطر البرتغاليون للتضحية بمراكبهم لانقاذ
سفنهم . وفي السنة التالية ، فقد البرتغاليون مركبين ايضاً ، كما ان اربعة سفن اخرى لقيت
صعوبات كثيرة لتتمكن من النجاة . وأرسل توما بيريس ورفاقه مخفورين الى كنتون وزج بهم
في غياهب السجن حتى سنة ١٥٢٤ حيث مات معظمهم من جراء ما لحق بهم من الهوان وسوء
المعاملة التي تعرضوا لها .

وهكذا رأى البرتغاليون انفسهم ، منذ عام ١٥٢٧ ، مرغين ، على القيام باعمال التهريب
من مدينة كوانغ - تونغ في فو - كيان ، وتشي - كيانغ حيث استطاعوا ، منذ عام ١٥٣٣ ،
ان يقيموا لهم خفية ، علاقات سرية مع بعض الموظفين الصينيين المحليين ومع تجار النيذ
المحليين . وقد وصلت بعض الممارات البرتغالية بقيادة رئيس - قبطان تحت امرته سفينة
ملكية . وهبط البرتغاليون في جزيرة موحدة بنوا فيها اكواخاً من القش اقاموا فيها من شهر
توز الى ايلول ، وانشأوا لهم سوقاً عملياً واخذوا بالتجارة مع السفن الصينية ثم يتوارون بعد ان
يبيعوا منهم ، ما لديهم من الفلفل بسعر معتدل ويشترون موادهم الغذائية بأسعار عالية .

وفي سنة ١٥٤٢ ، التقى ثلاثة من رواد البرتغاليين ، مراراً يجامعات من الغور الى ان بلغوا ريوكيو . غير ان سكان البلاد الاصليين الذين كانوا يحرصون على بقاء سيطرتهم على الحركة التجارية اسأوا وقيادة البرتغاليين الذين استأنفوا سيرهم شرقاً الى ان أطلقوا على مشارف اليابان . وفي ٢٣ أيلول ١٥٤٣ ، وصل البرتغاليون الى جزيرة نائية عن أرخبيل اليابان هي جزيرة فانيغا . فقد كان لكشفهم الجغرافي هذا وقع كبير . وفي هذه السنة لم يرجع أحد من التجار البرتغاليين الى مالقا . وفي سنة ١٥٤٤ ، قدمت عمارة برتغالية مؤلفة من عشرة مراكب محملة شحنة حرير ودخلت خليج كاغوشيما . وبذلك ابتدأت هذه الحركة التجارية التي نشطت مجاريها بين مالقا والصين واليابان . ثم جاء الصينيون في أثر البرتغاليين .

كان البرتغاليون ، مع كل هذا ، بحاجة ماسة لقاعدة رئيسية تكون محور نشاطهم التجاري في هذه البحار . ففي سنة ١٥٥٤ ، عقد رئيس قبطان ليونيل ده صوصه ، اتفاقاً شفوياً مع نائب الاميرال في نهر كنتون ، عندهم معه معاملة السياميين التابعين لامبراطور الصين ، سمح لهم بموجبه بالاتجار . واذ ذاك استطاع البرتغاليون ، باعتبارهم موالين للامبراطور وتأمين له أن ينزلوا ، عام ١٥٥٧ ، في خليج الإلهة أما : أماكاو ، ومن هذه الكلمة اشتق البرتغاليون كلمة مكاو . وقد سمح لهم الصينيون بالبقاء مشترطين عليهم الا يبنوا حصوناً لهم ، وان يقبلوا بدفع الرسوم المترتبة عليهم للعكس . وعندما كانت تصل لهذا المرفأ سفينة من سفنهم يقوم الصينيون للحال بأخذ مقاييسها وتقييمها لتدفع رسوم الرسو بنسبة حجمها ، ثم يعملون جردة كاملة بما تحمله من بضائع ووسق ، وبما ينوون شراؤه بحيث يتبين للبرتغاليين ما يجب عليهم دفعه رسوماً للاستيراد والتصدير . وقد حالف الحظ البرتغاليين ، فلم يكونوا ليدفعوا عن سفينة سعتها ٢٠٠ برميل سوى ١٨٠٠ تايل *Taels* كرسوم رسو عن اول مرة ، و ٦٠٠ عن كل مرة ترسو فيه فيما بعد ، بينما السفن الاجنبية كانت تدفع ٥٤٠٠ تايل عن كل مرة ، كما ان رسوم التصدير كانت تخفض الى الثلثين . وكان للبرتغاليين حاكم عام برتبة رئيس قبطان يرأس عمارة الملك المسافرة الى اليابان . ولم تلبث المستعمرة البرتغالية في مكاو ان شكلت من ذاتها حكومة بدائية تألفت من قبطان وقاض واسقف مع ما يلزم من شرطة محلية حظيت بموافقة الصينيين ، ولم يعتم بهم الامر ان نالوا من الملك ترخيصاً بانتخاب حكامهم ، ومجلس شيوخ تولى ادارة المدينة . وتمتع بحق الانتخاب في المدينة كل رعايا ملك البرتغال الاحرار المقيمين في المدينة والمتزوجين فيها ومعظمهم من التجار . فقد كان عدد البرتغاليين في مكاو عام ١٥٦٣ ، نحواً من الف شخص وبضعة آلاف من المبيد والخدم معظمهم من الملايو والهنود والافريقيين ، عدا عن ١٠٠٠٠٠ صيني . وعندما ضم فيليب الثاني البرتغال الى املاكه احتفظ البرتغاليون بموجب اتفاق خاص ، باحتكارهم الاتجار في ممتلكاتهم عبر البحار ، كما نالوا حرية الاتجار مع الفيليبين الاسبانية والبيرو واسبانيا نفسها . وفي سنة ١٥٨٦ أقر نائب الملك في الهند رسمياً ، النظام المعمول به في مكاو واعترف بها مدينة . وفي سنة ١٥٩٤ ، حظر فيليب الثاني على الاسبان الاتجار

مباشرة مع الصينيين ، من جهة ، ومع المكسيك والفلبين من جهة ثانية . وهكذا ابعد عنهم كل خطر او احتمال اي مزاحمة من قبل الاسبان . وبالإضافة الى هذه الاعفاءات والمنافع فقد سمح للبرتغاليين الاتجار مع كنتون بدون وساطة الاتحاد التجاري الصيني . وفي سنة ١٥٨٢ ، اجاز نائب الملك في ولاية كوانغ - تونغ ، للبرتغاليين في مكاو ، بعد ان عرفوا كيف يستميلونه بالهدايا الثمينة ، الاتجار مع كنتون . وفي سنة ١٥٨٤ ، عين امبراطور الصين ، النائب العام البرتغالي في مكاو ، « موظفاً Mandarin من الصف الثاني ، اي ان النائب العام كان يمارس وظيفته باعتباره قاضياً صينياً وتحت الحماية الصينية . وهكذا فالفترة الممتدة بين ١٥٨٤ - ١٦٠٢ هي الحقبة التي بلغت فيها مكاو الأوج من الازدهار ، باعتبارها المركز الرئيسي للتجارة المحيطية في الشرق الاقصى .

وبعد تجارب ومحاولات متكررة ، وجد البرتغاليون ، في اليابان ، الميناء الأمثل لسفنهم في ناغازاكي ، الذي اعطى حاكم المقاطعة الآباء اليسوعيين ترخيصاً بالسوفيه ، فاصبح منذ عام ١٥٧٢ ، المركز الرئيسي للبرتغاليين في تجارتهم مع اليابان . ان محور الحركة التجارية منذ عام ١٥٥٠ ، تمثل في هذه الرحلة السنوية التي كان البرتغال يهيؤها ، او يعطي اعفاء بها لرئيس قبطان يتولى قيادة باخرة كبيرة nao الى اليابان . وكانت هذه الباخرة تطلع من غوا بعد ان تزودها السفن البرتغالية القادمة من لشبونة بالبضائع الاوروبية التي كان اليابانيون يرغبون فيها : كالزجاج والبلور والاقمشة الصوفية والنبيد والساعات والبنادق والانواط والاسومة ، وجلود قرطبة ، والساعات الشمسية والشمعدانات والمحمل . وكانت هذه الباخرة تسوق في طريقها الفلفل من كوشي في الملابار ، والحجارة الكريمة من مالقا والمولوسك ، وخشب الصندال والزنجفر وجوز الطيب والصعفران والعنبر الرمادي والبخور البكر والعاج ، كما كانت تشحن من مكاو : الحرير والذهب الصيني . كذلك كانت تشحن نحواً من ١٠٠،٠٠٠ وزنة من الحرير الخام الصيني ، كل وزنة ٦١ كيلو . وهذا الحرير الخام الذي كانوا يبتاعونه من كنتون ، بسعر ٨٠ تائل ، الوزنة الواحدة ، كان يباع في اليابان بسعر يتراوح بين ١٤٠ - ٦٥٠ تائل ، الوزنة الواحدة . كذلك كانت الباخرة تشحن من ٤٠٠ - ٥٠٠ وزنة من الحرير الملون بسعر يتراوح بين ٤٠ - ١٤٠ تائل الوزنة ، ليجري بيعه في اليابان بين ١٠٠ - ٤٠٠ تائل من الذهب الخام ، بمعدل ٥ تائل ونصف من الذهب في الصين و٧ تائل ونصف في ناغازاكي . كذلك كانت تشحن : مسحوق الذهب واقمشة قطنية ، والزئبق والنحاس ، والقصدير والرصاص ، والراوند ، والبقم والسكر والقاشاني ، والحرير والاقمشة المزركشة والاطلس والديباج . وكان امراء الهند يحتفظون لانفسهم بقسم كبير من هذه الاصناف ، كما ان قسماً من اللاك والقاشاني كان يرسل الى اوروبا .

والمهم في هذه الحركة هو الفضة اليابانية . ويمكن رسم صورة تقريبية لهذه التجارة ، على اساس مقايضة الحرير والذهب الصيني بفضة اليابان . وكان قسم من هذه الفضة يستعمل لشراء بعض الاصناف في الصين راسماً بذلك حركة دوران بين الصين واليابان ، كما ان جانباً منه

كان يشحن للهند واندونيسيا وكلا البلدين يفتقران دوماً للفضة . وزاد الاقبال على الفضة اليابانية في القرن السابع عشر ، بعد ان هبط وارد فضة المكسيك الى الفلبين ، بعد سنة ١٦٣٠ . ونشط اليابانيون ، بعد اشتداد الطلب على الفضة ، الى استثمار مناجم الفضة في بلادهم ، والتعري عن المزيد منها ، وكان اغزرها إنتاجاً يقع في جزيرة تسو - شيا ، في هذا القسم الأوسط من منحدر هوندو الشمالي باتجاه سيكوكا .

وكانت هذه الباخرة تتسم ١٢١٦ برميلا ، وقد سماها اليابانيون « بالسفينة السوداء kouro fume » لها ثلاثة متون واربعة صوار ، وصرح شاق في المقدمة يتألف من طابقين او ثلاثة طوابق . كانت هذه الباخرة ، تغادر غوا في نيسان او ايار بعد ان تقضي فصل الشتاء في مكاو ، فيقوم قبطانها اذ ذلك بدور حاكم المدينة ، تأخذ باستئذاف رحلتها نحو ناغازاكي مع الرياح الموسمية التي تهب من الغرب الجنوبي ، في حزيران او تموز من السنة التالية ، فتبلغ ناغازاكي خلال ١٥ يوماً لتغادرها في تشرين الثاني او آذار ، حسب طبيعة شحنها ، مع الرياح الموسمية التي تهب من الشمال الشرقي ، يقودها ريان برتغالي من الاشراف ، تستعين بأسفارها بآلات الملاحة المستعملة آنذاك كالبيكار والاسطرلاب و « عصا يعقوب » . اما الخرائط الجغرافية فكانت نادرة جداً وسيئة الرسم ، بينما أدلة السفر والملاحة البحرية كانت تفيض بالمعلومات والفوائد ، فتصف بدقة معالم الشواطئ والمراسي والموانئ ، ومهابت الارباج والمجاري المائية والتيارات المحيطية .

وتجارة البرتغاليين مع الشرق الأقصى استقلت تقريباً في علاقاتها عن اوربا التي كانت تصدر القليل ، كما كانت تستورد القليل . ان جالية صغيرة من الاوروبيين كانت تحمل معها الى الشرق الأقصى روح الاقدام والمغامرة وتتسلح بتقنيات بحرية وتجارية مستثمرة هذه العسدة في شبه استقلال من الوطن الام . والارجح ان البرتغاليين كانوا روح النشاط في هذه الحركة التجارية التي عمرها الشرق الأقصى ، اذا ما اخذنا مقياساً على ذلك ، مناجم الفضة والنحاس في اليابان ، وهذه الروح النقابية التي دبت بين التجار الصينيين .

بلغت البعثة الاسبانية برئاسة له غاسي جزيرة سيبو ، في نيسان ١٥٦٥ ، الاسبان في الفلبين وهي جزيرة كان يؤمها في السنة من ١٢ - ١٥ سفينة صينية قادمة من فو - كيان الى مانبلا ، يضاف اليها بعض الزوارق اليابانية موسوقة بالحريز والاقمشة القطنية والقاشاني والقصدير وتعود منها حاملة الذهب والشمع . وكان مسلمو الفلبين وهم المورو يقومون بدورهم بعملية توزيع هذه المواد والاصناف والبضائع الصينية واليابانية في أنحاء الفلبين . وفي ايار ١٥٧١ استولى له غاسي على اهم المراكز التجارية التي كانت بيد المورو في مانبلا كما عرف ان يكسب ويحقق خضوع زعماء الفلبين للسلطة الاسبانية . وقد بدت مانبلا ومرفؤها الممتاز المركز التجاري الامثل للتجار مع اليابان والصين وجاوا وبورنيو والمولوسك

وغنية الجديدة، اذ كان يفصل بين هذه الاقطار المسافة نفسها بالنسبة لمهور مانيليا في اي اتجاه سرت. وغنت علاقات الاسبان بالصينيين سريماً وزاد عدد المراكب الصينية حتى ان نائب الملك في فو - كيان ارسل ، عام ١٥٧٤ ، مركباً امبراطوريا واستقدم اليه اربعة موفدين اسبان كلفوا مفاوضته للحصول على مرفأ في فو- كيان والساح لهم بالتبشير بالانجيل ، وكان يرأس هذا الوفد، الراهب الفرنسي سكاني مارتن ده رادا الذي زودنا باولى معلوماتنا عن ديانة الصينيين . الا انه شجرت اختلافات بين الجانبين دعت لسوء التفاهم ، اذ ان اول حاكم اسباني كان متشاكماً ، جلف الطباع ، وعرج الجانب ، انقطعت معها العلاقات السياسية عام ١٥٧٦ ، غير ان الحركة التجارية استمرت كالعتاد .

وفي اواخر القرن السادس عشر ، كانت « سفينة مانيليا ، تغادر مرفأ أكابولكو ، حاملة بانتظام الفضة من المكسيك . وكانت السفن الصينية تأتي في كل سنة الى مانيليا حاملة معها الحرير والنسائج الحريرية والقاشاني والقمح ومعادن الصين لمبادلتها بالفضة . وقد اقام عدد من الصينيين ، تراوح بين ١٠٤٠٠٠ - ٢٠٠٠٠٠ في ناحية باربان التي تؤلف ضاحية مانيليا . وكان الحرير يشحن من جديد على ظهر « سفينة مانيليا » باتجاه المكسيك ومنها باتجاه اوروبا . وقد تناولت هذه التجارة كميات كبيرة اخذت تزداد سنة فسنة حتى سنة ١٦٣٠ . وكان للعملة الفضية الاسبانية ، ولا سيما للريال منها طلب كبير في الصين . وكان يرد منها ، كل سنة ، عن طريق المكسيك بقيمة مليون بيزوس، بحيث ان الاسبان كانوا يحققون من الارباح ما يتراوح بين ٢٠٠ - ٣٠٠ ٪ ، وهكذا كانت السفن الصينية تكد بكثرة على مانيليا ، وبصورة تصاعدية اذ جاء منها ست ، عام ١٥٧٤ ، و ١٤ - ١٥ سفينة عام ١٥٨٠ ، و ٣٠ كمعدل وسط لهذه السنوات بين ١٥٨٠ - ١٦٠٠ ، و ٥٠ عام ١٦٣١ .

أحدث دخول الهولنديين الحلبة التجارية في هذه المنطقة اضطراباً كبيراً وادخل عليها تغييراً عظيماً . وصلوا الى مكاو ، لأول مرة ، في ٢٧ ايلول ١٦٠١ ، ومنذ عام ١٦٠٦ راحوا يفرضون الحصار على مضائق مالقا وبذلك كادوا يقطعون الاتصال بين مكاو وغوا . وقد ادر كوا ، بعد تحريات قاموا بها ، سر النهج او الاسلوب الذي سار عليه البرتغاليون في اتجارهم مع بلدان الشرق الاقصى ، فأسسوا عام ١٦٠٩ ، وكالة تجارية لهم في فيرندو ، وهي جزيرة صغيرة ترتبط بجزيرة كيو - سيو . الا انهم رأوا انفسهم مضطرين للاعتماد على التهريب واعمال القرصنة للحصول على حرير الصين ، فهاجوا مكاو عام ١٦٢٢ الا انهم رُدوا عنها خاسئين بخسائر عظيمة ، واذ ذلك حاولوا ان يقطعوا مكاو عن اليابان ، ومانيليا عن الصين . فاحتلوا ، في هذا السبيل ، ارخبيل بسكادور وتقدموا من الصينيين بطلب السماح لهم بطلب الاتجار مع فو- كيان عن طريق ننج - بو . فسمح لهم الصينيون بالنزول في فورموزا والاقامة في تيوان . واستطاع الاسبان من جهتهم ان يستعيدوا علاقاتهم مع فو - كيان ، باحتلالهم تان - شواي الى الشمال من فورموزا .

وفي سنة ١٦٤١ ، استولى الهولنديون على مالقا كما استولوا عام ١٥٤٢ على فان - شوي ، وهكذا أصبحوا يسيطرون على المواصلات بين الصين واليابان .

لم تلبث هذه الحوادث ان تركت اثرها البعيد ، اذ غيرت وبدلت كثيراً في علاقات البرتغاليين مع اليابانيين . فمذ ١٦١٨ ، استبدلوا باخرتهم الكبرى *Nao* السريعة العطب باسطول مين السفن الصغيرة ، الخفيفة الحركة ، تراوحت سعة السفينة بين ١٠٠ - ٣٠٠ برميل . واشتدت حاجة البرتغاليين للنحاس ليستعملوه لصب المدافع وضرب العملة النحاسية لتسهيل اعمالهم التجارية مع الجزر ، بعد ان اخذت الهند والصين تلتها الفضة ، وبعد ان تناقصت قدرتها على توفير كمية الفضة المستوردة من العالم الجديد . فقد كان بالامكان الحصول على نحاس اليابان عن طريق مانيل . وكان سكان مكاو بحاجة ماسة للمصنوعات الاوروبية التي لم تعد لتصلهم عن طريق غوا ، انما تيسر توفيرها عن طريق مانيل . ولذا راحوا ينمون علاقاتهم مع القاعدة الاسبانية . وقد كان سبق للاسبان ان اعتمدوا ، بالرغم من اوامر الحظر ، على مكاو في تلبية حاجتهم للحبر . وكانت السفن الاسبانية تقترب من المرفأ بحجة امتياز الماء والتزود منه وشراء العتاد الحربي . فكانت زوارق مكاو تأتي ليلاً ناقلة اليهم الحبر والاقنعة الحريرية من الصين . وقد وصلت الحركة التجارية في مانيل الى الاوج بين ١٦٠٢ - ١٦٢٠ ، وهكذا أصبحت مانيل قاعدة اساسية لا بد من الاعتماد عليها في تصدير الحبر واللبسة الحريرية من الصين نحو كابلوكو ومكسيكو وفيراكروز واشبيلية . وبقيت في ازدهارها هذا حتى سنة ١٦٤٠ .

عرف سكان مكاو ان يفيدوا كثيراً من نمو الاقتصاد النقدي في اليابان وتطوره السريع تحت تأثير التجارة الاوروبية . ولم يكن يوسع اوائل الرأسماليين اليابانيين ان يستخدموا مباشرة وبانفسهم اموالهم في التجارة مع الخارج ، اذ كان يقتضي لهم الحصول مسبقاً على ترخيص بذلك من الشوغون ، وهو ترخيص من العسير ان لم نقل من المستحيل ، الحصول عليه ، كما انه حظر على اليابانيين ، بعد سنة ١٦٣٦ ، الخروج من اليابان للانقطاع للاموال التجارية . ولهذا عهد حكام كيو - سيو وغيرهم من بعض حكام المقاطعة الجنوبية باستثمار اموالهم الى بعض تجار مكاو الموثوق بهم ، لقاء فائدة تراوح معدلها بين ٢٥ - ٥٠ ٪ وبدلاً من ان يستخدم تجار مكاو اموالهم الخاصة في هذه الاعمال التجارية ، اخذوا ، اكثر فاكثر ، يعولون على رؤوس الاموال اليابانية .

والحال ، فقد اقصررت الحكومة اليابانية ، البرتغاليين ، في بدء الامر ، على الاتجار مع جزيرة دشيا . ثم اخذت منافسة الهولنديين ومزاحمتهم لهم تعنف وتشتد . فقد استورد الهولنديون عام ١٦٣٦ الى اليابان ، ١٤٢١ وزنة من الحبر ، بينما لم يزد ما استورده منه البرتغاليون ، في تلك السنة ، على ٢٥٠ وزنة . فقد استطاع الهولنديون ، فعلاً ، بعد ان تم لهم النزول في فورموزا واقامة وكالة تجارية لهم في تيوان ، ان يحولوا نحو مرفأهم ، عن طريق فو - كيان ، جانباً كبيراً من الحبر الصيني الذي كان يصدر من قبل ، الى كنتون ومكاو . ومع ذلك فقد

استطاع البرتغاليون ان يعودوا من اليابان ومعهم من الفضة ما يعادل ثمنه ٧ ملايين فلورين ، بينما عاد الهولنديون باربعة ملايين لا غير ، وفقاً لتقديرات الهولنديين انفسهم . ومع ذلك ، فالنشاط الذي بعثه الاوروبيون في هذه الحركة التجارية ، عاد بالفائدة الكبرى على الآسيويين انفسهم بعد ان ساروا في اثرهم واحتذوا حذوهم . ففي عام ١٦٣٦ ، جاء اليابان اربع سفن برتغالية و١٢ سفينة هولندية ، بينما كان يصلها ، كل سنة من ٥٠ - ٦٠ سفينة صينية قادمة من مرافئ ننج - بو وفو - تشيو ، واموي وكنتون .

اخيراً ، بعد ان اوجس الشوغون خيفة من المرسلين ومن تأثيرهم السياسي على البلاد ، طرد عام ١٦٣٦ ، السفن البرتغالية . ولم يسمح لها بتفريغ شحنها . ثم امر بإبعاد كل البرتغاليين من اليابان حتى من جاء من اولادهم بالزواج من برتغالي وياپانية . ومنذ عام ١٦٤٢ ، سمح للهولنديين وحدهم بالتعامل مع جزيرة دشيا والاتجار مع اليابان ، هذه الجزيرة التي كانت عماد الحركة التجارية في بحار الصين ، وبذلك كادت هذه البحار تغلق في وجه الاوروبيين .

ففي سنة ١٦٤٠ ، ثار البرتغال في وجه اسبانيا وانضم سكان مكاو الى جانب ملك البرتغال الجديد ، مما سبب انقطاع العلاقات التجارية بين مكاو ومانيل ، وانخفاض بالتالي المنسوب التجاري بينهما ، الا ان مانيل عرفت ان تحافظ على علاقاتها مع سواحل فو - كيان . غير ان هذا الحادث السياسي وانهار انتاج الفضة في المكسيك والمنافسة الشديدة التي قامت في وجهها من قبل الهولنديين وضع حداً للدور العظيم الذي ظلماً مثلته كوسيط بين الصين واوروبا .

ففي النصف الثاني من القرن السابع عشر ، يتوزع النشاط التجاري ، بين اوروبا والصين ، على اكبر الدول ، كما اخذ نطاقه ، كما يبدو ، يضيق اكثر فاكثر . ان اقبال اليابان في وجه التجار الاوروبيين خفض كثيراً من اهمية الحركة التجارية ، في هذه البحار . فلم يعد يسمح للهولنديين ان يدخلوا اكثر من سفينتين الى اربع سفن في السنة بعد ان بلغ عدد السفن من قبل ١٢ سفينة ، ثم جاء طردهم من فورموزا عام ١٦٦٢ على يد القرصان كوكسندا ، وفقدوا مراكزهم المتحصنة بالحركة التجارية بين كنتون وناغازاكي ، وبين ننج - بو ومانيل . اما الاسبان فقد وفقوا ، عام ١٦٦٩ ، الى عقد اتفاق تجاري مع دولة تسنغ ينظم الحركة التجارية بين مانيل وكنتون وننج - بو . وهكذا اطردهم السفن الصينية الى مانيل . الا ان فدورة الريال الاميركي احدث رجفة وهبوطاً في مستوى الحركة التجارية .

اما الانكليز فقد قاموا من جهتهم بعدة اسفار ، كالرحلة التي قام بها هنري بونفورد الى مكاو ، عام ١٦٣٦ . وقد شعرت الشركة الانكليزية للهند الشرقية طويلاً بضعفها حيال النهوض بأسباب التجارة مع الصين . والراجع ان الشركة المذكورة حاولت في اواخر القرن ان تنظم تجارتها مع الصين ، اثر اشتداد الطلب على الشاي في انكلترا . ومنذ عام ١٦٩٩ ، اخذت الشركة تقوم برحلات منتظمة . ونالت عام ١٧٠٠ ترخيصاً لها بفتح وكالة لها في كنتون .

اما الشركة الفرنسية للهند الشرقية ، التي تأسست بفضل مساعي الوزير كولبير ، فقد حصلت على حق التجارة الفرنسية مع المعجم والصين . الا ان اهتمامها انصرف بالاكثـر ، الى الهند ، وتخلت عام ١٦٩٨ عن احتكارها المتاجرة مع الصين . وفي هذه السنة بالذات اسس الصناعي الباريسي الكبير جوردان الذي كان يعنى بصناعة البور « شركة الصين » وذلك نزولا عند مطلب المرسلين وبحثا عن الاموال اللازمة للرساليات الدينية . وتآلفت الشركة من تجار باريسيين واعضاء البرلمان ، وقامت الباخره أمفريت بأولى رحلاتها ، الى الصين ، عام ١٦٩٨ / ١٧٠٠ ، وعادت حاملة شحنة من الحرير الخام والاقشة الحريرية عادت عليها ببيع واقر بحيث وزعت على المساهمين حصصا بلغت ٥٠ ٪ من رأس المال . وانضمت الشركة الى شركة اخرى في سان مالو ، واستؤنفت الحركة التجارية مع مكاو واموي ، ولا سيما مع كنتون ، بالرغم من بعض التغييرات التي لحقت بالشركة في فرنسا . الا انه صدر منذ عام ١٧١٣ قرار بمنع استيراد الحرير الصيني منعاً لمنافسته الحرير الفرنسي . ومنذ ذلك الحين دب الوهن الى الشركة الفرنسية .

وقامت الباخرة سانت انطوان ، عام ١٧٠٨ بالانتفاف حول اميركا ، وجاءت والقت مرساها في مدينة كونسبسيون في الشيلي ، ومنها بلغت الصين عن طريق بحار الجنوب . وحذا حذوها سفن كثيرة بعدها .

سجل تاريخ الحركة مع الصين ، منذ سنة ١٧٠٠ ، طلوع حقبة جديدة اذ لقي كل الاجانب استقبالا حاراً في كنتون ، مع انهم أقصروا على التعامل مع الصينيين بواسطة فريق معين من تجارهم ، عرفوا باسم *Hunistes* بينما وجدت اوروبا نفسها في ازمة من التأخر والقهقرى التي طبعت الحركة الاقتصادية ، في القرن السابع عشر . فالحكومات الاوروبية انهمكت ، بل غرقت في هذه الطروب الواسعة التي وقعت في عهد لويس الرابع عشر ، ولا يتمالك المراقب المنصف نفسه من الشهور بالتفتت والتأخر .

اما من البر ، فما زال الروس في تقدم مطرد . فقد فصل بينهم وبين الصين في آسيا حاجز من القبائل البدوية الرحل . الا انهم اصطدموا بالصينيين ، في الشمال الشرقي من منغوليا . فبعد ان قام الروس باستكشافاتهم الجغرافية في حوض نهر العامور على يد رحلتهم بواركوف (١٦٤٣ - ١٦٤٦) ، اسسوا على النهر المذكور ، قلعة البازين عام (١٦٥١) . اما الصينيون ، فقد حرصوا من جهتهم ان يبقوا تحت اشرافهم المباشر ، المشارف المطلة على الصين من الشمال . ففي سنة ١٦٨٥ ، تمكنوا بواسطة ٢٠٠ مدفع صيها لهم الآباء اليسوعيون ، مقابل ثلاثة للروس ، من الاستيلاء على نرشنسك ، واعملوا فيها النار وانسحبوا منها . وعاد الروس الى احتلال هذه المدينة ، عام ١٦٨٦ . وقام الصينيون بمحاصرونها من جديد ، بالرغم مما قام بين الجانبين من رغبة صادقة في اقامة اتفاق سلام دائم . فصينيو الشمال كانوا بحاجة للفراء ، وفي مقدور سيبريا ان توفر لهم من الفراء الجميل ، ما لا يقبل لمنشوريا ومنغوليا بتقديمه . كذلك رغب

الروس ، من جهتهم ان يوطدوا صندوق دولتهم ، بالمعادن الثمينة ، عن طريق بيع الفراء . وكان الروس يجهلون اللغة المنشوية والصينية كما كان الصينيون ، يجهلون ، هم ايضا ، الروسية . فاستخدموا ترجماناً فيما بينهم ، راهباً يسوعياً في بكين يدعى الاب خربيلون وفي ٦ ايلول ١٦٨٩ ، وقع الطرفان معاهدة ترنسنسك ، تحلى الروس بموجبها ، عن حوض نهر العامور للصينيين ، لقاء اطلاق الحرية لرعاياهم بالتجارة في الصين ، بعد تزويدهم بما يلزم من الترخيص القانوني . وهكذا امكن للروس ان يبعثوا كل سنة بقافلة الى بكين . فكانت هذه المعاهدة اول معاهدة تمقدها الصين مع دولة اوروبية .

كل هذا النشاط التجاري لم يتناول ، نسبياً ، سوى مقادير طفيفة من البضائع والسلع اذا ما قارناه بالنشاط العارم الذي سجلته التجارة العالمية في القرن العشرين . فقد انقطع لهذا النشاط عدد من الاوروبيين قضوا معظم حياتهم العاملة ، في الشرق الاقصى ، بينما عرف فريقتي آخر بينهم ان يحقق ارباحاً وافرة . عادت هذه التجارة ، على اوروبا ، بنتائج لا تنكر ، اذ ضمنت لها وصول الفضة سبائك او نقداً مسكوكاً ، جاءها بالاخص ، من الصين وجزر السونند ، وساعد على توفير كميات المعادن الثمينة في اوروبا وساعد على تأزم الوضع الاقتصادي ، خلال الضائقة التي نشبت اظافرها في القرن السابع عشر .

اما في آسيا فالنتائج التي ادت اليها هذه الحركة التجارية ، كانت اكبر أثراً وابعد شأناً واهمية . فقد لعب الاوروبيون ، في هذا المجال ، دور المثير المحرض ، فعاد ذلك بالنفع على الصينيين اليابانيين وسكان الفيليبين والمالو . وكان من نتائج هذه الحركة ، كما يرجح العارفون ، إدخال الاقتصاد النقدي الى اليابان بعد عام ١٥٦٩ ، وما ادى اليه توفر النقد من نتائج اجتماعية هامة . الا ان نمو التجارة البحرية وظهور بروجوازية قوامها التجار دليلان مهمان على ما كان لهذه الحركة من شأن بعيد . ومع ذلك فلم تحدث اي تغيير ملموس في حضارات الشرق الاقصى ولا في الحضارة الاوروبية . ولم تحل الازمات الاقتصادية التي وقعت في العالم الجديد وما ادت اليه من تقلبات ، من تأثير ظاهر على الوضع الاقتصادي في الشرق الاقصى ، ومن الشرق الاقصى على اوروبا . وهكذا اصبح بالامكان التحدث عن اقتصاد عالمي ، تتناول العالم بأسره .

٣ - التبشير بالمسيحية في اليابان والصين

التبشير في اليابان وفلسفة الأنوار
في كانون الأول ١٥٤٧ ، قدم بحارة برتغاليون ، لدى عودتهم من اليابان ، الى فرنسوا كسافيه ، قرصاناً يابانياً من جنود المرتزقة ، اسمه ياجيرو ، أخذته الندامة على ما اقترفت يدها من معاص وموبقات . فلم يعرف كهنة بلاده ان يؤمنوا له راحة الضمير وهدوء البال ، عندما طلب اليهم مساعدته . فلقنه فرنسوا كسافيه اصول الدين المسيحي ، وعمده في مدينة غوا ، في العاشر من ايار ١٥٤٨ ،

يوم عيد العنصرة بالذات ، وسمّاه بالعماد : بولس ده سانتافيه ، فكان فاجيرو بذلك اول ياباني يعتنق المسيحية ، ولأول مرة أيضاً وجد فرنسوا كسافيه أمامه انساناً شرقياً يناقشه ويحاده مبدئياً فرقاً عظيماً بين وضعه ووضع هؤلاء الهنود الذين يتقبلون بلا مبالاة ما يلقي اليهم من تعاليم جديدة ، وبين حقد المورو في الفيليبين واعراض البراهمان في الهند ، بحيث نُخيل الى فرنسوا كسافيه امكان قيام مسيحية في اليابان يمكن ان تقوم بأمر الرسالة ونشر الايمان بين الآسيويين في الشرق الاقصى . وقد ذكر فاجيرو بطيبة قلب ، وبدون أنايئة مبطنة ، بعض التفاصيل السطحية جعلت فرنسوا كسافيه يتصور ان ديانة اليابان قريبة من المسيحية وان امر اعتناقهم للتعالم المسيحية سهل التحقيق ، قريب المعنى .

والحقيقة انه قام بين المسيحية والديانات اليابانية كالشنتوية والبوذية هوة سحيقة بعد ان تمثلت الأولى ، الكون ، مليئاً بالوف الأرواح *Kami* تسرح في الشمس والقمر وتوجد مع الريح والمافسة وفي الينابيع والمجاري المائية والصخور والأشجار وغيرها . وبين هؤلاء الأرواح *Kami* أرواح الأبطال والجدود الأوكل لنبله البلاد واشرافهم . وهذه الأرواح طغيات تقوم على مراتب مسلسلة ، زعيمها إما تراسو إلهة الشمس . فقد ارسلت نينسي نوميكوتو ، جد جيمو - قنوو ، اول امبراطور قام في اليابان . وتمت للناس السيطرة على هذه الأرواح بالصلاة والطهارة والتطهيرات الطقسية وتنفيذ الوصايا الخمس : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزني ، لا تجزع للأمراض التي لا دواء لها 'يستطب به ، والصفح عن اهانات الغير .

أما البوذية فكانت على مذهب مهيانا الذي جاء من الصين في القرن السادس ، الذي امتص الشنتوية وتمثلها ، إذ قال وعلم ان الأرواح هي مظاهر وأشكال آنية لبوذا . وتفرّج عن البوذية عدد لا يحصى من الملل والنحل ، امها آنذاك ، من الوجهة الاجتماعية والسياسية ، مذهب إيكو *Ikko* وهو كيه *Hokké* وزن *Zen* . اما أتباع مذهب إيكو وهو كيه فقالوا ان الخلاص انما يحصل باستحقاقات بوذا . ويكفي المؤمن في مذهب إيكو ان يبتهل ولو مرة واحدة لبوذا - اميدا ، بإيمان حار وصادق برحمته وحنانه ، لينال بنعمته وشفاعته : « الأرض النقية » حيث ينعم بالفيض الاشراق . فالخلاص هو ايضاً من نصيب افقر الناس وواضعهم حالاً إذ يكفي له حركة بسيطة من حركات القلب . وقد قالت هذه الطائفة اساساً بالمساواة ولم يكن لها من طقوس ومراسم ، ولا كهنة عندها ، اتباعها من طبقات الشعب الدنيا ولا سيما من الفلاحين والمزارعين . اما طائفة هو كيه *Hokke* ، فالخلاص لدى اتباعها انما يحصل بتلاوة صلاة معينة ، تلاوة متصلة بخشوع « تكريم لوتس الحقيقة الكاملة » التي على يدها تم الحقائق المعلنه في كتاب الشاكا . وترى في المريد او التابع ، نفس بوذا الكونية الخالدة . وكان بإمكان هذا المذهب ، ان يعمد ، ببساطته ، الوحدة بين اليابانيين ، وان يؤمن القوة للدولة . ولذا فطائفة الهوكيه التي كانت لها اتباع كثيرون ، بين الشعب ، كانت بمثابة ديانة اليابان القومية .

اما طائفة زن فقد فرضت على اصحابها ان يستجمعوا تفكيرهم ، حول تعاليم بوذا ، في

محل منفرد او دير يعرف باسم Zendo او « بيت التأمل » ، وهناك يحاول ان يشجرد من احوائه ورغائبه بالزهد والتعشق والطاعة . فهو يضرع ويتأمل بحيث يذوب او يفرق في « الفراغ » ، في المطلق ، غير ان مذاهب المنطق ومصطلحاته وصيغه تفقدنا قسماً من الحقيقة فتحجرها وتقتلها . فالمهم في الدرجة الأولى الحصول على الحقيقة ، الحية ، النابضة ، والوصول الى المطلق في هذه الكائنات الخاصة ، وفي الحال ، عن طريق الاكتناه . وإذ ذلك يتم الفيض فجأة ، ويلمححة طرف يرى المؤمن العالم كما كان يبدو لبوذا سكياموني نفسه ، وبذلك ، يرى نفسه متحرراً : فما من شيء يزعيجه او يقلق خاطره . وهذا المؤمن لا يمكن ان ينعم بهذا الفيض إلا بالمجاهدة الشخصية . اما قدرة المعلم زن فتقوم في ان يقسط له الـ koan ، بحيث يتجاوز بعيداً ، كل مظاهر الفكر الى ان يتبين للمؤمن ما في الألفاظ والكلمات من خواء وفراغ اجوف .

اما الكوان فهو صيغة او وضع فوق تناول المنطق وادراك العقل . فعندما يسأل المؤمن : « من هو بوذا » يجيبه الربان زن : « الخيزران ينبت قريباً من الهضبة » . فالقصد الذي يرمي اليه المعلم او الربان هو ان يصطدم المؤمن بالكوان ، الى ان يتبين ، فجأة ، خواء صيغ الفكر والفراغ القائم وراء تراكيب وصيغ النعوى والمنطق الصوري ، وكل اشكال الفكر ، الى ان يتألق للنور سوله ، وتبدو له الحقيقة . بعد هذا الفيض يعود المؤمن الى الحياة في العالم ، بين الناس ، ويمتثلط بحياة المجتمع ليلبغ النضج باتيانه اعمال البر والتقى وبمحاولته ، في كل دقيقة ، ان يرى ماجريات الحياة المعادية كما يراها بوذا نفسه . وهكذا يختلف صاحب مذهب زن عن الهنسيدي اليوغني من حيث ان هذا الأخير ينقطع للوحدة والتنسك لينوب في المطلق عن طريق الخطاف الذات . صحيح ان القائل بمذهب الـ زن يحاول ، هو الآخر ، الذوبان في المطلق ، انما عن طريق العيش في العالم ، وعن طريق السلوك الشخصي بواسطة الرؤية الشخصية . وهكذا فطائفة الـ زن هي المدرسة الفردية التي انتشرت بالأكثر ، بين النبلاء والمسكربين .

وبدون ان يفتن لشيء من هذه الأمور التي تلبس التركيب الديني في اليابان وللصعوبات التي تنتظره من جراء هذا الوضع ، حط فرنسوا كسافيه رحاله في ١٥ آب ١٥٤٩ ، في الطرف الجنوبي من جزيرة كيوسو اليابانية في خليج كاغوشيما ، وبصحبه فاجيرو والآباء الاسبانيون كوسم ده تورييس وشوان فرنانديس . وراح فاجيرو يخبر الحاكم شيازو تاكاهيا ، في مدينة كوكوبو ، ما لفرنسوا كسافيه من شأن رفيع ومنزلة عالية لدى البرتغاليين ، فراح هذا يأمل ان يفد التجار البرتغاليون الى مرفئه ، عن طريق كسافيه وتحريضه لهم . واصدر في الحال امرأ اجاز فيه لرعاياه اهتماماً الديانة المسيحية . واخذ فرنسوا كسافيه بالتبشير ، الا انه لم يلبث ان تبين انه راح ضحية الروم والخيال : فالكهنة يؤمنون بمالم لا بداية له ولا نهاية ، وانهم لا يقولون بخلود النفس الشخصية ، كما اتضح له ان اليابانيين ألفوا عملية الاجهاض وقتل الاطفال ، وانهم ممن اصحاب اللواط وعبادة الاصنام . فلم يكن لهم اية فكرة عن خلق العالم ، ولا أي رأي او فكرة عن الخطيئة . وهكذا رأى نفسه ، بعد سنة واحدة ، بذل منها من الجهد ما بذل ، انه لم يستطع

ان يكسب للمسيحية التي جاء لشهرها ، سوى مائة شخص لا غير .

وفي هذه الغضون ، وصلت سفينة برتغالية الى هيرادو الواقعة الى الشمال الغربي من كيوسيو .
وإذ راح شيازو تاكاهيا يتبرم متأفئفاً ، صارحه المرسل الكاثوليكي ان لا سلطة له على التجار
البرتغاليين واذ ذاك ، اصدر هذا الحاكم اوامره لرعاياه بالامتناع عن التنصر تحت طائلة عقوبة
الموت ، كما حظر على المرسلين الاقتراب من مقامته او العمل فيها .

وفي تشرين الأول ١٥٥٠ جرى استقبال حار لفرنسوا كسافيه في هيرادو من قبل الحاكم
ماتسودا تاكانوبو ، أملاً منه ان يكون ذلك حافزاً على تمتين علاقاته مع التجار البرتغاليين .
وسمح لكسافيه بالتبشير بالمسيحية في إيالته . ومن هناك اتجه فرنسوا كسافيه لمقابلة الامبراطور
في كانون الثاني ١٥٥١ أملاً منه بالحصول على ترخيص له بالتبشير بالمسيحية 'بمعمل بموجبه في كل
اليابان ويصلح للتبشير دونما معارضة في أي مكان . وكم كانت دهشته عظيمة اذ اتضح له ان
الامبراطور لم يكن سوى مسكين يلهو ببيع المراتب والالقاب الشرفية . ثم حاول ان يقابل
الشوغون ، فراح الحرس يرد بعيداً هذا الزائر الطارئ الذي يرتدي الاسمال والثياب الرثة .

واذ ذاك قرر فرنسوا كسافيه انتهاج نهج جديد في رسالته التبشيرية . ان فقره وعدم مبالاته
بالاهانات التي كان البعض يلحقها به حملت الناس على الاستهانة به والسخر منه وتلقينه الالاب .
'هزأة فيعرضوا عن الديانة التي يبشر بها ويدعو الناس اليها . فارتدى آنئذ زياً جميلاً من الحرير
الثلين وراح يهاجم الهازئين به ويرد على تحركاتهم بالسوء عليه . واذ اتضح له ان اقربى اسباد
اليابان وامراتها هو النسييل الحاكم أوشي بوشيتاكا ، حاكم سوفو ، قصدته في قصره في ياماغوشي ،
على ساحل البحر الداخلي . وقد رجا هذا الزعيم ان تسهل له هذه الزيارة اسباب الحصول ، من
البرتغاليين ، على الذهب والاسلحة النارية ، ولذا رخص للرسولين اليسوعيين بالوعظ والتبشير
والتنصير ، وقد وجد فرنسوا كسافيه في ياماغوشي بلاطاً ذواقه عالي الثقافة يعجب اهله الجسدل
والنقاش ، فترتفع منزلته بينهم ويزداد نفوذاً واحتراماً لدى القوم لمعومه الرافرة ولعرفته علم
الفلك . وبفضل إتقانه لمنطق ارسطاطاليس واخذة بالقياس بوقع البليلة في قلوب محاربيه
ومجادليه ويمعلم يتخبطون في بحر سن المتناقضات والسفاسف والترهات ، لم يعرفوا لهم منه
مخرجاً . واخذ فرنسوا كسافيه يزداد شعوراً ويتحمس على ضوء اتصالاته هذه ، الفرق بين
الديانات اليابانية وبين الديانة المسيحية . فقد ترجم كلمة ' الله ' بكلمة : داي نيشي : « مبدأ
الكائنات » . كذلك تبين له ان كلمة ' الاصل الاول للاشياء » لا تعني الله
الحالق او المبدع ، بل انما تعني عندهم ' الهبولي ' التي توسع تحت الحسواس . واذ
ذاك انطلق من فلسفة طليمية صرفة ، وبرهن عن طريق العقل ، عسـن وجود الله الشخصي
وعن خلقه العالم ، وعن خلود النفس البشرية .

فاستج عليه اليابانيون قائلين : « اذا كان الله خيراً هو ، فما معنى هذا الشر الذي نراه امامنا

على الارض ؟ فاجابهم قائلا : ان الله كلي الكمال . فكل ما ليس في الله لا يمكن له ان يكون كاملا ، والا اختلط بالله وامتزج به . فالشر في العالم ، على عكس ذلك ، دليل على وجود الله الخالق الشخصي . وهكذا نرى فرنسوا كسافيه اخذ يبشر بوحدانية الله على نور العقل بقطع النظر عن الوحي الالهي . ولما كان مشعبا بتعاليم الرسول يوحنا فقد ظن ان المسيحية ستنبع من ذاتها فيما بعد . وراح يعمد يابانيين لم يكلمهم قط عن يسوع المسيح ، وبعد العماد كان يظلمهم على لب المقيدة المسيحية ، ورسالة السيد المسيح ، وسرّي التجسد والغداء والصلب . وهذا المنهج هو الذي عول عليه المرسلون اليسوعيون فيما بعد ، في كل أنحاء الشرق الاقصى ، كما في اوروبا ، وربما طبعوه في جامعاتهم في اوروبا ، اذا ما اقتضى الأمر . أفلا تصبح الديانة الطبيعية مبدأ الايمان بالله مجرداً عن الوحي ، اصل فلسفة الانوار .

ومها يكن ، فقد توصل فرنسوا كسافيه ، منذ تموز ١٥٥١ للحصول على ارتدادات بين حكام المقاطعات وبين النبلاء وبين سيدات البلاط والمفكرين . وبالرغم من جهوده ، فقد حصل بعض التشويش من جراء تأخره في البحث عن الخصائص المميزة للديانة المسيحية باستعماله بعض المصطلحات اليابانية ومن بعض التشابه الخارجية . فقد خلط تلاميذه بين « الرياضة الروحية » التي علمها اغناطيوس ده لويولا وبين تأملات زن ، وانزلوا صلاة الوردية منزلة الزوزو التي تتألف من ١٠٨ حبات اشبه ما تكون بالسبعة ، كذلك خلطوا بين هذه التعاويذ الحيرية التي تحتوي في داخلها صلاة بوذية وبين حجبات فرنسوا كسافيه التي كانت تضم آية من آيات المزامير . فقد رأى فريق لا يستهان به من المرتدين ان المسيحية انما هي شكل جديد او صيغة جديدة من صيغ البوذية .

وأخر حجة عند كهنة اليابان على عدم صحة المسيحية هي عدم اعتناق الصينيين لها وعدم اخذهم بتعاليمها . ولذا توجه فرنسوا كسافيه نحو الصين ، في تشرين الاول ١٥٥١ ، بعد ان اقام تقريبا ٣٠ شهراً في اليابان . فقد كان من إشعاع ايمانه وشدة تأثيره على روح المسيحيين في اليابان ان بعد مائة سنة تمر على وفاته ، كان الشهداء اليابانيون ، يضرعون ، وهم يقاسون عذابات الاضطهاد الوانا ، ويتوسلون وهم في حشجة الموت ، الى القديس فرنسوا كسافيه .

خلفه في رئاسة العمل الرسولي ، الاب كومم ده توريس ، من ١٥٥١ - ١٥٧٠ ، واستمر التبشير بالانجيل في هذه المرافىء التي كانت تؤمها السفن البرتغالية . وقد يكون الآباء اليسوعيون هم الذين نظموا ، عن طريق السلطات البرتغالية ، الرحلة السنوية الى اليابان ، بعد ان طلبوا ممن يبيد الحل والربط الا ترسو السفن البرتغالية الا في هذه المرافىء الواقعة ضمن المقاطعات التي اجازت حكومتها التبشير فيها بالمسيحية ، امثال : اوتومو يوشيا في فوناي ، واوشي يوشيتاكا في سوفو ، ومنتورا تاكانوي في هيرادو . فالرغبة في التغلب على منافسه ، حملت حاكم مقاطعة اومورا سوميتادا ، على اعتناق المسيحية ، عام ١٥٥٣ ، كما حملت خصمه ومزاحمه حاكم أريما على الحدو حذوه . كذلك نجح اليسوعيون في تحقيق ارتدادات في مقاطعات غوكيناى وفي

مناطق اوزاكا وساكي وكيوتو وفي جزيرة هونشو. وقد حاول حكام الحصون في هذه المقاطعات ، ان ينتزعوا مع ما لديهم ، من رهبان اديار البوذية ، بعد ان اختلفوا معهم ، ما كان لهم من نفوذ وسلطة على الفلاحين والجنود .

كانت النتائج التي توصلوا اليها ، سريعة العطب ، واهية . ففي هذه الفوضى التي تتسكع فيها اليابان ، يكفي ان يحدث انكسار احد الحكام الاصدقاء ، حتى يخسر هذا الحاكم كل مقاطعته ، ومن ناحية اخرى ، كان اليسوعيون بأشد الحاجة للنقود . فقد اضطروا ، منذ عام ١٥٥٥ ، ان يستودعوا بعض التجار البرتغاليين ، مبلغاً من المال لشراء كمية من الحرير من الصين ، يبيعونها لحسابهم في اليابان ويدفعوا لليسوعيين الارباح بعد قطع عمولة عليها ، التي تمكنهم من العيش والاستمرار في رسالتهم . وقد تأمنت هذه التجارة عندما راح حاكم مقاطعة اومورا سوميتادا المسيحي يميز اليسوعيين التبشير بالانجيل في ناغازاكي عام ١٥٧١ ، حيث كانت تصل الباخرة البرتغالية . وقد راح الاب فالغنا في ينظم تجارة اليسوعيين عام ١٥٧٨ بعقده اتفاقاً مع تجار مكاو . وقد غض البابا النظر عن هذه المعاملة اذ لم يكن القصد منها الكسب والارباح لجرد الربح ، بل في سبيل العمل المسيحي . وهكذا استطاع الآباء اليسوعيون ان يتمددوا على ربح يحققونه ، يتراوح بين ٤٠٠٠ - ٦٠٠٠ دوقا في السنة .

اما الاب بلتارار غاغو الذي كان على رأس الارسالية في هيرادو فوناي ، فقد قامت بينه وبين رهبان زن مجادلات دينية ، فسندحت له الفرصة بذلك ان يضع كتاباً بعنوان : « ووجز ضالات الكفار في اليابان » . ولاول مرة جرى التمييز بين الشنتوية وبوذية ، كما انضمت حقيقة هذه الايماءات المزعومة لشاكا اميدا . فقد جاء على لسان شاكا في الكتاب المنسوب اليه وعنوانه : « لو طس الحقيقة الكاملة » : على كل انسان ان يسعى لخلاصه بعمل الخير وبالتضرع الى هوتوكيه المختص لئلا تذهب نفسه للجحيم ، بل على عكس ذلك ، تذهب الى النعيم . وهذا توصل الاب غاغو الى الاكتشاف الاساسي في ان شاكا نفسه في كتابه المذكور اعلاه ، يعترف في آخر الكتاب بان تعليمه ليس سوى *Hobun* ، اي ليس سوى الكذب . مضحكة ، ممددة لهذه الجواهر الجاهلة المتوحشة . وسقيمة تعاليمه التي تنفق تمامها مع تعاليم البوذية ، هي انه ليس هنالك مخلص ، ولا روح ولا نعيم ولا جحيم ، فالفردوس او النعيم هو طمأنينة النفس في الانسان بعد ان يكون تغلب على ما فيه من رغائب واهواء ، والالم واللذة والشعور بحيث يصل الى الوضع الذي بلغه بوذا . اما الجحيم فيتمثل في وضع هذا الانسان الذي استسلم بكليته لجميع اهوائه في هذا العالم . فليس من الدر شخصي متسام ، فالبدء الاساسي او *Hombum* ، لا يحمي ولا يعمش ، ولا يموت ، ولا يمتزج عملياً بالعناصر الاربعة التي من تمازجها وتخالطها ، والتركيب المختلفة التي تؤول اليها ، تطلع من هذه الكائنات . ليس من نفس فردية او شخصية ، اذ ان كل شيء يتركب من هذه العناصر الاربعة ينتهي دوماً الى الانحلال . والحال ، ان هذه الافكار الاساسية في عقيدة شاكا وجدها غاغو لدى كل المذاهب البوذية كما انه كشف

عن جميع الاتجاهات المتضادة تماماً ، بين البوذية والمسيحية . ولكن هذا *Hoben* ، ألا يوجد في صلب اساس هذه الفكرة المألوفة في فلسفة الانوار ، التي تقول بان الديانات الموحى بها هي من نسج هؤلاء الكهنة السحرة وخرزغلاتهم ؟

واذ ذاك عمد الاب غاغو الى اعداد تعليم مسيحي جديد ، عدل فيه عن النهج الذي سار عليه فرنسوا كسافيه باستعماله المصطلحات اليابانية التي خلقت هذا الالتباس بين البوذية والعقائد المسيحية ، واستعمل بدلاً منها مصطلحات لاتينية وبرتغالية مع مرادفات باليابانية ، منها مثلاً : « *Substantia Hitotsuna , Personu - Mitsuna - Spiritu Suneta , Filio , Pater , Deos* ... » وشدد بعكس فرنسوا كسافيه على بعض الافكار الاساسية في المسيحية ، كالخطيئة الاصلية ، - المسيح - التجسد - الفداء . الا انه رأى ، هو ايضاً ان يؤجل ، الى ما بعد ، الكلام عن يسوع المصلوب ، لان فكرة الله المصلوب لا يمكن ان تتقبلها الذهنية اليابانية . فمثل كل شي ، يجب تنصيرهم بالمهاد والتدريج ، فيما بعد ، في عرض اصول تعاليم المسيحية .

واستطاع الآباء اليسوعيون ، منذ عام ١٥٧٠ ، ان ينصروا حكام بعض الولايات اذ ان تنصيرهم كان يجر معه تنصير سكان كل الولاية او المقاطعة ، امثال اومورا سوميتادا ، وآريما يوشيسادا ، واوتومو يوشيهجه . ووثقوا صداقاتهم مع اودا نوبوناغا عن طريق احد جنوده المدعو هيدا يوشي . وقد لقي اودا نوبوناغا معارضة كبار اديار البوذيين وعدائهم . ففتح امام اليسوعيين الولايات التي تم له فتحها ، ونصف ولاية هونود . واخذت المسيحية تتسع وتنتشر مع التنظيم الجديد الذي تم للدولة اليابانية المناهضة لتنفيذ الاديار البوذية التي كانت في عداد الامارات السيادية .

وقد قرر الاب فالغنياني خلال الفترات الثلاث التي قضاها في البلاد: الاولى من ١٥٧٩-١٥٨٢ والثانية من ١٥٩٠ - ١٥٩٢ ، والثالثة من ١٥٩٨ - ١٦٠٣ انشاء اكليروس وطني ياباني . وفي هذا السبيل انشأ كلية في فوناي ومدارس اكليريكية في كل من آريما وأتوشي ودير ابتداء في أوزوكي ، كما اكثر من انشاء مراكز ثابتة للرساليات ضم الواحد من ٦ - ٧ رهبان يسوعيين ، يساعدهم الـ *doshukus* وهم من الاخوة العلمانيين . ويشد من ازهرهم علمانيون عرفوا بحسن تقوam يدهون *Cambos* . وهكذا اصبحت اليابان «نيابة ابالة رسولية» . فقد بلغ عدد المسيحيين فيها في مطلع القرن السادس عشر نحواً من ١٥٠ الفاً، توزعوا على ٢٠٠ كنيسة او رعية انتشرت في كل مكان حتى في الجنوب من جزيرة يازو . اما المجتمعات المسيحية الكبرى فقد قامت في جزيرة كيو - سيو ، وفي هوندور في مقاطعة غو - كيناي . والدليل على ما بلغت اليه كثافة المسيحيين في البلاد الوفادة التي جاءت روما والتي تألفت من حكام اومودا وآريما ، وهما اميران أتيا مع شقيق حاكم بونغو. وحاكم آريما ، فاستقبلهما البابا ، عام ١٥٨٥ ، والدموع تنهمر بغزارة من عيون الكرادلة لشدة الفرح .

جاء تنظيم الدولة الجديد في اليابان يحد من عمل الرسالة وانتشار المسيحية بعد ان كان الوضع من قبل ، مسعفا لها . فقد دهش هيدا يوشي من نفوذ اليسوعيين وما لهم من شأن بين الحكام المسيحيين ، وخشي من ان يدفع اليسوعيون ، البرتغاليين على الاعتداء ، كما انه أوجس خيفة من ان يقضي تشدد الحكام المسيحيين الى القضاء على الكهنة البوذيين وهدم الهياكل والاديار التي لهم في البلاد . لم يكن هيدا يوشي ليرضى او ليسلم بزوال البوذية التي عرفت ان توطئن الشتوية ، في اليابان وترسخ اصول عبادة الجدود ، فكانت بذلك مدرسة ولاء وثقة في نظر رؤساء الدولة ، كما وضعت ما لها من نفوذ في خدمته بعد ان اصبح سيد البلاد وقائدها . فقد ساعد تنظيم الدولة اليابانية على ايقاظ الروح الوطنية في البلاد كما بعث الحيوية والنشاط في طائفة الهوكيه المعروفة بمدائها ومقمتها للاجانب . وقد رغب هيدا يوشي ان يقيم علاقات تجارية مع الاسبان في الفلبين وان يقوي من شأن هندو ، مركز اقامته ، وقاعدة قوته على حساب كيو - سيو . ومن جهة اخرى كان التجار البرتغاليون يتعاون اليابانيين بالألوف ويشحنونهم عبيدا ارقاه الى مكاو والفلبين او الى الصين . فاصدر عام ١٥٨٧ ، امراً بطرد اليسوعيين من البلاد . الا انه خشية باخفاق الضرر بالحركة التجارية لم يعمد الى تطبيق هذا القرار . واستقبل الآباء الفرنسيون الاسبان على امل اقامة علاقات تجارية مع مانيل . وعلى اثر اشاعات نشرت الرعب والهلع في البلاد ، امر بتاريخ ٥ شباط ١٥٩٧ ، بصلب ستة آباء فرنسيسكان و ٢٠ يابانياً مسيحياً ، فكانوا اول شهداء يابانيين يمجدون بدمهم وحياتهم في سبيل المسيحية وتوطيدها .

وتابع يايازو سياسة سلفه هيدا يوشي . ففي سنة ١٦٠٢ ، اصدر امراً أكد فيه للاجانب حرية الاتجار في اليابان ، وحظر التبشير بالمسيحية ، الا انه غض النظر عن نشاط المرسلين . وقد حاول ان ينشط حركة الملاحة البحرية في هذه الممتلكات العائدة للدولة اليابانية ، وان يجعل من أوراغا المنافسة الكبرى لناغازاكي . وتمكن اليابانيون من الحصول على سفن اوروبية الصنع واعطى الشوغون عام ١٦٠٤ ، نحواً من ٢٩ ترخيصاً بالملاحة ، كما انه صدر في عهد خالفه ، ١٩٧ ترخيصاً جديداً اعطيت كلها عام ١٦٠٧ . وهكذا اخذت سفن يابانية ، بجارتها يابانيون ، تصل الى الهند وتبلغ اميركا . ويبدو ان اليابان اخذت تتجه للعمل في المدى التجاري بين المحيطات .

الا ان حاكم مانيل لم يستجب لطلب يايازو ببناء سفن جديدة لليابان كما انه حظر على السفن اليابانية دخول الفلبين مع انه كان سبق ليازو ورحب بمقدم بعثة من الآباء الفرنسيون والدومنيكيين والاوغوستيين الاسبان . ومن جهة اخرى ، فقد توصلت الشركة الهولندية للهند الشرقية الى عقد معاهدة تجارية ، مع يايازو ، عام ١٦٠٩ ، وانشاء وكالة تجارية لها في مرفأ هيرادو . وحذا الانكليز حذوم ، عام ١٦١١ وتم في ما بعد انشاء مراكز هولندية وانكليزية ، في ساكاي وكيوتو وغيرهما . وقد كانت خفت بالتالي حاجته للبرتغاليين والاسبان . وفي سنة ١٦١١ تلقى الشوغون من موريس ده تاسو ، حاكم هولندا العام ، رسالة تحذره من الكهنة

الكاثوليك باعتبارهم جواسيس وعميون على اليابان يتآمرون لبعث التمرد في البلاد، تسهلاً لعملية فتح يقوم بها الاسبان والبرتغاليون. وقد راح الموقف الصلف الذي وقفه وفد اسباني يزيد الشك ويشير الظنون في قلب الشوغون ويؤيد هذه الدعوة . وقد جاء عام ١٦١٣ ، اكتشاف بعض وثائق لدى احد الحكام توضح للاجانب خطة لمهاجمة اليابان ، مع قائمة بالحكام والنبلاء المشتركين بهذه المؤامرة التي جاءت ثالثة الاثافي .

ومن جهة اخرى راح ييازو يمالء الكونفوشية ، كما صورتها معالم تشو - هي ، كما راح فوجيوارا سيكوا (١٥٦١ - ١٦٢٠) ، يعلن على رؤوس الاشهاد ان المبادئ التي تنادي بها الكونفوشية هي نفسها المبادئ التي تقول بها الشنتوية ممثلة بصدق الولاء والاخلاص التام للامبراطور ، واهلن موقفه المادي للبودية . وهكذا نرى ان ييازو لم يمد بحاجه الى المسيحية طالما يستطيع ان يعتمد كلياً على ديانة آسيوية ، يابانية تناهض الاديان البودية للحد من نفوذها القوي في البلاد . واعلن بتأثير من هياشي رازن (١٥٧٣ - ١٦٥٧) ، ان التشوية دين الدولة الرسمي ، وحرّم كل دين آخر في البلاد مما منع قيام اي جدل ديني فيها . فكل مخالفة تعرض صاحبها للسجن وللنفي او للموت .

وهذا النجاح تصييه التشوية في اليابان كان من اليسر والسهولة ما يحتاج به دليلا على ان اليابانيين لم يفقهوا شيئاً من الروح العلمية في الغرب . وبالنظر لما هم عليه من روح عملية ، فقد كرهوا الخوض في فلسفة ما وراء الطبيعة والمنطق الصوري والرياضيات ، دون ان ينظروا او يهتموا ، من قريب او بعيد ، الى الاسباب والعوامل التي امنت لاوروبا ، التفوق التقني .

واخيراً راح ييازو يربط اليابان بهذه النظم السيادية والاقطاعية التي سخرها لتأمين فوزه ونجاحه . ولم يكن ليهمه كثيراً ان يرى ، الى جانب الحركة التجارية ، طبقات اجتماعية قوامها التجار والبرجوازيون .

وهذا ما يفسر لنا الخطوة التي لقيها هياشي رازن والثقة العظيمة التي تمتع بها عند ييازو وخلفائه الاقربين ، حتى اصبح وزيراً للداخلية ، عام ١٦٢٩ . فهو واضع القانون الذي صدر بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٦١٤ والذي يوجب على الشعب الامتثال للامر الصادر اليه بالتخلي عن المسيحية . فمن خالف ولم يمثل صدرت الاوامر ، في الحال ، بابعاده . فلا عجب ان يحدث هذا القرار ثورة بين المسيحيين تولى قيادتها هيدا يوري احد احفاد أشيكاغا . فقد كان وعد اليسوعيين باعطائهم حرية التبشير بالمسيحية . فلا عجب ان يدعمه اليسوعيون بكل ما لهم من نفوذ عريض في البلاد . الا ان هيدا يوري غلب على امره في معركة سيكيغانارا . وفي سنة ١٦١٦ ، راح الشوغون هيدا قيادا يؤكد من جديد منع الديانة المسيحية . وامر باعدام كل من يحاول ادخال مرسلين ومبشرين الى اليابان . وراحت الحكومة اليابانية تضحي شيئاً فشيئاً بالحركة التجارية في البلاد . وتكرر في السنوات ١٦٣٣ - ١٦٤٠ صدور الاوامر التي توصي باقفال اليابان في

وجهه الاجانب ، كما حظر على اليابانيين السفر للخارج او ارسال اية سفينة يابانية للخارج ، كما حظر على الآباء اليسوعيين دخول اليابان . ومنعت المسيحية تماماً في البلاد . وقد وضعت جوائز مغرية لكل من يخبر عن وجود المسيحيين او يسدل على رهبان دخلوا البلاد خلسة ، كما فرضت المسؤولية المشتركة بحيث تناولت خمس اسر معاً . فعلى اولاد البرتغاليين والاسبان ان يفادروا البلاد ، للحال ، كذلك حظر ادخال كتب اجنبية الى البلاد .

ليس بغريب قط ان تقيم هذه الاوامر والقوانين ، المسيحيين وتقدمهم وتحملهم على الثورة والعصيان . ولعل اهم الحركات الانتفاضية التي قاموا بها كانت ثورة اماكوسا ، عام ١٦٣٧ . وقد انكسر المسيحيون بفضل مدافع الهولنديين بادارة هولنديين ، وتقديراً لهذه الخدمات ، صدر ، عام ١٦٣٩ ، امر اعتبر البرتغاليين والاسبان اعداء البلاد ، ولذا امر بطرد تجارهم واخراجهم من اليابان . وبقي الهولنديون وحدهم في البلاد بعد ان كسروا الانكليز وتغلبوا عليهم عام ١٦٢٣ ، الا انهم تم حصرهم واقصروا على خليج ناغازاكي ، على جزيرة دشيا الاصطناعية . وراح الشوغون ، منذ ذلك الحين ، يحدد هو بنفسه ، سعر الحرير الذي يستورده الهولنديون ، انها ترك اسعار السلع والبضائع الاخرى حرة . صحيح ان الهولنديين استمروا في تجارتهم ، انما نقص حجم هذه التجارة كثيراً .

استطاعت الجماعات المسيحية ان تعيش متخفية بفضل مسبحة الوردية ، كما استطاع بعض الابداء وبعض الفضوليين من اليابانيين ان يستوردوا ، عن طريق ناغازاكي تهريب كتب علمية واجهزة علمية ، من اوروبا . وظهر عام ١٦٥٠ كتاب « الفلك عند برابرة الجنوب » الذي نشر نظريات كوبرنيكوس حول مركز الشمس . وهكذا استطاع العلم في اوروبا ان يحيى حياة مستخفية في اليابان الى ان رفع الشوغون يوشيموينه ، عام ١٧٢٠ ، الحظر عن الكتب الاجنبية وامر باعداد تقديم فلكي جديد على اساس العلم في الغرب .

لم تلبث الرسائل الدينية ان وعت ، ببطاء كلي ، الاوضاع القائمة في الصين والتي يجب ان يحسب لها حساباً ، في كل عمل رسولي ترغب القيام به . فوضع القائمون عليها خطة

نشر المسيحية في الصين والاراض التي احاطت بها

عمل تكفل لهم التغلغل داخل البلاد وبين الاوساط الشعبية .

تؤلف الصين عالماً مغلقاً على نفسه . وقد استقر في اذهان الصينيين انهم الشعب الوحيد في العالم الذي تمت له اسباب الحضارة والتمدن ، وان سواهم من شعوب الارض يتسكع في دياجير البربرية والظلمة العقلية . والحرائط التي وضعها الصينيون تجمل من الصين قطب العالم ونقطة الدائرة ، وتحمل منها تسعة اعشارها ، يحف بها نثار من الجزر التي يقطنها البرابرة ولا يجوز الدخول الى حرماها الا للسفراء يقدمون ولاء البلاد التي يمثلونها وخضوعها برفعهم الهدايا السنوية للامبراطور ، يحف بهم عدد من التجار وبعض الخاصة الذين أخذوا بها للصين من شهرة بعيدة

في الحكمة والاخلاق، فجاؤوها التماساً للفضائل البشرية وليعيشوا على طريقة الصينيين : رعايا مخلصين للإمبراطور . «فما من دير للراهبات يتفقد مثلهم بقواعد التحصن ، (الأب الفارو) .

باشتر المرسلون محاولاتهم الاولى عام ١٥٥٢ ، ولم يلبث الكهنة والرهبان المرسلون ان وجدوا الصينيين جد حذرين من الأجانب المتشائمين ، الجشعين ، القساء ، وانهم يختلفون عنهم اختلافاً كبيراً ، اذ ان ابي اوروبي ، مها بدا وديماً ، هادئاً ، مسالماً ، يبدو ، اذا ما قيس بالصيني الوديع ، المتأنى ، الصبور ، حاد الطبع ، ملتهباً يستشيط غيظاً . فالاوروبي يحمل أنفاً بارزاً ، وعينين غارقتين في محجرهما ، لونها غريب مستهجن ، كث اللحية ؛ بينما الصيني أفتس الأنف ، عيناه سوداوان تبرزان على مستوى رأسه ، أمرد الوجه ، خفيف شعر الرأس .

ايقن فرنسوا كسافيه ان ارتداد الصين للمسيحية من شأنه ان يحرر وراه ارتداد اليابان ، بعد ان ظهر له بوضوح ، ان حضارة اليابانيين تعود جذورها الاولى الى الصين ، هذه الصين التي وصل اليها في طريق عودته من اليابان ، في آب ١٥٥٢ ، ونزل الى البر على مقربة من مكاو ، وحاول عبثاً الدخول الى الصين ، وفاضت روحه من الضنى والوهن في ليل ٢ - ٣ كانون الأول ١٥٥٢ .

ومنذ ١٥٥٤ ، تمكن بعض الكهنة والرهبان من الاقامة في مكاو بعدد قليل جداً ، اذ ان هذه المدينة لم تكن سوى أسكلة ترسو فيها السفن في طريقها الى اليابان . فقد توصل أولهم الاب غريغوريوس غونزاليس ان يكسب للدين المسيحي ، بين ١٥٥٤ - ١٥٦٨ ، نحو آمن ٥٠٠٠ صيني ، في مكاو ، بالطرق التقليدية المتبعة التي قامت على تعليم موجز يتبعه العماد بالجملة . واخذ الآباء اليسوعيون ، منذ عام ١٥٦٠ ، يضمون جهودهم ، في هذا المجال ، للجهود المبذولة ، بعد ان بامت بالفشل كل المحاولات التي قاموا بها للنزول في كنتون .

وقام الاسبان من جهتهم ببعض المحاولات ، منطلقين من الفيليبين ، واستطاع الراهب الفرنسي سكاني ده دادا الدخول الى فو - كيان عام ١٥٧٤ ، وكان اول من تعلم الصينية ، وجمع مجموعة من ١٠٠ كتاب صيني بينها وُصف لامبراطورية الصين ، والآثار الصينية وعلم الازمنة الصينية وكتب في الحكم والادارة ، واخرى في المالية والقوانين والطب وعلم الفلك الصيني . وقد إستل من هذه الكتب مجموعة منتخبات نشرها في اوروبا احد رفاقه هو الأب غونزاليس ده مندوزا ، ١٥٨٥ .

غير انه لم يعم بين الاسبان والبرتغاليين اي تعاون بهذا المجال اذ راح كل فريق ينظر الى الكرازة والتبشير بالإنجيل من زاوية عمل قومي وطني يعود أثره على بلاده . وابي البرتغاليون ان يسمحوا بالعمل الرسولي ، في مكاو الا للمرسلين الذين يقيمون الولاء للملك البرتغال ويمرون ، قبل قدومهم ، بلبشونة والبرتغال وغوا . وحظر الاسبان ، من جهتهم الدخول الى ممتلكاتهم والقيام بالتبشير لأي كاهن او راهب غير اسباني الجنسية . ورخص الكرمي الرسولي عام

١٥٧٥ ، للبرتغاليين ان يجعلوا من مكاو كرسياً أسقفياً باعتبار صاحب هذا الكرسي ، مطران الصين واليابان والأراضي والجزر المجاورة ، مما يجعل الفيليبين من ضمنها . وقد رد الاسبان على ذلك يجعل مانيل كرسى مطرانية عام ١٥٧٨ ، انما وضعت مانيل سهواً على بعد ٢٠٠٠ فرسخ من ساحل الصين مما جعل الاسبان مستثنين من الصين .

الديانة الصينية ومع هذا وبالرغم من تصرف الأب دادا ، لم يفقه المرسلون شيئاً من الديانة الصينية كما تبلورت في عهدهم ، اذ كانت عبارة عن مراسم دينية حوت الطقوس الزراعية القديمة ، والطاوية والبوذية طلع بها الكونفوشيون المثقفون . فقد ظهرت في القرن السادس عشر على صيغة من الطاوية او البوذية المنقاة بينما بقي جبهة الشعب الصيني على أعراف الكهنة الطقسية الشخصية ، تحت اسم بوديساتفا (بوتاه) او عرفت باللقاب او السميات الطاوية ، امثال « السهاوي المحترم » او « الخالد » . فقد نظروا الى آلهتهم باعتبارهم افراداً من البشر استحقوا بعد حيوات متتالية ان يرقوا الى مصاف الآلهة . فالاعتقاد بتناسخ الأرواح عقيدة عامة عندهم ، مع انها كانت تتعارض منطقياً وعقلياً مع عبادة الجدود . وقد رأوا في هذه الآلهة طبقة من الموظفين نالوا ، بعد طول صبر وعناء ، الترفيع الذي يستحقوه ، وراحوا بشخص ثنائيلهم يهدون بوظائفهم الى ارواح العادلين من حلتوا محلهم ليرفعوا لهم تقارير مفصلة في المواعيد المعينة . ففي طليعة هذه الآلهة : السماء او تسان - تي ، رب الاعالي الذي يحمي الاختيار ويقاضي الاثرار ، ويشرف على نظام الكون ، يسمع كل شيء ويقضي في كل شيء . ويأتي بعده الهه الظواهر الطبيعية : « كوت الريح » ، « رب المطر » ، « سيد الرعد » : جلاّد السماء ، « امبراطور الجبل الشرقي العظيم » موزع الحظوظ ومقدر الأعمار .

ويأتي بعد ذلك ، سلسلة من آلهة الحقول . فكل ولاية وكل قضاء له : « إله الجدران والغدران » الذي ييسط الاراضي ويسهر على من فيها من السكان ، ويوطد السلام ويحلب السعادة ، ويصدر أوامره لهذا العديد من الآلهة المحليين الموكلتين : بالشارع ، والجسر والحقل . لكل منهم معبده وهيكله او مصلاه .

وفي المنزل إله الأسرة وزوجه « الهه الباب » وكلاهما قائدان قديمان من أسرة نانغ : إلهة النينوع وإلهة المرحاض ، وغير ذلك ، واخيراً ارواح الجدود التي تسكن في مشكاة توضع على مصطبة في الدار ، ولكل إله من هذه الآلهة العديدين طقوسه المرسومة وعبادته التكريمية الخاصة . وكل سكان المنزل يشتركون مع ارواح الجدود في عشاء سرّي .

اما الأعياد الدينية فعديدة هي : منها عيد المصاييح لراحة أرواح الموتى ، وعيد تنظيف المدافن ، وعيد القمر ، وغير ذلك ، وعيد رأس السنة ، اذ كان إله المنزل يصعد الى السماء ليؤدي حساباً لسانغ - تي عما وقع في الأسرة ، خلال السنة ، من وقائع وحوادث . ولعل أم هذه

الطقوس عبادة الجدد، والبر البنوي مدى الحياة، وهي طقوس كثيراً ما اختلقت بعبادة اميتا با ومراسم الطقوس البوذية .

كل هذه المراسم والطقوس وما اليها من حفلات كان المثقفون يفسرونها وفقاً لشروح تشو - هي او تفسيراته المتشعبة بالمادية ، فيردن فيها وجهاً من وجوه الظواهر الطبيعية . واذ كانوا يمتقدون ان الدين مفيد للشعب ، 'مسئل له ، فقد أضفوا عليها شكل الديانة القديمة . « فمئذما تعصف الارياح ، وينهمر المطر ويقصف الرعد ويتلألأ الجو بالبرق فهذا دليل على ان الالهة تتكلم لغتها وتعبّر عن ارادتها ، وتعرب عن مشيئتها . وعندما يسكن الريح وينقطع المطر ويسكت الرعد وينقطع البرق ، فتلك اعمال من فعل الالابسة » . اما المثقفون فقد رأوا « في الالهة مظهراً لبايخ ، وفي الالابسة صورة ليين . ولذا حرص الموظفون *mandarins* الحرص كله على احترام المظاهر الخارجية لهذا الشعور الديني في الجماهير الشعبية ، مع انهم لم يكونوا يؤمنوا بها .

بالنظر لعدم تفهمهم اسرار هذه الطقوس وجهلهم لعقلية هؤلاء الموظفين اسباب اليسوعيين فقد جاءت نتائج الجهود التي بذلها المرسلون ضميعة جداً ومغيبة للأمل ، بحيث ان اليأس غمر نفوس الجميع وامتألت نفوسهم ، في أواخر القرن ، غمراً وقنوطاً . وقد راح الناس في مكاو يتندرون ويتفاكهون قائلين : انه لايسر ان تبيض بشرة الزنجي من جعل الصيني مسيحياً . إلا انه في سنة ١٥٧٧ ، عندما مر الاب فالتاني ، الاب الزائر لهذه النيابة الرسولية ، بمدينة مكاو ، رسم لعمل الرسالة الدينية في الصين وفي اليابان ، خطة جديدة تضمنت حلاً مبدئياً لهذه المشكلة التي بدت لهم أعقد من ذنب الضب ، وهو مبدأ التنسيب او التوافق مع اعراف وعادات سكان البلاد ، اذا لم تتعارض مع مبادئ الديانة المسيحية وعقائدها الجذرية ، كما انه اوصى اليسوعيين بتعلم اللغة الصينية وان « يتصنوا » قدر المستطاع .

وقدر رأى معظم رجال الاكليروس واليسوعيون بينهم في هذه الاقتراحات مفامرة جنونية . الا ان فريقاً صغيراً من الآباء اليسوعيين ادرك جيداً ما في اقتراحات الاب فالتاني من صواب ومنطق ووضعوا خطة للتفلفل بين الصينيين ، قابلها فريق كبير منهم بالهزء والسخرية .

وراح راهب يسوعي ايطالي الجنسية هو الأب روجييري الذي كان دكتوراً في القانون ، وعمل قاضياً من قبل ، يدلل ، منذ عام ١٥٨٠ ، على اهمية التقيد بالآداب والاعراف الصينية كقول الراهب أمام الناس أعزل من السلاح ، والركوع اثناء انعقاد جلسات المحاكمة ، والانعناء عدة مرات معفراً الجباه بالتراب ، واستعمال تعابير تم عن الخضوع والخشوع والتواضع عند التكلم عن الذات ، والإكثار من عبارات المديح والثناء عند مخاطبة الآخرين . ولم يلبث ان ألحّ الموظفون على الاب روجييري حضور المناقشات وجلسات المحاكم ، لانه ، في

نظرم يتفوه بالحكمة ويقضي بالعدل ، ويفتي بحكمة ونصفه ، بمباراة هيئة ، وديعة ، ناعمة ، ولا يحمل سلاحاً ، وهي نقطة حساسة في نظر هؤلاء المثقفين الذين يزدرون كل ما هو عسكري . كذلك أدرك الاب روجييري ، ضرورة التخلي عن الزي الاوروي واخذ يرتدي لباس الرهبان البوذيين . ومنذ ذلك الحين اخذ الصينيون يلقبونه بـ « سونغ » وهو اللقب الذي اعتادوا اطلاقه على الرهبان الاجانب . وهكذا اصبح البابا عندهم « السونغ الأعلى » الذي يوفد الوفود .

وانشأ روجييري في مكاو وكالة خاصة سماها : « منزل القديس مرتينوس » حيث عاش في عزلة على طريقة الرهبان الصينيين مع تلاميذه الموعظين . ثم قدم إلّياسا الى نائب الملك جاء فيه : « رسالتنا هي ان نخدم الله وان نقتبس العلوم المختلفة . وقد علمنا ونحن في بلادنا ان الشعب الصيني شعب طيب ، حلیم ، هادئ ، منطقي له طقوس واعراف ممتازة ، ولديه الكثير من المعارف والعلوم ، وعنده الوافر من كتب الحكمة والاخلاق الحميدة ومكارمها ، وهذه الأسباب ، وحبا في الانتفاع من كل هذا ، والاقتباس من ينابيع الحكمة ، والتعرف الى امجاد هذه الامبراطورية ، والميش بين هذا الشعب الممتاز ، غادرنا بلادنا وجئناكم قاصدين » . وقد رخص نائب الملك وسمح لهذا البربري بالدخول الى الصين ، بعد الذي ابداه من حسن الاستعداد للقبس من الحضارة الصينية . وفي العاشر من ايلول ١٥٨٣ ، أسس الاب روجييري اول مقر للكنيسة الكاثوليكية في عاصمة كوانغ - تونغ ، في تشاو - كنج - فو .

ولم يلبث ان التحق به الاب رتشي . فعرفا ان يثيرا فضول الموظفين بما بدا من ثقافتها العالية وعلمها الكثير ، وبما تم لها من تقنية الغرب ومهارة في صنع الساعات الكبيرة والساعات اليدوية والكتب والخرائط الجغرافية التي تظهر عظمة الكون واتساع الاراضي التي لا تدخل في الصين ، وصنع الاقفال والزجاج ، ورسم الصور مع المحافظة على المدى والالوان . ولما كان رتشي خريج الكلية الرومانية ، فقد ركب لخدمة الموظفين ساعات شمسية (مزاوول) ، ورسم خرائط مسطحة للكرة الارضية ، واخذ يعلمهم مبادئ الحساب والهندسة ، مما ادخل البهجة الى نفوسهم . وقد كانوا يجهلون تماما كل ما يتصل بصلة الى المنطق والتحليل الذي لم تكن لغتهم لتستجيب له لانها لغة ايجائية ، تصويرية ، رمزية . ووضع لهم سلسلة من المقدمات جعلتهم يطيطون فرحاً .

ودار بين الآباء والموظفين ، محادثات استمرت من اربع الى خمس ساعات راحوا يفتنموها فرصة للبحث في امور الدين ، وقد عرض روجييري طريقته في العرض والبسط التي استوحاها من القديس بولس والقديس يوحنا ، في كتاب له سماه : « شرح التعليم المسيحي » ، وضمه سنة ١٥٨٥ فكان اول عرض للديانة المسيحية باللغة الصينية ، جرى طبعه على مطبعة حجرية ، ووزع منه اكثر من مليون نسخة في جميع انحاء البلاد والولايات . كان عليه ان يثبت هؤلاء المفكرين الماديين ان قواعد الدين لا تخالف العقل ولا المنطق . وكانوا كلهم على

اطلاع تام بهذه الاكتناحية ، التي قال بها وعلم وانغ - يانغ - زومنج ، كما ألفوا ان يجدوا في ضمائرهم قواعد السلوكية الانسانية . ومن هنا انطلق الاب روجييري ، وراح يدلل على ان الانسان يجد في ذاته الخير « *Le Sen* » ، هذا الخير لا يمكن ان يكون مصدره الطبيعة البشرية . فالكمال هو له وحده . وهذا الخير لا يمكن ان يأتي الا من كائن هو كل الخير ، هو ملء الخير بالذات . فالكمال الأتم هو الله . فكمال الخير ، اي هذا القصد الدائم المستمر ان نعمل دوماً كل ما هو خير للآخرين ، لا يمكن ان يكون الا من إله شخصي ، له فرديته ، يشعر من ذاته ، ويريد الخير بذاته . فالطبيعة انما قامت لخدمة الانسان ، كما هو واضح . والدليل على ذلك ؟ - الدليل هو في تسلط الانسان على الحيوان ، وقدرته على تحويل المعادن وفلزاتها التي يستخرجها من اعماق الارض وداخل الجبال . ولكن : هل يمكن للطبيعة ان تفسر نفسها بنفسها او تعلق نفسها بنفسها ؟ . فاذا ما جئنا نبحث عن سبب حادث او ظاهرة طبيعية وتوصلنا الى معرفته ، كان علينا ان نبحث عن اصل هذا السبب ، وهكذا دواليك . ولذا كان لا بد لنا من ان نصل الى علة العلل ، الى علة تكفي نفسها وتشرح كل العلل . فهذه العلة الاخيرة ، هذه العلة الاولى انما هي الله ، مبدع الكائنات ، وخالق الطبيعة ، وما عليه هذه الطبيعة من نظام ، وهذا النظام يحتم ان تكون هذه العلة ، العقل الأسمى . اذن ، فالله يشعر من ذاته ويريد من ذاته ، له فرديته وشخصيته . فالانسان يحتاج للعقل وهذه الحاجة لا يمكن ان تجد شبيهاً في هذا العالم ولذا وجب ان يتم العقل في الحياة الاخرى ، في الحياة الباقية الخالدة ليتم شبع الانسان . اذن ، الانسان نفس خالدة .

وبعد ان اثبت روجييري وجود الله الفردي ، الشخصي ، بالعقل واثبت خلقه للكون ، وخلود النفس ، وراح يدلل بان الله غرز في قلب الانسان وركز فيه ، كل ما هو لازم وضروري ليعيش حياة سعيدة . غير ان الانسان اختار ، ببلء ارادته الشر والاثم . ولذا ارسل الله يوماً له مشارعاً هو موسى ليميد الانسان الى حالته الاولى . ثم عاد الناس ووقعوا في الاثم من جديد . ولذا قال الله في ذاته : لنضربن ضربة قوية . ولذا ارسل لخلص البشر ابنه الوحيد يسوع المسيح الذي تجسد في احشاء العذراء مريم ، تماماً كما تملأ الشمس بنورها بلسورة دون ان تمس بشيء سلامة هذه البلورة .

واول صيني اعتنق المسيحية جرى تنصيره في ٣ حزيران ١٥٨٥ وحمل اسم بولس . وقد بلغ عدد الارتدادات في آخر السنة ، ٣٠ مسيحياً . وفي نيسان ١٥٨٦ ارتفع عددهم الى ٤٠ . اما روجييري فقد ضعف جسمه ووهنت قواه واضطر ، عام ١٥٨٨ الى ان يتخلى عن العمل ويسافر .

اما رثتي فقد جرى نقله الى شيو - شيو بعد سوء تفاهم وقع له مع نائب الملك الجديد . وهناك تعرف الى احد المفكرين الادباء يدعى كيو - كاي - سو ، من هؤلاء الانسانيين الذين لا غش فيهم ، والذي هام بالعلوم الاوروروبية ، والذي وجهه الى رثتي من السؤالات

المهرجة ما ساعده على ان يكتشف ، ما بين ١٥٨٨ - ١٥٩٠ ، مقومات الديانة الصينية ، الا وهي الوثنية والبوذية والطاوية ، والكونفوشية ، على مذهب تشو - سي ، ولاول مرة توصل اوروبي الى تفهم صحيح للديانة الصينية . كذلك ادرك الاب رتشي ان الوسيلة الوحيدة للدخول الى قلب الطبقة الاجتماعية العليا في الصين ، في هذه البلاد الشاسعة ، لا تقوم بان يبدو المرء كاهناً فقيراً مزدري ، بل ان يظهر بمظهر العالم المثقف . ولذا راح يتفقه بالأدب الصيني . فترجم الى اللاتينية الكتب الاربعة المنسوبة الى كونفوشيوس وهي :

وال *Y-King* او كتاب التحولات

وال *Chou King* اي الكتاب المقدس

وال *Chi King* اي كتاب الشعر

وال *Li-King* اي كتاب الطقوس

ففي الوقت الذي كان فيه الموظفون الصينيون لا يتعمقون الا في كتاب واحد من هذه الكتب الاربعة ، راح رتشي يدرسها جميعاً ويفوص في معانيها ومبانيها بدقة وإنعام نظر . فبعد ان تسلح بما تم له من اصول الفيلولوجيا الاوروبية ، وبدلاً من ان يقتصر على شروح وتفسير تشو - سي ، اعتمد هو رأساً النصوص ذاتها ، فوجد فيها معاني جديدة لم يصل اليها تشو - سي ، منها شخصانية الله وخلود النفس ومجد الطوباويين . وبهذا الاسلوب التحليلي الاوروبي ، فتح امام الصينيين امكانية الوصول الى معرفة واعية ، مدركة ، حية ، صحيحة ، لكتبهم المقدسة بنصها الحرفي ، مصدرراً للرق والتقدم . واذا ذلك قرر ان يتبنى اسلوب المثقفين وان يسير طريقتهم في الحياة ، منذ عام ١٥٩٤ ، بارقدائه القبطان الحريري الاحمر المطرز بالحرير الازرق ، والاكمام الفضفاضة والزناز العريض الاحمر موشى بخيط ازرق فاتح ، وان يسير دوماً محمولاً على محفة ، بصحبته كاتب سر وخادمان او ثلاثة بقفاطينهم الطويلة . واذا ذلك نظر اليه الناس باجلال واحترام . في هذه البلاد لا يمكن للمرء ان يشق طريقه فيها ، ولا ان يثري الا اذا عمل على احترام الآداب السلطانية .

وفي سنة ١٥٩٥ استطاع رتشي ان يستقر في نان - تشانغ في قلب الصين ، هذه المدينة التي تكثر فيها النوادي الادبية واكاديمية المثقفين . ونظراً لمعرفته الدقيقة للآداب الصينية استقبله نائب الملك استقبالا حاراً ومعه حاكم المدينة ووكيل الحاكم وغيرها من القضاة وكبار الموظفين وليف كبير من الادباء ورجال الفكر . وقد لفت انتباهه ولحظ بسرعة ان التقنية الاوروبية تستأثر بانتباه المثقفين ، والاهمية التي تحتلها عندم الفلسفة الادبية ، والاخلاقية ، والبحث في الفضائل والذائل البشرية ، والظلم والحلم ، والشرف ، والصدقة والانشاء الجزل ولما كان الاب رتشي مطلعاً كل الاطلاع على الادب اللاتيني ، فقد وضع كتاباً صغيراً حول الصداقة ضمنه ٧٦ حكمة او كلمة مأثورة إستمدتها من شيشرون ، لقيت الرضى والاستحسان

لدى الصينيين بحيث ان نائب الحاكم امر بطبع الكتاب ونشره على الملأ . ومنذ ذلك الحين اخذوا ينظرون الى الاب رتشي كأحد كبار حملة الثقافة في الصين كما اخذ المفكرون ورجال الادب يقدون عليه للتحديث معه . وكثيراً ما مال الحديث بهم الى الدين وشؤونه وشجونه فيستعمل رتشي طريقة الاب روجييري . ولحظ ان نطق المدرسين الذي حذقه في الجامعة يوليه مقدرة راجعة على كل المثقفين الصينيين الذين يجهلون تماماً استعمال الدليل ويقنع عدداً كبيراً منهم فيعتنقون المسيحية .

كل هذا والآباء اليسوعيون في وضع دقيق ينصرفون لرسالتهم بموجب ترخيص بسيط يبقون معه تحت رحمة نائب الحاكم او نائب الملك . ولذا ترتب عليهم الآن الحصول على ترخيص رسمي لهم بالاقامة الدائمة ، ومثل هذا الترخيص لا يصدر الا عن الامبراطور نفسه . فكل جهدهم في القرن السابع عشر سيصرف في هذا السبيل .

تسكن الاب رتشي من ان يقيم له علاقات وثقى مع بعض اليسوعيين في البلاط الامبراطوري الحصيان في البلاط الامبراطوري . وبالرغم من معارضة دائرة الطقوس وموقفها المعادي فقد رخص له الامبراطور ، عام ١٦٠١ ، الاقامة في بكين على حساب خزانة الدولة .

استقبل الاب رتشي استقبالا حسناً ، وهو الطالب الممتاز في الجامعة إستبحر بدرس مؤلفات الاب كلافيوس الرياضية ، وأحد كبار العلماء الذين ساهموا في اصلاح التقويم الفريغوري ، والهندسة وفق بناء المزاويل او الساعات الشمسية والكوسموغرافيا وفق تحديد خطوط الطول والعرض . وقد دخل في يقين الصينيين وروعهم ان حياة الانسان تقدرها مواقع النجوم والأبراج الفلكية . ولعل مهمة الحكومة الاولى تهية التقويم السنوي . فسامن صيني قط يقوم بأي عمل ما في حياته الا ويستطلع طلع برجيه المرسوم في مواقع النجوم ، ليري ما اذا كانت فآله ملائمة ام لا . والحال ، فالدائرتان اللتان تعينان بهذا الامر وهما الدائرة الصينية والدائرة الاسلامية كانتا على اسوأ وضع وحال . فالصينيون أهملوا الرياضيات واعتقدوا ان الارض مسطحة هي ومربعة وان حجم الشمس لا يزيد عن فتحة الدلو ، كما انهم اقتنموا بان الشمس عندما تغيب انما تختفي عن انظارنا وراء احد الجبال وان خسوف القمر انما سببه الخوف من الشمس . ولما تم للمغول فتح الصين ونشروا سلطانهم من الصين الى مشارق اوزوبيا ، في القرن الثالث عشر ، ادخل مسلمو ايران الى الصين ، الرياضيات وعلم الفلك . ثم استحال اسلام الاتراك المغول ، عام ١٣٦٠ ، الى اسلام عرف بمصيسته وتشدده الديني . وقامت في الصين ، عام ١٣٦٨ حركة قوية قضت على سلطة المغول في البلاد ، ورفعت الى دست الحكم اسرة منغ التي احتفظت فيما حافظت عليه بدائرة الرصد التي قام على ادارتها علماء مسلمون للفلك الذين لم يلبثوا ان صاروا الى مثل هذا المجتمع الصيني الذي تحدرت فيه العلوم الرياضية والهندسة

الى مستوى ادنى بكثير مما المحدرت اليه الهندسة الاقليدية من الالمحطاط والتأخر . فقد فقدوا معلوماتهم النظرية ولم يبق لديهم سوى بعض جداول وازياج نسوا طريقة استعمالها وتطبيقها على الحركات الفلكية . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تتسرب المفوات والمغالط الى هذه التقاويم ، فقدت ما هي بحاجة اليه من دقة وضبط واحكام ، شأن كل وضع تراخي فيه حلقات التقنية ، اذا ما أهمل العلم وتنوسيت مبادؤه واصوله .

وقد عن اللوزراء المسيحيين امثال بول سن - كيونغ - كي وليون لي - تشيه - تساو العمل على اصلاح الجداول الفلكية ، الصينية الاسلامية ، بالاستعانة بعلم الفلك الاوروبي . وقام الأب رتشي بترجمة هندسة اقليدس المسطحة الى الصينية ، خلال عام ١٦٠٨ ، مما اثلج صدر الصينيين لشدة فرحهم بهذا العمل .

واعتقد الاوروبيون انفسهم ان رقعة الصين تنبسط بين خطي العرض ١٨^٥ الى الشمال من خط الاستواء ، وبين الدرجتين ١٢٨ - ١٧٧ من خط الطول الى الشرق من الجزر الخالدات ، أي انهم جعلوا ساحلها الشرقي في قلب المحيط الهادىء . يجوار ارخبيل جزر مارشال . وراح الأب رتشي يحدد خط العرض بالاستناد الى علو النجمة القطبية فوق الافق ، كما حدد خطوط الطول على اساس الفرق في الساعة (الوقت) بين رؤية الخسوف في الصين ورؤيته في اوروبا ، وبذلك وضع الصين بين درجتي العرض ١٩ - ٤٢ وبين درجتي الطول ١١٢ - ١٣١ الى الشرق من الجزر الخالدات .

كثيراً ما جاء ماركو بولو في رحلته المشهورة الى الصين على ذكر كاڤي وذكر مدينة كبالو الجمية . فهل عنى يا ترى بذلك : الصين وعاصمتها بكين ؟ وراح الاب رتشي يدقق في الرحلة التي قام بها الاب اليسوعي بنتوده غويس الذي تنكّر بزى تاجر ارمني وسافر بصحبة قافلة من التجار مرت تباعاً بكابول وقرقاند وقشغر وكوغاند الى ان بلغت سو - تشيو ، عام ١٦٠٧ . فقد استكشف طريق خط العرض ٤٠ ، ولاحظ بانه اينما مر ، سمع المسلمين يدعون الصين كاڤي ويسمون بكين كبالو .

وراح الاب رتشي يصوّب من وسائل تحويل هذه الارقام والجداول . وعندما كان يحالفه الحظ فيفتح صينياً بوجود الله ، كانت اصعب مرحلة او نقطة لديه الانتقال به من الاعتقاد بالله عن طريق العقل ، الى المسيحية . فيروح اذ ذاك يستعرض عمل الديانة مطبقاً على الحياة فيصف عمل الكنائس والعبادة والطقوس الدينية وحياة المعلمين التقوية ، وحياة الرهبان والراهبات الخشوعية والعناية التي يحيطون بها المرضى والبائسين ، في المستشفيات والملاجىء ودور المعجزة ، وغير ذلك من أمور التعليم والتلقين والمساعدة الاجتماعية ، ومن عرض هذه الاعمال كان يرتفع بتعليقها الى الفكرة او الغاية التي تكمن وراءها : فيسوع المسيح الذي قبل الصلب تكفيراً عن خطايا البشر ، والذي قام ناهضاً من القبر وعاش حياً بينهم ، لا يمكن رؤيته

بالحس والنظر ، انما هو حاضر يستحق كل تكريم وعبادة يجب ان نحى به ومعاه المناولة وبالسير على خطاه في كل شيء .

والمشكلة الثانية هي التكيف مع الديانة والطقوس الصينية . فانطلاقاً من تعاليم الجمع التريدينتي ، جرى الاعتقاد ان كل المجتمعات البشرية وكل الحضارات التي ظهرت عبر التاريخ ، قامت في الاساس ، على امور واشياء خيِّرة مشتركة مطابقة لتعاليم المسيحية في بعض مظاهرها . فالآداب الصينية هي من الآداب الانسانية في الصميم . فالمشكلة هي ان نجد في هذه الآداب الانسانية الصينية وبين الكتّاب الاتباعيين الصينيين ، وفي هذه الجهود المبرورة التي بذلها بعض الصينيين لتحقيق 'مثل الانسانية السُّفلى' ، ما جاء مطابقاً او مؤتلفاً مع الديانة المسيحية . ولم يكن الاب رتشي ليجهل او ليففل عن مساوىء الصينيين وعوراتهم الذميمة ، كمبادتهم للاصنام ، وخرافاتهم السخيفة ، وعدم تحسبهم بأية شفقة او رحمة نحو الفقراء والمرضى البائسين حتى بين اعضاء الاسرة الواحدة . وكم بدا على الآباء والامهات الصينيين انهم يلقون باولادهم الصغار وهم مرضى ، بين الاقذار والاساخ ، وكثرة السرقات وقبشي الغش بين الصينيين ، وفضاظة الجماهير الصينية ، وانتشار عادة اللواط بينهم . فقد رأى في هذه العورات والمثالب بعض نتائج الخطيئة الاصلية . واستقر في يقين الاب رتشي ان الصينيين تلقوا من خلفاء آدم المباشرين الوحي القائل بوجود كائن اعلى ، وبانهم حافظوا منذ اقدم المصور ، على فكرة الله الخالق المبدع ، الى ان فسدوا ووقع بينهم الضلال كغيرهم من الشعوب وامم الارض ، وتاهوا في طقوس وعبادات ومراسم خرافية انشورية ، بينا اصول الديانة الصينية هي نفس اصول الديانة المسيحية . ويكفي ان يتوصل الصينيون للكشف عما هو مطابق في المسيحية للفكرة او العقيدة الاولى التي قال بها جدودم الاولون والفضل الذي يجعل لهم هذه القيمة المثلى في نظرم .

الا ان الصينيين كانوا يمتدبون ان جدودم الأول كانوا آلهة . فعبادة الآباء الاقدمين كما تبنت مظاهرها وتبلورت ، صنمية محضة لا تتفق مع صميم العقيدة المسيحية . وقد عثر الاب رتشي في الكتب التي خلفها كونفوشيوس اللا ادري ، قوله ان الطقوس ليست سوى مظهر خارجي من التسليم بمجموعة من الحكم والقواعد السلوكية ، التي تساعد المجتمع على السير بانضباط ونظام . فهي مجرد ضوابط مدنية لا غير . وهذا هو بالطبع اعتقاد هؤلاء المثقفين الماديين الذين كانوا معاصرين للاب رتشي . فقد نظر العامة الى كونفوشيوس نظرتهم الى فيلسوف ، بينا رأى المثقفون ، في هذا الرجل وعبادته وتكريمه : احياء لذكر رجل حكيم . ولذا خطر للاب رتشي انه يمكن السماح للصينيين المسيحيين بممارسة تكريم الجدود ، وتكريم كونفوشيوس نفسه باعتبار هذه العبادة او هذا التكريم قاعدة سلوكية مع تمسكهم داخلياً بعقيدتهم المسيحية .

بعد هذا ، ماذا عن عبادة الآلهة ؟ رأى فيها المثقفون او المستنيرون قوى طبيعية ، كما رأوا في طقوس عبادتها ، حفلات مدنية . ويبدو ان رتشي قبل الاخذ بهذا التخريج المجازي على شرط

ان ينقّي الصيني المسيحي نيته وان يرد ما يرى امامه من طقوس واحتفالات ، وهذه النذور والتقدم ، والتبركات والحركات والاشارات والايامات ، الى سيدنا يسوع المسيح ممثلاً بصليب او ايقونة يخفيها داخل ثيابه .

هذا ما يفهم بالطقوس الصينية عندما يطرح على بساط البحث والنقاش امر التكييف او التطبيق .

وبفضل هذه القواعد والطقوس امكن لنا ان نعد في بكين عام ١٦٠٨ نحواً من ٣٠٠ مسيحي معظمهم من كبار الموظفين ورجال الفكر والثقافة . ورقد الاب رتشي بالرب سنة ١٦١٠ ولسان حاله يردد : « ها انا اترككم امام باب مفتوح على مصراعيه » . ومنذ ١٦١٦ ، كان اليسوعيين في الصين سبع وكالات او مراكز للرسالة ، منها واحدة في بكين ، وواحدة في نانكين ، وواحدة في تشي - كيانغ ، واخرى في كيانغ - سي وواحدة في كنتون ، تضم معاً ٢٢ راهباً يسوعياً يرعون ١٣٤٠٠٠ مسيحي صيني .

كان التقويم السنوي في الصين مصلحة رسمية تتعلق بالدولة . وقد خلف الاب لنغو باردو ، الاب رتشي ، رئيساً عاماً للآباء اليسوعيين في الصين ، فجمع الاب باردو ، في اوروبا عدداً من مشاهير علماء زمانه في الرياضيات وعلم الفلك ، امثال ترنتيوس ، صديق غاليليو ، والاب آدم شال الذي وصل بكين عام ١٦٣٠ . واساء علماء الفلك الصينيون والمسلمون حساب كسوف الشمس الذي وقع في ٢١ حزيران ١٦٢٩ . واذ ذاك استصدر الوزير المسيحي بول سيو - كوانغ - كي من الامبراطور ، مرسوماً بانشاء دائرة ثالثة لعلم الفلك ومكتباً اوروبياً لاصلاح التقويم ، ووضع تقويم يومي للظواهر الفلكية يمكن الركون الى صحته . واذ ذاك أتيح للآباء اليسوعيين ان يدخلوا الى الصين اجهزة علمية حديثة كالجهر وان يعتمدوا الاختراعات التي تمت على يد غاليليو . فبعد ان تخلوا عن علم الفلك كما وضعه رتشي اعتماداً على بطليموس ، فقد تبنا الطريقة التي توصل الي وضما العالم الفلكي تيخو پراهيه ، والتي قالت بحركة الكواكب حول الشمس ، مع بقاء القول بدوران الشمس حول الارض . واستطاع الآباء ضبط التقويم كما نظمو بدقة جداول الريح ورفعوا نتائجهم هذه الى الامبراطور ، عام ١٦٣٥ ، واخيراً قام الاب شال ، يصب على الطريقة الاوروبية المدافع اللازمة لتحصين القلاع بحيث تستطيع الصمود في وجه المنشو .

وكان الاب شال قد عُين ، عام ١٦٤٠ ، رئيساً عاماً للآباء اليسوعيين في الصين . وبوحي من القديس بولس بقي في بكين ، بعد سقوط المدينة بيد المنشو ، عام ١٦٤٤ ، واصبح صديقاً لاول امبراطور من امرة تسنغ ، هو الامبراطور تشوان - تشي . فرقاه هذا وجعله موظفاً من الطبقة الاولى ، كما رفع من اصل اجداده ، وسمح له ان يرفع اليه شخصياً التماساته ومطالبه ، وعينه رئيساً لدائرة رصد الكواكب ، وهو مركز شغله الاوروبيون ، بلا

انقطاع ، حتى عام ١٨٢٥ . واخذ الاب شال يصب لاسرة سنغ المدافع التي كانت بحاجة اليها ، ووفق بين التقويم القمري المعمول به في الصين والتقويم الشمسي الغريغوري محققاً لنجاحات باهرة في هذا الحقل . واعترافاً بهذه الخدمات صدر فرمان امبراطوري يعلن الديانة المسيحية ديانة حسنة واعطى اليسوعيين ، عام ١٦٥٠ ، ترخيصاً ببناء اول كنيسة في بكين بعد ان بلغ عدد المسيحيين في الصين ، اذ ذلك ، ١٥٠ الف ، ثم ارتفع عددهم ، عام ١٦٦٧ ، اي في السنة التي توفي فيها الاب شال الى ٣٠٠،٠٠٠ نسمة .

مات الامبراطور تشوان - تشي ، عام ١٦٦١ . وفي عهد وصاية خلفه الامبراطور كانغ - هي ، ووجه علماء الفلك المسلمون الى اليسوعيين تهمة الخيانة العظمى مما افقدهم الحظوة في عين الملك . غير ان العلماء المسلمين وقعوا في اغلاط كثيرة عند وضعهم التقويم . واذا ذلك ، استدعى الامبراطور كانغ - هي ، عام ١٦٦٦ ، بعد ان اصبح راشداً ، الاب اليسوعي فريبييه الذي اصبح رئيساً عاماً للرسالة ، اثر وفاة الاب شال ، الى المجلس الامبراطوري واعلن ان علماء الفلك المسلمين ادخلوا في التقويم شهراً إضافياً راحوا يدعون من جهتهم انه لا بد من إدخاله ليستقيم التقويم . من نصديق واية جهة نشبل ؟ واذا ذلك امر الامبراطور كانغ - هي باستقدام مزولة شمسية وطلب من اليسوعيين ومن علماء الفلك المسلمين ان يعينوا له موضع الظل في المزولة ، عند الظهيرة . وفي الصباح قام الاب فريبييه بالعملية الحسابية بطرفة عين ، بينما استمعى الامر على الجانب الآخر . وفي اليوم التالي ، وقع الظل تماماً في الموقع والمكان الذي حدده الآباء اليسوعيون . وهكذا رجعت بوضوح كفة اليسوعيين وبرزت دقة علماء الاوروبيين وكلف الاب فريبييه باصلاح التقويم ، ثم عين رئيساً لدائرة الرصد ، كما عين موظفاً *Mandarin* من الدرجة السادسة ، واستأذناً للامبراطور وللكبار الموظفين في البلاط ، في الرياضيات وعلم الفلك . وعمل الآباء اليسوعيون كمهندسين وميكانيكيين وطوبجيين ، وتمكن المنشو بفضل المدافع التي صباها لهم الاب فريبييه من التغلب على الثائرين بزعامه وو - سان - كاي ، كما تمكنوا من الفوز بالروس عند نهر العامور . كذلك عمل اليسوعيون في حقل الدبلوماسية ، اذ قام الاب فريبييه بمفاوضة الهولنديين . وتمكن الاب غريلون من اعداد وتوقيع معاهدة نرتشنسك . توفي الاب فريبييه عام ١٦٨٨ . فقد كان سبق له عام ١٦٦٨ ، بعد ان تبين ضعف الدولة البرتغالية وتأخرها ، ان توجه بطلب المساعدة من فرنسا ، وبعد ١٠ ايام من وفاته اخذ يتوافد آباء يسوعيون من الفرنسيين ، ألفوا بدورهم رسالة ثانية الى جوار رسالة اليسوعيين تحت حماية البرتغال .

وكان من اهمية الخدمات التي اداها الآباء اليسوعيون ، حمل الامبراطور على اصدار مرسوم امبراطوري ، عام ١٦٩٢ ، رخص فيه لرعاياه بخدمة الله وعبادته في كنائس الاوروبيين ، وهذا الترخيص الرسمي بممارسة العبادة الكاثوليكية علانية ضمن الترخيص بالبشارة بالانجيل . وهكذا فالديانة المسيحية التي كان مسموحاً بها حتى آنذاك ، اصبحت معترفاً بها رسمياً الآن .

وفي سنة ١٦٩٣ ، جعل القصر الامبراطوري مقراً للآباء اليسوعيين . وفي سنة ١٧٠٣ ، اقاموا فيه كنيسة . وقام اليسوعيون الفرنسيون ، بين ١٧٠٦ - ١٧١٦ ، يعدون للامبراطور خريطة للامبراطورية الصينية ، عمل على نشرها وتوزيعها الجيوغراف انجيل الذي نشر ، عام ١٧٣٧ « أطلس الصين الجديد » .

اطلع علينا القرن السادس عشر باكتشاف اميركا او العالم الجديد ،
اثر الصين في
تطوير الحركة الفكرية في اوروبا
كما طلع القرن السابع عشر علينا باكتشاف الصين . ان معارضة افكار الاوروبيين بالافكار والمعلومات التي جموها عن الصين ساعدت كثيراً على توضيح الافكار الرئيسية التي كانت اساساً لمذهب الميكانيكيين وفلسفة الانوار .

عرفت اوروبا الصين ، اول ما عرفتها ، من خلال كتاب وضعه ده غوزاليس ده مندوزا الذي تم نقله الى الفرنسية عام ١٥٨٩ ، ثم عن طريق دراسة اضافية وضعها الاب تريغولت ، اساسها مذكرات الاب رتشي ونشرت عام ١٦١٦ . ثم صدرت مذكرات ورسائل اخرى لبعض الآباء اليسوعيين . وقد عرضت هذه المؤلفات واعادت الى البحث مشكلات عويصة .

في مقدمة هذه المشكلات ، مشكلة صلاح الانسان والخطيئة الاصلية . فقد عمل الآباء اليسوعيون على اساس المهانسة او التكييف بين اخلاقية كونفوشيوس والاخلاقية المسيحية . وهنا كان لا بد للمرء من التساؤل ما اذا كان الصيني الذي يأتي بهذه الاخلاقية ، ويسير يدها في سلوكه ، يتخلص ويذهب الى النعم . وقد اجاب الاب لا موت له فايه ، في كتابه الموسوم : « فضيلة الوثنيين » المنشور عام ١٦٤٢ ، بالايجاب ، مدلاً على ذلك بان كل حكماء الامم الذين لم تصلهم البشارة بالانجيل والمسيحية ، والذين اتبعوا التاموس الطبيعي ، وعرفوا بتقواهم ، قد تم لهم الخلاص . وراح الاب ارنولد الكبير يميز ما في هذا التعليم من خطل وخواء وبطلان ، وما يخفيه في ثناياه من سموم ، اذ في مثل هذا القول تأكيد بان الطبيعة البشرية بقيت ، بعد الخطيئة الاصلية ، سالحة وقادرة على اتيان اعمال الخير والصلاح ، ليستحق معها صاحبها ، جزاءً وشكوراً . فمثل هذا التأكيد يقضي بصاحبه الى الهرطقة البيلاجية ، اذ يقتل تماماً عقيدة الخطيئة الاصلية كما يقضي على ضرورة النعمة .

اما الثانية من هذه المشكلات التي يثيرها هذا الاعتقاد فتتمس في الصمم الميزة التي خصّ الله بها الشعب اليهودي منذ آدم ، هذا الشعب الذي عرف كيف يحافظ على وديعة الوحي وعلى صيانة التوراة والكتب الموحاة من الله ، هذه الكتب التي تؤلف اقدم تاريخ للبشرية . والحال ان قدام الشعب الصيني يضيع في ليل الزمن ويبدو انه اقدم ما تقصه علينا التوراة من اخبار حول ظهور شعوب الارض . فالتاريخ الصيني لفت نظر لا بايرير لقدمه فشجعه على القول بوجود بشر قبل آدم . فنشر عام ١٦٥٥ نظرية ما قبل الادبيين . اما جاء في الفصل الخامس من رسالة القديس بولس الى الرومانيين انه قبل خطيئة آدم ، كان الناس يخطئون رغم ان خطاياهم لم تكن

لتحسب عليهم ، اذ لم يكن الناموس قد جاء بعد ؟ أو ليس الفصل الاول من سفر التكوين يروي لنا قصة خلق العالم والانسان ، والفصل الثاني قصة خلق آدم والامة اليهودية بعد ذلك ؟ وعندما طرد الله قايين من امام وجهه ، ألم يقل له هذا : ان الشعوب التي سأصاها سيقتلونني مع انه لم يكن لآدم بعد ، سوى قايين وهابيل ؟ فاذا لم تكن التوراة سوى قصة شعب صغير جاء بعد غيره من شعوب الارض ، وليس تاريخ الانسانية وتاريخ العلاقات التي ربطت هذه الانسانية بالله ، كما تزعم وتدعي ، فهل يمكن ان تكون التوراة كتاب الله الموحى به والذي يفيض بمحاثق من المسير على العقل الوصول اليها بقوة الطبيعة ، مع انها فوق ادراك الانسان ؟ فالمسيحية والحالة هذه ، تصبح كلها مزعزعة . وقد اثار هذا الكتاب الشكوك في فرنسا وهولندا والمانيا والسويد . وفي سنة ١٦٦٩ ، وضع الاب اليسوعي مارتيني : « تاريخ الصين القديم » ، تكلم فيه عن اول امبراطور عرفته الصين سنة ٢٩٥٢ ق.م ، اي ٦٠٠ سنة قبل التاريخ الذي يمينه النص العبراني لوقوع الطوفان ، في مثل هذا الوقت الذي كانت فيه الصين مأهولة بكاملها وعلم الفلك الصيني يُعمل به ويُعتمد في جميع الاقطار . فقد جاء تاريخه هذا يقوي ويؤيد ، من حيث لا يدري ، نظريات لا بايرير والنتائج التي آل اليها .

وثالث هذه المشكلات هي مشكلة « الطقوس الصينية » . لم تكن هذه الطقوس ، في نظر الآباء الدومينيكيين والفرنسيسكان سوى مظاهر لعبادة الاصنام . فقد حملوا البابا ، عام ١٦٤٥ ، على اصدار براءة تزدل هذه الطقوس الصينية بذاتها باعتبارها مضادة للمسيحية وعلى نقيض منها ، ثم استصدر الآباء اليسوعيون ، عام ١٦٥٦ ، براءة بابوية تجيز هذه الطقوس دون ان يكون في الامر اي تناقض بين البراهين . فهذه الطقوس ، فاسدة ، مفسدة ، من حيث المبدأ والأساس ، ولكن تجنباً لشر اكبر ، وتقادياً للمحدد والبغضاء والمساء الذي سيتعرض له المرسلون في الصين ، يمكن نوعاً ما ، الاخذ بهذه الطقوس ، مراعاة للضعف البشري ، والتجاوز عنها مؤقتاً . وهكذا ، صدر من مجمع نشر الايمان ، عام ١٦٦٩ ، قراران ، باثبات البراهين البابويتين الصادرتين عام ١٦٤٥ ، و ١٦٥٦ .

وقد راح الرأي العام بدوره يتعرض لهذه القضية بالجدل والنقاش الحاد المزوج بالهزه والسخرية احياناً ، بعد ان شوّهت بشكل يدعو للاسف ، كما نرى ذلك في الرسالة الخامسة من رسائل بكال ، عام ١٦٥٦ . وفي هذه الرسالة الهجو القاذع يرشق به اليسوعيين ، بمنوان : « اخلاقية اليسوعيين العملية » ، مع انه لم يتعرض للنهج اليسوعي . وقد رجعت اليهم التهمة باخفاء تعاليم المسيح المصلوب ، والقيام باعمال تتنزى بالصنمية والشرك وتشجع على فساد الاخلاق .

وليس يستبعد قط ان تكون نظرية تشو - هي ، وهذه الحركات الدائرية المنسوبة الي كي تحت تأثير كل من Yin و Yan قد اوحت لديكارت بنظرية الزويمة .

فقد رأى لينيز في العلم طريقة تساعد على بناء مدينة شاملة من شأنها ان توحد بين الناس

اجمع ، وهذه المدينة الشاملة بإمكان الناس ان يشيدوها بمزج كل الحضارات التي عرقتها البشرية عبر تاريخها المديد . وانطلاقاً من مثل اليسوعيين في بكين ، راح عام ١٦٧٠ ، يقترح تأسيس جمعية انسانية *Soc philadelphique* ، وهي كناية عن جمعية تضم كل العلماء ، تأخذ على نفسها انشاء مكاتب اتصال او مكاتب ارتباط في الصين واليابان . وحاول ان يستنبط لغة عالمية من هذه الحروف الصينية ، ذات الدلالة وما لها من معان . وبعد ذلك يوحى له كانغ - هي « هذا الملك الذي يتجاوز بقامته الفارعة المديدة ، اعلى ارتفاع عين للانسان ان يصل اليه ، والذي يشبه الآلهة فيدير كل شيء بايماة من رأسه ، والذي تحلى مع ذلك بالفضائل والحكمة ، فاستحق بذلك ان يحكم الناس » فيرى فيه مثال : « المستبد العادل » . وقد شطح به الخيال ، فتصور مرسلين صينيين يعلمون الاوروبيين الاخلاق والسياسة الصينية ، وعصر الحضارة الذي يبرز فيه كانغ - هي ، العصر الاخر الذي يلعب فيه اسم لويس الرابع عشر يوحد بينها عصر بطرس الاكبر . وليس بمستبعد قط ان كتاب *Ching - I* أو كتاب التحولات ونظرية تشو - هي اثرا كثيراً في الفلسفة العضوية *Organiciste* التي قال بها ليننز ، فأدت به الى وضع نظريته في « المونادة » . هذا الجوهر البسيط ذو روحية لا جسم لها ولا امتداد ، غير قابلة للتجزئة وتدخل في تركيب الأشياء ، لا تتفاعل مع غيرها من المونادات ، ولها خاصتان اساسيتان هما الادراك والتزوع . صحيح ان ليننز استوحى كثيراً من تقدم العلوم الطبيعية في زمانه ، بمد الاكتشافات الهامة التي حققها علماء بارزون امثال : لوينوك وسوامردام ، ومالبيجي . والصعوبة التي لقيها في محاولته تقليل الكائن الحي ، قامت في اعتماده على الميكانيكية الكرتزيانية . هنالك ، ولا شك قرائن تحملنا على التفكير بهذا التناغم الذي احب ليننز ان يراه قائماً بين الفكرة الشاملة المفروضة التي قال بها تشو - هي وبين هذه التطورات ، او « التحولات » التي قال بها ليننز ، والتحول التي قال بها تشو - هي بواسطة الافعال المتتالية بين *Yin* و *Yan* . قد يكون قام شيء من هذا بين هذه التعالم والفلسفة .

وقد اثرت الصين على عدد كبير من الاوروبيين الباحثين عن اخلاقية تحالف الاخلاقية التي تعلم بها الديانة المسيحية . ففي سنة ١٦٨٧ ، نشر الاب كوبليه ، كتابه المعنون : « الفيلسوف الصيني كونفوشيوس » . وقد خصص له الناقد الفرنسي ريجيس نقداً علمياً نشره في « مجلة العلماء » *Il. des Savants* في عددها الصادر بتاريخ ٥ يناير ١٦٨٨ ، وجد فيه : « استعداداً فكرياً شبيهاً بهذا الاستعداد الذي يدفع الانسان لان يتخلى عن منفعتة او عن راحتة الخاصة ويحمل لجميع الناس الحب الواحد كأنهم من لحمه ودمه يؤلفون معه شخصاً واحداً ، ويشاركهم بالتالي الشعور ذاته ، معبراً عن هذا الحب خير تعبير ، في السراء والضراء على السواء » . هذه هي الاخلاقية الانسانية التي قال بها ، وتمنى الحصول عليها مجتمعة اخذ بالابتعاد عن المسيحية ومثلها ، فقصم فيه كل حب ليسوع المسيح وكل رغبة في الاقتداء به .

وفي الوقت ذاته ، اتاحت هذه الكتب والمباحث العديدة التي صدرت حول الصين الوصول

الى هذه النتيجة وهي ان الاخلاقية الانسانية تكفي وحدها . فقد اعترف بهذا الاب كويليه نفسه في مقدمة كتابه حول « مادية الصينيين والحادهم » . وقد كرر هذا التأكيد الاب لونغو باردي ، عام ١٧٠١ . واذ ذاك ، راح بايل يعلم ويؤكد ان الدليل على وجود الله المبني على اخذ جميع الناس بهذا الايمان يسقط اذن ، من تلقاء نفسه . ومن جهة اخرى ، لما كان الصينيون اكثر شعوب الارض تمسكا بالاخلاق والآداب الانسانية ، فلا لزوم ، والحالة هذه ، للاخلاقية التي يقول بها الدين المسيحي ، ولا لزوم بالتالي لمستوى حضاري عال .

وفي سنة ١٦٩٦ ، في كتابه الموسوم : « رسائل حول الوضع الحالي في الصين » ، راح الاب له كونت ، يفسر النتائج الطيبة التي اصاها يسوعيون عن طريق تمويلهم على الديانة الصينية التي عرفت كيف تحافظ ، عبر الاجيال ، على نقاء وصفاء الحقائق الدينية الاولى التي اوحى الله بها للانسان الاول ، كما عرفت كيف تصون للأجيال الطالعة معرفة الله الحقيقي مدة ٢٠٠٠ سنة . وقد راح قراء كثيرون يضخمون كثيراً افكار الاب له كونت ويمجسّمونها ، عندماراخوا يؤكدون أن الصين مجدت الله بشكل وكرمه على صورة يمكن للمسيحيين ان يحتدوها ، وأن الديانة الصينية كانت انقى الديانات طراً ، وان الصينيين تفردوا بالتواضع وامتازوا بالعبادة الداخلية والقداسة ، وان الصين وحدها بين كل الامم ، خصها الله ، دون سواها من الشعوب والبلدان ، بنعمته . واذ ذاك ، ماذا يبقى من امتياز الشعب اليهودي ؟ وما الحاجة ، بমে هذا ، الى موسى ، وما الحاجة بعد هذا ، للسيد المسيح وتجسده وفدائه والمهد الجديد ؟ واذ ذاك تطل علينا نظرية « الخطيئة الفلسفية » ، هذه النظرية التي علم بها الاب اليسوعي مونييه ، هذه الخطيئة الفلسفية المقترفة بدون اية معرفة لله ، ليست اهانة لله . اذن ، فالفيلسوف كوتفوشوس وكل قدامى الصينيين لم يهلكوا . ويبقى بعد هذا ، الاعتصام بالفضائل الطبيعية وتطبيقها وفقاً لقوى الانسان الطبيعية حتى يخلص الانسان . ولذا فالمسيحية لا تقيد شيئاً ، والدين الطبيعي يكفي وحده .

واذ ذاك تحتدم الحناقة ويرتفع النقاش حول « الطقوس الصينية » ، هذه القضية الشائكة التي راح يعالجها الاب سانت ماري ، من رهبانية المرسلين الاجانب ، في كتاب اصدرة ، عام ١٧٠١ . فقد عمل الاب رتشي في محيط او جو مشبع بالحدسية الادبية والفردية التي علم بها وانغ - يانغ - منغ ، والتي كانت تيسر الاتجاه نحو فكرة الله . وعلى عكس ذلك ، راحت اسرة تسنغ تعمل على تأمين الفوز للمادية التشريعية . وهذا الفرق الكبير القائم بين تفكير المندرين والمسيحية اخذ يتسع . وبعد ان درس الآباء اليسوعيون الكتب الصينية القديمة وأوا ان التدقيق بين هذه العقائد والطقوس الصينية ، وبين العقائد المسيحية ممكن تحقيقه ، اذا ما عاد الصينيون الى ايمانهم القويم الصحيح القديم ، ويمكن بالتالي الانتقال بهم الى المسيحية . فكانوا في تفكيرهم هذا على حق . اما الآباء الدومينيكيون والفرنسيسكان والآباء المرسلون في الخارج ، هذه الرهبانية التي انشئت عام ١٦٥٩ ، فقد راحوا يعلمون انطلاقاً مما كان عليه الصينيون من العقائد ، اذ ذاك ، انهم قوم ملحدون وبالتالي من عبدة الاصنام . فالطقوس الدينية ، والحالة

هذه ، هي تجديف على الله ، واهانة له . وكانوا في منطقتهم هذا على صواب وحق .

ومنذ عام ١٦٥٨ ، كان الكرسي الرسولي ، قد عين ثلاثة نواب رسوليين تقاسموا فيما بينهم الادارة الكنسية في الصين ، من بينهم غريغوريوس لويس الذي جاء تعيينه ، عام ١٦٩٤ ، فكان اول اسقف على الصين . ففي سنة ١٦٩٣ ، اصدر ميغرو الذي كان نائباً رسولياً على فوكيان ، منشوراً شجب فيه نظريات اليسوعيين وتعاليمهم حول الطقوس الصينية ، وحرّم التقاديم على شرف كونفوشيوس ، وعبادة او تكريم الجدود . وبتاريخ ١٣ تشرين الاول ، شجبت جامعة السوربون بعض المقترحات المنسوبة الى اليسوعيين باعتبارها ملحدة ومناقية للعقيدة الكاثوليكية . واذ ذاك ارسل البابا الى الصين مطراناً ده تورنون بطريرك انطاكية الذي وصل بكين ، عام ١٧٠٥ فاستقبله الامبراطور كانغ - هي ، فعلم هذا ان البابا اصدر حكماً في ٢٠ كانون الثاني ١٧٠٤ شجب فيه تعاليم اليسوعيين ، فغضب كانغ - هي اذ كان سبق للبابا وأكد ، بناء على طلب الابهاء اليسوعيين ، ان عبادة كونفوشيوس ليست سوى مراسم مدنية لا غير . فأصدر الامبراطور ، اذ ذاك امراً بطرد المطارنة ميغرو وده تورنون . فنشر هذا الاخير سنة ١٧٠٦ ، في نانكين منشوراً حرّم فيه كل الطقوس الصينية . وبعد ذلك بقليل ، اصدر الامبراطور كانغ - هي مرسوماً يحظر فيه على الأوروبيين الاقامة في الصين بدون ترخيص رسمي من السلطات المعنية . وفي ١٩ آذار عام ١٧١٥ ، صادق البابا بالبرامة التي اصدرها بعنوان *Ix Illa Die* القرار الذي اصدره عام ١٧٠٤ ، وطلب التقيد به .

ومنذ ذلك الحين ، اخذ انتشار المسيحية في الصين يتأخر ويتقهقر بشكل محسوس . وفي الوقت ذاته تمجرت الصين في فلسفة تشو - هي وشددت في فرض الطقوس والتمسك باعراف الاقدمين وعاداتهم المرهقة . اما في اوروبا فقد بعثت الافكار والنظريات التي قامت حول الصين ورمت الى التعريف بها ، النشاط وساعدت على ترويج بعض المبادئ ، التي قامت عليها فلسفة الانوار ، كالديانة الطبيعية وطيب عنصر الانسان الاول ، والاخلاق الطبيعية ونظرية النفعية والاستبداد النير ، وغير ذلك . اما الصين فازدادت تحجراً . اما التطورات التي اصابت اوروبا منذ ان اخذت من عهد بعيد باسباب التجدد والرقى الذي دعت اليه تعاليم المدرسة الاتباعية ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، و « الممتدلون » في القرن الرابع عشر والخامس عشر والميكانيكيون وديكارت اخيراً فقد ازدادت وسارت بخطى اسرع .

الفصل الرابع

آسيا تعرض عن أوروبا

التعجب الاسيوي . لم تدع آسيا مجالاً لاوروبا تجري فيها تعديلاً او تدخل عليها تبديلاً، باستثناء حفنة من بضعة ألوف من ابنائها . فقد أصحمت أذناها امام الديانة الكاثوليكية كما أعرضت عن العلم الاوروبي ، اذ لم تر فيه سوى اثاره للفضول . ثم انها تحاملت على نفسها واستمانت ببعض الفنانين الاوروبيين دون ان تتلحح روحها بالتقنية الاوروبية ، ورضيت تساهلاً واغضاءً بشيء من التبادل التجاري مع فريق من التجار الاوروبيين ، مع حرصها الشديد على الاستمساك بمؤسساتها ونظمها المتوارثة منذ القدم . خضعت للتطور واخذت بأسبابه خلال هذين القرنين استجابة لحوافز دافئة اكثر منه رغبةً باحتذاء الغربيين ، دون ان يحسن هذا التطور صلب مدنيتهما . وقد عبر شاردن احسن تعبير عما خامر الاوروبيين من شعور من هذا الوضع اذ قال : « ليست آسيا كقارتنا الاوروبية حيث يبدل الناس من أزيائهم ومشاربهم وهوياتهم في الملابس والمشرب والمأكل والسكن ، وفي كل شيء ، باسهل مما يُظن . هناك الاستمرار على الوتيرة الوحيدة والبقاء على التقاليد الى مالا حد له ولا نهاية . فالملابس عندهم اليوم ، هي ما كانت عليه من زي من عدة قرون . وهذا ما يجعلنا نعتقد بان هذه الاشكال والصور والصيغ الخارجية التي يتلبسها الناس في تصرفاتهم واعرافهم وعاداتهم واخلاقهم وطريقة تحدثهم ، في هذا الجزء من العالم ، هي ذاتها تقريباً كما كانت من نحو الفسنة ، باستثناء التبدلات التي طلعت بها الانتفاضات الدينية . وهو شيء لا يؤبه به وليس له اهمية ، فاسيا توسحي للمرء فكرة الجمود او التعجر .

ورب سائل يسأل لماذا لم يعتمد الاوروبيون هنا ، كما اعتمدوا في اميركا ، مثلاً ، على السلاح واستعملوا بالقوة والبطش . ويرى الرحالة الاوروبيون ان ما تم لاوروبا من اسباب التفوق في السلاح والنظام والتقنية والتكتيك الحربي كان من شأنه ان يجعل الفتح امراً ميسوراً ، ومطلباً هيئناً ، سهلاً ، وقد كتب احد المراقبين الفرنسيين المشهور لهم بعمق التفكير ،

وسداد الرأي وصدق الملاحظة ، بعد ان اقام في الهند من ١٦٥٥ - ١٦٦١ ، قائلاً : « هذه الجيوش الجرارة التي تسمر الحرف في القلوب لكثرتها ، تقوم احياناً بمجهودات طيبة . اما اذا مادب اليها الرعب ونشبت الفوضى في صفوفها ، انقطعت الحيلة في ايقاف الذعر عند حد ، فاذا بها كالسيل الجارف وقد اطاح بما يقف في سبيله من حدود وسدود ، فتندفع المياه ، في كل حذب وصوب وتغرق البلاد في غمر مهلك مبيد وينقطع الرجاء من اي دواء ويبطل كل علاج . ولذا كم من مرة رُحِتْ اتملى النظر في وضع هذه الجيوش التي لا نظام لها ولا قيد ، والتي تكاد تسير في تنقلاتها سير النعاج في القطيع ، فاتصور ما عسى ان يكون منها المصير لو اتفق وهبط هذه البقاع ، جيش من ٢٥،٠٠٠ جندي من هؤلاء الجنود الاشداء المجرّبين ، بمن رأت مثلهم كثيراً مقاطعة الفلاندر ، بقيادة ولي العهد او بقيادة تورين مثلاً لتصورتهم يسرون على جثث هذه الجيوش مها بلغت من ضخامة او عدد . أصمدوا في وجه الصدمة الاولى ، وهو امر ليس بالمسير . فترامهم وكان على رؤوسهم الطير مصموقين جزعاً ، او انقضوا كالصاعقة وهزوا الارض هزاً ، كما فعل الاسكندر . فاذا لم يصمدوا ، وهو شيء منتظر ومتوقع ، فكن على ثقة بانه وقع فيهم المقدور وينتهي بهم الامر في جو الملح والحرب . . والامر مع الصينيين لا يختلف عن هذا الوضع ، فالسلطات الاسبانية في الفيليبين عرضت على الملك فيليب الثاني ، فتح الصين وتدوينها لدعم عمل المرسلين بقوة السلاح ، مقدرين بان جيشاً من ١٠،٠٠٠ - ١٢،٠٠٠ جندي حسني التدريب ، تمسوا بفنون الحرب ، من جنود اسبانيا واطاليا المجرّبين ، يشد أزرهم من ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ ياباني مع ثلاثة او اربعة خبراء اخصائيين بصب المدافع يكفي للقيام بهذه المهمة . فلم تكن هذه السلطات على خطل او على وهم فيما فكرت به ، ومن الملاحظ ان الفشل الوحيد الذي مُني به المنشو في فتحهم للصين وقع لهم عند البدء بمحارمهم الاول لمدينة كواي - ين سنة ١٦٤٦ ، عندما اصطدموا بثلاثمائة جندي اوروبي تساندتهم المدفعية التي ارسلها لهم البرتغاليون من مكاو . فكم بالاحرى ينجح الأوروبيون لو قاموا بالهجوم في عهد المنغ ، عندما كان الصينيون يطبقون بكل دقة طقوسهم الدينية في الحرب ، اذ أنهم لم يكونوا يرمون الى اعادة قوى العدو ، بل كانوا يتحون لكل واحد المحافظة على الظواهر ليم لهم عقد سلم مشرف . ففي حرب كهذه ، لا يهاجمون قلعة مرتبة الزوايا الا من جهات ثلاث ليتيحوا للمحاصرين الهرب والنجاة بانفسهم من الجهة الباقية حرة ، فيتفادون مقاومة شديدة . فلا يردون على العدو الذي يقذفهم بالمدافع بالمثل ، وذلك ليحموه على الحبل من نفسه للعنف الذي يلجأ اليه ، فيتوقف عن عمله الوحشي . فاذا ما اصيب العدو ببعض الضربات ، أرغم على المفاوضة . فعليك ، والحالة هذه ، سحب جيوشك من مراكزهم للتدليل على استعدادك لاستقبال ممثليه المفاوضين . كل تحركاتهم الحربية تخضع للطيرة او الضرب بالرمل الذي يوجب بان تخلي القوات المرابطة مراكزها في الحصن ، من الباب الشرقي ، في الربيع ، ومن الباب الغربي ، في الصيف وهلمّ جرّ . لا وأيم الحق ، فالصينيون هم ابعد عن ان يصمدوا في الميدان ، لو صادفوا امامهم الجنرال سبينولا مثلاً ، او القائد تورين .

النظم الاجتماعية في أوروبا تولى
الدولة قوة اكبر

دخل في روع الأوروبيين ان الامور تسير بشكل اسسط بعد تحقيقهم النصر الأول ، فتنهار امامهم هذه الامبراطوريات الشاسعة ، دفعة واحدة . في بلاد العجم والهند ، ينتقل الرؤساء من جانب المغلوبين الى جانب الغالب . فالتركيب الاجتماعي والنظم الاجتماعية التي عليها البلاد ، لا تساعد على المقاومة والصمود . لنترك الكلام هنا لبرنيه ، هذا المعلق الثاقب النظر . « فالامر في الهند لا يشبه بشيء الوضع في فرنسا او في الدول المسيحية الأخرى ، حيث يملك اسياد البلاد ممتلكات واسعة ، تدر عليهم واردات وافرة ، تتيح لهم وسائل العيش والبقاء بعض الوقت . اما في الهند فليس لهؤلاء الأسياد سوى مرتباتهم .. التي باستطاعة الملك ان يقطعها او ان يوقفها عنهم ، ساعة يشاء ، وبذلك يهونون الى الخسيس ، دفعة واحدة ، ويفقدون ما كان لهم من شأن واعتبار ويصبحون نسياً منسياً فلا يجدون لهم مخرجاً يستظلون تحت كنفه .. فكل الارض ومن عليها وما فيها هي ملك المغول الكبير ، باستثناء بعض المنازل والحداثق يترك لرعاياه حرية التصرف بها بيعاً او يقتسمونها فيما بينهم كما يرغبون ... لا قدر الله ان يكون ملوكنا في اوربا مسيطرين على الارض والممتلكات التي هي ملك رعاياهم ، كما لا قدر الله ان تكون ممالكنا في مثل الوضع الذي تتسكع فيه ممالك الهند ، وهي على ما هي عليه من حسن العناية واكتظاظ السكان ، وجمال البنيان ، ووفرة الغنى وحسن الظرف والأدب وسعة الازدهار الذي نراها عليه . فملوكنا هم على طراز آخر من الغنى ، والقوة ومنعة الجانب ، ليس منه النزر التزير هنالك . ولا يسمنا الا الاشارة الى ما يتمتعون به من حسن الكلام وما يحاطون به من صدق الخدمة وصادق الآراء . ولن يلبث هؤلاء الملوك ان يجدوا انفسهم في البادية ، معزولين في الصحراء ، وضعهم وضع البائسين المستوحشين ، اي وضع هؤلاء بالذات الذين جثت على وصف حالهم من قبل الذين طمعوا في الحصول على كل شيء ، ففقدوا كل شيء ، وفي سعيهم الخيث لكسب الغنى والثراء ، وجدوا انفسهم لا يملكون شروى نقيير ، او أقتله ، يعيدون جداً عن هذه الاهداف التي وضعوها نصب اعينهم الرمداء ، او نصب اطباعهم الاشعبية التي هدفوا من ورائها ليصبحوا اكثر استبداداً واكثر سلطة مما تسمح به الشرائع السهاوية والنواميس الطبيعية ؛ والا كيف يتوفر لنا مثل هؤلاء الامراء ، وهؤلاء الاحبار ، وهؤلاء النبلاء ، وهؤلاء البورجوازيون الأثرياء وجدوا ، وهؤلاء التجار الاغنياء ، وهؤلاء المهالك الصنعة الماهرين وهذه المدن العامرة كباريس وليون ، وتولوز وروان ، اولندن مثلاً ، وغير ذلك من المدن الكبيرة ؟ فاذا ما تضعض الجيش في البلاد ، دب اليها الفساد ، فلم يعد من تقوم له قائمة او يتمتع بقوة خاصة تؤمن لها سلطة تتوفر لها من الوسائل والامكانيات ما يؤمن للبلاد نظاماً دفاعياً فما لا .

اما في الصين ، حيث الامبراطور هو المسيطر مبدئياً على كل الاملاك والاراضي ، فالملكية العائلية كانت اقوى وارسخ (مما في الهند) ، انما المقاومة الوطنية في هذه الامبراطورية المترامية

الاطراف ، ضعيفة ، وهنة ، كما مر معنا ، وذلك لسبب رئيسي وهو ان كل فرد لا يهتم الا منفعته الخاصة ولا يهتم بالقضايا السياسية والوطنية ، ولا لقيام هذه الاسر التي تتألف من الآباء والجدود ، فيشكل اعضاؤها شيئاً اشبه ما يكون بجمهورية مستقلة .

الدفاع عن الوطن لا يمكن ان ينهض على مهارات العامل والمهندس . كل تفوق اورربا التقني ملوك آسيارأوا انفسهم مضطرين للتعاقد مع طويجية ومع مهندسين عسكريين اوروبيين ، اذ ان الوسائل التقنية الآسيوية كانت في غاية الضعف . فقد وضع الاوروبيون في خدمتهم مئات الآلات والاعتدة التقنية ، بينما لم يكن ليتوفر للأسيون منها سوى نزر نزر .

لم يكن للفرس نجارون بحصر المعنى ، وليس للعاملين في النجارة غير الفأس والمنشار والمقص . فلم يعرفوا شيئاً عن المثقب ، وكانوا يستعملون المقدح بواسطة القوس والوتر . والعامل يعملون وفقاً للوامر والتعليقات الصادرة اليهم ، فيقبعون في زاوية الحجره ويديرون اجهزتهم بارجلهم ، فالمبيض يعمل والى جانبه خادمه حامل كيس الفحم والمنفخ والقليل من الصودا ، وبعض روح النشادر يخزنه في قرن الثور ، وفي جيبه بضع قطع صغيرة من القصدير . واذ ذاك يعمد الى زاوية من فناء المنزل يركز فيها كوره ويوقد النار ويأخذ في العمل . وعلى هذا النحو سارت الامور ايضاً في الهند . فقد استعانوا بآلتين او ثلاث آلات لانجاز عمل يستخدم له الاوروبي ١٠٠ آلة مختلفة . فقد عرفوا ان يقدوا المصنوعات الاوروبية ، انما كان يقتضيه ذلك شهرين او اكثر ، بينما لا يحتاج الاوروبي لاكثر من ثلاثة ايام . فالنجار لم تكن تتوفر له طاولة ، ولذا تراه يجلس الى الارض يستعين برجله لتركيز قطع الخشب ، كما كان يعالج الحجارة الكبيرة بالازميل ، وكان يقتضي له ثلاثة ايام لقطع قرمية خشب بينما يقطعها الاوروبي باقل من ساعة . اما الحداد فكان يركز عمله امام منزل الزبون ، ويوقد النار ويبني من التراب حائطاً صغيراً ، ويركب كوره ويجلس امام النار فيدفع برجله قطعة الحديد وهو ينفخ بالكور ، وعندما يحمى الحديد يأخذ ، وهو جالس الى الارض ، بتطريقه بطارق صغيرة ، فوق سندان صغير ، كما ان غذاءه كان شيئاً .

اما الصين التي كانت من هذه الناحية احسن تجهيزاً ، بعض الشيء ، فلم تكن احسن وضعاً . فالعربة ذات الدولاب المركزي الوحيد كانت تؤلف مخلا شيئاً كما انها لم تكن مستقرة التوازن . وكانت الزراعة فيها تتطلب مجهوداً كبيراً . كان المزارع الاوروبي يستخدم في فلاحه ارضه حيوانات الجر فيترك العشب يغمر المحراث ، ويبدل جهداً اقل مما يبذله الفلاح في الصين او في اليابان ، في حقل الارز . فكل نشاط زراعي يقوم به يجره بيديه باستثناء شق الارض للوجه الاول ، ويمهد التربة ويصون الاقنية والمجاري المائية ويعشب الارض باستمرار . فالجاموس والبقرة والحمار عند الصيني او الياباني هي اسوأ من غذاء الثور عند الاوروبي ، ولذا تفقد هذه الحيوانات نشاطها في العمل .

رفض الآسيويون اقتباس الأساليب العلمية الجديدة . فقد اسأوا استعمال فآرة النجارة التي ادخلها الاوروبيون على الاستعمال . وكان البون شاسعاً والفرق عظيماً في التحسن للاختراعات وطلب الكشوف العلمية الجديدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد فضل الآسيويون ان يشترؤا من الاوروبيين الاجهزة التي يرغبون فيها بدلاً من صنعها (الساعات والمدافع وغير ذلك) وقد فضل امراؤهم ان يستوردوا من اورؤبا تجار الجواهرات والصاغة وشغيلة الابنوس وصناع المينا والرسامين . فالعرش المرصع الذي جلس عليه المغول الكبير كان من صنع احد الصاغة الفرنسيين .

ولعل السبب الاكبر لهذا الركود التقني الذي تحبظ فيه الفرس والهنود تفوق العلم الاوروبي هو احتقارهم للعمل اليدوي وازدراؤهم للعامل الذي كثيرأما تعرض للضرب والاهانة ، كما كانت حصته من المعاش ضئلياً . اما في الصين ، فعلى عكس ذلك ، اذ كان العمل محترماً . واشتهر عن العامل الصيني قوة احتمال وجلد طويل وصبر نادر ، يعمل دونما ملل او تعب ، ودون ثذمر او تأفف . وهنا يقوم عامل مشترك بين جميع الاقطار الآسيوية ، ميز هذه الحقبة بالذات ، ويتمثل في مقت او كره المجهود العقلي . فقد افتقر الآسيويون للفضول الفكري او العلمي . فكانوا يقلدوئ بآارة كلما كان بوسعهم حصر الانتباه والافادة من الخيلة البصرية . فمنهم من افتقر لروح التحليل وللتجريد ، كما افتقدوا للبحث الشخصي . والكتابة الصينية التي كانت ايمائية والتي كانت تتطلب حفظ الالف من الصور والمرثيات ، وتفترض المقدرة على التمييز بين العلامات والشارات ، وتفترض المضي في رسمها واستنساخها وحفظها غيباً ، لم تكن لتربي في النفس القوى العلمية والقدرات على اكتساب العلوم ، كما يفعل فن الخط في اورؤبا واللغات الاوروبية ، وهي كلها من ادهى ادوات التحليل وفك التقليد والتركيب التي تمهد للطريقة العلمية بالذات . ديانات الآسيويين توحى لهم احتقار العالم الخارجي . في بحثه عن الاوحد ، عن المطلق في ذاته ، وطلبه له في القرآن ، في الشاسترا او في السي - تشيو اي معرفة ما هو لازم للحياة ، فالآسيوي لا يهتم كثيراً لعلم الظواهر بحد ذاتها ويهمل درسها وتفهمها . فلم يستطع الباريسيون ان يتالكوا انفسهم من العجب ، عندما عرفوا كيف ان سفير المعجم ، بقي ، عام ١٧١٥ ، معترلاً في فندقه ، مستغرقاً في قراءة القرآن الكريم دون ان يبدي اي اهتمام بالوقوف على الحضارة الاوروبية . فآسيا قبعت راضية عند الدور الثاني من ادوار الفكر ، هذا الدور الذي يسبق العقلانية الكيفية التي ميزت اليونان ، حيث الفكر هو قبل كل شيء اكتناء الكليات الكمية . فالاسكافي الهندي لا يأخذ قياسات فهو يضع رجل زبونه في راحة يده ، ويرسم في ذهنه الصورة الذهنية او الفكرية لحجم معين ، ويفصل حذاء يأتي كما يجب . والصابيه الذي برهن عن مقدره تجارية فائقة ، يسيء الحساب ولا يفقه شيئاً من قواعده . فهو يجهل كل شيء من القاعدة الثلاثية . والدليل على صحة اعماله الحسابية يثبت عندما يتوصل ثلاثة او اربعة الى النتائج ذاتها التي توصل اليها هو نفسه . فالفرس والهنود والصينيون

يجهلون تماماً منطق الأفكار وترابطها ، كما يجهلون تماماً الدليل وفن البرهان ، وهي أمور في الأساس من كل علم . فقد تم للأوروبيين في أواخر القرن السابع عشر معرفة هذا الفارق ، فالصينيون دهشوا عندما وجدوا انفسهم وجهاً لوجه امام مقدمات اقليدس مترجمة الى لغتهم ، وتبينوا بصعوبة كلية البرهان اي الطريقة التي يتبعها العقل منتقلا من الامور الواضحة ، الى أمور صحيحة ، هي الاخرى ، انما اقل وضوحاً من الاولى ، بحيث نصل بواسطة سلسلة من المقدمات الى حقائق مجردة ، تبعد كثيراً عن الاولى التي كانت نقطة الانطلاق . لم يكونوا ليقتروا او يعرضوا شيئاً الا ما هو عملي ... ان عبقرية الصيني ، مع كل تقديراتها ، كانت دون ما تم منها للأوروبيين ... وقد قلت عندهم القدرة على الاختراع او على التطوير والتحسين ... وهكذا بقي الفرس والهنود والصينيون يتسكعون في مجوسية وشرك غليظ كثيف ولجأوا الى التعاويذ والطلاسم وهذه العقاير السحرية التي كانوا يستطبون بها الامراض ، وهذا الحجاب الذي يحوي آية من القرآن ضد العين الشريرة الناقصة ، وعلم النجامة لاستطلاع كل ما هو مقدر لكل ظرف من ظروف الحياة ، كالنهوض من النوم صباحاً ، وتناول وجبة الاكل ، والعلاقات الزوجية . في المعجم اذكر جيداً القرار الذي اتخذ ، عام ١٦٦٨ لارسال اسطول الى بحر قزوين للوقوف في وجه القوزاق الذين راحوا يعيثون فساداً على سواحل هذا البحر . فقد اضاعوا هدراً ، شهراً من الزمن لوضع هذا القرار موضع التنفيذ ، لان القمر وقع في مدار برج المقرب ، مع ان اصوات النجدة كانت تشق عنان السماء من كل مكان . وكان الجواب يأتيهم بكل برودة : تمهلوا قليلاً : فالقمر في المقرب ، وهو قران شر ومكان شؤم تطبع ما يحدث ، يجب التوقف عن كل شيء والتحرز من اتيان اي عمل كان في مثل هذا الوضع . صحيح ان الاوروبيين كانوا ، هم ايضاً ، فريسة السحر والتنجم ، حتى في بلاط لويس الرابع عشر ، كما يتبين ذلك بوضوح من « حكاية السموم » . ولكن هذه الامور لم تكن لتسيطر على حياتهم . ان طريقة التفكير او التصرف كهذه وطاقة ضعيفة على العمل كاتي اتينا على وصفها ، كان من شأنها ان تسهل ، الى حد بعيد ، عملية غزو او فتح .

لماذا لم يحاول الاوروبيون فتح الصين ؟ فقد تهييوا عملية الفتح هذه ، بعد ان وقعوا تحت سطوة هذه الامبراطوريات الضخمة التي اقتضاهم التعرف عليها وقتاً طويلاً ، كما ان ملوك اوربا وقعوا تحت تأثير السراب الشرقي . فجهل اوربا الطويل للقارة الآسيوية

روادع الفتح لدى
الاوروبيين : السراب الآسيوي
وبعد المسافات واكتظاظ السكان

هو فوق كل حد ويتجاوز كل خيال . فقد كتب الاب بارزيه ، من غوا ، عام ١٥٨٧ ، يقول : « استقر في روعي ان الصين او بالاحرى بلاد التتار الكبرى ، استطالت حدودها بحيث جاورت المانيا . وفي سنة ١٥٨٢ ، كان الآباء اليسوعيون في كلية القديس بولس في غوا يجهلون حتى وجود جبال همالايا وجبال الهندوكوش . وفي سنة ١٥٨٣ مطر رسامو الخرائط خريطة الصين فاوصلوها الى منتصف المحيط الهادي ، كما كانوا يجهلون تماماً المراد بكلمة كاتي التي طالما وردت

على لسان ماركو بولو . والفضل كل الفضل يعود للاب متي رتشي الذي حدد عام ١٥٩٨ موقع الصين بين الدرجتين ١٩ - ٤٢ من خط العرض الشمالي ، واكد بأن مساحتها لا تتجاوز قط الدرجة ١٢٠ من خط الطول الى الشرق من باريس . واليه يعود الفضل كذلك ، اثر الرحلة التي قام بها بنتوده غوز بين الاقطار الاسلامية في آسيا الوسطى ، من ١٦٠٢ الى ١٦٠٧ ، حيث كانوا لا يزالون يسمون الصين باسم كاتاي ويكثرون باسم كمبالو ، باثباته ان كاتاي هي الصين كما جاء ذكرها لدى ماركو بولو . وهذا الجهل المدقع هو الذي ساعد على استمرار هذا الوم حول قوة القارة الآسيوية .

ومن جهة اخرى ، فقد كان الاوروبيون غارقين في منافساتهم العنيفة في اوروبا وعلى كل البحار . فلم يتوفر يوماً لأي دولة من دول اوروبا جيش من ٢٥ ألف جندي كالذي طالب به برنيه ، كما انه كان يقتضي ، بالإضافة الى هذا الجيش ، جيوش اخرى ، للعمل في بلاد فارس والهند والهند الصينية ، والصين واليابان . كذلك لمبت المسافات الشاسعة اثرها السيء على نفوس الاوروبيين . وجاء ما لهذه من وقع مهيب ، في غير مصلحتهم ، اذ كان يقتضي سنتين وبضعة اشهر لرسالة في طريقها من روما الى مكاو . وقد استلم رتشي عام ١٥٩٥ رسالة مؤرخة عام ١٥٩٣ ، يعلمه مراسله عن وصول رسالته المؤرخة عام ١٥٨٦ . والسفير الياباني الذي ارسل للبابا ، غادر ناغازاكي في ٢٠ شباط ١٥٨٢ ، ولم يصل لشبونة الا في ١٠ آب سنة ١٥٨٤ مع العلم انه اضاع فصلاً من الفصول الموصية . ولكي يعبثوا للمعركة ٢٥ ألف جندي ، فما هو المدد الذي يجب ان يتوفر ، والحالة هذه في الحاميات والقواعد البحرية والقلاع والحصون ، وعلى خطوط التعمين مع هذه المسافات الشاسعة ، وضخامة آسيا ، واكتظاظ السكان ووفرتهم ؟ كل ذلك قطع كل رغبة وقضى على كل امل بنجاح او بتأمين نصر عسكري ، في محاولة حربية على مثل هذه الضخامة ، تقوم بها اوروبا متحدة ، متمسكة . ويجب الا ننسى ان اميركا استأثرت لوحدها ، بالكثير من الوسائل والاعتدة اللازمة لاروبا . ولكي تتغلب اوروبا على هذه الصعوبات التي لم تفتن لها ولم تدخل في الحسبان ، فقد اضطرت ان ترسل الى اميركا من الجنود والمعمرين والمبشرين ، اكثر بكثير مما ارسلت الى آسيا خلال هذين القرنين ، بحيث صح لنا ان نؤكد بان استثمار اميركا واستعمارها قد أنقذ آسيا .

لم تفتح اوروبا آسيا . كذلك لم تعرف ان تحملها على ان تقبض صبر اوروبا عن اقناع آسيا . نمط العيش الاوروبي والديانات الاوروبية . الاوروبي حركة دائمة ، نشاط اوروبا وجود آسيا . مثله : الجهاد والعمل والانشاء والرقي والتحول . يتآكله الظم الذي لا ينطفئ للجديد ، وما فيه من عدم اصطبار وعدم الخضوع او التسليم للصعوبة ، سواء اجاءت من طبيعة الأشياء او من ارادة الناس . اما الآسيوي ، ففي حلم دائم وازدراء للجهد ، وعبادة القوانين المفروضة والتقاليد المرسومة والحذر من الجديد ، واحترام القوى البشرية الخارجية والطبيعية والاستسلام لها .

نظر الآسيويون الى الأوروبيين نظرهم الى من بهم العته او أسيبوا بمس . وقد وجد الفرس النزهة والتفريغ عن النفس شيئاً غير معقول، كما رأوا في القيام بالاسفار والنزهات اعمالاً وتصرفات هي من شيم الناس الذين لا شعور لهم . فيتسائلون ما الذي قصد اليه الأوروبي من ذهابه الى آخر الطريق ، ولماذا لم يتوقف هناك لو كان بحاجة ، فعلاً الى شيء ما . فالرحلة مجرد الفضول وللإطلاع على الجديد من البلدان والناس شيء لا يمكن ان يتصوره . « فليس في العالم غير الأوروبيين الذين يسافرون إشباعاً لفضولهم » (شاردن) . هل يمكن الحصول على الفضيلة والإستمتاع باللذة ، بغير البيت ؟ حسن للمرء ان يسافر اذا كان السفر يعود عليه بالربح . فراحوا يتوهمون ان كل غريب هو جاسوس ولا سيما اذا لم يكن قاصراً او صاحب مهنة . على هذا النحو كان يفكر الهنود وكذلك الصينيون المشهور عنهم ، مع ذلك ، حبهم للعمل لحاجتهم اليه . في نظرهم ، الاسفار والرياضة البدنية ، والسعي وراء اشياء لا جدوى منها ، امور تم عن الجنون واضطراب العقل ، او ان الانسان ليس في وضع طبيعي قط . فالحياة ، في نظرهم هي التمتع الهادىء ، هي الولايم والمآدب ، هي قطع الوقت وقتله بالحديث ، او الانصراف الى الأحلام والاسترسال في النظرات الدينية والفنية . فالحركة يجب ان تقتصر على ما لا يُبد منه وعلى ما هو ضروري .

ولذا ادمن القوم في الهند وفي بلاد فارس على تعاطي المخدرات . اما الصينيون الذين كانوا اكثر واقفية وروحاً عملية ، فلم يألفوا هذه العادة الا بعدم بزم طويل ، اي في اواخر القرن السابع عشر . كذلك ادمن الفرس والهنود على التدخين ، فالعامل الذي يملك منهم خمس نحاسات مثلاً ، ينفق ثلاثاً منها على التدخين واثنين على اكله وشربه . كذلك كانوا يتعاطون غير ذلك من المخدرات ، فيدخنون التبغ ويغنون ورق القنب ، وبزر القنبه . وعبثاً حاولت حكومة بلاد فارس تحظر تعاطي مضغ الأفيون ، بعد ان تأصلت هذه العادة في القوم بحيث لا يمكن ان تجرد بينهم من م غير مصابين بها . ولذا كان من الصعب ان نجد في المعجم شخصاً واحداً سليماً لا يتعاطى نوعاً ما من هذه المخدرات او من هذه المشروبات الكحولية ، والا فكيف تريد ان يعيشوا حياة هنيئة لذينة .

باعت بالفشل هذه المحاولات التي بذلها المبشرون لنشر إعراس آسيا عن المسيحية وكرها لها المسيحية في آسيا . فقلّ عددهم فيها ، اذ فضل معظم العمل في حقل الرسالة في اميركا . ومما يجنب ملاحظته ان صلب العقيدة المسيحية اثار الشكوك بين معظم الآسيويين ، بعثت فيهم المقت والكره فأعرضوا عنها . فقبل الف وستائة سنة من قدوم المرسلين الى آسيا ، كان جليلي يدعى يسوع المسيح قد بذل ذاته مصلوباً في القدس ، في قطر من اقطار آسيا الغربية . وبعد ذلك ببضع سنين ، راح موظف روماني يصف المسيحية الناشئة شجاراً بين اليهود حول شخص مائت يدعى يسوع ، بينما راح بولس يبشر به مدعياً انه حي يرزق . هذه هي المسيحية في بدء امرها ، فالاعتقاد بتجسد الله والايان بانه تلبس جسد

انسان ، وانه افتداء للبشر من خطاياهم ، مات لأجلهم على الصليب ميته اللصوص وشذاذ الآفاق وكأحد العبيد الأرقاء . فالمسيحية تقوم على ان هذا الميت قام من القبر ناهضاً وانه صعد الى السماء حيث يحيى الى الأبد مسح انه موجود في قلب الكنيسة ، وانه فوق تطاول السنين والمصور هو في حياة دائمة خالدة .

والحال ان فكرة ابن الله او الله نفسه المساوي للآب في الجوهر ، ان الاعتقاد بان الكائن العلي قد عاش حياة نجار ، خفية ، متواضعة ، وانهى حياته تحت الإهانات ، فاقوال هي مضفة في افواه الناس ، وعاش وحيداً ومات عرياناً مضرجاً بدمائه في عذابات مشينة ، هذه هي مفارقة الإنجيل الكبرى ، الفكرة التي لا تُحتمل في نظر الامم ، جنون الصليب ومدعاة الشك . فالاشتمزاز من هذا القول ومن هذه التعاليم كان أقوى في الصين واليابان منه في اي مكان ، هذه البلدان العامرة بالزهو ، والنساء والولائم والمآدب الشخصية ، والثياب الفاخرة والابحار التي تحملها معها الوظائف الرسمية الكبرى . هذا الشيء المتمم للحكمة واحترام الآداب الاجتماعية ، هذا المجتمع الذي يعتقد ، في الصميم ، ان الفاضل في الحياة هو هذا البائس ، التاعس ، المغلوب على امره في الحياة ، هو هذا الانسان العديم الاخلاق الذي لم يراع حرمة الجدود والآباء الاقدمين ولم يراع النواميس البشرية والإلهية . ولذا ، كثيراً ما كان اليسوعيون يخفون صليب المسيح ، ولا يتكلمون عن المسيح مصلوباً ، الا عند العماد وبعده ، وكم من هؤلاء المعمدين لم يعتنوا ان يحددوا ايمانهم الجديد وعادوا الى الشك ، حتى ان خادم القديس فرنسوا كسافيه نفسه ، هذا الياباني المسيحي الاول جحد ايمانه الجديد وعاد الى ايمان اجداده .

فالصعوبة الكبرى قامت في تفهم هذه الافكار والتعاليم الجديدة وقبولها والاخذ بها . فقد كان في شبه المستحيل التعبير عن المعتقدات المسيحية بعبارات وتعابير الديانات الآسيوية . وهنا يكن سر هذه المجادلات والمناقشات الدينية بين المرسلين في الصين ، وحول الـ *Tien* والـ *Chan - Ti* ، اذ كان المطلوب التعبير عن وجود اله شخصي ، متميز عن هذا العالم الذي ابدعه وخلقه والذي يملأ كل مكان منه ، والقول بان كل انعمان فيه روح خالدة متميزة عن الجسد المادي ، والمتميزة عن الهيولى كما تتميز تماماً عن الله خالقها ، والمعدة ، بعد الموت ، اذا كانت خالصة ، للتنعم بمشاهدة الله الى الابد ، وبمشاهدة كالاته التي لا توصف ولا تُحد ، مع بقائها متميزة عنه ، لها وجودها الشخصي . والفكرة الدينية الآسيوية ، هي عكس ذلك تماماً . فهي وحدوية اي تقول بوحدة الوجود اي بوحداية كل ما في الكون . فقد سبق وذكرنا بايجاز التحولات التي قال بها تشو - هي كما قالت بها الطاوية ، فلنلق الآن نظرة حول تعاليم الهند الدينية . فاذا ما اقتصرنا على صلب العقيدة الهندوكية ، وجدنا البراهمان الكائن بذاته ، الواحد المطلق . وهذا البراهمان هو الـ *Atman* ، نفس شاعرة ، لاحد لها ، مسكونية ولا نهاية لها « فالآتان » يخلق العالم بمجرد ما يفكر به ، فهو يخلق كل شيء بواسطة مايا ، او الخيطة . وليس من فرق قط بين الكون وبين فكرة الله . فالنفس الواعية ، الشاعرة التي تعرف اليها الانسان

بالاستبطان ، اي الانسان المفكر ، هي مظهر من مظاهر الـ *Atman* الشامل . اذاً ، هنالك وحدة الشخصية بين النفس الفرد والنفس الشاملة . يجب الخلط بين الـ *Atman* الانسان وبين « الأنا » الظاهري الذي هو حلقة في سلسلة الحالات الشعورية للأنا الشاعر ، الأنا المفكر ، والمتعيز بالأنا المادي . فعلى الإنسان ان يتبين ، في ما وراء ذاته ، الأنا الحقيقي ، النفس الالهية . واذ ذلك ، وبعد ان يكون الانسان رجع الى برامان ، ينعم بالراحة الابدية ، وتضمحل فيه الشخصية الانسانية .

ان هذه العقيدة الدينية والايان لعلى طرفي نقيض ، وقد ترتبت عليها نتائج باعدت كثيراً بين التفكير والحياة ، وبين الحياة الاوروبية والفكر الاوروبي . فاذا لم تكن الكائنات الخارجية والانسان نفسه سوى مظاهر متغيرة لهذا الجوهر الذات غير المتغير لا فكار الأتمان الشامل المسكوني ، فلا يمكن ، والحالة هذه ، الركون قط لشهادة الحواس ، وما العالم الخارجي سوى مجموعة من الاوهام الزائلة . فهذه المظاهر تبقى حرة بالازدراء . وما العلوم والتاريخ الا تجريدات لاطائل تحتها . فالحقيقة المدركة وحدها هي الذات المفكرة . وهكذا يتسنى لنا ان ندرك وان نفسر كيف ان الهنود لم يستنبطوا العلم كالاوروبيين ولم يحاولوا قط في القرنين السادس عشر والسابع عشر ان يتفهموا العلم الاوروبي . وبامكاننا ان نطلق مثل هذا الحكم على الصينيين واليابانيين الذين قالوا بوحدانية الوجود .

فاذا ما كانت كل الكائنات مثالية او هي ذاتها بالاساس ، سهل علينا فهم القول بالتقمص او تناسخ الارواح ، ودورة التجسيدات . فالنفس تحيي مع ما اقتبسته من فردية باتحادها بالجسم وتقتبس اكثر فردية بنسبة ما تزداد تعلقاً بالظواهر ، اكثر منها بالأمان . وما تكتسبه من تراث خلال التجسيدات الماضية يتكون الـ *karman* ، الذي يحدد طبيعة هذه التجسيدات التي سيتلبسها المرء في المستقبل ، ويوجه الفرد في كل من هذه التقمصات الجديدة . ولكي تتفادى النفس هذه التقمصات المتتابعة ، وبالتالي هذه الآلام التي تلازم هذه الكائنات ، عليها ان تفقد او تتخلص من فرديتها ، عن طريق الزهد والتقشف والاتصال الرمزي . فاي معنى ، يبقى اذ ذلك ، لهذا الكفاح يقوم به الانسان لاثبات فرديته ا فالشخصية او الذاتية هي الشر الاكبر ، واي معنى يبقى لكل مجهود يبذله المرء في سبيل التطور الاجتماعي ؟ لكل انسان الحياة التي استحقها في حيواته السابقة ، والسعادة لا تقوم قط في هذا المناء الذي يحصل عليه الانسان في هذا العالم المتغير المظاهر والرؤى ، بل في قهر الذات ومحو الذات وفنائها ، فيالبشاعة وبالفظاظة رجل النهضة ، رجل الحركة الانسانية ، في نظر الهندي ا او في نظر الصيني ، سواء اكان على مذهب تشو - هي او على الطاوية او البوذية . كل شيء كان على طرفي نقيض ، في هذه الصورة التي قامت ، من هنا وهناك : للعالم ، لله ، للحياة الاخرى ، للحياة الغابية ، لآسيا ولاوروبا .

فالمسيحية امتزجت ، على مر السنين وكر العصور ، مع الحضارة الاوروبية ، « ويبدو ان

انتشار هذه المسيحية ، يجب ان يسير وفقاً لسير الحضارة الأوروبية في تطورها وثمومها ، والمشكلة التي قامت بالفعل والتي كان على القرنين السادس عشر والسابع عشر مواجهة حلها ، هي تكييف الديانة المسيحية مع هذه الحضارات المتباينة دون ان تفقد شيئاً من خصائصها المميزة وطابعها المفرد . فقد كان الهندي والصيني والياباني مقيداً بالفعل ضمن قيود يستحيل عليه الافلات منها بمثلة بهذه الاوضاع الاجتماعية ، المحكمة الحلقات ، كنظام الطبقات والاسرة بمثلة بطقوس ومراسم واعراف دقيقة للغاية تضبط كل شاردة وواردة في اعمالها اليومية . وهذه الأُطر والقوالب الاجتماعية الجامدة التي كان لا بد للأوروبي ان يزرع تحتها لو عاش في جوها ، وجد الآسيوي فيها والعيش تحت ظلها ، النعمى وحياة مشتركة ، فوجد نفسه فيها موجهاً ، مسيراً ، مشجعاً دون ان يتعرض لهذه المخاطر ولهذا الجهد المرير الذي يتعرض له الفرد الحر . فكل محاولة للتخلص من هذه الطقوس كانت بمثابة الخروج على المجتمع او بمثابة القيام بمغامرات ومجازفات تحف بها المخاطر من كل صوب ولم يكن في مقدور معظم الآسيويين ان يفكروا جدياً بالامر ، فكانت فرائصهم ترتعد لمجرد التفكير بالتخلي عن عادات واعراف وطقوس امتزجت بدمائهم امتزاج الراح بالماء . وكانت فرائص البراهمان ترتعش فرقا ، ويدوب جسده عرقاً ، وقتياً نفسه بمجرد التفكير بمس احد المنبوذين . فالصيني العالسق بشباك هذه الاسر المترابطة الحلقات الشبيهة بالاسر الاغريقية القديمة في عهد هوميروس ، مثلاً ، لم يكن في استطاعته ان يتخلى او ان يستغني عن طقوس علماء الآباء والجدود الذين لا يزالون يحيون مع الاسرة ، وان أشكل عليه امر رؤيتهم ، ويرون ما يجري ضمن الاسرة ، ويتبعون حركات وسكنات اولادهم وذرائعهم ، وهم يشعرون بالحاجة الى التكريم من قبل الاحياء ، مع الاعتراف لهم بالقدرة على استئزال النكبات والضرائب عليهم اذا ما أخرجوا على ذلك . فلم يكن في مقدور هذا الصيني ان يتفادى او يتملص من الصلوات والمراسم الطقسية المحددة لكل ظرف من ظروف الحياة : كالدخول والخروج ، والوقوف والجلوس ، والنظر الى الآخرين ، واستقبال الضيف وتشييعه ، الخ . وكما انه لم يكن باستطاعته تفادي ضفط عبادة الجدود ، كذلك لم يكن يوسعه قط ان يتخلص من نفوذ الاب ، وضفط شيخ الاسرة أله الغد ، اذ كان عليه ان يخفض من صوته ومن غلوائه عندما يكون في حضرته ، والذي له ملء السلطة على كل افراد الاسرة ، يؤازره في الاشراف عليها ، مجلس الاختيارية المؤلف من شيوخ الاسرة كما كان في وسعه ان يحكم بالموت على احد ابناؤه . وفي هذا السبيل ، ولكي تخفف الكنيسة من هذه الازدواجية التي وقع فيها عدد كبير من المرسلين بين التبشير بالانجيل وعلية التكيف مع الطقوس ، رأت البابوية ان من الضرورة بمكان ان تنشئ ادارة خاصة بالاساليب الدينية هي مجمع نشر الايمان (١٦٢٢) وان تعين ، منذ عام ١٦٥٩ قصادتين رسوليتين فرنسيتين ، لهما سلطات غير محدودة ، تديران ، باسم البابا ، الكنائس التي قامت في التونكين والحكوشنين ، وتأخذ كل واحدة منها ، الادارة الروحية في الولايات الصينية الخمس . وكان من المتوجب على هاتين القصادتين الزام المرسلين الاخذ بالقرارات المتخذة عام ١٦٤٤ . فالمرسل الكاثوليكي

مكلف بمهمة دينية وليس بمهمة وطنية . والتبشير بالمسيحية يجب ان يتلبس ، وأن يراعي صفات وعادات الشعب الذي تعمل الرسالة في محيطه . ليس المطلوب من هذه الرسائل فرض الحضارة الأوروبية على هذه البلدان وما فيها من شعوب واقوام . « إحتزروا من ان تأتوا اي مجهود او ان تقدموا أية نصيحة يراد منها حمل هذه الشعوب على تغيير طقوسهم ومراسمهم وعاداتهم ، ما لم تكن مخالفة تماماً لمعائد الديانة المسيحية والآداب العامة » . وقد جاءت هذه التوصيات متأخرة جداً فقد كانت هذه الشعوب قد اخذت انطباعات مؤسفة للغاية ، ناهيك ان التوصيات لم تغير شيئاً في المشكلة . ان قضايا الطقوس الملبارية والطقوس الصينية لدليل قاطع على صعوبة تكييف المسيحية مع الحضارات الآسيوية . وهكذا بقيت المشكلة مستصعبة دونما حل .

اما المشكلة الكبرى فتمثلت في ان هذه الديانات الآسيوية ، بقطع النظر عن وحدة الوجود التي قالت بها ، ، ضمت شخصيات دينية قادرة على ان تشبع ما في النفس البشرية من منازع عالية وتوق . فهذه *Isthadevas* الهندية التي تمثل بعض تجليات براهمان او أميدا البوذيين ، والتي كانت تجسيدا للهادة الخالدة ، أعطت الناس الاله الحارس ، الحسير ، المجير المخلص الواجب المحبة لما هو عليه من قداسة ، والذي لا غنى عنه لهذه النفوس العطشى للحنو والرافة والحب والذي لا حد له . ان عدداً كبيراً من نساء الهند وجدن في الهندوكية القوة على احتمال كل شيء ، والجلود بمحقوقهن وحياتهن لرجالهن : للباتيديفا ، هذا البعل والاله معاً . ان نساء هنديات كثيرات غرسن في روع اولادهن انهم يميون دوماً في حضرة كريشنا أبقيا الفكر والاعمال . ان عدداً كبيراً من الارواج والآباء نسجوا على حياة راما وفضائله كما تأسوا بمثال الافاتار الحارس ، رمز الفضيلة والتقوى في الأسرة . ان عدداً كبيراً من الصينيين واليابانيين استسلموا لعبادة اميدا ، وعاشوا في هدوء وسلام واطمئنان مع كل الكائنات بكل استقامة ونقاوة . فقد رأى المرسلون في هذه الطقوس بقايا هذه الحقائق الالهية ، بقية الوحي الالهي البدائي ، وبنوا عليها آمالاً عراضاً . فاي حاجة ، بعد هذا ، عند هذه النفوس التقية ، الى المسيح ، مع انه خليق بكل محبة . لا يمكن ان يكون ، بالاكتر ، الا واحداً من هؤلاء *Isthadevas* ، العطوف على الاوروبيين ، مع ان هذا المسيح في نظر المرسلين ، هو المسيح الذي وحده يستطيع ان يشبع النزعات التي تثيرها هذه الطقوس الآسيوية .

وهكذا بقيت آسيا غريبة عن اوروبا ، مقفلة ابوابها في وجه اوروبا ، رافضة بكل قواها ، ما رغبت اوروبا في تقديمه لها ، باعتبارها الخير الاكبر ، وهكذا رفضت آسيا بكل ما فيها من نزعات ، المثل الاوروبية والسعادة كما فهمتها اوروبا .

هذه المجموعة التي يؤلف هذا الجزء احد اجزائها تأتي اصدار اي حكم او رأي يراد منه التقييم والموازنة . هنالك فرق كبير بين الرغبة في التعبير عن حكم او رأي وبين القيام بعملية تصنيف المجتمعات البشرية على اساس من المقاييس الوصفية . فعملية التصنيف تقضي دوماً

الى اقامة نظام نسبي في المحتوى وفي القوة الناميين فالجانب الذي يسجل اعلى درجته من حيث التركيب او المحتوى يقال فيه انه اسنى وارفح او اعلى ، وهو تعبير انما يشير الى رتبته او درجته في نظام ما ولا يتم قط عن ابي حكم تقييمي . فاذا ما رتبنا المجتمعات وفقاً لقدرتها على البحث العلمي ، او بحسب ما لها من طاقة للتأثير على الطبيعة ، وجدنا ان اوروبا فاقت ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كل المجتمعات البشرية الاخرى التي قامت او طلعت في ابي جزء من العالم ، اذ ذلك . فهناك اقوام عديدون ، كالزنوج في افريقيا والهنود الحمر في اميركا ، وغيرهم من الاقوام الاسيويين امثال *Tupis guaramis* ، والسيو والكريك والمياوس وغيرهم ، فمثل هؤلاء الاقوام لا يزالون بعد في « الدور البدائي » ابي الدور الذي يعتنق اهله مذهب الاحيائية (القول بوجود ارواح عاقلة في الحيوان) ، كما تنشط فيه الجهوسية والعرافة بصورة شاملة . هنالك شعوب اخرى ، كاللمايا والازتيك وشعوب الهند والشرق الاقصى والصين واليابان ، بلغوا في تطورهم ، الدور الثاني ، الذي يقول بعلم الهيئة الاحيائي ، حيث تأخذ الحرف والمهن تمي نفسها وتعتمد مبدأ الذاتية ومبدأ التضاد والتباين ، وحيث تطلق على الاشارة او الرمز مدلولاً معيناً تبدو معها الاشياء والمسميات ذات خصائص مميزة تنفي او تقصي ما هو ليس منها ، وحيث تشند وتوثق الروابط الفكرية او المنطقية ، بينما يبقى الاساس اكتنائها او بدائياً ، والتطورات رمزية . واخيراً تأتي الشعوب التي بلغت طور العقلانية النوعية ، يرافقها منطق محكم يربط بين الافكار ، والاستدلال ، والعلّة السببية. وهندسة الاجسام . بلغ هذا الحد من الرقي اكثر المتطورين في الاسلام ، والاوروبيون الذين لا يزالون يترسومون هدي هذه العقلانية النوعية التي حققوها ، في بلاد الاغريق ، منذ القرن السادس . ق. م ، وتجاوزوها بعيداً ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ليلفوا معها التفكير « المعصري » مع العقلانية الكمية التي تفلسف الكم في هذه القومات الهندسية الكامنة تحت الكم ، هذه العناصر التي تتمثل في هذه الانساب العددية او في هذه العلاقات التي تربط بين العلة والمعلول ، او بين السبب والنتيجة ، واخيراً يطلع في هذا الدور نوابغ امثال بسكال ونيوتن وهؤلاء الميكانيكيون الذين عرفوا ان يلائموا بين العقلانية الكمية الكرتزيانية والعقلانية التجريبية . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، اصبح في مكنة الاوروبي ، ان يفهم ويعلل الظواهر الطبيعية وان يفيد منها بشكل يتجاوز بل يبتز درجة معرفة جميع الشعوب لها ويعمله مهيب الجانب من الجميع ويرغمهم على الخضوع للاوروبي او يحملهم على استعمالها في محاربتة ومناهضته او لمراوغته مستغلاً انقسامات الاوروبيين ومشاحناتهم .

فلا مَ نرد هذا السبق يسجله الاوروبي على غيره من سكان القارات الاخرى ، والذي يجب رده ، كما يبدو لنا ، الى تحرر الفرد تدريجياً في القرنين السادس عشر والسابع عشر ؟ فالفرد يتحرر تدريجياً من ضغط الجماعات : ابي من ضغط الاسرة والمجتمعات الريفية او المدنية ، والنقابات والجماعات ، وغير ذلك من مظاهر واشكال هذه الجماعات . فشعور الفرد بذاته

وتوعيته لحقوقه الطبيعية ، والجهد الذي يبذله لتقوية الروح الاستقلالية في الفرد المفكر ولترسيخه في النفس ، وثقته بالحكم او الرأي الشخصي ، والارادة القوية ، والتمرد على الحدود والحدود والحدود والقيود ، ونزعه للمطلق وللإمتنهي ، كل هذا يبرز هنا ، في أوروبا بوضوح اكثر من ابي مكان آخر في الدنيا . صحيح ان الهيئات الاجتماعية هي الآن ، اقوى من قبل بما لا يقاس . فقد قيدت الفرد اكثر مما قيدته هذه الهيئات المجتمعية في القرن التاسع عشر الذي كان عبارة عن نثار من الافراد . فالسلطة الابوية ، وروابط الدم ، وتأثير النقابات والهيئات المهنية ، وضغط الكنيسة ، وتأثير الدولة ، لا يزال الفرد يشعر بها اكثر من شعوره بها في عهد الحرية الفكرية . ولكن ما عسى ان يكون هذا كله ، اذا ما قسناه بهذا الضغط والارهاق تقوم به القبيلة التي لا تزال تأخذ بعقيدة الاحيائية ، وقوانين الطبيعة المرهقة ، وطقوس العائلة في الصين ؟ فالفردية الأوروبية ، وان شئت فقل تحرر الشخصية البشرية في أوروبا ، اذ ذاك ما كان التعبير الاول شديداً او قوياً ، هي الحافز الاكبر والاقوى لهذه النشاطات ، ولهذا الجهود ، ولهذا السعي الحثيث وراء البحث العلمي الذي يمكن ان يكون الباعث الاول والسبب الاكبر الذي يكمن وراء رقي أوروبا وتطورها .

وهذه الشخصية البشرية التي تبرز وتتجلى ، ما عسى ان تكون ، ياترى ، الدوافع الكامنة وراء بروزها؟ رد بعض الأوروبيين ، منذ القرن السابع عشر هذا التفوق الى العرق او الجنس . هنالك عروق واجناس أوتيت القدرة على الكشف والاختراع كما اعطيت عروق اخرى ، القدرة على العقب والتقاليد . « ان نبوغ الابداع والخلق يؤمن لمعلوماتنا ومعارفنا التقدم السريع والتطور الحثيث هو من نصيب بعض الشعوب دون غيرها . اما الامم الأخرى فهي مطبوعة على التقليد والتمثل . والقدرة على الخلق والابداع هي هبة من الطبيعة تجود بها حتى على ابسط الناس واحطهم قدراً . وهذه القوة العقلية الحارقة ، تجعلنا بمد ان نخرجنا من جو الأفكار العادية ، نخلق ونرتفع لنبلغ افكاراً جديدة كانت مجهولة من قبل ، هي ولا شك ، من نصيب الأوروبيين ، وحدهم تقريباً » (اكااديمية العلوم في باريس) فالقضية في القرن السابع عشر كانت من الوضوح بحيث لا يمكن نكرانه . وكان لا بد من التدليل بالبرهان القاطع والحجة الدامغة على ان الطبيعة قد حرمت باقي الناس من موهبة الكشف العلمي والابداع ، وان التأخر الذي ترسف فيه الشعوب الاخرى ، لا يمكن رده قط لأسباب أخرى . فاذا ما جاءت أوروبا في مقدمة العالم ، وفي طليعة القارات الأخرى ، في القرن السابع عشر ، في تاريخ البشرية فلم يكن الامر معها دوماً على مثل هذا الشكل .

وقد وقع بعض الأوروبيين تحت تأثير الفوارق الجغرافية بنوع خاص ، ولا سيما فارق المناخ او الاقليم . فقد جعلوه مسؤولاً ، الى حد كبير ، عن خمول الآسيويين . فاسمع ما كتبه العالم الجغرافي الفرنسي شاردن عن الفرس : « ان ذلك ناجم عن انهم يقيمون في جو أحلم من الجو الذي نعيش فيه . فليس فيهم من الدم ما فينا نحن سكان الشمال ، وهذا الدم لا يغلي فيهم كما

يفلي فينا . فالقسم الأنشط من دماهم كان اكثر تعرقاً من دماننا ، وهذا ما يفسر لنا كيف انهم ليسوا عرضة لهذه الحركات التي يأتيها الجسم والتي تتسم ، الى حد بعيد ، بالحفة والقلق ، والتي كثيراً ما تدفع بالمرء الى النزق والحدة ... فأنا اعتمد دوماً على المناخ في كل مرة اود ان افسر عادات الناس واخلاقهم حتى ما فيهم من عبقرية ونبوغ ، لأنني اجد هنا في المناخ من الأسباب والدوافع القومية ما لا اجد في الدوافع الأخرى التي قد يتذرع بها المرء . فالهواء الذي يهب على أوروبا يثير فينا، لشدة ، من الرغائب والاحتياجات ما لا يتحسس بثملها الناس العائشون في الأقاليم الشرقية . فهو يقتضي وقاية اكبر . وبما ان الهواء عندنا يولي الجسم حرارة طبيعية أقوى مما هي في غير اقليم ، فهو يجعل الدم اكثر غلياناً كما يجعل نفوسنا، بالتالي ، يجيش بأحاسيس القلب التي تتملأها . والحال فان الحالات التي نشعر بها من جهة ، وهذا القلق الطبيعي الذي يساورنا من جهة اخرى ... « يمكن ان رد ما فينا من روح الفضول وهذا التوق الشديد للعلم والمعرفة ، مما يجيش به صدر الأوروبي . وقد رد برنييه ، من جهته ، الى مناخ الهند واقليمها المسيطر ، هذا الوهن وهذا الخمول الذي تبينه في نفس الهندي . « فلا نجد فيه من الحيوية والنشاط ما نجد في سكان بلادنا الباردة . وهذا الخمول ، وهذا الانحطاط الذي يبعثه الحر في الجسم والنفس ، مما اشبه بمرض قائم باستمرار تقريباً ، وهو مرض مزعج للجميع ولا سيما في اوقات القيظ الشديد ، ابان الصيف ، ولا سيما للاوروبيين الذين لم تألف اجسامهم بعد ، مثل هذه الحرارة الشديدة . واي شيء لم يكتبه الرحالة والمؤرخون ، عن هذا الانحطاط والخمول الذي تلحقه الطبيعة بسكان الاقطار الآسيوية الخاضعة للرياح الموسمية ، وعماً عليه هذه الجماهير الآسيوية من تبدل والتباعد ، امام مظاهر الطبيعة المهتاجة ، وامام هذه الاعاصير الهوجاء ، والانهار العارمة الخربة ، وهذه الاربطة الفتاكة ؟ قد يستنتج البعض من هذه الاقوال ان بلاد المعجم كانت جد ملائمة للعمل الفكري وان الشعوب بالحاجة التي جاشت في صدور الآسيويين لمقاومة الطبيعة والوقوف في وجهها ، كان يجب ان يحرك قواهم العقلية ويحملهم على الابداع . ومعتزض بعتزض قائلاً ان المناخ السائد في وسط اليابان لا يحد نشاط الانسان وان اليابان كان يجب ان تكون منارة اختراعات واكتشافات علمية ، بدلاً من ان تقتبس من الصين ومن جزر السوند مبادئ حضارتها . كذلك يمكن للبعض ان يحتج ملاحظاً ان بعض الاجناس كالزنج مثلاً يزدهرون فعلاً ، في المناطق الاستوائية ، وان مناخ المنطقة الاستوائية الذي يلائمها كثيراً ، لا يمنع عليها ان تبلغ درجة عالية من الرقي .

ولما كان العرق والوسط الجغرافي لا يؤلمان تفسيراً مقنعاً ولا تعليلاً كافياً لظاهرة تفوق الأوروبي ، امكن الاستعانة بالظروف التاريخية المصرية كزوال عهد الإقطاع وتكوين الدولة الحديثة ونشأتها ، وتطور المواصلات التجارية والبحث عن المعادن الثمينة وتدفعها على أوروبا . اذ ان هذا الأوروبي ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر الذي يبدو لنا انه يعاني الحرمان ، هو مع ذلك احسن سكان الارض غذاءً . قد نتذرع ، كذلك بنظام الدول الآخذة بالنمو

واعادة تنظيم العلاقات الدولية التي ساعدت على تقوية التبادل الثقافي والحضاري وازدهار دولة
الادب ، وهذه الحرية الاصلاحية الدينية التي اهدت قلب الانسان بالنشاط ، اذ ان المسيحية ،
هذه الديانة القديمة المهد والنشأة ، هي ديانة عمل تقتضي من الانسان ان يستثمر ، على الوجه
الأكمل ، هذه الوزنات التي عهد الله بها اليه ، فيعيد الوزنة عشرة اضعاف ، فيدلل عن محبته لله .
باطعامه الجياع ، وكساء العريان ، وان يرغب عن مثالية الاعتدال الباهتة ، سعيًا منه وراء
الحب الذي لا حد له وطلب المطلق واللاتهائي . وهذه المؤثرات والحوافز الآتية لم تكن لتؤمن
وحدها سيادة أوروبا وتوقها ، اذ انه كان قد تم لأوروبا الى جانب هذه التقنيات التي اخذت
بإعدادها منذ القرون الوسطى ، هذه الروح الكلاسيكية الناقدة ، وهذا القياس اليوناني وهندسة
أقليدس ، اس العلوم ، وهذه المسيحية التي كانت خمير النشاطات . ولهذا نرانا نتردد قضية
المسيحية الى الاصل او المهد ، وبالتالي نمود الى العرف والى الوسط الجغرافي ، والى ظروف
تاريخية جديدة ، وهكذا ندور على انفسنا في حلقة مفرغة دونما اي امل بالخلاص .

ويبدو ان قضية الاسباب التي أمنت التفوق لأوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ،
ليست من هذه القضايا التي تتيج لنا معلوماتنا الحاضرة لقاء اضاء جديدة عليها . فعلى المؤرخ
ان يقنع بتسجيل واقع هذا التفوق وان يحدد له بعض الاسباب الاولية المبررة لتحقيقه . فهذه
الحضارة الأوروبية ، بما تم لها من تقنيات متنوعة ، وبما تم لها من مؤسسات دولية ونظم ادارية ،
وبما فيها من فلسفات ومعرفة تتعلق بالله ، اتاحت للانسان الامل بان يشبع باستمرار ، اكثر
فاكثر ، ما فيه من توق للحياة والاشباع والانتشار ومن تطمع الى العلى ، وطلب المجهول ،
والبعث عن المطلق واللامتناهي من الخلود . وهي كلها نوازع دفينة في اعماق نفس الانسان
الذي سعى دوماً او بالاحرى ، على النفس دوماً بالوصول اليها . ان مثل الجماهير الآسيوية التي
فجرت خلافاً لمنطق البراهمان او خلافاً لمنطق بوذا ، ولمنطق فشنو وكرشنا ورامانا او
شخصية اميدا المحبوبة ، ومثال السيخ ووانغ - يانغ - منغ نوازع الطبيعة البشرية ، متحررة
من ربقة الطبقات وعبودية الجدد ، كل هذا دليل على ان الانسان ، اينا وجد ، اتجه بنظره الى
التحرر ، الى التجلي واتيان العظماء ، والتوق الشديد الى الحياة . ان أوروبا لم تؤلف استثناءً
ولا شذوذاً . فهي جاءت في الطليعة ، في المقدمة ، وكانت الاولى بين اقران متماثلين . غير ان مثل
فلسفة الاغريق ورياضياتهم ، وهي من بعض نتائج لقاء أوروبا وآسيا ، وهذه المسيحية التي
جاءت تأليفاً انصهرت فيه العقائد والنزعات الأوروبية والآسيوية ، كل ذلك كان بمثابة اشارة
الى الطريق ، الى المستقبل .

ان حكاية بطولة أوروبا ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر فتحت باب الرجاء والامل
على مصراعيه امام البشرية جماعاً .